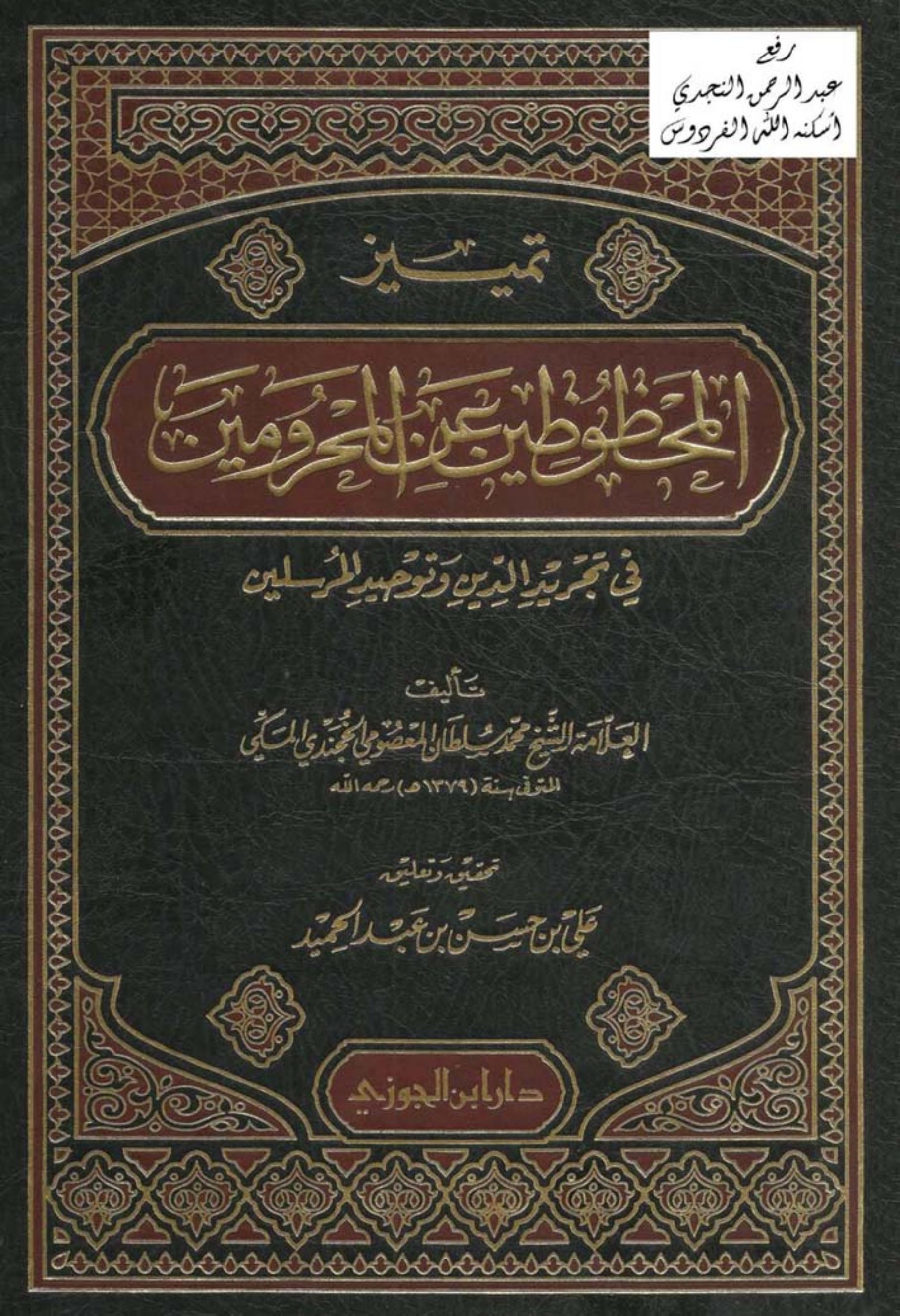
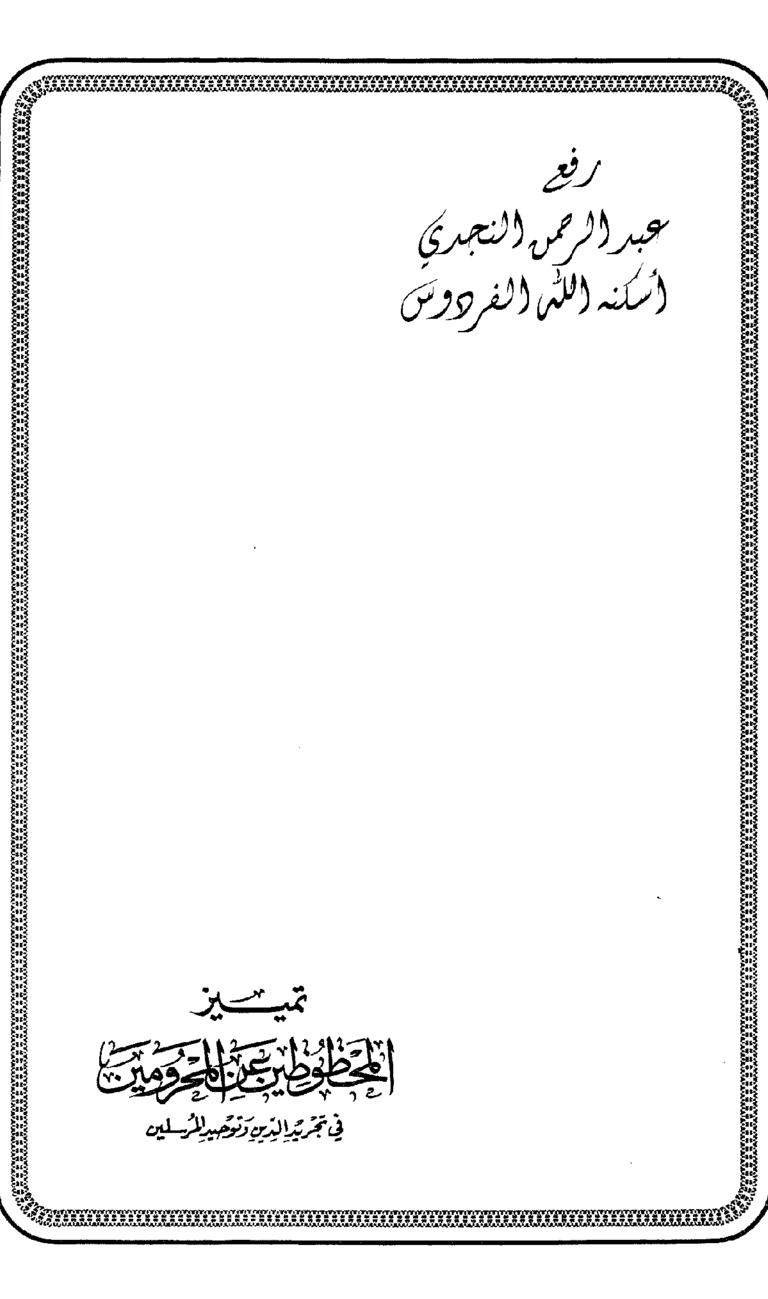


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
تمييز
المحظوظين عن المحرومين
في تجريد الدين وتوحيد المرسلين
تأليف
العلامة الشيخ محمد سلطان المعصومي الخجندي المكي
المتوفى سنة (١٣٧٩هـ) رحمه الله
تحقيق وتعليق
علي بن حسن بن عبد الحميد
دار ابن الجوزي



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
تمييز
المحظوظين عن المحرومين
في تجريد الدين وتوحيد المرسلين

الطبعة الثانية

جمادى الأولى ١٤٢١هـ



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام - شارع ابن خلدون - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الإحساء - الهفوف - شارع الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة: ت: ٦٥١٦٥٤٩
الرياض: ت: ٤٢٦٦٣٣٩

تمييز المحظوظين عن المحرومين

في تجريد الدين وتوحيد المرسلين

تأليف
العلامة الشيخ محمد سلطان المعصومي الخجندي المكي
المتوفى سنة (١٣٧٩هـ) رحمه الله

تحقيق وتعليق
علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري

دار ابن الجوزي



﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[يوسف: ١٠٨]

مقدمة التحقيق

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنْفسِنا ومِن سيِّئاتِ إعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ؛ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ؛ فَلا هادِيَ لهُ.

وأشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ.

وأشهَدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ للقُرآنِ العظيمِ وَقْعاً في نُفوسِ التَّالينَ لهُ، وتأثيراً عجيباً في عُقولِ المُتدبِّرينَ لأوامِرِه ونواهيهِ.

وقد أمرَنا ربُّنا جلَّ وعَلا بتدبُّرِ آياتِه، وتأمُّلِ محتوياتِهِ، فقالَ سبحانَه: ﴿أفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أمْ عَلى قُلوبٍ أقْفالُها﴾[1]، فكانتْ هٰذهِ الآيةُ الكريمةُ زاجرةً لكُلِّ مَن يقرأُ بلا تدبُّرٍ، ويتْلو دونَ تأمُّلٍ وتفكُّرٍ، تقْرَعُ الأسماعَ، وتهزُّ الأفئدةَ والقلوبَ.

---

(١) محمد: ٢٤.

ثمَّ إنَّ الآياتِ القرآنيةَ قد تنوَّعتْ أساليبُها، وتعدَّدتْ طرائقُ خطابِها، فمنها القَصَصُ، ومنها الأحكامُ، ومِنها العقائدُ، وهٰكذا. . .

ومنها أيضاً الخِطابُ بـ ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ﴾، والخِطابُ بـ ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا﴾. . . وغيرُ هٰذا وذاكَ.

وكلٌّ مِن هٰذينِ الخِطابينِ: لهُ وَقْعُهُ، ولهُ غايتُهُ، ولهُ تأْثيرهُ.

قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «إذا سمعْتَ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا﴾؛ فأَوْعِهِ سمْعَكَ؛ فإنه خيرٌ يأْمرُ بهِ، أو شرٌّ ينهى عنهُ»[1].

ولقد جَمَعَ مصنِّفُ هٰذا الكتابِ رحمهُ اللهُ تعالى كثيراً مِن الآياتِ التي فيها هٰذانِ النوعانِ مِن الخِطابِ؛ مقسِّماً إيَّاها على قسمينِ؛ عُموماً وخُصوصاً[2].

وقد قالَ رحمهُ اللهُ (ص ٨٩) بعدَ إيرادِهِ الآياتِ التي فيها الخطابُ بـ ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ﴾: «فاعْلَمْ أنَّ هٰذهِ الأربعينَ آيةً؛ كلُّ واحدةٍ منها موجَّهَةٌ مِن اللهِ ربِّ العالمينَ إلى كلِّ فردٍ فردٍ مِن أفرادِ بني آدمَ، لا يخرُجُ مِن هٰذهِ الخطاباتِ الصريحةِ أحدُ منهُم. . . فكلُّهُم مُخاطَبونَ بهٰذهِ الخطاباتِ، ومأْمورونَ ومكلَّفونَ بهٰذهِ الأوامرِ. . .».

ثمَّ قالَ (ص ٣١٨) بعدَ إيرادِ الآياتِ التي فيها الخطابُ بـ ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا﴾: «فهٰذهِ مئةُ آيةٍ. . . قد خَاطَبَ اللهُ تعالى بها عبادَهُ المؤمنينَ كلَّهُم، وناداهُم، وأمرَهُم، ونهاهُم، وبشَّرهُم، وأنذرَهُم، وزَجَرَهُم، وخوَّفهم، فقالَ:

---

(١) «الإتقان» (٣ / ١٠٠) للسيوطي.

(٢) وقد وصف ابن المصنف عبدالرحمٰن المعصومي كتاب أبيه في خاتمة «عقد الجوهر الثمين» (ص ٢٢٣) بأنه «لم ترَ عينُ الزمان بثانيه».

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، ولم يقُلْ : يا أيُّها العُلماءُ ، أو: يا أيُّها العَرَبُ ، أو: يا أيُّها السـادات والأشـراف ، ولـكنْ قد خاطَبَ كلَّ المؤمنينَ بـ (أنتُم) ، و (كم) ، و (كنتم) ، فإذاً؛ كلُّ المؤمنينَ سواءٌ في التَّكليفِ ، وكلُّهم مخـاطَبـونَ بهٰـذهِ الخطاباتِ الإلٰهيةِ ، كما أنَّ كلَّ البشرِ مُخاطَبونَ بخطاباتِ ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ﴾ ، و ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ، فبهٰذا قد توجَّهَ الخطابُ إليهِم ، وكلُّ واحدٍ منهُم أهلٌ لفهْمِ ذٰلك ما دامَ عاقلاً بالغاً ، ولأنَّهم لو لم يكونوا أهلاً ؛ لما خاطبَهُمُ اللهُ تعالى ، ولما كلَّفَهُم . . . » .

هٰذهِ هي الخُطَّةُ العامةُ للكتابِ .

ولكنَّ المصنِّفَ رحمهُ اللهُ تعالى قد ضمَّنَ تفسيرَه لهٰذه الآياتِ الكريمةِ أنواعاً مِن العُلومِ الشرعيَّةِ ، والمسائلِ الدِّينيَّةِ ، وصُوراً مِن التَّنبيهاتِ الوعظيَّةِ ، وألواناً من النَّصائحِ الزَّجريَّةِ .

وقـد ذكـرَ المؤلِّفُ (ص ١٦٢) تأْريخَ تأْليفِـه لهٰـذا الكتـابِ ، وهو سنةُ (١٣٦٦هـ) ، عَقِبَ انتهـاءِ الحـربِ العـالميَّةِ الثـانيةِ ، وهي مرحلةٌ حرجةٌ في التَّـاريخِ الحـديثِ ، أحدثَتِ انشطاراً وانقساماً في العالَمِ كلِّهِ بعامَّةٍ ، وعالَمنا الإسلاميِّ بخاصَّةٍ .

ولمُشابهةِ المرحلةِ التي نحياها اليومَ ـ بعواصِفِها ومِحنِها وفِتَنِها ـ صارَ هٰذا الكتابُ كأنَّهُ مكتوبٌ اليومَ لأبناءِ القرنِ الخامسَ عشرَ الهجريِّ ، وما يعيشونَه مِن هُمومٍ وأحزانٍ .

ولكي لا أُطيلَ على الأخِ القـارئِ الانتـظارَ؛ أختصرُ الكلامَ ، وأقتصرُ المقامَ ، حتَّى ينهلَ مِن التَّفسيرِ السَّلفيِّ النَّقيِّ لكتابِ اللهِ تعالى ، ويَفيدَ ـ لِيُفيدَ ـ

مِن التَّوجيهاتِ العِلميَّةِ، والتَّنبيهاتِ العمليَّةِ التي نثرَها المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ عبر طيَّاتِ كتابِه؛ سائلاً المولى عزَّ وجلَّ أنْ يجعلَ لهٰذهِ الأمةِ مِن أمرِها فرجاً، وأنْ ييسِّرَ لها مِن فِتنِها مخْرجاً؛ إنَّهُ سميعٌ مُجيبٌ.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

وكتَبَه

أبو الحارث الحلبيُّ الأثريُّ

عفا اللهُ عنه بمنِّه

١٩ شعبان ١٤١١هـ

الزرقاء ـ الأردن

●●●●●

موجز ترجمة المصنِّف[1]

مِن عاداتِ العلماءِ أنْ يُتَرْجِموا لأنفسِهم في بعضِ مؤلَّفاتِهم؛ ذاكِرينَ أحوالَهُم العلميَّةَ، وما يتَّصِلُ بها[2].

وقد استنَّ مؤلِّفُنا رحمهُ اللهُ تعالى بهٰؤلاءِ العُلماءِ، فكتبَ ترجمةً لنفسِه في عدَّةٍ مِن كُتبِهِ؛ مِنها «حُكْمُ اللهِ الواحدِ الصَّمَد...» (٤٧ - ٩٦)، وهي ترجمةٌ مطوَّلةٌ، وكذا في مقدِّمةِ «حبل الشرعِ المتينِ» (١٤ - ١٦)، وهي مختصرةٌ، ومِنها أنقلُ - بالتَّمامِ - ترجمتَه بقلمِه.

قالَ رحمهُ اللهُ: «إنَّ العبدَ الفقيرَ، وإنْ لم أكنْ مستحقّاً للذِّكْرِ[3]، ولكنْ

(١) وقد أشار المصنف رحمه الله في كتابه هٰذا إلى نُبَذٍ من مهمَّات مجريات حياته؛ كما في (ص ٢٣٨) عند ذكر هجرته، وفي (ص ١٦٢) عند ذكر الفتن التي ابتُلي بها، وغيرهما.

تنبيه: وقد ترجمتُ للمصنف بنوع من التفصيل في مقدِّمتي على رسالته «مفتاح الجنة لا إله إلا الله» (ص ٣ - ٦)، فلتراجع.

(٢) ولأخينا الفاضل الشيخ بكر أبو زيد رسالة لطيفة جمع فيها أسماء «الذين ترجموا لأنفسهم من العلماء»، وهي مطبوعة.

(٣) هٰذا من تواضُع العلماء، وهضمِهم أنفسهم.

تأسِّياً بالأسلافِ الكرامِ ؛ أذكرُ هُنا نُبذةً مِن ترجمةِ حالي للتَّذكرةِ؛ ليَذْكُرَني مَن يأتي بعدي بالخيرِ، فأقولُ:

أنا الفقيرُ الحقيرُ[1] أبو عبدِالكريمِ محمد سُلطان، كنَّيْتُ بهِ نَفسي بعدَما وُلِدَ ابني الأعزُّ الأرشدُ أبو البركاتِ عبدُالكريمِ عام ١٣١٨هـ، ثمَّ كَنَّاني أُستاذي وشيخي شيخُ الإسلامِ ببلدِ اللهِ الحرامِ الشيخُ صالح كمال المكِّي المُفتي وقت مُجاوَرتي بمكَّةَ بأبي الأنوارِ سلَّمه اللهُ الكريمُ الغفَّارُ.

واسمُ والدي أبو عبدِاللهِ محمد أُورون ابنُ مُلَّا مير سعيد ابنِ مُلَّا عبدالرحيم بنِ عبدِاللهِ بنِ عبدِالصَّمَدِ بنِ عبدِاللَّطيفِ بنِ معصومٍ الخُجَنْديُّ الحنيفيُّ السَّلفيُّ، المنسوبُ إلى جدِّهِ الأعلى محمد معصوم المَعْصوميِّ، عامَلَهم اللهُ تعالى بلطفهِ الخفيِّ وفضلِه الجليِّ.

إنِّي وُلدتُ في خُجَنْدةَ في العشرِ الأوسطِ من شهرِ ربيعٍ الأولِ سنةَ سبعٍ وتسعينَ ومئتينِ وألفٍ، فربَّاني الوالدانِ الكريمانِ إلى أن علَّماني الخطَّ وقراءةَ الكتبِ الفارسيةِ والتُّركيةِ والقرآنِ الكريمِ.

ثمَّ قرأْتُ على بعضِ فُضلاءِ البلدِ كمُلَّا صابرٍ ومُلَّا عبداللهِ «الصَّرفَ والنَّحْوَ» للزَّنْجاني، و «عواملَ» الجُرجانيِّ، و «كافيةَ ابنِ الحاجب»، وبعضَ الفقهِ والمنطقِ؛ كـ «مختصرِ الوقايةِ»، و «الإيساغوجي»، و «الشَّمسيَّةِ».

ثمَّ سافرتُ إلى خُوقَند، ثمَّ إلى بُخارى، وأقمتُ فيها سبعَ سنينَ، فأخذتُ عن علمائِها الأعلامِ؛ كمحمد عوض الخُجَنْدي، وعبدالرزاق المَرغيناني، وقرأْتُ لديهمُ: الفقهَ، وأُصولَه، والمنطقَ، والحكمةَ، وبعضَ

(١) وهٰذا ـ كسابقه ـ من تواضع العلماء، وهضمهم أنفسهم.

التفاسير، والأحاديث، وغيرَها ممَّا تعارَفَ هناكَ، فاستجزتُهم، فأجازوني مع كُتُبِ سَنَدِ الإجازةِ.

ثمَّ أُشْرِبَ في قلبي محبةُ زيارةِ الحرمينِ الشَّريفينِ، فعزمتُ متوكِّلاً على اللهِ عزَّ وجلَّ في يومِ الاثنينِ السابعِ والعشرينَ مِن شوَّالَ سنةَ ثلاثٍ وعشرينِ وثلاثِ مئةٍ وألفٍ، فتشرَّفتُ ببلدِ اللهِ الأمينِ يومَ الترويةِ، فبعدَ الوقفةِ في الموقفِ الشَّريفِ عَرفاتٍ، أَقمتُ فيها إلى ما شاءَ اللهُ تعالى، فأخذتُ عن عُلمائِها الأعلامِ والواردينَ عليها مِن الأفاضلِ الكرامِ؛ كالشيخِ شُعيبٍ الدُّكاليِّ المغربيِّ، والشيخِ حَسيبِ اللهِ، والشيخِ محمَّد سعيد بابَصيل، والشيخِ عبدِالحيِّ المِكناسيِّ، وغيرِهم.

ثمَّ بعدَ عامينِ سافرتُ إلى المدينةِ الطيِّبَةِ[1]، فأَقمتُ فيها مدَّةً، فأخذتُ عن عُلمائِها أيضاً؛ كالسيِّدِ أحمد البَرزَنجيِّ، والشيخِ عبداللهِ النابُلسيِّ القَدُّوميِّ، والشيخِ خليلٍ الخَربوطي، وغيرِهم.

ثمَّ سافرتُ إلى الشامِ عن طريقِ خَيبَرَ والعُلا، وكانَ الخطُّ الحديديُّ وصلَ إلى محطةِ الأخضرِ، فركِبْنا القطارَ (شَمَنْدَفر)، فوصلْنا تبوكَ، ثمَّ مُعانَ، ثمَّ الزَّرقا، ثم دمشقَ الشامِ، فنزلتُ في مدرسةِ دارِ الحديثِ الشَّرفيَّةِ، وكانَ المُدرِّسُ فيها الشيخَ بدرَ الدينِ يوسُفَ، والشيخَ عبدَالحكيمِ القُنْدُهاريَّ، فأخذتُ عنهُما عُلوماً جمَّةً، وكذا عن السيدِ أبي الخيرِ ابنِ عابدينَ، والسيِّد عارفٍ المُنيِّرِ، وغيرِهم.

ثمَّ قدِمتُ بيتَ المقدسِ عن طريقِ بيروتَ، وأخذتُ عن الشيخِ

---

(١) وهي مدينة النبي ﷺ.

يوسفَ النَّبهانيِّ[1] والشيخِ عبدالرحمٰنِ الدَّرويش الحوت.

وقـدمتُ مصـرَ القاهرةَ، ونزلتُ الجامعَ الأزهرَ، وأقمتُ في الرِّواقِ السُّليمـانيِّ منها، ثمَّ قدمتُ الإسكندريَّةِ، ثمَّ إستانبولَ عن طريقِ اليونانِ وبيره وآطَنَة، وأخذتُ في كلِّها عمَّن كانَ موجوداً مِن العُلماءِ المشهورينَ، فكلُّهم أجازوا لي بإجازاتٍ متعدِّدةٍ وإرشاداتٍ مُتوافرةٍ.

وبالجملةِ؛ إني قد أَخذتُ عن مئةِ شيخٍ تقريباً.

ثمَّ رجعتُ إلى وطني خُجَنْدة، وتشرَّفتُ بزيارةِ الوالدينِ الكريمينِ؛ نفَعَني اللهُ تعالى بهِما في الدَّارين، وجعَلَ الفردَوْسَ الأعلى مثواهُما آمينَ، فهُمـا بَنَيا مدرسـةً جميلةً ذاتَ غُرُفـاتٍ، فاشتغلْتُ بالتَّـدريسِ والتَّـأْليفِ والتَّعليمِ خالصاً للهِ عزَّ وجلَّ.

هٰذهِ خُلاصةُ الترجمةِ وإجمالُ الحالِ، والتفصيلُ يُطلَبُ مِن رِحْلتي «اللآلىء الغالية في السَّفر والرِّحلة الحجازية» وذيْلِها «الفوائدُ الرَّابحة في ذيلِ الرِّحلة الحجازية» اهـ.

قلتُ: هٰذه بطولِها ترجمةُ المؤلِّف رحمهُ اللهُ بقلمِه[2].

---

(1) وهـو من أكابر مبتدعة القرن المنصرم؛ كما بيَّنتُه في مقدمتي على «التعريف بآداب التأليف» للسيوطي.

وتلمذة المؤلف عليه لم تمنَعْه ـ رحمه الله ـ من كشف حاله، والتحذير منه، حيث حذَّر في كتابنا هٰذا ـ «تمييز المحظوظين ـ (ص ٢٥٣) من كتابه «صلوات الثناء»؛ واصفاً إياه بأنه «من البدع المنكرة»! وأن فيه «المنكرات، بل الأكاذيب والكفريات»!

قلتُ: هٰكذا فلتكنِ الصراحة في الحق، وعدم المداهنة والمواربة فيه.

(2) وقد فاتت هٰذه الترجمة الأخ الشيخ بكر أبو زيد في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه، فلتستدرك عليه.

وممَّا رأيتَ لُزومَ ذكرِهِ في هٰذا المقامِ ممَّا له صلةٌ مرتبطةٌ بالترجمةِ مِن جهةٍ وبكتابِ «تمييزِ المحظوظينَ. . .» مِن جهةٍ أُخرى: ما قالَه ابنُ المؤلِّفِ عبدُالرحمٰنِ المعصوميُّ في خاتمةِ كتابِ أبيهِ «عقدِ الجوهَرِ الثَّمين» (ص ٢٣١) نقلاً عن أُمِّه، فيما يتعلَّق بالإشاعاتِ التي أشاعَها حُسَّادُه والحاقِدونَ عليهِ مِن أهلِ البدعِ والخُرافيِّينَ؛ مصبِّرةً إِيَّاهُ، حاثَّةً لهُ على الثَّباتِ، وقالتْ:

«. . . وكما أشاعوا في عام ١٣٧١هـ حينما كنتَ في الرِّياضِ في واقعةِ فتنةِ المُفسرينَ في شأنِ كِتابِكَ «تمييزِ المَحظوظينَ عنِ المحرومينَ» أَنَّ الملكَ عبدَالعزيزِ رحمهُ اللهُ غضِبَ عليهِ وحبسَهُ وقتَلَهُ، والحالُ أَنَّكَ مكرَّمٌ في دارِ ضيافتِه، وأنتَ منصورٌ على أعدائكَ أعداءِ اللهِ المبتدِعينَ المفسِدينَ، فرجعْتَ سالِماً وغانماً منصوراً، ورؤساءُ أعدائِكَ هَلَكوا حَسداً وكَمداً».

قلتُ: فالحذَرَ الحذرَ مِن كيدِ أهلِ الأهواءِ وأصحابِ البدعِ.

وهٰذا يدلُّ على أنَّ لكتابِ «تمييزِ المحظوظينَ» موقعاً عظيماً وأثراً جليلاً، جَعَلَ المبتدعةَ والخُرافيينَ يلجؤون ـ كسائرِ ضعافِ النُّفوسِ والعُقولِ ـ إلى الإشاعاتِ واتِّهامِ الأبرياءِ مِن الناسِ بالباطلِ مِن القولِ!

مؤلَّفاته

أحصى عبدُالرحمٰنِ المعصوميُّ في خاتمةِ «عقدِ الجوهرِ الثَّمين» (٢٢٠ ـ ٢٢٨) عدَدَ مؤلَّفاتِ أبيهِ، وأسماءَها، فبلغتْ أربعةً وتسعينَ كتاباً[1]، ولولا خشيةُ

(١) من المطبوع والمخطوط والمفقود.

الإطالةِ لسَرَدْتُها بالتفصيلِ .

ولقد سَرَدَ مصنِّفنا رحمهُ اللهُ في كتابِه هٰذا أَسماءَ عددٍ مِن مؤلَّفاتِه المشهورةِ:

ذكرَ (ص ١٦٥ ـ ١٦٦):

١ ـ «حُكْم الله الواحد الأحد في حُكْم الطالب من الميِّت المَدَد».

٢ ـ «أَوضح البرهان في تفسير أُمّ القرآن»[1].

٣ ـ «مفتاح الجنة لا إلٰه إلا الله».

٤ ـ «البرهان الساطع على تبرُّؤ المتبوع من التابع»[2].

٥ ـ «العقود الدُّرِّية السُّلطانية فيما ينسب إلى الأيام النيروزية»[3].

٦ ـ «تُحفة الأبرار في فضائل سيِّد الاستغفار»[4].

وذكر (ص ٣٥٤) كتابَه الشهير:

٧ ـ «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جابان»، وهو الذي طُبع واشتُهِرَ باسم «هل المسلم ملزَمٌ باتباع مذهب معيَّن؟».

---

(١) وذكر أنه مطبوع في مكة.

(٢) وكرَّر ذكره ناضحاً به في (ص ١٤٩)، وذكر (ص ٣٦٠) أنه مطبوع في مصر.

(٣) وذكر أنه مطبوع في مصر.

(٤) وذكر أنه مطبوع في الصين، وقال في (ص ٣١٧) أنَّ طبعه كان في سنة ١٣٥٠هـ.

وانظر (ص ٥٥ ـ ٥٦) من كتابنا هٰذا؛ ففيه ذكر شيء أيضاً عن مؤلَّفاته.

ومن عجبٍ إنكارُ بعضِ المقلِّدينَ - كالبوطيِّ - لهٰذا الكتابِ، بل لشخصيَّةِ مؤلِّفه!

قلتُ: ولعلِّي في مقـامٍ آخـرَ - إن شاءَ اللهُ - أُطـوِّلُ في ترجمـةِ المعصوميِّ، وذِكرِ آثارِه، والتَّنبيهِ على مآثرِه.



تَمْييزُ المَحْظوظين عَنِ المَحْرومين

[في تَجْريدِ الدِّين وتَوْحِيد المُرْسَلين]

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ الذي أَوْجَدَنا مِن العدمِ ، وجَعَلَنا أهلاً لِفهْمِ خِطابِه وكلامِه، فنحنُ المُخاطَبونَ بخطابِه خطاباً عموميّاً وخصوصيّاً:

فالعموميُّ شاملٌ لكلِّ بني آدَمَ مِن عَرَب وعَجَم، ما دامَ عاقلاً بالغاً، ولا يخرجُ منه إلا الصبيانُ والمجانينُ.

وأمَّا الخصوصيُّ؛ فمُختَصٌّ بالمؤمنينَ الذينَ تشَرَّفوا بشَرَفِ الإيمانِ، وصاروا مِن أُمَّةِ محمدٍ رسولِ اللهِ سيِّدِ الإنسِ والجانِّ ﷺ، وخارجٌ منهُ غيرُ المؤمنينَ مِن جَميعِ أَصنافِ الكفارِ؛ مِن أَهْلِ الكتابِ والمجوسِ والمشركينَ والدَّهريينَ الأشرارِ.

أمـا بعدُ؛ فها أَنا عبدُ اللهِ، الفقيرُ إليهِ جَلَّ وعَلا، أبو عبدِالكريمِ وأبو عبدِالرحمٰن، مُحمَّد سلطان المعصوميُّ الخُجَنْديُّ ثمَّ المَكِّيُّ؛ إنِّي حينَما كنتُ في الطائفِ مُتصيِّفاً عام ١٣٦٥هـ كنتُ أَتلو كتابَ اللهِ القرآنَ متدبِّراً معانيَهُ، إذ تَبَيَّنَ لي قصورُ بني آدَم بسببِ جهلهم بِمعاني كلامِ ربِّهم، فلهٰذا ضلُّوا وأَضلُّوا كثيراً.

ولا شكَّ أنَّ سببَ الضَّلال عدمُ فهمِ كلامِ ربِّ العالمينَ الذي أنْزلَهُ اللهُ تعالى لِهدايةِ جميعِ العالَمينَ، والحالُ أنَّهُم مخاطَبونَ ومكلَّفونَ بفهمِهِ وتدبُّرِه والعملِ والاتِّعاظِ به.

فها أنا أذكُرُ هنا أولاً الخطاباتِ الإلٰهيَّةَ العموميَّةَ الموجَّهةَ إلى عمومِ البشرِ وكافَّةِ بني آدَمَ عرباً أو عجماً، فهُم كلُّهم مكلَّفونَ بفَهْمِ هٰذا الخطابِ، وامتثالِ هٰذا الأمرِ، والربُّ العليمُ الحكيمُ ناداهُم آمِراً إيَّاهم بالتَّقوى والتَّوحيدِ، وأنْ لا يعبُدوا إلَّا إيَّاهُ.

فيجِبُ على كلِّ إنسانٍ عاقلٍ بالغٍ تعلُّمُ القرآنِ وفهمُ معناه والعملُ بمقتضاهُ، ولا يُعْذَرُ أحَدٌ في تركِ ذٰلك، سواءٌ كان عربيّاً أو عجميّاً أو فارسيّاً أو تركيّاً أو روميّاً أو هنديّاً أو جاويّاً[1] أو حَبَشيّاً أو صينيّاً أو جابانيّاً أو أمريكيّاً؛ لأنَّه يلزم حينئذٍ إهمالُ خطابِ اللهِ ربِّ العالمينَ وأمرِه، أو نسبةُ الجهلِ إلى اللهِ الربِّ الحكيمِ، حيثُ خاطَبَ ونادى وأمَرَ مَن لا يستأهِلُ الخطابَ ولا يفهمُ، تعالى اللهُ عن ذٰلك علوّاً كبيراً.

وعلى هٰذا أوجبَ الشَّارعُ طلبَ العلمِ[2] على كلِّ مكلَّفٍ كما هو مُقَرَّرٌ في

---

(١) جاوة: الجزيرة الأكثر سكاناً في إندونيسيا، وفيها عاصمتها.

(٢) كما في قوله ﷺ: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»، وهو حديث حسن بمجموع طرقه الكثيرة.

وللإمام السيوطي رحمه الله جزء مفرد في تخريجه، طبع بتحقيقي منذ نحو ثلاث سنوات، وانظر ما سيأتي (ص ٣٢٥ - ٣٢٦).

عامَّةِ الكُتُبِ الإسلاميَّةِ الدينيَّةِ، وما لا يتِمُّ الواجِبُ إلَّا بهِ؛ فهو واجبٌ[1].

فتعلُّمُ القُرآنِ وفهمُ معناهُ واجبٌ على كلِّ إنسانٍ، خُصوصاً المسلمونَ؛ فإنَّهم هم المخاطَبونَ بخطاباتٍ خاصةٍ لهُم: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا﴾، فتَدَبَّر.

وما شاعَ وذاعَ فيما بينَ متأخِّري أَدْعياءِ العلمِ مِن المسلمينَ مِن أنَّ فهمَ القُرآنِ والعملَ بهِ مختصٌّ بأهلِ الاجتهادِ، وهُم قَدِ انْقَرَضوا منذُ عهدٍ بعيدٍ؛ فمِنْ أَبطَلِ الباطلِ وأَفْسَدِ الفاسدِ، إنَّما دَسَّ هٰذه العقيدةَ الفاسدةَ أعداءُ الإسلامِ؛ لإبعادِ المسلمينَ عنْ معرفةِ كلامِ ربِّهم، فصاروا بذٰلك محرومينَ مِن فهمِ كلامِ ربِّهم العليمِ الحكيمِ، وقد صرفوا كلَّ أعمارِهم في دِراسةِ الفلسفةِ، وحِكْمَةِ الهندِ واليونانِ، ومباحِثِ الإشراقيِّينَ والمشَّائيِّينَ[2]، وأفكارِ ابنِ سِينا[3]

---

(١) انظر فوائد مهمَّة متعلِّقة بهٰذه القاعدة الفقهيَّة في كتابي «الدعوة إلى الله بين التجمُّع والحزبي والتعاون الشرعي» (ص ١١٨ و١١٩)، نشر المكتبة الإسلامية عمان.

(٢) الإشراقيُّون: هم أصحاب المكاشفة (!). والمشائيُّون: هم أصحاب البحث والقياس العقلي، وسموا بذٰلك لأن زعيمهم وسيِّد طريقتهم ـ وهو أرسطو ـ كان يعلِّم تلاميذه وهو يمشي معهم (!).

وانظر: «رسائل الإصلاح» (١ / ١٩١) للعلاَّمة محمد الخضر حسين.

(٣) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧ / ٥٣٥): «. . . وهو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة، وله كتاب «الشفاء» وغيره، وأشياء لا تُحتَمل، وقد كفَّره الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال» وكفَّر الفارابي» اهـ.

وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في ابن سينا ضمنَ كتابه «درء تعارُض العقل والنقل» (١ / ٨ ـ ١٠).

توفي سنة ثمان وعشرين وأربع مئة.

والفـارابيِّ[1]، ودراسـة «ديوان» المتنبِّي[2] وابنِ الفـارِض[3]، وأهـلُ بُخـارى بـ «ديوانِ ميرزا عبـدِالقـادرِ البيدل»[4] الذي يقولُ بأنَّ أصلَ الإنسانِ القِردُ[5]، ورباعيَّاتِ الخيَّامِ[6] الزِّنديقِ، أو بالصَّرْفِ والنَّحْوِ والبيانِ[7]، ولكنْ لم يَصِلُوا إلى المقصدِ الأصليِّ مِن فَهْمِ كتابِ اللهِ وأحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ والعملِ بهما، فبـذلـك ضيَّعُوا أعمارَهُم، وأفسَدُوا أعمالَهُم، وأبطَلوا عقائِدَهُم، فصاروا مِن المَحْرومينَ مِن السَّعادتينِ: سعادةِ الإيمانِ الصَّحيحِ في الدِّينِ، وسعادةِ الدُّنيا مِن الخـلافـةِ الإسلاميَّةِ فيما بينَ العالَمين، وإنِ ادَّعوا واغترُّوا بأنهم مسلمونَ

---

(١) قال الذهبي في «السير» (١٥ / ٤١٧): «له تصانيفُ مشهورة، مَن ابتغى الهدى منها؛ ضلَّ وحارَ، منها تخرَّج ابنُ سينا، نسأل الله التوفيق».

توفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة.

(٢) هو أحمد بن الحسين الكوفي، توفي سنة أربع وخمسين وثلاث مئة.

قال التنوخيُّ: «خرج المتنبي إلى بني كلبٍ، وأقام فيهم، وزعم أنه علويٌّ، ثم تنبأ [أي: ادَّعى النبوة] فافتُضِح، وحبس دهراً، وأشرف على القتل، ثم تاب».

نقله الذهبي في «السير» (١٦ / ٢٠٠).

وديوانه مشهور، فيه شعر فائق.

(٣) هو من كبـار منْحَـرفي الصوفيَّة، انظر نبذةً عنه في تعليقي على «الفارق بين المصنِّف والسارق» (ص ٦١) للسيوطي، نشر دار الهجرة، الدمام.

(٤) من شعراء العجم المتأخرين، وإنما ذكَرهُ المصنِّف لأنه بلديُّه.

(٥) كما هي نظرية دارْون البائدة الباردة!!

(٦) قال الزِّركلي في «الأعلام» (٥ / ٣٨): «وقدحَ أهل زمانه في عقيدته».

وتوفي سنة خمس عشرة وخمس مئة.

وقد ألَّف بعض المعاصرين رسالة سمَّاها «عمر الخيام بين الكفر والإيمان»، فلتُنْظَر.

(٧) مُضيِّعين زهرة أعمارهم في تتبُّع فروعه ودقائقه. وقد أشار إلى هذا إشارة حسنة الحافظ ابنُ رجب الحنبلي في «فضل علم السلف» (ص ٢٤ - بتحقيقي)، فلتنظر.

وعلماءُ وساداتٌ ومشايخُ، بل أقطابٌ وأوتادٌ وأبدالٌ ونُجباءُ[1]؛ كما هو غيرُ خفيٍّ على أُولي الألبابِ.

والمحظوظونَ إنَّما كانوا المسلمينَ الأوَّلينَ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابِعيهم، الذينَ اقْتَفَوْا سنَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ، فنالوا رِضى اللهِ، حتى رضيَ اللهُ عنهُم ورضُوا عنهُ، فنالوا خِلافَةَ اللهِ[2] في الأرضِ، ورفعوا عَلَمَ الإسلامِ في شرقِ الأرضِ وغربِها، معَ ما نَالوا مِن الأجْرِ والغَنيمَةِ، فهُمُ المَحْظوظونَ مِن الإيمانِ والإسلامِ بالحظِّ الأوْفَرِ.

وأمَّا المتأخِّرُونَ؛ الَّذينَ فرَّقوا دِينَهُم، وكانُوا شِيَعاً، وصَارُوا مَذاهِبَ وفِرقاً، واكْتَفَوْا بآراءِ الرِّجالِ، واعتمدوا عليها، واتَّخَذوهُم أنداداً مِن دُونِ اللهِ، فبذٰلك صاروا محرومينَ مِن فهمِ أوامرِ ربِّهم، وتَباعَدوا عن الحقِّ بُعْدَ المَشْرِقَينِ، وقد صاروا محرومينَ مِن خلافةِ الأرضِ كما صاروا محرومينَ مِن فهمِ كلامِ ربِّهم ودراستِه، بل صارَ أكثرُهُم محروماً مِن الإيمانِ الصَّحيحِ وتوحيدِ اللهِ ربِّ العالَمينَ ربوبيَّةً وإلٰهيَّةً وأسماءً وصفاتٍ، وبدَّلوا ذٰلك بالشِّركِ والإلحادِ، وعبادةِ الأرواحِ والقُبورِ والأجْدادِ، فتنَبَّهْ وتدبَّرْ هداكَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

وإنِّي أذكُرُ هنا أولاً الخطاباتِ والأوامرَ الإلٰهيَّةَ القرآنيَّةَ الموجَّهَةَ إلى عامَّةِ بني البشرِ؛ ليظهَرَ لطالبِ الحقِّ الصَّوابُ مِن الخطإِ، والحقُّ مِن الباطلِ،

---

(١) وهٰذه هي ألقاب الصوفية ودرَجاتُهم، وكلُّها مبتَدَعة لا أصل لها.

(٢) وهٰذا اللفظ ليس دقيقاً؛ فإن لفظ (الخلافة) يستلزم غيابَ المخلوف.
يُنظر تفصيل هٰذا الإجمال في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢ / ٤٦١)، و«السلسلة الضعيفة» (١ / ١٢٠)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص ١٥٦).

فيرجِعوا إلى أصلِ دينِهم، فينالوا رِضى ربِّهم في الدَّارينِ.

ولقَّبْتُ ما نويتُ جَمْعَهُ: «تمييز المَحْظُوظينَ عنِ المَحرومينَ».

فأسألُ اللهَ تعالى الكريمَ الوهَّابَ أَنْ يُوفِّقَني للعملِ به، ويجعَلَهُ خالِصاً لوجههِ الكريمِ، وأَنْ ينفَعَ بهِ العبادَ في عامَّةِ البلادِ، فهو حَسْبي ونعمَ الوكيلُ.



[فصلٌ
الآياتُ والخِطاباتُ القرآنيةُ الموجَّهةُ إلى عامَّةِ البشرِ]

الآية الأولى في سورةِ البقرةِ: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ والَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً والسَّماءَ بِناءً وأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فأَخْرَجَ بهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لكُمْ فَلا تَجْعَلُوا للهِ أَنْداداً وأَنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾[1]

اعلم أَن اللهَ تعالى ربَّ العالمينَ نادى وخاطَبَ عامَّةَ النَّاسِ عربَهم وعجمَهُم كلَّهُم، وأَمَرَهُم أَن يعبُدوا ربَّهم الذي خَلَقَهُم وخَلَقَ جميعَ مَن قبلَهُمْ مِن الأنبياءِ والأولياءِ، فخالِقُ الكلِّ واحدٌ لا شريكَ لهُ، وكلُّ الناسِ مِن أَوَّلِهم إلى آخِرِهم؛ صالِحُهم وطالِحُهم، مؤمِنُهم وكافِرُهم؛ مخلوقونَ مربوبونَ، ومُحتاجونَ إلى اللهِ خالِقِهم ورازِقِهم في حياتِهم وموتِهم أَبداً.

فإنْ كانَ هٰكذا؛ فلا معبودَ إلَّا اللهُ[2]؛ كما أَنه لا خالِقَ إلا اللهُ، ولا رازقَ إلا اللهُ، ولا مُتصرِّفَ في الكونِ حقيقةً إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ وحدَه.

---

(١) البقرة: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) الأدقُّ أن يُقال: لا معبود بحقٍّ إلا الله؛ إذ المعبودات الباطلة كثيرة!
ثم رأيت تصحيحها في قائمة التصحيحات (ص ٢٦٩) من الطبعة الأولى.

﴿فلا تَجْعَلُوا للهِ أَنْداداً﴾، ولا تظنُّوا ـ فضلاً عن أنْ تعتقدوا ـ أَنَّ الملائكةَ تُربِّيكم أو تضرُّكم أو تنفعُكم، أو أَنَّ الأنبياءَ أوِ الأولياءَ أو أرواحَهُم يربُّونَكم أو ينفعونَكُم أو يضرُّونَكُم أو يشفَعونَ لكُم يومَ القيامةِ بنفسِهم بدونِ إذنِ اللهِ وأمرِه.

فإنْ كانَ الأمرُ هٰكذا؛ فلا تحبُّوا إلَّا اللهَ، ولا ترجوا إلَّا اللهَ، ولا تخافوا إلَّا اللهَ، ولا تدعوا إلَّا اللهَ، ولا تطلبوا إلا مِن اللهِ، ولا تنذِروا إلا للهِ؛ لأنَّ اللهَ ربَّكُم الـذي خَلَقَكُم بأمـرِه حيٌّ لا يموتُ أبداً، وهو أقربُ إليكُم مِن حبلِ الوريدِ؛ يجيبُ الدَّعواتِ، ويَقضي الحاجاتِ، ويرزقُ مَن يشاءُ بغيرِ حسابٍ.

فالنَّاسُ كلُّهم مخاطَبونَ بهٰذه الآيةِ وما شابَهَها، فأَمَرَهُم اللهُ تعالى جميعاً بأَنْ يعبدوهُ وحدَهُ، ويُؤمنوا بأَنَّهُ الإلٰهُ الحقُّ والمعبودُ الحقُّ وحدهُ، فمَن لم يعبُدِ اللهَ وحدَه ولم يؤمِنْ بأَنَّهُ المعبودُ الحَقُّ وحدَهُ؛ فهو كافرٌ باللهِ العظيمِ، يستحقُّ عذابَ جهنَّمَ وبئسَ المصيرُ.

فحيثُ خاطَبُهم اللهُ تعالى وناداهُم مسمِّياً إيَّاهُم ناساً؛ فكلُّ البشرِ ناسٌ ـ سواءٌ كانَ عرباً أو عجماً؛ فارسيّاً تركيّاً هنديّاً روميّاً صينيّاً حبشيّاً روسيّاً جابانيّاً أمـريكيّاً ـ، يجبُ على كلِّ واحـدٍ منهُم أن يعرِفَ هٰذا الخطابَ؛ لأنَّهُم أهلٌ لمعرفةِ ذٰلك، ولوْ لَمْ يَكونوا أهلاً؛ لَما خاطَبهُم اللهُ تعالى أصلاً، فمَن لَمْ يعرِفْ هٰذا الخطابَ؛ فقد ضيَّعَ أهلِيَّتَهُ، أو خرجَ عنْ دائرةِ الإنسانيَّةِ، وأَدْخَلَ نفسَه في حظيرةِ الحيوانيَّةِ، وليسَ بداخِلٍ في تلك الحظيرةِ أصلاً، فمِثْلُ هٰذا يتمنَّى يومَ القيامةِ أنْ يكونَ تراباً كالحيواناتِ[1]، وليسَ بصائرٍ.

---

(١) وفي ذٰلك عدة آثار موقوفة ومقطوعة، انظرها في «الدر المنثور» (٨ / ٤٠١ ـ ٤٠٢)، وليس في المرفوع شيء منه.

والإنسانُ لهُ أهليَّةٌ للتعلُّمِ والتعليمِ ، فلهٰذا جعلهُ اللهُ تعالى أهلاً للخِلافةِ في الأرضِ ، وسخَّرَ لهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ ، فلهٰذا ترى سلمانَ الفارسيَّ وبلالاً الحبشيَّ وصهيباً الرُّوميَّ وأمثالَهم مِن الأعْجامِ رضيَ اللهُ عنهُم قد نالوا الدرجةَ العليا بالإيمانِ باللهِ ورسوله، ومعرفةَ الحقيقةِ بمعرفةِ كلامِ ربِّهم وكلامِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وكذٰلك الإمامُ محمدُ بنُ إسماعيلَ البخاري، ومسلمُ بنُ الحجَّاج النيسابوريُّ، وأبو عبدِالرحمٰنِ النَّسائيُّ، وأبو داود السِّجِسْتانيُّ، وأبو عيسى الترمذيُّ[1]، والإمامُ أبو حنيفةَ النعمانُ، وغيرُهم؛ كلُّهم من الأعجامِ[2]، رحمهم اللهُ تعالى ورضيَ عنهُم، تعلَّموا العربيَّةَ، واشتغلوا بعلومِ القرآن والحديثِ، فبلغوا الذُّروةَ العليا مِن الكمالِ.

فالإنسانُ مِن حيثُ إنَّهُ إنسانٌ أهلٌ لذٰلك بلا رَيْبٍ، ولٰكنَّهُ هو الذي ضيَّعَ أهليَّتَه، وصرَفَها في السفاسفِ والتُّرهاتِ.

ألا ترى الذينَ اشتغلوا طولَ عُمُرِهم بدراسةِ كُتُبِ الصَّرفِ والنَّحوِ والبيانِ، وفلسفةِ الهندِ واليونانِ، أو بدواوينِ الشعراءِ والألغازِ والمعمَّياتِ، ودقَّقوا تدقيقاً، وألَّفوا وأبْدعوا إبداعاً، ولكنْ خَرَجوا عنِ الحقِّ خروجاً، فضلُّوا وأضلُّوا كثيراً.

لماذا؟ لأنَّهم لم يصْرفوا تلكَ الأهليَّةَ لمعرفةِ كلامِ اللهِ وكلامِ رسوله حقَّ المعرفةِ، بل تَفَلْسَفوا وتأوَّلوا وتجوَّزوا، فحرَّفوا تَحْريفاً، وبدَّلوا تبديلاً، وغيَّروا

---

(١) وجميعُهم من أئمة الحديث وحفَّاظ الآثار.

(٢) ليسوا جميعاً كذٰلك، فمنهم من نُسِب إلى بلدة أعجميَّة؛ لنزوله فيها، لا لكونه أعجميّاً، بل هو عربيٌّ أصيلٌ.

تغييراً؛ مسمِّينَ إيَّاه تأويلاً!!

واللهِ العظيمِ؛ إنَّهُم لو استعملوا تلكَ الأهليَّةَ في معرفةِ خطاباتِ ربِّهم؛ لعرفوا اللهَ تعالى حقَّ المعرفةِ، فعبدوه وحدَه لا شريكَ له، ولَعَرَفوا حقائقَ الأشياءِ كما هيَ، وسخَّروا العالمَ حسْبَ سنَّةِ اللهِ تعالى في خَلْقِهِ كما لا يَخْفى، فليس للإنسانِ إلَّا ما سَعَى.

فهٰذا هو دِينُ العدالةِ ودينُ المساواةِ ودينُ الحرِّيَّةِ كما أنَّهُ دينُ التوحيدِ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يعاملُ بني جنسِهِ بالعدلِ، ويعدُّهُ كنفسِه؛ لأنَّهُ إنسانٌ مثلُه، فيحبُّ له ما يحبُّ لنفسِهِ، ولا يظلمُه ولا يخذلُه ولا يخدعُه، «وكونوا عِبادَ اللهِ إخواناً»[1] يكونُ شعارَهُ، ويعتقدُ كلُّ واحدٍ منهم أنَّهُ عبدٌ للهِ مهما بلغَ مِن الكمالِ:

فالملائكةُ عبيدُ للهِ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

والأنبياءُ والرُّسُل عبيدٌ للهِ، يبلِّغونَ إلى النَّاسِ أوامرَ ربِّهم.

وكذا الأولياءُ والصدِّيقونَ عبيدٌ للهِ؛ يَعملونَ بأَمْرِ ربِّهم ما استطاعوا.

فالكلُّ في عبوديَّةِ اللهِ تعالى سواءٌ، وإنَّما الفرقُ في تقوى اللهِ وامتثالِ الأمْرِ، فهم عبادٌ مطيعونَ لربِّهم، وأمَّا الكفَّارُ والفجَّارُ؛ فعصاةٌ مخالِفونَ لأمْرِ ربِّهم.

فحيثُ إنَّهُم في العبوديةِ سواءٌ، فلا يَعْبُدُ أحدٌ أحداً، ولا يعتقدُ أحدٌ في

---

(١) رواه: البخاري (١٠ / ٤٠٣)، ومسلم (٢٥٠٩)؛ عن أنس بن مالك، وأوله: «لا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغَضوا...».

(٢) التحريم: ٦.

أحدٍ ـ سواءٌ كانَ حيّاً أو ميّتاً ـ أنَّه يحييهِ أو يُميتُه أو يرزقُه أو يهديهِ أو يدْخِلُهُ الجنّةَ أو ينجيهِ مِن النَّارِ أو يُعطيهِ الولدَ أو نحوَ ذٰلك؛ فهٰذا هو المساواةُ؛ مساواةُ المخلوقِ مع المخلوقِ في العبوديَّةِ للهِ تعالى، وهٰذا هو الحرِّيَّةُ؛ يكونُ الإنسانُ حرّاً في عقيدتِه، وحرّاً في إنسانيَّتِه وأعمالِه، ولا يكونُ مقيَّداً وعبْداً في عقيدتِه وأعمالِه لعبدٍ مثلِه، بل إنَّما يكونُ عبداً للهِ الذي خَلَقَهُ، فلا يعبدُ إلاَّ إيَّاهُ، ولا يخضعُ إلاَّ لهُ، ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ.

ولهٰذا قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم والَّذينَ مِن قبلِكُم﴾؛ مِن الملائكةِ والكَروبيِّينَ[1] والأنبياءِ والجِنِّ، فلا تعبُدوهُم؛ لأنَّهم مخلوقونَ مثلُكُم.

﴿لَعَلَّكُم تَتَّقونَ﴾ عَنِ الإشراكِ بربِّكُم، وتجتنبونَ عبادةَ مخلوقٍ مثلِكم، فإذا اتَّقَيْتُم عن ذٰلك؛ وقاكُم اللهُ تعالى عن الشركِ والكفرِ، ووقاكُم عذابَ النَّارِ يومَ القَرارِ، ونجَّاكُم من الذِّلَّةِ تحتَ سيطرةِ الأشرارِ.

فيا أيُّها النَّاسُ! لا تجعلوا للهِ أنداداً تحبُّونَهُم كحُبِّ اللهِ، أو تعتقدونَ أنَّهُم ينفعونَكم أو يضرُّونَكُم، فتَنْذُرونَ لهُم ولِمَشاهِدِهم ومراقِدِهم، وتستغيثونَ بهِم، والحالُ أنَّكُم أنتُم بأنفسكُم تعلمونَ يقيناً أنَّهُم مخلوقونَ مثلُكم، لا يقدِرونَ لأنفُسِهم نفعاً ولا ضرّاً، وهم ـ ولو كانُوا قد بَلَغوا أعلى الدَّرجاتِ ـ قد ماتوا وتحوَّلوا مِن الحياةِ الدُّنيا إلى عالمِ البرزخِ، ومنهُ سَيُحَوَّلونَ إلى عالمِ الآخرةِ

---

(١) وفيهم حديث ضعيف جدّاً؛ خرَّجه شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٩٢٣)، فليراجع.

وإنما ذكرهم المصنِّف ـ والله أعلم ـ لكونهم يُذكرون عند مشايخ بلده وعامَّة الناس عنده!

دارِ الجزاءِ، ففريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ.

فانظر يا أيُّها الإنسانُ إلى هٰذه الخطاباتِ الرَّبَّانيَّةِ، قد ناداك وخاطَبَك، فأمرَكَ ونهاكَ، وأرشدَكَ إلى ما فيهِ خلاصُكَ وسعادتُك في دُنياكَ ودينِك، وأعطى لكَ العقلَ، وجعلَكَ مخاطَباً ومكلَّفاً بهِ، وميَّزَكَ عن سائرِ الحيواناتِ بهٰذا العقلِ والخطابِ والتَّكليفِ، فإذا لم تُصْغِ إلى كلامِ ربِّكَ ولم تفهَمْ خطابَ مولاكَ؛ فأنتَ أَجهلُ الجاهِلينَ، وأخسرُ الخاسرينَ، ولا ينفعُكَ ما تعلَّمْتَ ودَرَسْتَ مِن فلسَفَتِك وأشعارِكَ وألغازِكَ ومُعَمَّياتِك، ولا سلطَنَتِكَ وأموالِكَ.

واللهِ العظيمِ؛ لو تعلَّمْتَ كلَّ يومٍ كلمةً كلمةً مِن كلامِ ربِّكَ؛ لكانَ ما تتعلَّمُهُ في الشَّهْرِ ثلاثينَ كلمةً، وفي السنة ثلاث مئةٍ وستينَ كلمةً.

فإذا عَلِمْتَ مثلاً معنى فاتحةِ الكتابِ وفهِمتَهُ فهماً صحيحاً؛ كنتَ مؤمناً موحِّداً خالِصاً، وتخلَّصتَ مِن داءِ الشِّرْكِ والضَّلالِ، وصِرْتَ مِن الفالِحينَ.

وهل يظنُّ أحدٌ أنَّ خطابَ ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ﴾ خاصٌّ بالعربِ، أو أنَّــهُ خاصٌّ بالمجتهـدينَ والعلمـاءِ؟! ولا يظنُّ هٰذا إلَّا مجنـونٌ، أو جَهَلَةُ المُتَنَسِبينَ إلى العلمِ مِن الأحنـافِ ومَن شاكَلَهُم، فالخطابُ عامٌّ شاملٌ لكلِّ البشرِ؛ كما أنَّ وجوبَ الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ وكذا عبادتُه تعالى عامٌّ شاملٌ لكلِّ البشرِ، فمَنْ آمَنَ باللهِ ورسولِه، وعَلِمَ خِطابَهُ؛ فقدْ فازَ فوزاً عظيماً، وأمَّا مَن جَهِلَ ذٰلك؛ فقدْ خَسِرَ خُسراناً مُبيناً.

فآية ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُم﴾ مسوقةٌ لإثباتِ التَّوحيدِ، وتحقيقِ نبوَّةِ محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، اللَّذَينِ هما أَصلُ الإيمانِ.

والنِّداءُ عامٌّ لكلِّ البشرِ، يشملُ المؤمنينَ والكافِرينَ والمُنافِقينَ والمشارِقةَ

والمغاربةَ.

فـ ﴿اعبُـدوا رَبَّكُم﴾؛ يقـولُ للكفَّـارِ والمشركينَ: وَحِّدوا ربَّكُم، ويقولُ للعـاصينَ: أطيعـوا ربَّكم، ويقولُ للمُنافِقينَ: أَخْلِصوا بالتَّوحيدِ معرفةَ ربِّكُم، ويقولُ للمطيعينَ المؤمِنينَ: اثبُتُوا على الإيمانِ وطاعةِ ربِّكُم.

واللفظُ مُحْتَمِـلٌ لهٰـذه الوجوهِ كلِّها، وهو مِن جوامعِ الكَلِمِ، فالأولونَ والآخرونَ مخاطَبونَ بالأمرِ بالتقوى، فحيثُ إنَّ الناسَ كلَّهم مخاطَبونَ؛ يجبُ عليهم وجوباً عينيّاً فهمُ هٰذا الخطابِ، فمَن لم يطلبْ فهمَ الخطابِ؛ فقد أخرجَ نفسَه عن صفتِه الإنسانيَّةِ، وصارَ كالحيوانِ في صورةِ إنسانٍ، فهٰؤلاءِ هُم الخاسِرونَ.

وتأمَّلْ أيُّها الإنسانُ سورةَ العصرِ؛ فإنَّها تكفيكَ في كلِّ شؤونكَ، وتُرشدُكَ إلى نجاتِك وسعادتِك، وتبيِّنُ لك حالَك أنَّكَ مِن الفالِحينَ أو مِن الخاسِرينَ.

فعليكَ بهٰذا الميزانِ الإلٰهيِّ، فزِنْ بهِ في كلِّ آنٍ نفسَكَ، وعليكَ بالفَهْمِ والتَّفَهُّمِ، واللهُ يتولَّى هُداكَ.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ في سورةِ البقرةِ: **﴿يَا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ إِنَّهُ لكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّما يَأْمُرُكُم بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وأَنْ تَقُولوا عَلى اللهِ مَا لا تَعْلَمونَ . وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدونَ﴾**[1].

لا شكَّ أنَّ هٰذا الخـطابَ الإلٰهيَّ ونـداءٌ عامٌّ شامـلٌ لكافَّةِ البشرِ شرقاً

(١) البقرة: ١٦٨ ـ ١٧٠

وغرباً، ولا تختصُّ بهِ طائفةٌ دونَ طائفةٍ؛ فضلاً عنِ العربِ خاصَّةً؛ كما يزعُمُ بعضُ الناسِ، فلكلِّ الناسِ خَلَقَ اللهُ الأرضَ كلَّها؛ شرقَها وغربَها، وسهلَها وجبالَها، فكلُّ بني البشرِ مخاطَبونَ بهِ؛ سواءٌ كانوا عرباً أو عجماً؛ لأنَّهُم يأكلونَ ممَّا في الأرضِ مِن الأرزاقِ، فأمَرَهُم أن يأكلوا مِن الحلالِ الطَّيِّبِ.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ ما خرجَ مِن الأرضِ مِن الأرزاقِ فهو حلالٌ طيِّبٌ، وإنَّما الإنسانُ الجاهلُ يُخبِّثُه ويُنجِّسُه؛ كاتِّخاذِهِ العنبَ أو الحبَّ خمراً، أو غصبِه أموالَ النَّاسِ وأرزاقَهُم.

ولهٰذا نهى اللهُ تعالى عنِ اتِّباعِ خطواتِ الشَّيطانِ، وأمَرهم أن يجتَنبوها؛ لأنَّ الشيطانَ يريدُ هلاكَ [بَني] الإنسانِ وإهلاكَهم؛ لأنَّه عليهِ اللعنةُ عدوٌّ مبينٌ لبني آدمَ أجمعينَ.

ومِن شأنِ الشيطانِ وخصائصِه أنَّهُ يأمُركم أيُّها النَّاسُ بالسوءِ والفحشاءِ؛ أي: ما يؤولُ ويُنتج عاقبتَه السوءَ، وأنَّه يأمركُم أيُّها الناسُ أنْ تتقوَّلوا على اللهِ ما لا تعلمونَ؛ بأنْ تُحِلُّوا شيئاً، أو تُحرِّموا شيئاً، أو توجبوا شيئاً؛ بلا استنادٍ إلى دليلٍ شرعيٍّ مِن كتابِ اللهِ أو سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ مِثْل أن تقولوا: إنَّ الإشارةَ بالسَّبابَةِ[1] في تشهُّدِ الصلاةِ حرامٌ؛ كأكثرِ جهلةِ الأحْنافِ، أو إنَّ في عملِ الموالِدِ[2] ثواباً، أو إنَّ قراءةَ «دلائلِ الخيراتِ»[3] فيها ثوابُ كذا وكذا، أو إنَّ بناءَ

---

(١) ولي رسالةٌ ـ كتبتُها قديماً ـ في هٰذه المسألة، اسمها: «قطع التردُّد في كيفية الإشارة في التشهُّد»، يسَّر الله لي تبييضها ونشرَها.

(٢) انظر: «المورد في عملِ المولد» للفاكهاني بتعليقي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٣) وهو كتاب مديح!! مُليء غلوّاً وكفراً وضلالاً والعياذ بالله، وللشيخ عبدالله =

القببِ على قبورِ الأولياءِ خيرٌ وثوابٌ، أو إنَّ التقليدَ بمذهبٍ معيَّنٍ[1] مِن المذاهبِ الأربعةِ لازمٌ. . .

أو نحوَ ذٰلك، فكلُّ هٰذا تقوُّلٌ على اللهِ بلا علمٍ ولا دليلٍ.

فإذا قيلَ لهُم: اتَّبِعوا ما أَنْزَلَ اللهُ على رسولِه محمَّدٍ ﷺ، واترُكوا ما أَنْتُم عليهِ؛ مِن أُمورِ الجاهليَّةِ، وتقليدِ مَن مَضى مِن النَّاسِ في عبادةِ الأوثانِ، واتِّخاذِ الأندادِ، والاعتمادِ على الأرواحِ أو الاستمدادِ منها، والتوجُّهِ إلى القُبورِ، والنَّذرِ إليها، وتقبيلِها، وإسراجِ السُّرُجِ عليها، وتقليدِ غيرِ المعصومينَ في الدينِ، والتعصُّبِ للمذاهِبِ والطُّرُقِ! أجابوا قائلينَ: بل نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عليهِ آباءَنا، وما أَلْفَيْناهُم عليهِ؛ لأنَّهُم أعلمُ منَّا ومِنكُم. فقُلْ لهُم: أَوَلَوْ كَانَ آباؤُكُم لا يَعْقِلونَ شيئاً مِن كِتابِ اللهِ ولا يعلمونَ شيئاً مِن سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، بل ولا يَهْتَدونَ إليهِ؛ لأنَّ التقليدَ أعمى بصرَهُم وبصيرتَهُم، والشياطينُ مِن الإنسِ والجنِّ قد تصرَّفوا فيهِم تصرُّفاً كلِّيّاً، فيوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً؛ بأَنْ يقولَ: إنَّ الوليَّ الفُلاني فعلَ كذا، وإنَّ القطبَ الفلانيَّ استردَّ أرواحَ مريديهِ مِن يدِ قابضِ الأرواحِ عزرائيلَ[2] عليه السلامُ، وإنَّ فلاناً العالمَ اعترضَ على العارفِ الفلانيِّ فصارَ كذا؟!

فهٰؤلاء الذينَ لا يعرِفونَ مِن الإسلامِ إلا اسمَه، ولا مِنَ القرآنِ إلَّا رسمَه

= الدُّويش رحمه الله تعالى نقدٌ مفصَّلٌ له تحت الطبع.

(١) وللمصنِّف رسالة «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد اليابان»، مطبوعة مراراً، آخرها بتحقيق أخينا سليم الهلالي، وانظر مقدمة كتابنا هٰذا (ص ١٤).

(٢) لم يصحَّ في السنةِ حديث في تسمية ملك الموت عزرائيل. انظر: «معجم المناهي اللفظية» (ص ٢٣٨).

وخطَّهُ، يُطنطِنونَ بكلماتِه، فالعوامُّ يصدِّقونَ هٰؤلاء الشياطينَ، فيقلِّدونَهم في كلِّ ما قالوا مِن الباطلِ.

فيا أيُّها الإنسانُ! مِن حيثُ إنَّك إنسانٌ قد خاطَبَك ربُّك العليمُ الحكيمُ بـ ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ﴾، فعليكَ أن تفهَمَ خِطابَ ربِّكَ الموجَّهَ إليكَ؛ لأنَّكَ أهلٌ لذلك، فعليكَ بتعلُّمِ اللغةِ العربيَّةِ الفُصْحى، والاعتناءِ بالفهمِ والتَّفهُّمِ، حتى تصيرَ إنساناً كاملاً، وتنالَ السعادةَ ديناً ودُنْيا وأُخرى، فتعيشَ حرّاً سعيداً، وتَتَخلَّصَ مِن الأغلالِ والسَّلاسلِ؛ أغلالِ الدَّجَّالينَ والأباليسِ، وسلاسلِ المستعمرينَ والمستعبدينَ.

ويجبُ على سلاطينِ أهلِ الإسلامِ وأُمرائِهم ورؤسائِهم وعلمائِهم وأغنيائِهم الاعتناءُ التَّامُّ الكُلِّيُّ بتعليمِ عِلْمِ القرآنِ ولغتِه، وجعلُ التعليمِ فيه إجباريّاً؛ حتى يعرفَ المسلمونَ أوامِرَ ربِّهم وخطاباتِه الموجَّهَةَ إليهم.

ألا تَرى أنَّ الحكوماتِ المتمدِّنةِ ذاتَ الشَّأْنِ اليومَ كيفَ تجتهدُ لجعلِ لغَتِها وخطِّها عموميّاً بينَ رعاياها، بل في العالمِ كلِّه، وتصرفُ لذٰلك ملايينَ الملايينِ كلَّ عامٍ، فتُحَصِّلَ مقاصِدَها الدنيويَّةَ السياسيَّةَ، وتُفْسِد عقائدَ المسلمينَ إفساداً؟!

فالويلُ كلُّ الويلِ على المسلمينَ وعلمائِهم مِن هٰذه الغَفْلَةِ، ومِن هٰذا الكسلِ والجهالةِ، أليسَ كلُّنا راعياً وكلُّنا مسؤولٌ عن رعيَّتِه؟!

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ في أوَّلِ سورةِ النِّساءِ: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً ونِساءً واتَّقُوا

اللهَ الَّذي تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً﴾[1].

خِطابٌ عامٌّ ليسَ خاصّاً بقومٍ دونَ قومٍ، ولفظُ ﴿النَّاسُ﴾ اسمٌ لجنسِ البشرِ.

وقـد اتَّفق الأصـوليُّونَ مِن المفسِّـرينَ على أَنَّ الخِطابَ[2] عامٌّ لجميعِ المكلَّفينَ، وهٰـذا هو الأصـحُّ، ولا وجهَ لتخصيصِ بعضِ المفسِّرينَ بأهلِ مكَّةَ، والأصلُ أنَّ (ال) في ﴿النَّاسُ﴾ للاستغراقِ، وأنَّ جميعَ النَّاسِ مخلوقونَ بخلقِ اللهِ ومأمورونَ بالتَّقوى.

والتَّقوى هي الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ، وأن تَقِيَ وتحفَظَ نفسَكَ مِنَ اللهِ؛ أيْ: مِن غَضَبِه وسَخَطِه وعقوبَتِه.

ولا يتيسَّرُ بل ولا يمكِنُ هٰذا إلَّا بعد معرفَتِه ومعرفةِ ما يُرضيهِ وما يُسخِطُه، ولا يعرِفُ هٰذا إلَّا مَن فَهِمَ كتابَ اللهِ تعالى فهماً صحيحاً، وعَرَفَ سنَّةَ نبيِّهِ محمدٍ ﷺ معرفةً صحيحةً، وعَلِمَ سيرةَ سَلَفِ الأمَّةِ الصالحِ؛ مُطالباً نفسَه بالاهتداءِ بذٰلك كلِّه.

فمَن صبرَ وصابَرَ ورابَطَ؛ لأجْلِ حمايةِ الحقِّ وأهلِه، ونَشْرِ دَعوتِه، واتَّقى ربَّهُ في سائرِ شؤونِه؛ فقدْ أعدَّ نفسَه بذٰلك للفلاحِ والفوزِ بالسعادةِ عندَ اللهِ تعالى.

النَّـاسُ مِنْ جِهَـةِ التِّمثـالِ أَكْفـاءُ ... أبـوهُـمُ آدَمٌ والأُمُّ حَوَّاءُ[3]

---

(١) النساء: ١.

(٢) انظر: «أضواء البيان» (١ / ٢١٨) للعلَّامة الشنقيطي.

(٣) من أبيات في «الفقيه والمتفقِّه» (٢ / ٧٧).

فيَجِبُ على كلِّ فردٍ فردٍ مِن أفـرادِ النَّاسِ أنْ يتَّقوا ربَّهم، ويؤمِنوا بهِ، ويَمْتَثِلوا أمرهُ، ويعرِفوا كلامَه، وهٰذا لا يختَصُّ بشخصٍ دونَ شخصٍ ؛ فاللهُ تعالى يسأَلُهُم كلَّهم عنِ الإيمانِ بهِ وبكتابِهِ ومعرفتِه، وإنَّهُ تعالى رقيبٌ بصيرٌ عليمٌ خبيرٌ، فيُجازي كلَّ أحدٍ على نيَّته وعقيدتِه وعملِه.

فإذا كانَ الأمْرُ هٰكذا؛ فعليكُم أيُّها الناسُ بتقوى اللهِ، ولا تُعْذَرونَ بتركِ تعلُّمِ القرآنِ وفهمِ معناهُ؛ كما لا تُعْذرونَ بتركِ الإيمانِ باللهِ ورسولِه؛ لأنَّكُم المكلَّفونَ المخاطَبونَ بذٰلك.

تَعَلَّمْ فليسَ المَـرْءُ يولَـدُ عالِمـاً ... ولَيْسَ أخـو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِـلُ

* * * * *

الآية الرابعة في أواخرِ سورةِ النساءِ أيضاً: ﴿**ولله مَا في السَّماواتِ ومَا فِي الأرْضِ وكَفَى باللهِ وَكِيلاً . إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيُّها النَّاسُ ويأْتِ بآخَرينَ وكَانَ اللهُ على ذٰلكَ قَدِيراً**﴾[1].

أي: أيها الناسُ! إذا علمْتُم أنَّ للهِ تعالى جميعَ مَا في السَّماواتِ وما في الأرضِ مِن الموجوداتِ والمَخْلوقاتِ، فهو جلَّ جلالُه يتصرَّفُ فيها كيفَ يشاءُ؛ فاعْلَموا أنَّه تعالى إنْ يشأْ يُذْهِبْكُم بعذابٍ يُنْزِلُهُ عليكُم؛ كما أنزلَ على قومِ نوحٍ وهـودٍ وصـالـحٍ ولـوطٍ عليهِم السَّـلامُ، أو أُمَّةٍ قويَّةٍ يسلِّطها عليكُم، فتَسْلُبَ استقلالَكُم، حتى تجعلَكُم عبيداً أو كالعبيدِ لها؛ لا تستطيعونَ أن تقوموا بإقامةِ شعائرِ دينِكم، ولا بمصالحِكم، ويأْتِ بآخرينَ يَحِلُّونَ محلَّكُم في الوجودِ، أو

---

(١) النساء: ١٣٢ - ١٣٣.

الحكم والتصرُّفِ؛ كما سلَّطَ بُخْتُنَصَّرَ[1] على بني إسرائيلَ، وكما أنَّ البُخاريِّينَ والخُوارزْميِّينَ ممَّنْ يدَّعونَ الإسلامَ لمَّا غيَّروا أوامرَ ربِّهم عقيدةً وعملاً سلَّطَ اللهُ تعالى عليهِم الرُّوسَ والبلاشفةَ واللَّادينيَّةَ فقتَلَتْهُم وأهلكَتْهُم وفرَّقتْهُم أيَّ تفريقٍ، وكذا أهلُ الهندِ والأندلسِ سلَّطَ اللهُ تعالى عليهِم الإنكليزَ والفرنسيِّينَ والإسبانَ، وكذا الألمانُ والطليانُ لمَّا طغَتْ وبغَتْ سلَّط اللهُ تعالى عليها البلاشفَةُ والإنكليزُ والأمريكانُ.

وهٰكذا سنَّةُ اللهِ في خَلْقِه، ولنْ تَجِدَ لسنَّةِ اللهِ تبديلاً.

فالخطابُ بـ ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ﴾ عامٌّ لا يختصُّ بأُمَّةٍ دونَ أُمَّةٍ.

ويؤيِّدُ ما حرَّرناهُ قولُه تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها على قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا ما بأَنْفُسِهِم. . .﴾ الآية[2]، وقولُه تعالى: ﴿وكَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمينَ بعْضاً بِما كَانُوا يَكْسِبونَ﴾[3]، وقولُه تعالى: ﴿وكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وأَنْشَأْنَا بَعْدَها قَوْماً آخَرينَ﴾[4]، وقولُه ﷺ روايةً عن ربِّهِ جلَّ جلالُه: «إذا عَصاني مَن يعرِفُني سلَّطتُ عليهِ مَن لا يعرِفُني»[5].

فيا أيُّها الناسُ! اتَّقوا اللهَ حقَّ تقواه، ولا تغترُّوا بما أنتُم عليهِ مِن زخارفِ الدُّنيا؛ فإنَّ ربَّكُم لبالمِرصادِ.

---

(1) انظر: «البداية والنهاية» (٢ / ٣٨ ـ ٤٠).

(2) الأنفال: ٥٣.

(3) الأنعام: ١٢٩.

(4) الأنبياء: ١١.

(5) هو من الأحاديث القدسية المشهورة على ألسنة الناس، ولم أجد له أصلاً. وقالَ شيخُنا ـ بعدُ ـ عند سؤالي له عنه: «ليس له أصل».

فافهَموا كلامَ ربِّكم، وخطابَ مولاكُم، واعمَلوا بموجَبِه في كلِّ الأمورِ؛ دنيويَّةً ودينيَّةً وأُخرويَّةً؛ فإنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرةِ[1]، وكم مِنَ النَّاسِ في طرفي الإفراطِ والتَّفريطِ، وإنَّما السَّعادةُ في التوسُّط والاقتصادِ، فتنَبَّهْ.

* * * * *

الآية الخامسة في سورة النساء أيضاً: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسولُ بالحَقِّ مِن ربِّكُمْ فآمِنُوا خَيْراً لكُمْ وإنْ تَكْفُروا فإنَّ للهِ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ وكانَ اللهُ عليماً حَكيماً﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى بهٰذه الآيةِ جميعَ الناسِ عُموماً؛ عربَهم وعجَمَهم، شرقيَّهم وغربيَّهم، في سياقِ خطابِ أهلِ الكتابِ، وذَكَرَ الرَّسولَ هنا معرَّفاً؛ لأنَّ أهلَ الكتابِ قد بُشِّروا بهِ، وكانوا ينتَظِرونَ بعْثَتَهُ.

واختيارُ لفظِ الرَّبِّ هنا للإشعارِ بأَنَّ هٰذا الحقَّ الذي جاءَ بهِ يُقْصَدُ به تربيةُ المؤمنينَ، وتكميلُ فِطْرتهم، وتزكيةُ نفوسِهم، فلهٰذا قالَ: ﴿فَآمِنُوا خَيْراً لكُم﴾؛ أي: إذا كانَ الأمْرُ كذٰلك؛ فآمِنوا، فإنْ تُؤمنوا؛ يَكُنِ الإيمانُ لكُم خيراً؛ لأنَّهُ يُزكِّيكُم ويطهِّرُكم مِنَ الأدْناسِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّةِ، ويؤهِّلُكُم للسَّعادةِ الأبديَّةِ.

﴿وإنْ تَكْفُروا فإنَّ للهِ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ﴾، فهو تعالى غنيٌّ عن إيمانِكم وطاعتِكم، فيجازيكُم على كفرِكُم وسوءِ عملِكُم؛ لأنَّ له تعالى ما في

---

(١) بعضهم ينسب هٰذا الكلام للنبي ﷺ، ولا أصل لذٰلك.
قال السخاوي في «المقاصد» (رقم ٤٩٧): «لم أقِف عليه مع إيراد الغزالي له في (الإحياء)».

(٢) النساء: ١٧٠.

السَّماواتِ وما في الأرضِ خَلْقاً وعَبيداً، وكلُّ يعبُدُهُ طوعاً أو كَرْهاً.

أمَّا عبادةُ الكُرْهِ وعدمِ الاختيارِ؛ فبالخضوعِ للسُّننِ والأقدارِ، وهي عامَّةٌ في جميعِ الخَلْقِ.

وأمَّا عبادةُ الاختيارِ؛ فخاصَّةٌ بالمؤمنينَ الأخيارِ والملائكةِ الأبرارِ وأمثالِهم مِن جنودِ اللهِ، اللهُمَّ اجْعَلْنا منهُم.

وإنَّ ممَّن اهْتَـدى بهٰذا الهَدْيِ وتنوَّر بهٰذا النُّورِ الإلٰهيِّ رجلاً مِن أهلِ الغربِ، مِن النَّوعِ المنتسبِ إلى النَّصرانيَّةِ، فهٰذا الرجلُ طالعَ ترجمةَ [معاني] القرآنِ باللغةِ الإنكليزيَّةِ، فنوَّرَ اللهُ تعالى بصَرَهُ وبصيرتَهُ، فتعلَّمَ اللغةَ العربيَّةَ، ففَهِمَ بعضَ معـاني القـرآنِ، وتيقَّنَ أنَّ الإسـلامَ هُو الدِّينُ الحقُّ الذي يُسْعِدُ الإنسانَ في الدُّنيا والآخرةِ، فاعتَنَقَ الإسلامَ، وهاجرَ مِن بلادِه قاصِداً الإقامةَ في ديارِ الإسلامِ، فأقامَ في الحرمينِ، ولكنْ لمَّا رأى المنتسبينَ إلى الإسلامِ هنا، وأخلاقَهم، ومعاملاتِهم المخالِفَةَ لدينِ الإسلامِ وتعاليمَه؛ تعجَّبَ وتحيَّرَ، فقد ذكرَ لي قائلاً: الحمدُ للهِ أنِّي قد أسلمتُ قبلَ ملاقاةِ هٰؤلاءِ المسلمينَ، وهٰذا مِن فضلِ اللهِ عليَّ، ولو كنتُ رأيتُهم أوَّلاً قبلَ ذٰلك لنفرْتُ عنهُم وعنِ الإسلامِ، ولكنِّي لمـا فهمتُ خطابَ اللهِ بـ ﴿يَا أيُّها النَّاسُ﴾، وأنِّي مِن جملةِ الناسِ؛ وَجَبَ عليَّ أنْ أتَّقي اللهَ الَّذي خَلَقني وربَّاني، وأؤمنَ بهِ وبرسولِه وكتابِه، وتيقَّنْتُ أنَّ كلَّ مَنِ اتَّقى اللهَ ربَّـهُ سُعِدَ في الدَّارين، ومَن كفرَ وجحدَ فإنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ، ولا يُعذَرُ أحدٌ بالجهلِ ما دامَ عاقلاً... إلخ!

فانْظُرْ إلى هٰذا الرجلِ الأوروبيِّ كيفَ تعلَّمَ العلمَ وكيفَ اهْتدى، فهٰكذا كلُّ فردٍ مِن أفرادِ البشرِ له أهليَّةٌ للتعلُّمِ وفهمِ كلامِ ربِّه، فلهٰذا قد خاطَبَهُم اللهُ

تعالى بخطابٍ عامٍّ، وأمرَهم بالإيمانِ والتَّقوى، وبالاقتداءِ بالرَّسولِ الَّذي أرسلَه اللهُ تعالى بالحقِّ، وهذا الرَّسولُ مبعوثٌ إلى كافَّةِ البشرِ وعامَّةِ الوَرى رحمةً للعالَمينَ؛ إنسِهم وجنِّهم.

فيجبُ على كافَّةِ بني البشرِ الإيمانُ بهِ، ومعرفةُ كلامِه، ولا يُعْذَرُ أحدٌ بالجهلِ[1] كما أسلفتُ، فاعتبروا يا أُولي الألبابِ والأبصارِ.

وهٰذا الرَّجلُ المهتدي إلى الإسلامِ قد صاحَبَني منذُ عامِ ١٣٥٥هـ، وحضَرَ دروسي، وكثيراً ما راجَعَني في تفهُّمِ معاني بعضِ الآياتِ القرآنيةِ والأحاديثِ النبويَّةِ، وقد حَسُنَ إسلامُه، فأسألُ اللهَ تعالى أن يُثبِّتَني وإيَّاهُ وسائرَ المسلمينَ على الإيمانِ، وأن يُديمَ لنا التوفيقَ، وأن يرزُقَنا حُسنَ الخاتمةِ، آمين.

*****

الآيةُ السادسةُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً . فأمَّا الَّذينَ آمَنُوا باللهِ واعْتَصَموا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُم في رَحْمةٍ مِنهُ وفَضْلٍ ويَهديهِم إليهِ صِراطاً مُستقيماً﴾[2].

وقد خاطبَ اللهُ تعالى بهٰذا الخطابِ العامِّ عامَّةَ البشرِ وكافَّةَ بني آدم، وأخبرَ أنَّهُ قد جاءَ إليكُم برهانٌ مِن جانبِ ربِّكُم العليمِ الحكيمِ، وهٰذا البرهانُ والحجَّةُ هو رسولُ اللهِ محمَّدٌ ﷺ، وقد جاءَكُم رسولُ اللهِ يرشِدُكُم إلى الحقِّ ويهديكُم إلى صراطٍ مستقيمٍ، وهو رحمةٌ مهداةٌ لكُم مِن ربِّكم اللطيفِ الحكيمِ.

(١) لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة.

(٢) النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥.

وأنْزَلْنا إليكُم أيُّها النَّاسُ القرآنَ نوراً مُبيناً؛ تتنوَّرونَ بهِ، فتجتَنِبونَ ظلماتِ الشِّركِ وتلويثاتِ الأوثانِ والأندادِ، فتعرِفونَ ربَّكُم الواحدَ الصَّمَدَ، فلا تعبدونَ إلا إيَّاهُ وحدَه، فإنْ آمنتُم باللهِ وصدَّقتُم بوحدانيَّتِه وكلامِه ورسولِه واعتصمْتُم باللهِ عامِلينَ بكلامِه وأوامِرِه؛ فسيُدخِلُكم في رحمةٍ منهُ وفضلٍ، ويُنيلُكم سعادةَ الدَّارينِ، فبعدَ إيمانِكُم وظهورِ صلاحِكم وأهليَّتِكم للهدايةِ يوفِّقكُم ويوصلُكم إلى رضاهُ ورضوانِه صِراطاً مستقيماً.

وإنَّما أرسلَ اللهُ تعالى هٰذا الرَّسولَ العربيَّ الأمِّيَّ لرحمتِكُم أيها الناسُ وتربيَتِكُم وتزكيةِ نفوسِكم، فهو ﷺ برهانٌ عظيمٌ وجَلِيٌّ؛ يُبيِّنُ لكُم حقيقةَ الإيمانِ الصَّحيحِ باللهِ عزَّ وجلَّ، وجميعَ ما تحتاجونَ إليهِ مِن أمرِ دينِكم ودنياكُم، فهو ﷺ بسيرتِه العمليَّةِ برهانٌ وحُجَّةٌ؛ كما أنه ﷺ برهانٌ في دعوتِه العلميَّةِ الشَّرعيَّة.

وأنزلنا إليكُم أيها الناسُ بما أوحينا إليه كتاباً مِن لَدُنَّا، هو كالنورِ بيِّنٌ في نفسِه ومبيِّنٌ لكلِّ ما أُنزلَ لبيانِه، فبهِ تنجلي لكم الحقائقُ، بحيث لا يشتَبِه فيها مَن تدبَّرهُ وعَقَلَ معانيَه.

مثالُ ذٰلك: توحيدُ اللهِ في أُلوهيَّتِه وربوبيَّتِه، وهو أثبتُ الحقائقِ وأعلى ما يصلُ إليهِ البشرُ مِن المعارفِ، وأفضلُ ما تتزكَّى بهِ النفوسُ وتترقَّى بهِ العقولُ، وقد بُعِثَ بهِ جميعُ رسلِ اللهِ إلى جميعِ الأممِ، فكان كلٌّ منهم يدعو أُمَّته إليه، ولكنَّ مِن الأممِ مَن لا يفقهُ معنى التَّوحيدِ فيُلْبسونَه بالشِّركِ في الألوهيَّةِ؛ كاتِّخاذِ المسيحِ إلٰهاً، بل اتِّخاذِ مَن دونَه مِن مُقدَّسيهم آلهةً أو أنصافَ آلهةٍ، يزعُمونَ أنَّهُم وسطاءُ بينَهم وبينَ اللهِ في كلِّ ما ينفعُهُم ويضرُّهم في معاشِهم ومعادِهم، وبالشركِ في الرُّبوبيَّة باتخاذِ أحبارِهم ورهبانِهم أرباباً مِن دونِ اللهِ، فيَشْرعونَ

لهُم مِن الدِّينِ ما لم يأْذَنْ بِهِ اللهُ، ويُحِلُّونَ لهُم، ويُحرِّمونَ عليهِم فيتَّبِعونَهم.

فأرسلَ اللهُ تعالى هٰذا البرهانَ محمداً ﷺ؛ لبيانِ هٰذه الحقيقةِ؛ لأنَّ مَن أشركَ مِن أهلِ الكتابِ وأمثالِهم مِن الأممِ القديمةِ كالهنودِ والكلدانيِّينَ والمصريينَ واليونانِ والصينيِّينَ كانوا يقولون: إنَّ الإِلٰه واحدٌ، وبعضُهم كان يصرِّح بمثلِ كلمةِ التوحيدِ عندنا أو بها نفسِها، ولكنَّهم كانوا معَ ذٰلك مشركين؛ يزعُمونَ أنَّ بعض البشرِ أو الحيوانِ أو الجمادِ ينفعُ أو يضرُّ بصفةٍ خارقةٍ للعادةِ، فيتوجَّهونَ إلى تلك الأشياءِ المعتقَدةِ توجُّهَ العبادةِ، وبعضُهم كانوا يزعُمونَ أنَّ ما جاءتْ بهِ رسلُهم مِن أحكامِ الدِّينِ غيرُ كافٍ في بيانِ الدِّينِ، فيضعُ رؤساؤهُم أحكامَ الحلالِ والحرامِ، سواءٌ وافقَ ما جاءَ بهِ الرسولُ أم لا، فبهٰذا تغلْغَلَتِ الوثنيةُ في جميعِ الأديانِ، وأفسَدَتْها على أهلِها، فقلَّد بعضُهم بعضاً فيما ورِثَهُ منها.

فأنزلَ اللهُ تعالى لهداية البشر هٰذا النورَ المبينَ القرآنَ، فكانَ أشدَّ إبانةً لدقائقِ مسائلِ التوحيدِ وخفاياها مِن نورِ الكهرباءِ المتألِّقِ في هٰذا العصرِ، فبيَّنَ لمَن يفهمُ لغتَه حقيقةَ التوحيدِ بالدَّلائلِ، والبراهينِ الكونيةِ العقليةِ، وضرَبَ الأمثالَ الماديةَ والمعنويةَ، وضروبَ القَصَصِ والمواعظِ والهدايةِ إلى النظرِ والتجاربِ، وكَشَفَ ما رانَ على هٰذه العقيدةِ مِن شُبُهاتِ المُضِلِّينَ وأوهامِ الضَّالينَ التي مَزَجَتْها بالشِّركِ مَزْجاً، وجَمَعَ بينَ الضِّدَّينِ بل النَّقيضينِ جمْعاً، وتمكَّنَ في نفوسِ النَّاسِ، فقرَّر رسولُ اللهِ ﷺ التوحيدَ، واجتَثَّ جذورَ الوثنيَّةِ بالبراهينِ القطعيَّةِ.

فالذينَ يعتَصِمونَ بهٰذا القرآنِ يُدْخِلُهم اللهُ تعالى في رحمةٍ خاصةٍ بهِ، لا

يُدْخِلُ فيها سواهُم، وفضلٍ خاصٍّ لا يتفضَّلُ بهِ على غيرِهم، فيا خسارةَ المُعْرِضينَ! ويا طوبى للمعتصمينَ!

وقد صدَقَ وعدُ اللهِ للصَّادقينَ ففازَ مَن اعتصمَ بهِ مِن الأوَّلينَ، وخابَ وخَسِرَ مَن أعرضَ مِن الآخِرينَ، فعسى أن يَعْتَبِرَ بذلك المنتمونَ إلى هٰذا الدِّينِ في هٰذا العصرِ.

وعن هٰذا قالَ بعضُ العارِفينَ[1]:

العِلْمُ قالَ اللهُ قالَ رسولُهُ	ومَا سِوى ذاكَ وَسْواسُ الشَّياطينِ
كُلُّ العُلومِ سِوى القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ	إلَّا الحَديثَ وإلَّا الفِقْهَ في الدِّينِ

وقالَ بعضُ العُلماءِ:

أَهْلُ الحديثِ هُمُ أَهْلُ الرَّسُولِ وإنْ	لَمْ يَصْحَبُوا شَخْصَهُ أَنْفاسَهُ صَحِبُوا[2]

* * * * *

الآية السابعة من سورة الأعراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْآتِكُم وريشاً ولِبَاسُ التَّقْوى ذٰلكَ خَيْرٌ ذٰلك مِنْ آياتِ اللهِ لعَلَّهُمْ يَذَّكَّرونَ﴾[3].

قدِ نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ بني آدمَ فِي هٰذه الآيةِ وأَمثالِها؛ عرَّبَهم

---

(١) يُنسب نحو هٰذا الشعر للإمام الشافعي رحمه الله، فانظر «ديوان الشافعي» (ص ١٣٨).

ولفظ (العارفين) مما لا نحبِّذ أن يستعمله أهل السنة؛ لأنه من ألفاظ مبتدعة الصوفية.

وانظر: «روضة المحبِّين» (ص ٤٠٢) للعلاَّمة ابن القيم.

(٢) انظر له: «الحطة...» (ص ٦٧) بتحقيقي.

(٣) الأعراف: ٢٦.

وعجمَهم، ذكَرَهم وأُنثاهُم، فامتنَّ عليهم بعدَ أن أنْبَأَهُم بما كانَ مِن عُرْيِ سَلَفِهم الأوَّلِ، بما أَنعمَ بِهِ عليهِم مِن اللِّباسِ على اختلافِ درجاتِه وأَنواعِه مِن الأدْنى الذي يستُرُ السوأَةَ عن أَعينِ النَّاسِ إلى أنواعِ الحُلَلِ التي تُشْبِه ريشَ الطَّيرِ في وقايةِ البدنِ مِن الحَرِّ والبردِ بسترِ جميعِ البدنِ، وما في ذٰلك مِن أنواعِ الزِّينةِ والجَمالِ اللائقةِ بجميعِ ذُكرانِ البشرِ وإناثِهم.

فهو جلَّ جلالُه يقولُ: يا بَني آدَمَ! إنَّا بما لنا مِن القدرةِ والنِّعمةِ والرَّحمةِ قد خَلَقْنا لأجْلِكُم ومنافعِكم مادةَ اللباسِ مِن القطنِ والصوفِ والحريرِ وغيرِها، وعلَّمناكُم بما خَلَقْنا فيكُم مِن الغرائزِ والقوى والأعضاءِ وسائلَ صُنْعِ اللباسِ فيها؛ كالزراعةِ، والغزلِ، والنَّسجِ، والخياطةِ، وإنَّ مِنَنَ اللهِ تعالى بهٰذه الصناعاتِ على أهلِ هٰذا العصرِ أَضعافُ مِنَنِه على المتقدِّمينَ مِن شعوبِ بني آدمَ، فيجبُ أن يكونَ شكرُهم لهُ تعالى أَعظمَ.

فيا أيُّها الإنسانُ! أنتَ المخاطَب بهٰذا الخِطابِ الرَّبَّانيِّ، أفلا تجتهدُ وتسعى في فهمِ خطابِ ربِّك؟ أفلا تُحافِظُ على وحدانيَّتِه بهٰذه النعمِ والآياتِ؟ ألا تَتَّقي الشركَ والإشراكَ والكفرَ والإلحادَ؟

ولباسُ التقوى هو الخيرُ الذاتيُّ؛ يعني: فزيِّنْ نفسكَ بتقوى اللهِ، وزكِّها بتوحيدِ اللهِ، وهٰذا هو الخيرُ الأبديُّ.

فيجبُ عليكُم أن تُلاحِظوا هٰذه النِّعَمَ الإلٰهيَّةَ لعلَّكُم تتذكَّرونَ وحدانيَّةَ ربِّكُم وقدرتَه القاهرةَ، فلا تعبُدوا إلَّا إيَّاهُ، ولا تخضعوا إلا لهُ جلَّ جلالُه.

وهٰذه الآيةُ ترشِدُنا إلى الصنائعِ، والاكتسابِ، والزراعةِ، والحياكةِ، وأنواعِ الصناعةِ؛ كما أنَّها تُنَبِّهُنا إلى السَّتْرِ والتَّسَتُّرِ، وأَنَّ كشفَ العورةِ سوءٌ وعارٌ

وشَنَارٌ، وهٰذا عامٌّ في جميعِ بني البشرِ؛ مِن جنسِ الأبيضِ والأحمرِ والأسودِ والأصفرِ، ﴿فاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَلْبابِ﴾.

* * * * *

الآية الثامنة فيها أيضاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الجنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سوآتِهِما إِنَّهُ يَراكُم هُو وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنا الشَّياطِينَ أَولياءَ لِلَّذينَ لا يُؤمِنونَ﴾[1].

هٰذا النِّداءُ عامٌّ أيضاً لجميعِ بني آدم؛ عرَبِهم وعجَمِهم، قد خاطَبَهُم اللهُ تعالى في مقامِ الوعظِ والتَّذكيرِ ـ ناهياً إيَّاهُم ـ أَنْ لا يَفْتَتِنُوا ولا يَغْتَرُّوا بوساوسِ الشيطانِ كما وَسْوَسَ لأبي البشرِ آدمَ عليهِ السلامُ بإظهارِ النصحِ له والمحبَّةِ، حتى أخرجَ الأبوينِ مِن الجنَّةِ، فمَن قَبِلَ وسوسةَ الشيطانِ؛ ابتُلِيَ بالعصيانِ، فيكون مِن أهْلِ الخُسرانِ والخِذْلانِ، فنعوذ باللهِ مِن الشَّيطانِ ونزغاتِه ووساوسِه.

ومِن المصائبِ على البشرِ أنَّ أكثرَ المؤمنينَ بطبِّ الدينِ الروحيِّ في هٰذه القرونِ الأخيرةِ لا يقِفونَ فيها عندَ حدودِ ما أنزلَ اللهُ على رسولِه وما فهِمَهُ منهُ رواتُـه مِن السَّلَفِ الصالِحِ، بل زادوا ـ وما زالوا يزيدونَ ـ فيهِ مِن الخُرافاتِ والبدعِ والضَّلالاتِ، فيُنَفِّرونَ مِن الدِّينِ العقلاءَ القاصِرينَ.

والشياطينُ إنما يتصرَّفون ويوسوسونَ [في] مَن يَقبلُ قولَهم من المشركينَ وأهلِ الضَّلالِ؛ لأنَّ سنَّة اللهِ قد جَرَتْ في التَّناسُبِ بينَ أنواعِ المخلوقاتِ المتجانسةِ والمتشاكِلَةِ، أن يكونَ الشياطينُ الذينَ هُم شرارُ الجنِّ أولياءَ لشرارِ

---

(1) الأعراف: ٢٧

الإنسِ ، وهُم الكفارُ والمشركونَ وعبَّادُ القبورِ والأرواحِ ؛ ﴿إنَّهُمُ اتَّخَذوا الشَّياطينَ أَوْلِياءَ مِن دُونِ اللهِ ويَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدونَ﴾[1].

فأولياءُ الشَّيطانِ هُم أَصحابُ الوساوسِ والأوهامِ والخرافاتِ والطُّغيانِ مِن أهلِ الطَّواغيتِ والدَّجَلِ والنِّفاقِ، فنعوذُ باللهِ مِن شرِّ الشيطانِ وشرِّ أَوليائِه مِن الإنسِ والجانِّ.

فيا ابنَ آدَمَ! إذا لم تفهَمْ هٰذا الخطابَ الإلٰهيَّ ولم تعرِفْ هٰذا الأمرَ الرَّبَّانيَّ ؛ فأَنت خارجٌ عن حيِّزِ الآدميَّةِ، فتكونَ أَسيراً بيدِ الشَّيطانِ، فهو يلعبُ بكَ كيفَ يشاءُ، وقد أَخبرَ اللهُ تعالى أَنَّ الشَّيطانَ وقبيلَه يرونَ بني آدَمَ في هٰذه الحياةِ الدُّنيا فيُوَسْوِسونَهم ويضلُّونَهم، وأَمَّا ابنُ آدمَ فلا يرى الشيطانَ على حقيقتِه وصورَتِه، وإِنْ رآه على غيرِ صورتِه كالحيَّةِ والشيخِ المتصوِّفِ ونحوِهم!

وعلى أيِّ حالٍ؛ فإنَّ الشَّياطينَ إنَّما يؤثِّرونَ على مَن أَطاعُوهُم مِن المشركينَ وعَبَدةِ القبورِ والأرواحِ ، لا المؤمنِينَ الموحِّدينَ المخلِصينَ.

اللهُمَّ اجْعَلْنا مِن عبادِك المؤمنينَ الموحِّدينَ المخلِصينَ، وعُذْنا يا ربَّنا مِن وساوسِ الشياطين ودسائسِهم، سواءً شياطينِ الجنِّ والإنسِ أجمعين.

* * * * *

الآية التاسعةُ فيها أيضاً: ﴿يا بَني آدَمَ خُذوا زِينَتَكُم عندَ كُلِّ مسجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولاَ تُسْرِفوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ﴾[2].

---

(١) الأعراف: ٣٠.

(٢) الأعراف: ٣١.

هٰذا النِّداءُ والخطابُ الإلٰهيُّ عامٌّ شاملٌ لجميعِ بني آدَمَ رجالاً ونساءً، ويدلُّ على بعثةِ النبيِّ ﷺ إلى جميعِ البشرِ.

فسترُ العورةِ لازمٌ على جميعِ بني آدمَ رجالاً ونساءً، وهٰذا أصلٌ مِن أصولِ الإسلامِ؛ لحفظِ كرامةِ البشرِ، ورقيِّهم على سائرِ الحيوانات.

والدِّينُ الإسلاميُّ إنَّما شرَعَهُ اللهُ تعالى لإصلاحِ البشرِ ديناً ودُنيا، فهو طبُّ الخالقِ الحكيمِ العليمِ الخبيرِ، ولذا قال: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفوا﴾، بل الزَموا الاعتدالَ والاقتصادَ.

﴿إنَّهُ﴾ تعالى ﴿لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ﴾؛ أي: إنَّ ربَّكُم الذي أنعمَ عليكُم بهٰذه النِّعَمِ لمنفَعَتِكم لا يحبُّ المسرفينَ في أمرِهم كلِّه، بل يعاقِبُهم على الإسراف.

فبهٰذه الآيةِ يُرشِدُ اللهُ تَعالى عبادَه عامَّةً إلى الاقتصادِ في المعيشةِ، وتدبيرِ المنزلِ على اجتنابِ ما حَظَرَه الشَّرعُ مِن الإسرافِ والتبذيرِ والبخلِ والتقتيرِ.

فتدبَّرْ أيُّها الآدميُّ كلامَ ربِّكَ الحكيمِ وتفهَّمْهُ إنْ كنتَ مِن بني آدَمَ.

وقد سمَّى اللهُ الحكيمُ اللباسَ زينةً، وهو في الحقيقةِ كذٰلك؛ فإنَّ الإنسانَ إذا تَعرَّى عَنِ اللباسِ يكونُ أقبحَ منظراً وأشنعَ مظهراً مِن الكلبِ والخنزيرِ؛ كما هو غيرُ خفيٍّ على أهلِ العقلِ والدِّينِ.

وكذٰلك الأكلُ والشربُ؛ لأجلِ حفظِ الحياةِ والقوَّةِ والصحَّةِ، وهٰذا إنما يعتدلُ بالاعتدالِ والتوسُّطِ، وأمَّا إذا أكلَ فوقَ الشِّبَعِ، أو شربَ فوقَ الرِّيِّ؛ فتفسدُ معِدتُه، وتتغيَّرُ صحَّتُه، فيُبْتلى بأمراضٍ مهلكةٍ كما لا يخفى.

وكذلك الإفراطُ والتفريطُ في اللباسِ والبناءِ والأساسِ والجِماعِ، فكلُّها مُضِرٌّ ومهلِكٌ، والخيرُ كلُّ الخيرِ في التوسُّطِ والاقتصادِ، فتنبَّه.

حكايةٌ تناسِبُ المقامَ:

وهي ما ذكرها العلامةُ إبراهيمُ الأزرقيُّ في كتابه «تسهيلُ المنافع»[1]:

«رُوِيَ أنَّه اجتمعَ عندَ كِسرى أنو شِروانَ أربعةٌ مِن الحكماءِ: عراقيٌّ، وروميٌّ، وهنديٌّ، وسودانيٌّ، فقال كِسرى لهم: لِيَصِفْ لي كلٌّ واحدٍ منكُم الدواءَ الذي لا داءَ معه.

فقالَ العراقيُّ: الدواءُ الذي لا داءَ معهُ أن تشرَبَ كلَّ يومٍ على الرِّيقِ ثلاث جُرَعٍ مِن الماءِ الساخنِ.

وقالَ الرُّوميُّ: الدواءُ الذي لا داءَ معهُ أن تَسِفَّ كلَّ يومٍ قليلاً مِن حَبِّ الرَّشادِ[2].

وقالَ الهنديُّ: الدواءُ الذي لا داءَ معه أن تأْكُلَ كلَّ يومٍ ثلاثَ حبَّاتٍ مِن الهليلجِ الأسودِ[3].

والسوادنيُّ ساكتٌ، وكانَ أحذَقَهم وأصغَرَهم سنّاً.

---

(١) ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١ / ٤٠٧)، وقد طبع الكتاب طبعات كثيرة، أولها سنة ١٣٠٤هـ، فانظر: «ذخائر التراث العربي الإسلامي» (ص ٣٣٥).
وينبغي الحذر من بعض ما فيه من الخرافات والانحرافات.

(٢) هو نوع من البقول.

(٣) قال في «المعجم الوجيز» (ص ٢٩): «شجرٌ ينبت في الهند وكابُل والصين، ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار».

فقال له الملكُ: ألا تتكلَّمُ؟

فقالَ: يا مَوْلانا! إنَّ الماءَ الساخنَ يذيبُ شحْمَ الكِلى ويُرخي المعِدَةَ، وحبُّ الرشاد يُهيجُ الصَّفراءَ، والهليلج الأسود يهيج السَّوداء.

فقال: فما الذي تقولُ أنتَ؟

فقال: يا مولانا! الدواءُ الذي لا داءَ معه أن لا تأْكلَ إلَّا بعدَ الجوعِ، فإذا أكلتَ؛ فارفعْ يدكَ قبلَ الشَّبَعِ؛ فإنك لا تشْكو علَّةً إلا علَّة الموتِ.

فقالوا كلُّهم: صدَقَ، والاحتماءُ في وقتِ الصحَّة خيرٌ مِن شربِ الأدويةِ عندَ المرضِ».

قلتُ: وتصديقُه في قوله تعالى: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفوا﴾.

* * * * *

الآية العاشرةُ فيها أيضاً: ﴿يَا بَني آدَمَ إمَّا يأْتِيَنَّكُم رُسُلٌ مِنكُم يقُصُّونَ عليكُمْ آياتِي فمَنِ اتَّقَى وأَصلَحَ فلا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزنونَ﴾[1].

هٰذا النِّداءُ والخطابُ الإلٰهيُّ عامٌّ أيضاً لكافَّةِ بني آدمَ منذُ بعثَ اللهُ تعالى إليهم الرسلَ عليهم الصلواتُ والتسليماتُ، وهٰذا يُؤذِنُ بأَنَّ اللهَ تعالى قد خاطَبَ كلَّ أُمَّةٍ على لسانِ رسولِها، وبيَّنَ لهُم أُصولَ دينِهم، فمَن اتَّقى ما نهى اللهُ تعالى عنهُ، وأَصلحَ نفسَه بما أَوجبَ اللهُ تعالى عليهِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يترتَّبُ على التَّكذيبِ والعصيانِ مِن عذابِ الدُّنيا والآخرةِ ولا هُم يحزَنونَ عندَ الجزاءِ يومَ القيامةِ.

---

(١) الأعراف: ٣٥

فيا آدميُّ! إنْ كُنتَ مِن بني آدمَ؛ فاجتَهِدْ في فَهْمِ خِطابِ ربِّكَ؛ لأنَّكَ أهلٌ لذلك، ولا تضيِّعْ أهليَّتَك فتكونَ مِن الخاسِرينَ الهالكينَ.

وهٰذه الآيةُ كقولِه تعالى: ﴿أَلا إنَّ أَولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عليهِم ولا هُمْ يَحزَنونَ . الَّذينَ آمَنُوا وكَانُوا يتَّقونَ﴾[1]، فتدبَّر.

* * * * *

الآيةُ الحاديةَ عشرةَ في الأعرافِ أيضاً: ﴿قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكُمْ جَميعاً الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرْضِ لا إلٰهَ إلَّا هُو يُحيي ويُميتُ فآمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يؤمِنُ باللهِ وكَلِماتِهِ واتَّبِعوهُ لعَلَّكُم تَهْتَدونَ﴾[2].

هٰذا خطابٌ عامٌّ لجميعِ البشرِ مِن العربِ والعجمِ، وجَّهَهُ إليهِم محمدُ ابنُ عبدِاللهِ بنِ عبدِالمطَّلب بنِ هاشمٍ العربيُّ الأميُّ بأمرِ اللهِ تعالى، ينبِّئُهُم به أنَّهُ رسولُ اللهِ تعالى إليهِم كافَّةً، لا إلى قومِه العربِ خاصةً، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً ونَذيراً﴾[3].

اللهُ ﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرْضِ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ يُحْيي ويُميتُ﴾، فله التصرُّفُ والتَّدبيرُ في العالمِ كلِّه، وهو ربُّ العالمينَ، لا شريكَ لهُ، فلا إلٰهَ إلا هو، ولا معبودَ [بحقٍّ] إلا هُو؛ كما أنَّهُ لا خالِقَ إلا هُو، ولا ربَّ إلا هُو.

﴿فآمِنُوا﴾ يا أيُّها النَّاسُ مِن أيِّ أممٍ كنتُم؛ عرباً أو عجماً، شرقاً أو غرباً ﴿باللهِ﴾ الواحدِ في ربوبيَّتِه وأُلوهيَّتِه، وآمِنوا برسولِه الممتازِ بأنَّهُ الأميُّ الذي بعثَهُ

(١) يونس: ٦٢.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) سبأ: ٢٨.

في الأميِّينَ العربِ رسولاً إلى الخلقِ أجمعينَ؛ يعلِّمهم الكتابَ والحِكمةَ، ويزكِّيهم، ويطهِّرهم مِن خرافاتِ الشِّركِ والرَّذائلِ والجهلِ والتفرُّقِ والتَّعادي بعصبيَّات الأجْناسِ واللغاتِ والأوطانِ[1]؛ ليكونوا بهدايتِه أمَّةً واحدةً يتحقَّقُ بها الإخاءُ العامُّ في البشرِ.

فيا أيُّها النَّاسُ! اتَّبعوا هٰذا النبيَّ لعلَّكم تهتدونَ إلى ما فيه سعادتُكُم في الدَّارينِ.

وممَّا يدخُلُ في اتِّباعِه ﷺ: تعلُّمُ لغتِه التي هي لغةُ الكتابِ الإلٰهيِّ الذي أوحاهُ اللهُ تعالى إليهِ، وأمرَ جميعَ مَن اتَّبعهُ ودانَ بدينِه أن يتعبَّدَه بهِ، وأن يتلوَه في الصَّلواتِ وغيرِ الصَّلواتِ؛ معَ التدبُّرِ والتأمُّلِ في معانيهِ، وذٰلك موقوفٌ على إتقانِ لغتهِ، وهي العربيةُ الفصيحةُ، فيجبُ على المسلمينَ أن يبلِّغوا الدعوةَ إلى كلِّ قومٍ بلغتِهم، حتى إذا ما هدى اللهُ تعالى مَن شاءَ منهُم ودَخلَ في الإسلامِ؛ علَّموهُ أحكامَه ولغتَه، كذٰلك كانَ يفعلُ الخلفاءُ الفاتِحونَ في خيرِ القرونِ وما بعدَها، إلى أن تغلَّبَتِ الأعاجمُ على العربِ، وسَلَبوهُم المُلكَ؛ كأبي مسلمٍ الخراسانيِّ[2]؛ فإنَّهُ منَعَ عن تعلُّمِ العربيةِ، وعزَّرَ مَن يتكلَّم بها أو يعلِّمُها.

والحالُ أنَّ اللهَ تعالى بعثَ محمَّداً ﷺ إلى النَّاسِ كافةً، وأوجَبَ عليهم أن يتعلَّموا لسانَه بقدْرِ ما يُطيقونَه، ولا شكَّ أنَّ لكلِّ فردٍ مِن أفرادِ بني آدم أهليَّةَ تعلُّم العربيةِ وتعلُّم معناها، ولهٰذا أمرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يخاطِبَهم ويأمُرَهم وينهاهُم فيتَّبعوهُ ويمتَثِلوا أمرَه.

---

(١) بل وعصبيات المذاهب والأحزاب!

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١٠ / ٦٧ ـ ٧٤) لابن كثير، وما سيأتي (ص ١٢٠).

وجملةُ القولِ أنَّ إقامَةَ دينِ الإسلامِ متوقفةٌ على فهمِ لغةِ كتابِه المنزَّلِ مِن ربِّ العالَمينَ، وسنَّةِ نبيِّه المرسَلِ رحمةً للعالَمينَ.

والعاقِلُ يفهَمُ مِن هٰذه الآياتِ المحكمةِ أنَّ القرآنَ هدايةٌ دينيَّةٌ عربيةٌ، وأنه حكـومـةٌ دينيَّةٌ عربيةٌ، عربيةُ اللسانِ عامةٌ لجميعِ شعوبِ نوعِ الإنسانِ، وقد قضى اللهُ تعالى أن يوحِّدَ بِهِ أَلسنةَ جميعِ الأممِ، فيجعَلَهُم أُمةً واحدةً بالعقائدِ والعباداتِ والآدابِ والشَّرعِ واللغةِ؛ لِيكونوا بنِعْمَتِه إخواناً.

وقد كتبَ رسولُ اللهِ ﷺ كُتُبَهُ إلى قيصرِ الرومِ وكسرى الفرسِ ومقوقسِ مصرَ بلغةِ الإسلامِ العربيَّةِ، وكذا الخلفاءُ الراشدونَ والصَّحابةُ والتابعونَ رضيَ اللهُ عنهُم صَدَعوا بهٰذا الأمرِ، ونشروا هٰذا الدينَ بلغتِه.

فالآيةُ الجليلةُ تصرِّحُ بأنَّهُ يجبُ على كلِّ فردٍ مِن أفرادِ الإنسانِ أنْ يعلمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أرسلَ محمداً ﷺ إلى جميعِ الثَّقَلينِ؛ الإنسِ والجنِّ، وأوجَبَ عليهِم الإيمانَ بِهِ وبِما جاءَ بِهِ وطاعتَه، وأن يحلِّلوا ما حَلَّلَ اللهُ ورسولُه، ويحرِّموا ما حرَّم اللهُ ورسولُه، وأن يوجِبوا ما أَوجبَه اللهُ ورسولُه، فمَن لم يؤمِنْ به؛ فهو كافرٌ.

وهٰذا أصلٌ متَّفقٌ عليه بين المسلمينَ أجمعين.

واعلمْ أنَّ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ إنَّما علَّقا الأحكامَ بالصفاتِ المؤثرةِ فيما يحبُّه اللهُ تعالى وفيما يُبْغِضُه، ولم يخُصَّ العربَ بنوعٍ مِن أحكامِ الشَّرعِ، إذ كانتْ رسالتُه ودعوتُه لجميعِ البريَّةِ عامةً، وإنَّما نزَّلَ اللهُ تعالى القرآن بلسانِهم، وهٰذا لأجْلِ التبليغِ؛ لأنَّهُ بلَّغَ قومَه أوَّلاً، ثمَّ بواسطتِهم بلَّغ سائرَ الأممِ، وأمَرَه اللهُ تعالى بتبليغِ قومِه أوَّلاً، ثم بتبليغِ الأقربِ فالأقربِ إليهِ؛ كما أمرَ بجهادِ

الأقربِ فالأقربِ؛ كما ذكَرَه الإمامُ أحمدُ بنُ تيميةَ في رسالته «إيضاحِ الدِّلالة في عمومِ الرِّسالة»[1].

* * * * *

الآيةُ الثانيةَ عشرةَ في سورةِ يونُس: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّما بَغْيُكُم على أنفُسِكُم مَتاعَ الحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إلينا مرجِعُكُم فنُنَبِّئُكم بما كُنْتُم تَعْمَلونَ﴾[2].

قد خاطبَ اللهُ تعالى النَّاسَ كلَّهم؛ عربَهم وعجمَهم، أحمرَهم وأسودَهم وأبيضَهم؛ أنَّ ضررَ بغيِكم وظلمِكم وشِركِكم وكُفْرِكم راجعٌ على أنفُسِكم، فتستَحِقُّونَ غَضَبَ اللهِ ولعنتَهُ وعذابَه يومَ القيامةِ، وإنَّما تتمتَّعونَ عدَّةَ أيامٍ في الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ كالحيوانِ والوحوشِ، ثمَّ بعدَ الموتِ تُرْجَعونَ إلى اللهِ، فيُخبرُكم بأعمالِكم الظَّاهرةِ والباطنةِ، فيُجازيكم عليها؛ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فشرٌّ، فالناسُ كلُّ فردٍ منهم مخاطَبونَ ومكلَّفونَ ما دامَ عاقلاً بالغاً.

فتدبَّرْ أيُّها الإنسانُ حتى لا تصيرَ مِن أهلِ الخسرانِ.

يا أيُّها الظَّالِمُ الباغي! إنَّما تَبْغي في هٰذه الحياةِ الفانيةِ عدَّةَ أيَّامٍ زائلةٍ، ثمَّ تذوقُ عذابَه وعقابَه أبدَ الآبدينَ، ودَهْرَ الدَّاهِرينَ، بلا انقطاعٍ في دارِ الجزاءِ.

فالآيةُ قد دلَّتْ على أنَّ البغيَ يُجازَى أصحابُه عليهِ في الدُّنيا والآخرةِ، أمَّا في الآخرةِ؛ فلا شكَّ فيه ألبتَّةَ؛ لأنَّها دارُ الجزاءِ بلا مِراءٍ، وأمَّا في الدُّنيا فمشاهدٌ معلومٌ؛ لأنَّه تعالى يقولَ: ﴿إنَّما بغيُكم على أنفُسِكم﴾.

---

(١) وهي مطبوعة ضمن «مجموعة الرسائل المنيرية»، فانظر (٢ / ٩٧ ـ ١٥٢) منها.

(٢) يونس: ٢٣.

ويؤيِّده ويفسِّره قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «ما مِن ذنبٍ يعجِّلُ اللهُ تعالى لصاحِبِه العُقوبَةَ في الدُّنيا معَ ما يدَّخِرُ لهُ في الآخرةِ مِن البَغْيِ وقطيعةِ الرَّحِمِ»، رواه البخاريُّ في «الأدبِ المفردِ»، والترمذيُّ، وابنُ ماجه[1].

وعن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ثلاثٌ هُنَّ رواجِعُ على أهْلِها: المكْرُ والنَّكْثُ والبَغْيُ»، ثم تلا رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿يا أيُّها النَّاسُ إنَّما بَغْيُكُم على أنْفُسِكُم﴾، ﴿ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْلِهِ﴾[2]، ﴿ومَنْ نَكَثَ فإنَّما ينْكُثُ على نَفْسِه﴾[3]. رواه أبو الشيخِ، وابنُ مردويه[4].

والمرادُ: نكثُ العهودِ معَ اللهِ تعالى، وكذا معَ الناسِ.

---

(1) رواه: البخاريُّ في «الأدب المفرد» (ص ٦٧)، والترمذي (٢٥١٣)، والطيالسي (٨٨٠)، وأبو داود (٤٩٠٢)، وابن ماجه (٤٢١١)، وابن حبان (٢٠٣٩)، والحاكم (٢ / ٣٥٦)، وأحمد (٥ / ٣٦ و٣٨)؛ عن أبي بكرة الثقفي؛ بسندٍ صحيحٍ.

وهو في «الإتمام...» (٢٠٣٩٠) يسَّر الله تمامه.

(2) فاطر: ٤٣.

(3) الفتح: ١٠.

(4) رواه الخطيب في «تاريخه» (٨ / ٤٥٠) من طريق مروان بن صبيح عن عبدالعزيز بن صُهيب عن أنس.

قال الذهبي في «الميزان» (٤ / ٩٠) بعد أن ساقه من طريق أبي نُعيم في ترجمة مروان: «لا أعرفه، وله خبرٌ منكرٌ».

ثم أورد له هٰذا الحديث!

ووافقه الحافظ ابن حجر في «اللسان» (٦ / ١٦)، ووقع في النسخة خلطٌ يصحَّح من أصله.

وأورد الحديث السيوطيُّ في «الدر المنثور» (٣ / ٣٠٣)، وزاد نسبتَه للدَّيلمي، ومنه أخذ المصنِّف تخريجه!

وقد جُرِّبَ أنَّ البغْيَ مِنْ أقوى أسبابِ العداوةِ والبغضاءِ بينَ الأفرادِ، وإيقادِ نيرانِ الفِتنِ والثوراتِ في الأقوامِ ، والباغي لا يعيشُ، ولا يدومُ، وينثلُّ عرشُه عاجِلاً.

وأما بغيُ أهلِ أوروبا على أهلِ آسيا وظلمُها عليهم؛ فبسببِ ظلمِ وبغيِ أهلِ آسيا على أنفسِهم؛ فإنهم غيَّروا أمرَ اللهِ، وأشركوا بعبادةِ اللهِ، واعتمدوا على غيرِ اللهِ مِن الأمواتِ والأرواحِ ، وتلوَّثوا بفسادِ الأخلاقِ والتَّقاطعِ والتَّخاذلِ وتركِ كلِّ ما هدى اللهُ تعالى إليهِ في كتابِه مِن أسبابِ السِّيادةِ والاستخلافِ في الأرضِ كما نبَّهنا عليهِ مراراً، ومَن يستخدِمونَهم مِن ملوكِنا وأمرائِنا وحُكَّامِنا هم أشرُّ علينا مِنهم أنفسِهم، بل لم يسودونا ولم يغلِبونا في قطرٍ مِن أقطارِنا إلا بمساعدةِ ساداتِنا وكُبَرائنا إيَّاهُم علينا، ولو تُبْنا نحنُ إلى اللهِ؛ لتابَ اللهُ علينا، ولكنْ أينَ توبتُنا وقد وُجِدَ في زمانِنا مَن هُم أشدُّ شِرْكاً وكُفراً بالنِّعَمِ والمُنْعِمِ الواحدِ الأحدِ جلَّ جلالُه، وهُم قومٌ يدعونَ غيرَ اللهِ مِن الأمواتِ في أشدِّ أوقاتِ الضيقِ والشِّدَّةِ والخطرِ، ويدَّعونَ معَ ذٰلك أنَّهم مسلمونَ، ويصلُّونَ ويحجُّونَ، بل يدَّعونَ أنَّهم العلماءُ والعرفاءُ والساداتُ الكامِلونَ؛ لأنَّهم ينطِقونَ بكلمةِ التوحيدِ الموروثةِ بألسنتِهم، وهم لا يعقِلونَ معناها، ولا يراعونَ حدودَها وحقوقَها، واللهُ تعالى يقول: ﴿فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلٰهَ إلا اللهُ﴾[1].

والعبدُ الضعيفُ قد كنتُ ألفتُ رسالةً في هٰذه المسألةِ، وسمَّيتُها: «حكمُ اللهِ الواحدِ الصَّمَدِ في حكمِ الطالبِ مِن الميِّتِ المدد»[2]، وهي مطبوعةٌ في

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) وقفتُ عليها قديمةً متآكلة الأوراق، وهي من محفوظات خزانة أخينا الشيخ ربيع ابن هادي.

مصر منشورةً، وكذا تفسيري على سورةِ فاتحةِ الكتابِ «أوضحُ البرهان في تفسيرِ أمِّ القرآن»، وهٰذا مطبوعٌ في مكة في مطبعةِ أمِّ القرى، وكذا رسالَتُنا المسمَّاةُ «مفتاحُ الجنَّةِ لا إله إلا اللهُ»[1]، وكذا «البرهانُ الساطع في تبرُّؤ المتبوعِ مِن التَّابع» المطبوعتان في مصر، ففي كلِّها تحقيقُ هٰذه المسائلِ حقَّ التَّحقيق، فعليكَ بمطالَعَتِها أيُّها الطالبُ للحقِّ، وباللهِ التوفيقُ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ قد جاءَتْكُم موعِظَةٌ مِنْ ربِّكُم وشِفاءٌ لِما في الصُّدورِ وهُدىً ورحمةٌ للمُؤْمنينَ﴾[2].

وهٰذا النداءُ والخطابُ عامٌّ شاملٌ أيضاً لعامَّةِ الناسِ كلِّهم.

وهٰذا الذي جاءَ مِن اللهِ تعالى إنَّما هو القرآنُ، وهو موعظةٌ وتذكرةٌ مِن ربِّكُم الرحيمِ، وشفاءٌ لما في الصُّدورِ والقلوبِ مِن أمراضِ الشكوكِ والشُّبَهِ والكفرِ والشِّركِ والنفاقِ والعقائدِ الفاسدةِ الزَّائغةِ، ويحصلُ بهِ الهدايةُ والرحمةُ مِن اللهِ تعالى، ولكنَّه إنَّما ينتفعُ بهِ المؤمنونَ المصدِّقونَ العامِلونَ، وفي حقِّهم يكونُ شفاءً وهُدىً ورحمةً.

فآمِنوا باللهِ ورسولِه وهٰذا الكتابِ واهتدوا بهديِه، وهٰذا لا شكَّ خيرٌ وأفضلُ مِن أموالِ الدُّنيا وزخارِفِها الفانيةِ كلِّها، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لمَّا لم يؤمِنُوا بهٰذا الكتابِ ولم يهتَدوا بهدْيِه؛ ابتلُوا وتَلَوَّنوا بالشِّركِ وعبادةِ الأوثانِ والدَّجَلِ

---

(١) وقد جدَّدتُ طبعَها قريباً بتعليقات وتحقيقات مفيدة إن شاء الله، نشر المكتبة الإسلامية، عمان.

(٢) يونس: ٥٧.

والخرافاتِ، فاستَحَقُّوا النَّارَ وبئسَ المصيرُ.

واعلَمْ أنَّ هٰذا الكتابَ جامعٌ لكلِّ ما يحتاجُ إليهِ البشرُ؛ مِن موعظةٍ حسنةٍ لإصلاحِ أخلاقِكُم وأعمالِكم الظاهرةِ والباطنةِ، وحكمةٍ بالغةٍ لإصلاحِ خفايا أنفسِكم وشفاءِ أمراضِها الباطنةِ، وهدايةٍ واضحةٍ للصِّراطِ المستقيمِ الموصلِ إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ، ورحمةٍ خاصَّةٍ للمؤمنينَ هي شِجْنَةٌ[1] مِن رحمةِ ربِّ العالَمينَ العامَّةِ للخلقِ أجمعينَ؛ يتراحَمونَ بها فيما بينَهُم، فتَكْمُلُ بها رحمتُه تعالى لهُم ورحمتُهُ تعالى للعالَمينَ برسولِه إليهِم.

نكَّـرَ اللهُ تعـالى هٰذه الكلمـاتِ الأربـعَ: ﴿مـوعـظةٌ﴾، ﴿شفـاءٌ﴾، ﴿هُـدىً﴾، ﴿رحمـةٌ﴾؛ لتعظيمِ أمرهنَّ وكمالهنَّ، فيجبُ الاتِّعاظُ بها إيماناً وتسليماً؛ لأنها مِن مالِكِ أمرِ النَّاسِ ومربِّيهم بفضلِهِ ورحمتِه وعلمِه وحكمتِه:

الأولى: المـوعظةُ؛ أي: الوصيةُ بالحقِّ والخيرِ واجتنابِ الباطلِ والشرِّ بأساليبِ الترغيبِ والترهيبِ التي يرقُّ لها القلبُ، فتبعثُ على الفعلِ أو التركِ.

الثانيةُ: شفاءُ ما في الصُّدورِ؛ أي: شفاءُ جميعِ ما في القلوبِ مِن أدواءِ الشركِ والكفرِ والنفاقِ والجهلِ وسائرِ الأمراضِ النفسيَّةِ التي يضيقُ الصدرُ بها؛ مِن شكٍّ في الإيمـانِ، ومخـالفـةٍ للوجدانِ، وإضمارٍ للحقدِ والحسدِ والبغيِ والعدوانِ، وحبٍّ للباطلِ والظلمِ والشرِّ، وبغضٍ للخيرِ والحقِّ والعدلِ.

الثالثةُ: الهدى، وهو بيانُ الحقِّ المنقذِ مِن الضَّلالِ في الاعتقادِ بالبرهانِ

---

(١) أي: مشتقة من الرحمٰن. انظر: «مقاييس اللغة» (٣ / ٢٤٨)، وهٰذا التعبير مأخوذ من حديث نبوي صحيح، رواه الإمام مسلم (٢٥٥٥) عن عائشة.
وفي الباب عن عدد من الصحابة.

وفي العملِ ببيانِ الحِكَمِ والمصالح في أحكام الأعمال.

الرابعةُ: الرحمةُ للمؤمنينَ، وهي ما تُثْمِرُهُ لهُم هدايةُ القرآنِ، وتُفيضهُ على قلوبِهم مِن رحمةِ ربِّهم الخاصَّةِ، فمِن آثارِها: إغاثةُ الملهوفِ، وبذْلِ المعروفِ، وكفِّ الظلمِ، ومنْعِ التعدِّي والبغيِ... وغيرِ ذلك مِن أعمالِ الخيرِ والبرِّ ومقاومةِ الشرِّ.

وقد وَصَفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[2]، وهٰذه الرحمةُ لا توجَد على كمالِها إلَّا في المؤمنينَ المهتَدينَ، ولا يُحرَمُها إلا الكافرونَ المادِّيُّونَ.

وكانَ الصَّحابةُ رضيَ اللهُ تعالى عنهُم مِن أرحمِ الناسِ بإخوانِهم المؤمنينَ، معَ شدَّتِهم على الكافِرينَ المعانِدينَ؛ كعمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ.

وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تُنْزَعُ الرَّحمةُ إلَّا مِن شقيٍّ». رواه أبو داود، والترمذيُّ[3].

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) البلد: ١٧.

(٣) رواه: أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢ / ٣٠١ و٤٦١)؛ من طريق منصور بن المعتمر عن أبي عُثمان مولى المغيرة عن أبي هريرة.

وهٰذا سندٌ حسنٌ؛ لحال أبي عثمان؛ فقد روى عنه جمعٌ، ووثَّقه ابنُ حبان، وصحَّح له جماعة.

وأورد الحديث الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١ / ٤٧٨) وسكت عنه، وهو دليلُ الحسن عنده غالباً.

وقالَ ﷺ: «الرَّاحِمونَ يرحَمُهُمُ الرحمٰنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمْكُم مَن في السماءِ». رواه الترمذيُّ، وأبو داود[1].

وقد خاطبَ اللهُ تعالى بهٰذه الآيةِ أُمَّةَ الدَّعوةِ المحمَّديَّةِ، وهُم جميعُ النَّاسِ.

فموعظةُ القرآنِ وما فيهِ مِن شفاءِ أمراضِ الكفرِ والنفاقِ والرذائلِ، وهديُهُ إلى الحقِّ والفضائلِ، موجَّهاتٌ إلى جميعِ النَّاسِ، وخَصَّ المؤمنينَ بما تثمِرُهُ الثلاثُ مِن الرَّحمةِ؛ لأنَّهُم هُم الذين ينتَفِعونَ بها.

فيا أيُّها المؤمنونَ! انتَفِعوا بمواعظِ ربِّكُم، واسْتَشْفوا بها مِن أمراضِكُم بسلوكِ سبيلِها؛ كي تكونوا أهلاً لرحمةِ اللهِ الرحيمِ الكريمِ، فتفوزوا بسعادةِ الدَّارينِ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُم في شَكٍّ مِن

(١) رواه: أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٣٤)، وأحمد (٢ / ١٦٠)؛ من طريق عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن ابن عَمْرو.

وقال الترمذي: «حسنٌ صحيحٌ».

وتعقَّبه الحافظ ابن حجر في «الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع» (ص ٦٤) بقوله: «وكأنه صححه باعتبار المتابعات والشواهد، وإلا؛ فأبو قابوس لم يرو عنه سوى عمرو ابن دينار، ولا يُعرف اسمه، ولم يوثِّقه أحد من المتقدِّمين.

قلتُ: وقد وثَّقه ابن حبان، فكأن الحافظ لم يعتدَّ به! وهو بِهِ ـ في مثلِه ـ حقيقٌ!

وانظر: «المجلس الأول من مجالس ابن ناصر الدين» (ص ٥٩ ـ ٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (رقم ٩٢٥).

دِيني فلا أعبُدُ الَّذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ ولْكِنْ أعبُدُ اللهَ الذي يتوفَّاكُم وأُمِرْتُ أنْ أكونَ مِن المؤمِنينَ﴾[1].

يقولُ اللهُ تعالى لرسوله محمدٍ ﷺ آمِراً إيَّاهُ: قُلْ يا محمَّدُ: يا أيُّها الناسُ! إنْ كنتُم في شكٍّ مِن صحةِ ما جئتُكم بهِ مِن الدينِ الحنيفِ الذي أوحاهُ اللهُ تعالى إليَّ، ولكنِّي على يقينٍ أنَّ ما جئتُ بهِ حقٌّ مِن اللهِ تعالى، فأنا لا أعبدُ الذينَ تعبدونَهم أنتُم مِن دُونِ اللهِ مِن الملائكةِ أو الروحانيِّينَ أو الأولياءِ أو أيِّ شيءٍ كانَ، ولكنْ إنَّما أعبدُ اللهَ الَّذي خَلَقَكُم فأحياكُم ثمَّ يميتُكُم، وأنا مؤمنٌ باللهِ وحدَهُ لا شريكَ له.

وهٰذا الخطابُ عامٌّ لجميعِ البشرِ؛ عربِهم وعجمِهم، مغربيِّهم ومشرقيِّهم، فأكثرُ الناسِ مِن الهنودِ والصينيينَ والجابانيينَ والإفريقيينَ والأوروبيينَ والأمريكانيينَ والروسيينَ وأمثالِهم لمَّا لم يفهَموا كلامَ اللهِ ربِّهم ولم يعتنُوا بهِ؛ لم يعرِفوا ربَّهُم حقَّ المعرفةِ، فأشركوا بهِ شركاءَ مِن العُلويِّينَ والسُّفليينَ؛ تقليداً لآبائِهم، أو اكتفاءً بعقولِهم وآرائِهم، فهٰؤلاءِ هُم الذين لمَّا يرونَ يومَ القيامةِ أنَّ الحيواناتِ العُجْمَ تصيرُ تُراباً بعدَ القِصاصِ؛ يقولونَ: يا ليتني كنتُ تُراباً[2]! وأنى لهُ ذٰلك؟ بل مصيرهُ إلى النارِ وبئسَ المصيرُ؛ لماذا؟ لأنَّهم ضيَّعوا أهليَّتَهم للإيمانِ باللهِ تعالى وفَهْمِ كلامِ ربِّهم العليمِ الحكيمِ.

فتنبَّهْ أيُّها الإنسانُ! ولا تُضَيِّعْ أهليَّتَكَ في الخُسرانِ.

* * * * *

---

(١) يونس: ١٠٤.

(٢) كما حكاه سبحانه عنهم في النبأ: ٣٧ ـ ٤٠، وانظر ما سبق (ص ٢٦).

الآيةُ الخامسةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿**قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُم الحقُّ مِن ربِّكُم فمَنِ اهْتَدى فإنَّما يهْتَدي لنفسِهِ ومَن ضلَّ فإنَّما يضِلُّ عليها ومَا أنا عليكُمْ بوكيلٍ**﴾[1].

وهٰذا الخطابُ عامٌّ أيضاً، قد أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه محمداً ﷺ أن يخبرَ النَّاسَ كلَّهُم ويقولَ لهُم: إنَّ الدينَ الذي جاءَهُم بِهِ مِن عندِ اللهِ تعالى هو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيهِ ولا شكَّ فيهِ، فمَنِ اهتدى بِهِ وآمَنَ واتَّبَعَهُ؛ فإنما يعودُ نفعُ ذٰلك الاتباعِ على نفسِه، وأمَّا مَن ضلَّ عنهُ ولم يهْتَدِ بهِ ولم يتَّبِعْهُ وتمادى على كُفرِهِ وشِرْكه وعنادِه باتِّباعِ آبائِه وأحبارِه ورهبانِه؛ فإنما يرجِعُ وَبالُ ذٰلك عليهِ.

فأنتَ يا محمَّدُ قُل لهُم: ما أنا عليكُم بوكيلٍ وموكَّلٍ حتى تكونوا مؤمنينَ بِهِ، وإنَّما أنا نذيرٌ لكُم، والهدايةُ على اللهِ تعالى، فمَن هداهُ اللّهُ تعالى ورزَقَهُ التوفيقَ؛ يكونُ مِن المحظوظينَ وأهْلاً لرحمةِ ربِّ العالَمينَ ورضاهُ وجنَّتِه، وأمَّا مَن أضلَّهُ اللهُ تعالى؛ فهو مِن المحرومينَ مِن الرحمةِ والجنَّةِ، بل يكونُ مِن الخاسِرينَ الهالِكينَ، الذين هُم في عذابِ جهنَّم خالدونَ.

* * * * *

الآيةُ السادسةَ عشرةَ في سورةِ إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: ﴿**وأنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يأْتِيهِمُ العذابُ فيَقولُ الَّذينَ ظَلَمُوا ربَّنا أخِّرْنا إلى أجَلٍ قريبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ونتَّبِعِ الرُّسُلَ أوَلَمْ تَكُونُوا أقسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِن زَوالٍ**﴾[2].

---

(١) يونس: ١٠٨.

(٢) إبراهيم: ٤٤.

قد أَمرَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ أن يُنْذِرَ الناسَ كلَّهم ويخوِّفَهم عذابَ يومِ القيامةِ؛ ليجتَهِدوا في تخليصِ أنفسِهم منهُ.

وهٰذا الخلاصُ إنَّما يَحْصُلُ بالإيمانِ باللهِ ورسولِهِ وكتابِه، والاهتداءِ بهِ، واتِّباعِه؛ لأنَّ الظَّالمينَ والكافرينَ سَيَنْدَمونَ ذٰلك اليومَ لمَّا يرونَ العذابَ، ويقولونَ: ربَّنا أَخِّرْنا إلى أجلٍ قريبٍ؛ نُجِبْ دعوتَكَ، ونُؤمِنْ بكَ، ونتَّبِعِ الرُّسلَ محمداً ﷺ فمَن قَبْلَه، ولٰكِنْ لا يُستجابُ لهُم؛ لأنَّهم كَفروا وظَلموا أَنفُسَهُم في دارِ التَّكليفِ، وافتَتَنُوا بدُنْياهُم وما هُم فيهِ مِن شُؤونِ المُلْكِ والرِّياسةِ والمالِ والجاهِ والأتْباعِ، فيُقالُ لهُم: أَوَلَمْ تَكونوا أيُّها الظَّالمونَ المعانِدونَ الكافِرونَ المنكرونَ مغرورينَ ومفتونينَ؟ وتدَّعونَ أنَّكم على الحقِّ؟ وتُقْسِمونَ أنَّكُم مستمِرُّونَ على ما أَنْتُم عليهِ مِن العقيدةِ والمذهبِ والعملِ ما لكُم مِن زوالٍ؟ فاليومَ لا ينفَعُكم النَّدمُ ولا التوبةُ؛ لأنَّه يومُ الجزاءِ.

* * * * *

الآيةُ السابعةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿**هٰذا بَلاغٌ للنَّاسِ ولِيُنْذَروا بهِ ولِيَعْلَموا أنَّما هُو إلٰهٌ واحِدٌ ولِيَذَّكَّرَ أُولو الألْبابِ**﴾[1].

يعني أنَّ هٰذا القرآنَ العربيَّ بلاغٌ للنَّاسِ كلِّهم؛ عربِهم وعجمِهم، شرقيِّهم وغربيِّهم، يُبلِّغهُ محمدٌ ﷺ لجميعِ الخلقِ أجمعينَ؛ مِن إنسٍ وجنٍّ؛ ليُخْرِجَ بهِ النَّاسَ مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، مِن ظُلماتِ الجهلِ والشكِّ والشركِ والخرافاتِ إلى نورِ الإيمانِ والتوحيدِ، فمَن آمَنَ بهِ وصدَّقَه وفَهِمَ ما فيهِ مِن الأوامرِ والنَّواهي والحِكَمِ الإلٰهيَّةِ؛ فقد فازَ فوزاً عظيماً، ومَن تدبَّرَهُ وتذكَّرَهُ؛ يَعْلَمْ يقيناً

---

(1) إبراهيم: ٥٢.

أنَّمـا اللهُ إلٰهٌ واحدٌ، لا معبودَ [بحقٍّ] سواهُ، كما أَنَّهُ لا خالقَ سواه، ولا رازقَ سواهُ، ولا ربَّ سواهُ.

فيا أيُّها النَّاسُ! إنْ فهِمْتُم كلامَ ربِّكُم الرؤوفِ اللطيفِ الرحيمِ الحكيمِ؛ فلَكُم الحظُّ الأوفرُ مِن فضلِ اللهِ ورحمتِه، وإلاَّ فأنتُم مِن المحرومينَ الخاسِرينَ.

وهٰذا الأمرُ الإلٰهيُّ يرشدُنا إلى أَنَّهُ يجبُ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ عموماً، والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ[1] خصوصاً، أن يبلِّغَ كلُّ فردٍ منهم كلامَ القرآنِ إلى مَن يليهم مِن الناسِ، ويُفهِّموهُم معناهُ، ويُبيِّنوا نتائجَ العملِ والإيمانِ بهِ، ويوضِّحوا وَخامَةَ حالِ مَن كفَرَ بهِ وخالَفَه أو جَهِلَ معناهُ.

وهٰذا هو الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ.

وأَمَّـا إذا لَمْ يُؤدُّوا هٰذه الـوظيفةَ، وتَساهلوا فيه، أو ضيَّعوا أعمارَهم في الفلسفةِ والأدبيَّاتِ كما هُم عليهِ اليومَ؛ فقد خانوا اللهَ تعالى ورسولَهُ وعامَّةَ الخلقِ أجْمَعينَ، فتنبَّهْ وتدبَّرْ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةَ عشرةَ في سورةِ النَّحْلِ: ﴿وأنْزَلْنا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ ولَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) قطعة من حديث رواه: أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣ و٢٦٨٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)؛ عن أبي الدرداء بسند حسن.

وأوله: «مَن سلك طريقاً يلتمس منه علماً»، وهو مخرَّج في «الإتمام» (٢١٧٦٣).

(٢) النحل: ٤٤.

وهـذا خطابٌ لرسـولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ؛ آمِراً إيَّاهُ لِيبيِّنَ للنَّاسِ كلِّهم؛ عربِهم وعجمِهم، ما أنْزَلَ اللهُ تعالى إليهِ مِن القرآنِ، لعلَّ هٰؤلاءِ الناسَ يتفكَّرونَ فيهِ، ويتدبَّرونَ معانيهَ، وينتفعونَ بإرشاداتِه، فيهتدوا، فيفوزوا بالنَّجاةِ والسَّعادةِ في الدَّارينِ.

فأنْتَ يا رسولي محمَّدُ ﷺ تُفصِّلُ لهم ما أُجْمِلَ، وتُبيِّنُ لهُم ما أَشْكَلَ

فالنبيُّ ﷺ قد بيَّنَ للنَّـاسِ كلِّهم كلَّ ما في الذِّكْرِ الحكيمِ مِنَ الأوامرِ والزَّواجرِ والمصالحِ ، فالأحاديثُ النبويَّةُ قوليَّةٌ وفعليَّةٌ كلُّها بيانٌ لما في القرآنِ الحكيمِ.

فعليكَ أيُّهـا الإنسانُ أنْ تتعلَّمَ القرآنَ والأحاديثَ النبويَّةَ بالتدبُّرِ والتفكُّرِ والتفهُّمِ والتـأمُّـلِ؛ لتقفَ على حقائقِ الدينِ والإسلامِ كما هي، وتكونَ مِن المحظوظينَ الفائزينَ، رزقني اللهُ تعالى وإياكَ فوزَ الدَّارين.

فمَن لا يعلمُ معنى القرآنِ، ولم يتدارَسْ أحاديثَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولم يطَّلعْ على كُتُبِ السُّنَّةِ والصِّحاحِ والمسانيدِ والسُّننِ؛ فهو لم يعرفْ مِن الدينِ والإسـلامِ إلا اسمَه، كَمَنِ اغترَّ بالقشرِ الخالي عن اللُّبِّ، وهٰذا لا شكَّ من المحـرومينَ؛ لأنـه محـرومٌ عن فَهْمِ الـدينِ، ومحـرومٌ عن فهمِ كلامِ ربِّ العالَمينَ، ومحرومٌ عن فهمِ معاني أحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ.

فتدبَّرْ أيُّها الإنسانُ بماذا يمتازُ الإنسانُ عن الحيوانِ، وبماذا يمتازُ الموحِّدُ المؤمنُ عن المشركِ الكافرِ.

* * * * *

الآيةُ التاسعةَ عشرةَ في سورةِ الإسراءِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا للنَّاسِ في هٰذا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فأبى أَكْثَرُ النَّاسِ إلَّا كُفوراً﴾[1].

أي: بيَّنَّا للنَّاسِ كلِّهم ـ عربِهم وعجمِهم ـ الحججَ والبراهينَ القاطعةَ، ووضَّحنا لهم الحقَّ، وشرحناهُ وبسطناهُ مِن كلِّ وجهٍ؛ مِن العبرِ والحكمِ والأحكامِ والوعدِ والوعيدِ؛ ليستعملوا عقولَهم، ويفهموا ذٰلك، ولكنْ أَبى أكثرُ النَّاسِ عنِ الإيمانِ بهِ، وتدبُّرِ معانيهِ، إلا كفوراً؛ أي: جُحوداً للحقِّ وإعراضاً عنه، فبدَّلوا نعمةَ اللهِ كُفراً، واعتَمدوا على ما كتَبَ أسلافُهم مِن الفلسفةِ والسَّفسطةِ[2] مِن الأشعارِ والدواوينِ والأغلوطاتِ[3]، وظنُّوها حِكَماً وديناً وفضلاً وكمالاً، وبذٰلك صاروا محرومينَ عن فهمِ كلامِ ربِّ العالمين، وتمادَوا على كفرِهم وضلالِهم وشركِهم وهم لا يشعرون، ولهٰذا يقولون يومَ القيامةِ حين يُلْقَوْن في جهنَّم: ﴿واللهِ ربِّنا مَا كُنا مُشْرِكين﴾[4].

فمَن كانَ في هٰذهِ الحياةِ الدُّنيا أعمى عنْ حُججِ اللهِ وآياتِه وبيِّناتِه فهو في الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلاً[5]؛ عياذاً باللهِ مِن ذٰلك.

---

(١) الإسراء: ٨٩.

(٢) انظر في بيانها «المنتقى النفيس» (ص ٦٥ ـ ٦٧).

(٣) هي ما يغَلَّطُ به من المسائل. «مختار الصحاح» (ص ٤٧٨).

وفي النهي عنها حديث لا يصح، رواه: أبو داود (٣٦٥٦)، وأحمد (٥ / ٤٣٥)، والطبراني في «الكبير» (١٩ / ٣٨٠)، وسعيد بن منصور في «سننه» (١١٧٩)، وغيرهم؛ عن معاوية، وفي سنده عبدالله بن سعد، وهو مجهول، وهو مخرَّجٌ في «الإتمام» (٢٣٧٣٧).

(٤) الأنعام: ٢٣.

(٥) إشارة إلى الآية ٧٢ من سورة الإسراء.

فهٰذه الآيةُ تفيدُ أنَّهُ يجبُ على كلِّ إنسانٍ معرفةُ ربِّه، والإيمانُ بهِ وبرسولِه، ومعرفةُ كلامِه معرفةً تامةً، وهذا لا يختصُّ بهِ شخصٌ دونَ شخصٍ، وفردٌ دونَ فردٍ؛ كما لا يخفى، فتدبَّرْ.

والعجَب أنَ كثيراً ممَّن يدَّعونَ العلمَ والدينَ ويقرؤونَ القرآنَ كثيراً لا يفهمونَ مِن معاني القرآنِ إلَّا شيئاً يسيراً، ولا يعتنونَ بفهْمِ معانيهِ اعتناءَهم بفهْمِ كتبِ الفلسفةِ والمعمَّيات والألغازِ، بل يعتقدونَ أن فهمَ معانيهِ متعذِّرٌ في هٰذه الأزمنةِ؛ لانسدادِ بابِ الاجتهادِ، وإنَّما يعرِفُ معنى القرآنِ والحديثِ الأئمةُ المجتهدونَ، وهُم قد انقرضوا منذُ تاريخِ أربع مئةِ عامٍ، فنحنُ لا نعملُ إلَّا بما قالَه وكتبَهُ مَن قبلَنا مِن أئمَّتنا، فبذٰلك صاروا محرومينَ عن فهمِ كلامِ ربِّهم الرحمنِ الرحيمِ، فلهٰذا ترى أنَّ أكثرَهم ابْتُلوا بالشِّركِ الأكبرِ والكفرِ الأقبحِ؛ كدعاءِ الأمواتِ والاستمدادِ مِن أهلِ القبورِ وهُم لا يشعُرونَ؛ كما لا يخفى على مَن لهُ أدنى عقلٍ ودينٍ.

* * * * *

الآيةُ العشرونَ في سورةِ الكهفِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾[1].

فيا أيُّها الإنسانُ! إنَّ ربَّكَ جلَّ جلالُه قد بيَّنَ للنَّاسِ في هٰذا القرآنِ طريقَ الحقِّ، ووضَّحَ الأمورَ كلَّها وفصَّلها؛ كيلا تضلَّ فتشقى، وأنت تكثِرُ الجدالَ

---

(١) الكهف: ٥٤ ـ ٥٥

والمعـارضـةَ للحقِّ بالباطلِ ، وتقولُ: إن آباءَنا وأسلافَنا ما كانوا يعرِفونَ الدِّينَ والإسلامَ قبلَ أن تعرِفَه أنت، وإنَّ الشيخَ الفلاني كانَ أعلمَ منك ؛ لأنه كان سيداً عظيماً، وأكبرَ منك سنّاً.

فبهٰـذه المجـادلاتِ الباطلةِ صارَ تقليدُهم الجامدُ لآبائِهم سبباً لتركِهم الإيمانَ باللهِ وحدَه، فهُم لا يرجِعونَ ولا يتوبونَ إلَّا أنْ تأتيَهُم سنَّةُ الأوَّلينَ ـ وهي إهلاكُهُم إنْ لم يؤمِنوا ـ، أو يأتِيَهُم العذابُ قُبلًا ؛ كما أهلكَ قومَ نوحٍ بالطُّوفانِ وأغرَقهم أجمعينَ.

وهٰذا ابنُ نوحٍ رسولِ اللهِ ﷺ لمَّا لم يؤمِنْ ولم يَتُبْ؛ لم ينفَعْهُ كونُه ابنَ رسولِ اللهِ، ففيه عبرةٌ عظيمةٌ للذينَ يعتمدونَ على النَّسبِ، ويفتَخِرونَ بأنَّهم الأسيادُ أو الشُّرفاءُ، ولا يؤمِنونَ باللهِ وحدَه، ولا يمتَثِلونَ أمرَه.

ولهٰذا قال عليٌّ رضيَ الله عنه:

إنَّ الـفَـتـى مَنْ يَقُـولُ ها أنــا ذا   لَيْسَ الـفَـتَـى مَنْ يَقـولُ كَانَ أَبي

وقيل:

ولا يَنْـفَـعُ الأَصْـلُ مِنْ هَاشِـمٍ   إذا كَانَـتِ الـنَّـفْسُ مِنْ بَاهِـلَهْ

وكما أهلكَ قومَ عادٍ وثمودَ وقومَ تُبَّعٍ وفرعونَ وهامانَ وقارونَ، وكما أهلكَ أبا جهلٍ وشيبةَ وربيعةَ، وكما أهلكَ كسرى وقيصرَ، وهٰكذا كلُّ ظالمٍ معاندٍ يهلكُهُ اللهُ تعالى ويأْخُذُه أخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ.

فيا أيُّها النَّاسُ! تعلَّموا كلامَ ربِّكُم، واتَّعِظوا بمواعظهِ، واستغفروهُ على ما مضى مِن الذُّنوبِ، فإنْ تُبتُم ؛ تابَ اللهُ عليكُم، وإن أصْرَرْتُم على ما أنتُم عليهِ،

وافتُتِنْتُم بزخارِفِكم واختراعاتِكم، أو ما علمْتُم أنها استدراجٌ فستكونُ سبباً لندامَاتِكم حيثُ لا ينفعُكم النَّدَمُ.

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والعشرونَ في سورة الحجِّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وهٰذا خطابٌ عامٌّ لجميعِ النَّاسِ، فيا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُم الذي خلَقَكُم، وأوْجَدَكم مِن العدمِ، وصوَّرَكُم فأحْسَنَ صُوركم، وركَّبَ فيكم العقلَ والفهمَ والإدراكَ؛ أي: فاحذروا عقابَه بطاعتِه، فآمِنوا به، ووحِّدوهُ، وخصِّصوا العبادةَ له تعالى وحدَه، ولا تُشْرِكوا بِهِ شيئاً؛ لا ملَكاً مقرَّباً، ولا نبيّاً مرسلاً، ولا وليّاً مِن الأولياءِ، ولا تتَّخِذوا له تعالى نِدّاً، ولا تكونوا ممَّن يعبدُ اللهَ على حرفٍ، ولا تجادلوا في اللهِ ودينِه بغيرِ علمٍ؛ لأنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ.

وهٰذه الساعةُ آتيةٌ قريبةٌ لا ريبَ فيها، فاحذروا، ولا تتَّبعوا كلَّ شيطانٍ مريدٍ؛ مِن الرُّهبانِ والأحبارِ الأكَّالينَ أموالَ الناسِ بالباطلِ، وشيوخِ الطُّرقِ الدجَّالينَ، والساداتِ الملحِدينَ، والرُّؤساءِ الجاهلينَ، فاتَّقوا ـ أيها الناسُ ـ ربَّكم وحدَه لا شريكَ لهُ.

فالنَّاسُ كلُّهم مخاطَبونَ ومكلَّفونَ بفهمِ هٰذا الخطابِ وأمثالِه مِن الخطاباتِ العموميَّةِ، فمَن فهِمَهُ وعملَ به؛ فقد فازَ في الدَّارينِ، وصارَ من المحظوظينَ، وأمَّا مَن أعرضَ عن فهمِه ولم يعمَلْ بِهِ؛ فقد صارَ مِن المحرومينَ الخاسرينَ،

---

(١) الحج: ١.

وكذا مَن عَمِلَ ببعضِه وخالَف بعضَه؛ كأكثرِ مَن يدَّعي الإسلامَ مِن مسلمي هٰذه الأعصرِ.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والعشرونَ في سورةِ الحجِّ أيضاً: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُم﴾ الآية[1].

وهٰذا الخطابُ عامٌّ أيضاً لجميعِ بني آدمَ؛ أحمرِهم وأبيضِهم، وشرقيِّهم وغربيِّهم، وإعلامٌ منهُ تعالى أنَّ كلَّ فردٍ منهُم قد خَلَقَهم اللهُ تعالى وأصلُه مِن تُرابٍ، وهو آدمُ أبو البشرِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثمَّ مِن بعدِه مِن نُطفَةٍ منيٍّ يُمْنَى.

فيرشِدُ اللهُ تعالى النَّاسَ كلَّهم إلى أن يستَعْمِلوا عقولَهم، ويستدلُّوا بوجودِ أنفسِهم وسائرِ الموجوداتِ على وجودِ اللهِ تعالى خالِقِهم ووحدانيَّتِه وقدرتِه وعلمِه، وهٰذا لا يحصُلُ إلا بفهْمِ كلامِه العربيِّ المنزَّلِ منهُ تعالى على رسولِ اللهِ ﷺ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ والعشرونَ فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّما أنا لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ﴾[2].

أمرَ اللهُ تعالى رسولَه محمداً ﷺ أنْ يخاطِبَ الناسَ كلَّهم قائلًا: إنَّما أنا

(١) الحج: ٥.

(٢) الحج: ٤٩

لكم نذيرٌ مبينٌ؛ أيْ: إنَّما أرسلني اللهُ تعالى إليكم جميعاً؛ نذيراً لكم، ومخوِّفاً إياكُم بين يدي عذابٍ شديدٍ، فآمِنوا باللهِ وحدَه، ولا تشرِكوا به شيئاً؛ لا في الرُّبوبيَّة، ولا في الخالقيَّةِ، ولا في الألوهيَّةِ والعبادةِ.

وأمَّا إن لم تؤمنوا ولم توحِّدوا؛ فاللهُ تعالى يعذِّبُكم عذاباً شديداً في نارِ جهنَّمَ خالدينَ فيها أبداً، وليسَ إليَّ مِن حِسابِكم مِن شيءٍ، فأمرُكُم إلى اللهِ وحدَه، إنْ شاءَ عجَّلَ لكُم العذابَ، وإنْ شاءَ أخَّره عنكُم، فالذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ لهُم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ، وأمَّا الذين سعَوْا في آياتِ اللهِ معاجِزينَ يُثبِّطونَ الناسَ عن مُتابعةِ النبيِّ ﷺ والعملِ بسنَّتِه؛ فأُولٰئكَ أصحابُ النارِ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والعشرونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّـذينَ تَدْعُـونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً ولوِ اجْتَمَعُوا لهُ وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلوبُ﴾**(1).

يخـاطِبُ اللهُ تعالى عامَّةَ الناسِ؛ عربَهم وعجمَهم، ذكرَهُم وأُنثاهُم، عالِمَهم وجاهِلَهم، ويأْمرُهم بالاستماعِ له وتفهُّم ما يقولُ مِن المثلِ.

انَّ الذينَ تدعونَ في عباداتِكم أو طلباتِكم وقضاءِ حاجاتِكم مِن دونِ اللهِ مِن الملائكةِ أو الكروبيينَ أو الروحانيِّينَ أو الأنبياءِ والأولياءِ أو أيِّ مدعوٍّ كانَ، لن يستطيعوا أبداً، ولا يقدِرونَ قطعاً، أن يخلُقوا ذُباباً، ولو اجتمَعَ أوَّلُهم وآخرُهم لأجلِ ذٰلك، والحالُ أنَّهُ أصغرُ المخلوقاتِ وأضعفُها، وإنَّما خلَقَهُ اللهُ تعالى لإذلالِ الجبَّارينَ والمتكبِّرينَ، ﴿وإنْ يسلُبْهُم الـذُّبابُ شيئاً لا يستَنْقِذوهُ منهُ

(1) الحج: ٧٣.

ضعُفَ الطَّالبُ والمطلوبُ﴾.

فيا أيُّها النَّاسُ! إنْ كانَ الأمرُ هٰكذا؛ كيفَ ظَنَنْتُم في بعضِ المخلوقينَ واعتَقَدْتُم أنَّهُ يضرُّكُم أو ينفعُكُم أو ينقِذُكم مِن عذابِ اللهِ، فعبدتموهُم، ونذرتُم له، أو توجَّهتُم إليه، فاتَّخذتُم هٰذه الأندادَ وهٰذه الأصنامَ وهٰذه الأوثانَ وهٰذه القبورَ التي بَنَيْتُم عليها القُببَ والبُنيانَ الشامخاتِ[1]، وجلستُم متوجِّهينَ إليها، راجينَ منهم وسائلينَ إيَّاهم وخائفينَ منهُم، وقد أخذَ الشيطانُ عقولَكم وزيَّنَ لكُم الشِّركَ باللهِ فأشركْتُم بربِّكم وأنتُم لا تشعرونَ؛ لأنَّكم جهِلْتُم معاني كتابِ ربِّكم الحكيمِ العليمِ، وأخرَجْتُم أنفسَكُم عن حيِّزِ الإنسانيةِ إلى حَضيضِ الحيوانيَّةِ، بل سعيرِ الشيطانيَّةِ، فمثلُكُم يقولونَ يومَ القيامَةِ حينما يرونَ الحيواناتِ تصيرُ تراباً يساقونَ إلى جهنَّم: يا ليتنا كنَّا تراباً؛ لأنَّكم ظلمْتُم أنفُسكُم بتضييعِكُم أهليَّتكم للإيمانِ باللهِ وفهمِ خطابِه، فلا تلوموا إلا أنفسَكُم أيُّها المجرمونَ، وتفكَّروا اليومَ في هٰذه الأمورِ تثبُّتاً؛ لتدارُكِ ذٰلك قبلَ الفواتِ.

* * * * *

الآيةُ الخامسةُ والعشرونَ في سورةِ الرومِ: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنا للنَّاسِ في هٰذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ولَئِنْ جِئْتَهُم بآيةٍ لَيقولَنَّ الَّذينَ كَفروا إنْ أنْتُم إلَّا مُبْطِلونَ**﴾[2].

وهٰـذا التمثيلُ عامٌّ لجميعِ الناسِ؛ ليعتبروا ويتَّعظوا فيهتدوا وينْتَفعوا،

---

(١) وفي كتـاب «معارج الألباب في مناهج الحق والصواب» للنُّعْمي تفصيل هٰذه المسألة، فانظره بتخريجي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٢) الروم: ٥٨.

ولكنَّ أكثـرَهُم [لم يتعـظوا ويهتـدوا وينتفعـوا] مِن خُبْثِ عقيدتِهم وتقليدِهم لأسلافِهم الجاهلينَ الخاسرينَ الذين اتَّخذوا الخرافاتِ والتُّرَّهاتِ ديناً، ويقولونَ في حقِّ الرسلِ الذينَ جاؤوا بالبيِّناتِ والحججِ الواضحاتِ: ليسَ هٰؤلاء إلا مُبطِلونَ مزوِّرونَ كذَّابونَ، كذٰلك يطبَعُ اللهُ على قُلوبِ الذينَ لا يعلمونَ، ولا يطلبونَ علمَ الدِّينِ، ولا يجتَهِدونَ لفَهْمِ كلامِ ربِّ العالَمينَ، بل يُصِرُّونَ على الخرافاتِ التي اعتقدوها، والتُّرَّهاتِ التي ابتدعوها، كما لا يخفى. فتدبَّر.

* * * * *

الآيةُ السـادسةُ والعشرونَ في سورةِ لُقمانَ: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مَوْلودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ والِدِهِ شيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فلا تغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا ولا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرورُ﴾[1].

وهٰذا خطابٌ ونداءٌ عامٌّ لكافةِ البشرِ؛ أسودِهم وأبيضِهم وأصفرِهم، قد أمرَهُم اللهُ تعالى بأَنْ يتَّقوا ربَّهم الذي خَلَقهم، ويؤمِنوا بهِ، وبكتابه الذي أنزَلَه، ونبيِّه الذي أرسلَه، وأمرَهم أَنْ يَخْشَوْا عذابَ يومِ الجزاءِ، ولا يغتَرُّوا بأولادِهم وأموالِهم وكثرةِ أتباعِهم؛ فإنَّ في ذٰلك اليومِ لا يَجْزي والدٌ عن ولدِه ولا مولودٌ عن والدِه شيئاً، ولا يسْأَلُ حميمٌ حميماً، ففريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ.

وهٰـذا وَعْـدٌ مِن اللهِ حقٌّ لا ريبَ فيه، فلا تغـرَّنَّكُم زينةُ الحياةِ الدُّنيا، وأمـوالُهـا، وأولادُهـا، وعمـاراتُها الشـامخةُ، وحكوماتُها المستبدَّةُ، والمذاهبُ المبتَدَعة، والطُّرقُ المخترعةُ، وجميعُ المريدينَ والأتباعِ والتلامذةِ؛ فإنَّها كلَّها فانيةٌ زائلةٌ، بل غالِبها وبالٌ على أربابِها، ففي ذٰلك يقولُ المغرورُ الكافرُ باللهِ

(١) لقمان: ٣٣.

وكتابه ورسوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[1].

فيا أيُّها الإنسانُ! اتَّقِ اللهَ حقَّ التَّقوى، واجتَهِدْ في فهمِ كلامِ ربِّ العالمين، وامتثالِ أمره، حتى لا تكونَ مِن المحرومينَ الخاسرين؛ لأنَّ الإنسانَ ـ واللهِ العظيمِ ـ لفي خُسرٍ وخُسران؛ إلَّا الذينَ جمعوا الأوصافَ الأربعةَ واتَّصفوا بها، فمَن جَمَعها فهو النَّاجي الرابحُ الفالحُ وصاحبُ الحظِّ العظيمِ.

ولا شكَّ أنَّ ذٰلك كلَّه موقوفٌ على معرفةِ معاني القرآنِ معرفةً صحيحةً، وهٰذا لا يحصُلُ إلَّا بالتعلُّم، والإنسانُ أهلٌ لذلك، ولهٰذا قد خاطَبَهم اللهُ تعالى وأَمَرَهم ونهاهُم، وأمَّا إذا لم يعرِفِ الإنسانُ معنى كلامِ رَبِّه معرفةً صحيحةً؛ فلا يمكِنُ له عبادةُ اللهِ حقّاً وصِدقاً، فلا ينفَعُه قيامُه في الأماكنِ المقدَّسةِ، ولا الطَّوافُ حولَ الكعبةِ؛ فإنَّ أَبا جهلٍ وأَبا لهبٍ كانا مِن ساكنيها، فتدبَّرْ.

نحنُ قد شاهَدْنا وجَرَّبْنا في هٰذا العصرِ أنَّ كثيراً مِن الدَّجَّالينَ، وإنْ رَطَنوا[2] برَطانةِ العربِ، ولكنَّهُم يعتقدونَ أنَّ الرسولَ ﷺ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم يعلمُ الغيبَ، وأنَّ روحَ عبدِالقادرِ الجيلانيِّ[3] يتصرَّفُ في العالمِ، ويغيثُ مَن استغاثَ به، وهو الغَوْثُ الأعظمُ. . . وهٰكذا له أمثلةٌ كثيرةٌ!

ولا شكَّ أنَّ هٰذا الاعتقادَ هو الشركُ الأكبرُ، الذي لا يغفِرُه اللهُ تعالى

---

(١) الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) تكلَّموا.

(٣) توفي سنةَ (٥٦١هـ)، طوَّل الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٤٣٩ ـ ٤٥١) ترجمته، وختمها بقوله: «وفي الجملة: الشيخ عبدالقادر كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه».

قلتُ: فمعظم هٰذه الأحوال التي حِيكَت حوله هي من جهل مَن يتسبون إليه!

أصلاً، ومعَ ذلك هُم مقيمونَ بالبلادِ المقدَّسةِ والحرمينِ الشَّريفينِ، فإذاً؛ مَن لم يفهَمِ القرآنَ فهماً صحيحاً، ولم يتدبَّرْ ولم يتفكَّرْ فيهِ؛ لا ينتفعُ بهِ كما لا يخفى، فيكونُ القرآنُ حجةً عليهِ، ولا يغترُّ بأقوالِ الناسِ إلَّا المغرورُ المفتونُ.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والعشرونَ في سورةِ سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فكافَّةُ الآدميينَ - عربِهم وعجمِهم - مكلَّفونَ بالإيمانِ بمحمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، وأنَّهُ رسولُ اللهِ، وأنَّ القرآنَ أنزلَه اللهُ تعالى إليهِ وحياً بواسطةِ جبريلَ عليهِ السلامُ؛ بشيراً للمؤمنينَ الموحِّدينَ بالرِّضا والرِّضوانِ، ونذيراً للكافرينَ والزَّنادقةِ الملحدينَ باللعنةِ والنيرانِ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ ذلك؛ لغلَبَةِ الجهلِ عليهِم، فيخالِفونَ لهذا الرَّسولَ، فلا يتَّبعونَ سنَّتَه، ولا يتعلَّمونَ دينَه وكلامَه، ولو كانوا يعلمونَ حقيقةَ الأمرِ؛ لآمنوا بهِ، واتَّبعوا النورَ الذي أنزلَه اللهُ تعالى إليهِ، وتعلَّموا وتفهَّموا كلامَه بالاعتناءِ التامِّ، فتنبَّه.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والعشرونَ في سورةِ فاطر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[2].

---

(١) سبأ: ٢٨

(٢) فاطر: ٣.

هٰذا الخطابُ عامٌّ أيضاً لجميعِ النَّاسِ؛ شرقيِّهم وغربيِّهم، عالمِهم وجاهِلِهم، وقد أمرَهم اللهُ تعالى جميعاً أن يذكُروا ويتذكَّروا نِعَمَ اللهِ التي أنعمَها عليهم؛ فإنَّه هو الذي خلقَهم، وربَّاهم، ورزقَهم، وهيَّأَ لهُم الأسباب، هل مِن خالقٍ غيرُ اللهِ؟ كلَّا؛ لا خالقَ إلَّا هو وحدَه لا شريكَ لهُ، ولا متصرِّفَ في الكونِ إيجاداً وإعداماً إلَّا هو وحدَه، فلا تعبُدوا إلا هو وحدَه؛ فإنَّهُ المستحقُّ للعبادةِ حقّاً.

فإنْ كانَ الأمرُ في الواقعِ هٰكذا؛ فأنَّى تُؤفكونَ أنتُم أيُّها المنكِرونَ الجاهِلونَ، وتُشركونَ به تعالى في عبادتِه غيرَه، فتَدْعونَ غيرَه، وترجونَ مِن غيرِه، وتخافونَ مِن غيرِه، وتَنْذُرونَ لغيرِه، وتحجُّونَ لبيتِ غيرِه وتطوفونَ بمرقدِهِ؟ أَما تفيقونَ مِن سكرتِكُم؟ أَما تقِفونَ عندَ حدِّكم في العبوديةِ له تعالى وحدَه؟

ولمَّا جَهِلَ الناسُ خطابَ ربِّهم، فضَلُّوا وأَضَلُّوا كما هو الشَّائعُ الذَّائعُ؛ صاروا يعبدونَ الأصنامَ والأوثانَ والأندادَ والقبورَ والمشاهدَ والأرواحَ؛ لأنَّهم ضيَّعوا عقولَهم بتقليدِ أحبارِهم ورهبانِهم ورؤسائِهم، فصاروا مِن المحرومينَ، وإنْ ظَنُّوا في هٰذه الحياةِ الدُّنيا أنَّهُم مِن المحظوظينَ، والظنُّ لا يُغني مِن الحقِّ شيئاً.

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والعشرونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ فلا تغرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ . إنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عدُوٌّ فاتَّخِذوهُ عدُوّاً إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعيرِ﴾[1].

---

(١) فاطر: ٥ ـ ٦.

هٰذا خطابٌ عامٌّ أيضاً لكافةِ البشرِ أجمعينَ، وتنبيهٌ لهم أنْ لا يغترُّوا بهٰذه الحياةِ الدُّنيا وزينتِها ودولَتِها وشوكَتِها؛ فإنَّها كلَّها دَنِيَّةٌ فانيةٌ زائلةٌ، وإنَّما الباقي ما أعدَّهُ اللهُ تعالى لأوليائه المؤمنينَ في دارِ الآخرةِ مِن الخيرِ العظيم، ولا يغرَّنَّكُم الشيطانُ، ويصرفَنَّكُم عن الإيمانِ باللهِ وحدَه، واتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّهُ هو العدوُّ المبينُ لكُم؛ يجتَهِدُ في إهلاكِكُم الأبديِّ الدائمِ، فلا تطيعوهُ أصلاً، بل اتَّخذوهُ عدوّاً؛ لأنَّهُ إنَّما يدعو ويرغِّبُ حِزْبَهُ ومَن يطيعُهُ ليكونوا كلُّهُم مِن أصحابِ السَّعيرِ.

نسألُ اللهَ القويَّ العزيزَ أنْ يجعَلَنا أعداءَ الشَّيطانِ، وأن يرزقَنا اتِّباعَ كتابه، والاتِّباعَ لطريقِ رسوله سيِّدِنا محمدٍ ﷺ.

فيا أيُّهـا النَّـاسُ! إنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ، فاستَعْملوا عقولَكم، وتعلَّموا كلامَ ربِّكم، وتفهَّموا خطابَ مولاكُم؛ طالبينَ منهُ التوفيقَ للعملِ به.

* * * * *

الآيةُ الثلاثونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقراءُ إِلى اللهِ واللهُ هُو الغَنِيُّ الحَميدُ﴾**(1).

يخـاطبُ اللهُ تعـالى عامَّـةَ النَّـاسِ كلِّهم؛ نبيَّهم ووليَّهم، وسعيدَهم وشقيَّهم، وكبيرَهم وصغيرَهم، وغنيَّهُم وفقيرَهم، وملِكَهم ورعيَّتَهم، ومالِكَهُم ومملوكَهم؛ أنْ كلُّهم فقـراءُ مُحتاجونَ إليهِ تعالى في وجودِهم وحياتِهم، وفي جميعِ حركاتِهم وسَكَناتِهم، وأمَّا هو تعالى؛ فهو غنيٌّ عنِ العالَمينَ كلِّهم، فلا تنفَعُهُ عبادةُ العابدينَ، كما أنَّهُ لا يضرُّهُ كفرُ الكافرينَ وشركُ المشرِكينَ، وإنَّما

(1) فاطر: ١٥.

ضررُ كُفرهم وشِرْكِهم على أنفُسِهم، كما أنَّ منفعَةَ طاعتِهم وعبادَتِهم لأنفسهِم، واللهُ تعالى حميدُ الفِعالِ في جميعِ ما يفعَلُه ويقدِّرُه ويَشرَعُهُ.

فيا أيُّها النـاسُ! أطيعـوا ربَّكُم، وامتَثِلوا أمـرَه، واجتَنِبوا نهْيَهُ، وتعلَّموا كلامَه، وتفهَّمُوا خطابَه؛ لتفوزوا بسعادةِ الدُّنيا والدينِ والآخرةِ.

فيا خسارةَ مَن فاتَه فهمُ كلامِ ربِّهِ! ويا شقاوةَ مَن شغَلَ نفسَه عنْ فهْمِ خطابِ ربِّـه بالفلسفـةِ والسفسـطةِ[1] والأشعـارِ والألغـازِ والأساطيرِ والخرافاتِ والترّهاتِ!

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والثلاثونَ في سورة يٓس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ . وأَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ . ولَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثيراً أَفَلَمْ تَكُونوا تَعْقِلونَ﴾[2].

وهٰذا خطابٌ عامٌّ لجميعِ بني آدمَ بصيغةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ، وأمرٌ منهُ تعالى بأنَّهُ قد أمرَ بني آدمَ أن لا يعبدوا الشَّيطانَ، وأنْ لا يُطيعوهُ في مخالفةِ اللهِ ومعاصيهِ؛ لأنَّهُ عليهِ اللعنةُ عدوٌّ مبينٌ لجميعِكُم، إنَّما قصدُهُ إغواؤكُم وإهلاكُكُم بعصيانِ ربِّكُم الرحمٰنِ الذي خَلَقَكُم ورزقكُم، فاعبدوهُ وحدَه.

ألا تعلمونَ أنَّ الشَّيطانَ قد أضلَّ مِن قبلِكُمْ أناساً كثيرينَ؛ كقومِ نوحٍ وإبـراهيمَ وهودٍ وصالحٍ وموسى وعيسى عليهِم الصلاةُ والسلامُ بتزيينِ الشِّركِ

---

(١) انظر ما سبق (ص ٦٥).

(٢) يٓس: ٦٠ ـ ٦٢.

لهُم، وترغيبِهم إلى عبادةِ يَغوثَ ويعوقَ وودٍّ وسُواعٍ ونَسْرٍ[1]؛ كما زُيِّنَ للمتأخِّرينَ مِن هٰذه الأمةِ عبادةُ عبدِالقادرِ الجيلانيِّ حتَّى سمَّوه واعتقدوهُ غَوْثاً أعظَمَ، وعبادةُ بهاءِ الدِّينِ النقشبنديِّ[2] واعتقدوهُ دافعَ البلاءِ، وعبادةُ مُعينِ الدين الجِشْتيِّ[2] وأحمدَ البدويِّ[3]، وهٰكذا في كلِّ إقليمٍ وقطرٍ.

فبذٰلك حصَّل الشيطانُ مرادَه، ألا وهو الشِّركُ الأكبرُ باللهِ في عبادتِه، بل في ربوبيَّتِه وصفاتِه.

فيا أيُّها النَّاسُ! ألا تنتبهونَ مِن هٰذه الجهالةِ المهلِكَةِ، وتتفكَّرونَ في خلقِ السمـاواتِ والأرضِ، وفي خلقِ أنفسكم؟ أفـلا تعقِلونَ؟ أفلا تُبْصِرونَ؟ أفلا تستعمِلونَ عقولَكم؟!

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والثلاثونَ في سورة الزُّمر: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لعلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ . قُرْآناً عربيّاً غيرَ ذِي عِوَجٍ لعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾[4].

يعني: بيَّنَّا للناسِ كلِّهم - عربِهم وعجمِهم - في هٰذا القرآنِ العربيِّ كلَّ شيءٍ بضربِ الأمثالِ لعلَّهم يتذكَّرونَ ويتفكَّرونَ ويتدبَّرونَ، فيعْمَلوا بإرشاداتِه ونصائحِه ومواعظِه؛ لأنَّهُ قرآنٌ واضحُ البيانِ، لا اعوجاجَ فيه، ولا انحرافَ، ولا

---

(1) انظر: «موارد الأمان. . .» (ص ٤٤٦ ـ ٤٥٤) وتعليقي عليه.

(2) هما ممَّن يعظِّمهما جهلة الأعاجم.

(3) انظر كتاب «السيِّد البدوي بين الحقيقة والخُرافة»؛ ففيه فوائد مهمة حول هٰذه الشخصية القلقة!!

(4) الزمر: ٢٧ ـ ٢٨.

لَبْسَ، ولا تعقيدَ، بل هو بيانٌ ووضوحٌ وبرهانٌ، وإنَّما جعلهُ اللهُ تعالى كذلك لعلَّهم يتَّقونَ، ويحذرونَ ما فيهِ مِن الوعيدِ، ويعملونَ بما فيهِ مِن الوعدِ.

ولا شكَّ أنَّ الذي لا يفهَمُ معناهُ لا يتذكَّرُ ولا يتَّعِظُ، فالانتفاعُ بهِ موقوفٌ على فهمِ معانيهِ فهماً صحيحاً مستقيماً، بلا عِوَجٍ ولا تأْويلٍ ولا تحريفٍ، فيجبُ على كلِّ الناسِ فهمُهُ وتعلُّمُه والاعتقادُ والعملُ بموجَبِهِ، وألَّا يكونَ مخروماً مِن الإنسانيَّةِ كما صارَ محروماً مِن رحمةِ اللهِ وجنَّتِه، فتنبَّهْ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: **﴿إنَّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ للنَّاسِ بالحَقِّ فمَنِ اهْتَدَى فلِنَفْسِهِ ومَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ومَا أنْتَ عَلَيْهِم بِوكيلٍ﴾**[1].

يقولُ اللهُ تعالى مخاطباً رسولَه محمداً ﷺ: إنَّا أنْزَلْنا عليكَ القرآنَ لهدايةِ جميعِ النـاسِ مِن الإنسِ والجنِّ والشرقيِّ والغربيِّ؛ لتنذِرَهم به حقّاً، فمَن اهتدى وعملَ بما فيه؛ فمنفعتُه راجعةٌ إلى نفسِ ذلك المهتَدي، وأما مَن ضَلَّ وعاندَ وكفرَ ولم يهتَدِ بهِ؛ فإنَّما ضررُ ضلالِه وكفرِه وجهلِه على نفسِه، ولستَ أنتَ يا محمدُ موكلاً بهِم أنْ يهتدوا، وأن يقبَلوا ويتعلَّموا ما فيه.

فيا أخي! إنْ كانَ اللهُ تعـالى أنـزَلَ هذا القـرآنَ لهـدايةِ جميعِ الناسِ وإرشادِهم؛ فهل يهتدي ويسترشدُ وينتفعُ مَن لا يعرفُ معناهُ حقَّ المعرفةِ؟ كلَّا، والتـراجِمُ لا تؤدِّي تمامَ المعنى أبداً، فإنْ جهلْتَ معاني القرآنِ؛ فقد ضَلَلْتَ ضلالاً مُبينـاً، كأكثرِ الناسِ الذينَ يعتقدونَ أنَّ أرواحَ الأولياءِ يعلمونَ الغيبَ،

---

(١) الزمر: ٤١.

ويتصرَّفونَ في الكونِ، فينفَعونَ مَن يستغيثُ بهم، ويضرُّونَ أعداءَهُم، ومَعَ ذلك يدَّعونَ أنَّهُم على شيءٍ؛ أيْ: أنَّهُم عارفونَ واصلونَ إلى اللهِ، وأنَّهُم مِن مُحبِّي أولياءِ اللهِ! ألا إنَّهُم هُم الكاذبونَ والخاسرونَ؛ لتَرْكِهِم الاهتداءَ بكلامِ ربِّ العالَمينَ، واكتفائِهِم بكلامِ أناسٍ غيرِ معصومينَ!

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والثلاثونَ في سورةِ الجاثيةِ: ﴿هٰذا بَصَائِرُ للنَّاسِ وهُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

يَعْني أنَّ هٰذا القرآنَ بَصائرُ للنَّاسِ كلِّهم عامَّةً، ولكنْ إنَّما ينتفعُ بهِ مَن فتَحَ بصرَهُ إليهِ ووجَّه بصيرتَه إلى تدبُّرِه وتفهُّمِ معانيهِ؛ يعني: أنَّ كونَه بصائرَ وإرشاداتٍ عامٌّ لعامَّةِ البشرِ؛ شرقيِّهم وغربيِّهم، وأمَّا كونُه هدىً ورحمةً؛ فخاصٌّ لقومٍ يوقنونَ بهِ، فيعْتَنونَ بفهْمِهِ وتفهُّمِه.

فالناسُ كلُّهم مكلَّفونَ بهٰذا كما لا يَخْفى، فمَن علِمَهُ كلَّه وعَمِلَ بكلِّه؛ فهُو السَّعيدُ في الدَّارينِ جميعاً، وأمَّا مَن علِمَ بعضَه وعَمِلَ بموجَبِهِ؛ فإنَّهُ ينتفعُ على قدرِه؛ كالإفرنجِ الذين اعتنوا بما يتعلَّقُ بالصَّنائعِ، والطَّبائعِ، وآلاتِ الحديدِ، وعدَّةِ القوةِ، والحسابِ، والهندسةِ، والتجارةِ، والسياسةِ، فنالوا منها على قَدْرِ استعدادهم وسعيِهم كما لا يخفى.

وبالجملةِ؛ فإنَّ معرفةَ معاني القرآنِ لازمةٌ على كلِّ إنسانٍ؛ عربِهم وعجمِهم، وهٰذا لا شكَّ فيهِ ولا ريبَ.

* * * * *

(١) الجاثية: ٢٠

الآيةُ الخامسةُ والثلاثونَ في سورةِ الأحقافِ: ﴿وَوَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ إحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثَلاثونَ شَهْراً﴾ الآية[1].

فالإنسانُ من حيثُ إنَّهُ إنسانٌ موصَّىً مِن قِبَلِ ربِّه ومأمورٌ بالإحسانِ إلى الوالدينِ، فيجبُ على كلِّ إنسانٍ معرفةُ هٰذه الوصيَّةِ الرَّبَّانيَّةِ، والعملُ بموجَبها كما لا يخفى، وكما قالَ اللهُ تعالى في سورةِ الإسراءِ[2]: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدوا إلَّا إيَّاهُ وبِالوالِدَيْنِ إحْساناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قَوْلاً كَريماً . واخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغيراً . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما في نُفوسِكُمْ إنْ تَكُونُوا صالِحينَ فإنَّهُ كانَ للأوَّابينَ غَفوراً﴾[2]، وقالَ تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ﴾ الآية[3].

فالإنسانُ مأمورٌ قطعاً بالإحسانِ إلى الوالدينِ وخِدمتِهما وإرضائِهما بما يستطيعُ، وحرامٌ عليه إيذاؤهما وجفاؤهما وتركُ خدمتِهما، فلهٰذا قد عدَّ رسولُ اللهِ ﷺ عقوقَ الوالدينِ[4] وإيذاءَهُما مِن الكبائرِ والموبِقاتِ والمُهْلكاتِ السَّبعِ.

وقدْ قَرَنَ اللهُ تعالى شكرَه بشكرِ الوالدينِ، وقد ثبتَ في الصَّحيحِ أنَّ الولدَ البارَّ لوالديهِ ينالُ رضى اللهِ تعالى، ويكونُ مجابَ الدَّعوةِ[5]، وهٰذا هو عينُ

---

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) الإسراء: ٢٣ ـ ٢٥.

(٣) لقمان: ١٤.

(٤) كما رواه: البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧)؛ عن أبي بكرة.

(٥) لعله يشير إلى قصة الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة في الغار فدعا كلٌّ منهم =

الإنسانيةِ، فتنبَّه وتدبَّرْ.

* * * * *

الآيةُ السادسةُ والثلاثونَ في سورةِ الحُجراتِ: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ﴾[1].

يخاطِبُ اللهُ تعالى كلَّ الناسِ جميعاً؛ معلماً إيَّاهُم أنَّهُ تعالى خَلَقَ جميعَهم مِن ذكرٍ وأُنثى، وجعلَ مِنها زوجَها، وهما آدمُ وحواءُ عليهما السلامُ، وجعلَهم شعوباً وقبائلَ.

وأفادَ تعالى أنَّ جميعَ الناسِ في الشَّرفِ بالنسبةِ الطِّينيَّةِ سواءٌ، لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ[2] ولا لأبيضَ على أسودَ، وإنَّما يتفاضَلونَ بالأمورِ الدينيَّةِ، وهي الإيمانُ باللهِ، وطاعةُ اللهِ تعالى، ومتابعةُ رسولِ اللهِ ﷺ.

﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾، لا بالأحسابِ والأموالِ والأتباعِ

بصالح عمله، فممَّا دعا به أحدهم بره بوالديه، ففرَّج الله عنهم كربَهم.

وسيشير المصنف رحمه الله إلى الحديث الوارد في قصتهم (ص ١٨) فراجعه.

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) كما أخرجه أحمد في «مسنده» (٥ / ٤١١) من طريق إسماعيل بن عليَّة عن سعيد الجُريري عن أبي نَضْرة عمَّن سمع رسول الله ﷺ.

وسنده صحيح، إذ رواية ابن عُليَّة عن الجُرَيري قبل الاختلاط.

وتفصيل تخريجه في «الإتمام لتخريج أحاديث المسند الإمام» (٢٣٥٣٦).

وفي البـاب عن عدَّة من الصحابة، فانظر: «مجمع الزوائد» (٨ / ٨٤)، و«الدر المنثور» (٦ / ٩٨).

والأولادِ، ولذا قال رسولُ اللهِ ﷺ : «إنَّ اللهَ لا ينظُرُ إلى صُورِكُم وأموالِكُم، ولٰكِنْ ينظُرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم». رواه مسلم وابن ماجه[1].

فبهٰذا قد أفادنا اللهُ تعالى أنَّ دينَ الإسلامِ مبنيٌّ على المساواةِ مِن حيثُ الإنسانيةُ والمعيشةُ الدنيويةُ ومعامَلتُها، وإنَّما يمتازُ الفاضلُ عنِ المفضولِ عندَ اللهِ يومَ الدينِ، فالأكرمُ ها هُنا هو المُتَّقي الذي اتَّقى الشركَ والظلمَ والكفرَ والمَعاصي، واللهُ تعالى عليمٌ وحكيمٌ وخبيرٌ بما في الصُّدورِ.

فانظر يا أخي كيفَ خاطبَ اللهُ تعالى النَّاسَ جميعاً؛ أي: الجنسَ البشريَّ كلَّه على اختلافِ دينِه ولغاتِه وألوانِه وبُلْدانِه، ثمَّ أرادَ أنْ يربطَ الناسَ جميعاً برابطةٍ أقْوى مِن رابطةِ القرابةِ والدَّمِ، فدعاهُم إلى اعتناقِ دينٍ واحدٍ، وعبادةِ إلٰهٍ واحدٍ؛ تَدعوهُم الفطرةُ السليمةُ إلى الإيمانِ بهِ، فيؤلِّفُ بين قلوبِهم.

فاللهُ تعالى يدعو العالَمَ كلَّه إلى دينٍ واحدٍ، وإلى لغةٍ واحدةٍ، وهو تعالى قد حتَّمَ القراءةَ في الصلاةِ والعباداتِ كلِّها باللغةِ العربيةِ، فالأممُ التي دخلتْ

---

(1) رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤)، وابن ماجه (٤١٤٣)، وأحمد في «مسنده» (٢ / ٢٨٤ و٢٨٥ و٥٣٩)، وفي «الزهد» (ص ٥٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٤١٥٠)، وابن حبان (٣٩٤)، وأبو نُعيم (٤ / ٩٨ و٧ / ١٢٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٤٠)؛ من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة.

وقد أعلَّ الحديث ابنُ أبي حاتم في «علله» (١٨٩٥) بالوقف، فقال: «إنما هو عن أبي هُريرة موقوف، حدثنا به أبو نُعيم عن جعفر، موقوف».

قلتُ: لكنَّ الأصمَّ تُوبعَ على رفعِه.

رواه مسلم (٥٦٤) (٣٣) أيضاً من طريق أسامة بن زيد عن أبي سعيد مولى عبدالله ابن عامر بن كُرَيْز عن أبي هريرة مرفوعاً.

فثبت الرفع، ولله الحمد.

في الإسلام تسارعَتْ إلى تعلُّمِ اللغةِ العربيةِ وحِذقِها وإجادتِها.

ألا ترى الأندلسَ كيفَ ازدهرتْ فيها لغةُ العربِ الفُصْحى ازدهاراً رائعاً؟ وبُخارى وما وراءَ النَّهرِ كيفَ نمتْ فيها لغةُ الضَّادِ؟ والشاهدُ الإمامُ أميرُ المحدِّثينَ محمدُ بنُ إسماعيلَ البخاريُّ، والإمامُ مسلمُ بنُ الحجَّاج، وأبو عيسى التِّرمذيُّ، وأبو داودَ السِّجستانيُّ، وأبو عبدالرحمٰنِ النَّسائيُّ، وأبو الليثِ الفقيهُ السَّمَرقنديُّ، وأبو بكرٍ القَفَّالُ الشاشيُّ، وبرهانُ الدِّينِ عليٌّ المَرغينانيُّ صاحب «الهداية»[1]، وملكُ العلماءِ الكاسانيُّ صاحب «البدائعِ»[2]... وأمثالُهم رحمهُم اللهُ تعالى.

ولكنَّ الخَلَفَ قد خالَفوا السَّلَفَ، فغيَّروا، فغَيَّرَ اللهُ عليهم.

وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ خَطَبَ يومَ فتحِ مكَّةَ قائماً على بابِ الكعبةِ وقالَ: «يا معشرَ قريشٍ! إنَّ اللهَ تعالى قدْ أذهَبَ عنكُم نَخْوَةَ الجاهليةِ وتعظُّمَها بالآباءِ، الناسُ مِن آدمَ، وآدمُ مِن ترابٍ»، ثم تلا هٰذه الآيةَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾... الآية.

كذا في «البدايةِ والنهايةِ» لابنِ كثيرٍ (٤ / ٣٠١)[3].

* * * * *

---

(١) هو من أشهر كتب الأحناف، و«نصب الراية» تخريجٌ لأحاديثه.

(٢) هو «بدائع الصنائع»، مطبوع متداول.

وتراجم هؤلاء العلماء مشهورة معروفة.

(٣) روى الحديث: أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، وأحمد (٢ / ٣٦١ و٥٢٤)؛ عن أبي هريرة.

وسنده حسن.

وقد صحَّحه شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٥).

الآيةُ السابعةُ والثلاثونَ في سورةِ الحشر: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هٰذا القُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ﴾[1].

يقولُ اللهُ تعالى؛ معظِّماً لأمرِ القرآنِ، ومبيِّناً علوَّ قدرِهِ، وأنَّهُ ينبغي أنْ تخشَعَ لهُ القلوبُ، وتتصدَّعَ عندَ سماعِه؛ لما فيهِ مِن الوعدِ الحقِّ، والوعيدِ الأكيدِ، فإذا كانَ الجبلُ في غلظهِ وقساوتِه لو فهِمَ هٰذا القرآنَ فتدبَّرَ ما فيهِ لخَشَعَ وتصدَّعَ مِن خوفِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فكيفَ يليقُ بكُم أيُّها البشرُ أنْ لا تلينَ قلوبُكُم وتخشَعَ وتتصدَّعَ أفئدَتُكُم مِن خشيةِ اللهِ وأنتُم قد أُمِرْتُم اللهُ تعالى بفهْمِهِ وتدبُّرِه؟!

فتفكَّروا أيُّها الناسُ! ولا تضيِّعوا أهليَّتَكم، وأنتم المكلَّفونَ بفهْمِ هٰذا القرآنِ والاعتبارِ بآياتِه ومواعظِهِ، فإذا تفكَّرتُم وتدبَّرْتُم؛ تعلمونَ يقيناً أنَّهُ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ولا معبودَ سواهُ؛ كما أنَّهُ لا خالقَ سواهُ، ولا ربَّ سواهُ، بل كلُّ ما سواهُ مِن الملائكةِ والمقرَّبينَ والأنبياءِ والصديقينَ والأولياءِ كلُّهم مخلوقونَ ومربوبونَ ومحتاجونَ في حياتِهم ومماتِهم وحشرِهم ونشرِهم إلى اللهِ تعالى الغنيِّ القادرِ جلَّ جلالُه.

فيا أيُّها الناسُ! حيثُ إنَّكُم جهِلْتُم معاني كلامِ ربِّكم، ابتُليتُم بالدَّاءِ العُضالِ، بحيثُ صرتُم لا تفرِّقونَ بينَ الخالقِ والمخلوقِ، والرَّبِّ والمربوبِ، فتعبدونَ اللهَ وتعبدونَ المخلوقَ، وتدعونَ اللهَ وتدعونَ المخلوقَ، فمثلاً تقولونَ حينما تقومونَ مِن مقعدِكم: يا اللهُ! يا رسولَ اللهِ! وهٰذا هو الشركُ الأكبرُ الذي

---

(١) الحشر: ٢١

لا يغفـرُه اللهُ تعـالى أبـداً، وذٰلك أنَّ اللهَ تعالى حيٌّ قريبٌ مجيبٌ يستجيبُ الدعواتِ ويقضي الحاجاتِ، وأمَّا رسولُ اللهِ ﷺ؛ فقد ماتَ، وروحُهُ الشريفُ في أعلى علِّيينَ، لا يعلمُ الغيبَ، ولا يسمعُ النِّداءَ والدُّعاءَ، فإذاً نداؤهُ ودعاؤهُ في هٰذه الدُّنيا هباءٌ، بل إذا اعتقدَ القائلُ بأنه يعلمُ الغيبَ أو يسمعُ النداءَ؛ فقد أشركَ باللهِ العظيمِ؛ لتسويتِه بينَ الخالقِ والمخلوقِ، وبعضُهم يقولُ مِن نهايةِ جهلِه وسخافةِ حُمْقِه: إنَّهُ يحبُّ رسولَ اللهِ، وهٰذا مِن محبَّتِه، والحالُ أنَّهُ قد خالَفَهُ وعصاهُ بتسويتِه بربِّ العالَمينَ الذي لا شريكَ لهُ، ومحبةُ رسولِ اللهِ ﷺ إنَّما تحصُلُ باتِّباعِ سنَّتِه، والصَّلاةِ والسلامِ عليهِ في كلِّ حينٍ.

فيا أيُّها الإنسانُ الجاهلُ! لو تأمَّلْتَ أدنى تأمُّلٍ وقلتَ: يا اللهُ! صلِّ على رسولِ اللهِ، أو: اللهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على رسولِكَ محمدٍ، أو ما أشبهَ ذٰلك؛ لكنْتَ آتياً بالصَّوابِ وداعياً بالحقِّ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والثلاثونَ في سورةِ الانفطارِ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ الآيات[1].

وهٰذا خطابُ تهديدٍ مِن اللهِ تعالى لكلِّ بني الإنسانِ: ما خَدَعَكَ وسوَّلَ لك الباطلَ حتى أضَعتَ ما وجبَ عليكَ مِن عبادةِ ربِّك وطاعتِه، ومعرفةِ أمرِه ونهيِه، وغرَّكَ إمهالي إياكَ، وغرَّكَ الشيطانُ بإيقاعِ الأماني في قلبِك، وغرَّتْكَ الدُّنيا وزينَتُها، وغرَّكَ الجاهُ والنَّسبُ، حتى نَسيتَ ربَّك الذي خَلَقكَ، وأشركْتَ بهِ في عبادتِه ودعائِه، وساويتَ بينَه وبينَ بعضِ مخلوقاتِه، ولم تتفكَّرْ في نفسِك

(١) الانفطار: ٦ ـ ٧.

ماذا كنتَ؟ وماذا تصيرُ؟ ولم تتدبَّرْ كلامَ الذي خَلَقَكَ ووجَّهَهُ إليكَ وخاطبكَ وأمركَ ونهاكَ بهِ، وأنت ساهٍ لاهٍ، فيا أسفى عليكَ يا عدوَّ نفسِك.

فيا أيُّهـا الإنســانُ! إنَّ اللهَ تعـالى ربّك الحكيم، قد خلقكَ على هٰذه الصورةِ، ومعَ ذٰلك أنتَ ما تعرفُه، وتنكِرُه، وتنكرُ يومَ الجزاءِ، والحالُ أنَّ عليكَ ملائكةً مراقبينَ ومحافظينَ، يعلمونَ كلَّ ما تفعلُ وتقولُ، ويكتبونَ كلَّ ما يصدُر منكَ، فيجازيكَ اللهُ تعالى على ذٰلك، فيُدْخِلُ اللهُ تعالى المؤمنينَ الموحِّدينَ المخلِصينَ الأبـرارَ في جنّـاتِ النعيمِ، ويُجـازي اللهُ تعـالى الفجّـارَ الكفّارَ المشركينَ في نارِ الجحيمِ، ويُصْليهِم على رؤوسِهم منكوسينَ أبدَ الآبدينَ ودهْرَ الدَّاهرينَ، خالدينَ فيها أبداً، وهٰذا إنَّما يكونُ في يومِ الدِّينِ يومِ الجزاءِ، وهٰذا اليومُ لا يملِكُ أحدٌ لأحدٍ فيهِ شيئاً؛ لا والدٌ لولدٍ، ولا عالمٌ لتلميذٍ، ولا شيخٌ لمريدٍ، بل ولا نبيٌّ لأمَّته إلَّا بإذنِ اللهِ تعالى وأمرِه؛ لأنَّ الأمرَ كلَّه للهِ، لا شريكَ لهُ، وأنتَ أيُّها الإنسانُ الجاهلُ! تغترُّ بشيخِك، أو بمَن تعتقدُه وليّاً، وتظنُّ أنَّهُ ينفعُكَ أو ينقذُكَ مِن النارِ ويدخلُكَ الجنَّةَ، وإنَّما هٰذا صادرٌ مِن نهايةِ جهلِكَ، وغايةِ حماقتِك، ولماذا هٰكذا؟ لأنَّكَ محرومٌ مِن فهمِ كلامِ اللهِ ربِّ العالَمينَ، مكتفٍ بالتُّرَّهاتِ والخرافاتِ ودَجَلِ الدَّجالينَ، فتنبَّهْ.

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والثلاثونَ في سورةِ الانشقاقِ: ﴿يَا أَيُّها الإنسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيه﴾[1].

وهٰذا الخطابُ عامٌّ لجميعِ بني الإنسانِ؛ عربِهم وعجمِهم؛ يخاطِبُهم

---

(١) الانشقاق: ٦.

اللهُ تعالى منبِّهاً إيَّاهُم، فيقولُ: إنَّكَ أيُّها الإنسانُ ساعٍ إلى ربِّكَ سعياً، وعاملٌ عملاً، فستلاقي ما سعيْتَ وعمِلْتَ مِن خيرٍ وشرٍّ؛ يعني: إنَّا أرشدناكَ إلى ما فيهِ سعادتُك في الحياةِ وبعدَ المماتِ، فإنْ أنتَ عمِلْتَ بإرشاداتِنا؛ تكُنْ سعيداً، فتُعْطَى كتابَكَ بيمينِك، وتكونَ مِن أهلِ اليمينِ، وأمَّا إذا عاندتَ وعصيتَ أمرَنا أو جهلْتَه؛ فأنتَ الشقيُّ، فتُعْطَى كتابَك مِن وراءِ ظهرِكَ أو شمالِك، فتكونَ من أهلِ الشِّمالِ، وتَلْقى في جهنَّمَ سعيراً.

فيا أيُّها الإنسانُ! إنَّكَ المكلَّفُ المخاطَبُ بالإيمانِ والأعمالِ، فإنْ ضيَّعْتَ أهليَّتَكَ؛ فأنتَ أخسُّ مِن الحيوانِ، ولا ينفعُكَ أبناؤكَ وأموالُك ومنصِبُك وجاهُك التي كُنْتَ أنتَ مغروراً بها ومسروراً؛ لأنه قد نسيَ ربَّه، ونسيَ الرجوعَ إليهِ، والحالُ أنَّهُ تعالى بصيرٌ به.

* * * * *

الآيةُ الأربعونَ في سورةِ الطارقِ: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ**﴾[1].

وهٰـذا أمرٌ مِن اللهِ تعالى للإنسانِ، وكلِّ بني آدمَ، أنْ ينظرَ نَظَرَ العبرةِ والاعتبارِ؛ أنَّهُ ممَّ خُلِقَ؟ فليعلَمْ أنَّهُ خُلِقَ مِن ماءٍ دافقٍ؛ أيْ: فوَّارٍ خارجٍ بالقوَّةِ، وهو المنيُّ والنطفةُ، يخرجُ مِن صُلْبِ الرجلِ وصدْرِ المرأةِ عندَ فيضانِ الشهوةِ منهمـا، وهٰذا الماءُ هو بذرُ الإنسانِ، يزرعُه الرجلُ في أرضِ رحمِ المرأةِ، فيخلُقُ اللهُ تعالى منهُ هٰذا الإنسانَ الذي يتكبَّرُ ويتبخترُ ويقولُ أنا وأنا، فينسى ربَّهُ الذي خَلَقَهُ، ويكفرُ بهِ، ويشركُ في عبادتِه، ولا يؤمنُ بهِ ولا بكتابِه ولا برسولِه

(١) الطارق: ٥ ـ ٧.

ولا باليومِ الآخرِ، ولا يتفكَّرُ أنَّ الذي خَلَقَهُ مِن ماءٍ دافقٍ لم يخْلُقْه عبثاً، بل إنَّما خَلَقَهُ ليعرِفَه ويعبُدَهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، ثم يحييهَ ويعيدَه، فيجازيَهَ على عقيدتِه وعملِه؛ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فشرٌّ، وإنَّما يمهِلُهُم في الدُّنيا ويستدرِجُهم، ثمَّ يأخُذُهم أخذَ عزيزٍ مقتَدِرٍ.

●●●●●

فاعلمْ أنَّ هٰذه الأربعينَ آيةً كلُّ واحدةٍ منها موجَّهةٌ مِن اللهِ ربِّ العالمينَ إلى كلِّ فردٍ فردٍ مِن أفرادِ بني آدمَ، لا يخرجُ مِن هٰذه الخطاباتِ الصريحةِ أحدٌ منهم، سواءٌ كانوا عرباً أو عجماً أو مِن أيِّ جنسٍ كانَ؛ فارسيّاً أو هنديّاً، تركيّاً أو صينيّاً، جاويّاً أو جابانيّاً، روميّاً أو بربريّاً، حبشيّاً أو إفريقيّاً، فكلُّهم مخاطَبونَ بهٰذه الخطاباتِ، ومأمورونَ ومكلَّفونَ بهٰذه الأوامرِ، وهُم أهلٌ لذٰلكَ، ولو لمْ يكونوا أهلاً؛ لَما خاطَبَهُم اللهُ تعالى، وحيثُ إنَّهُ تعالى خاطَبَهُم وناداهُم وأمَرَهُم ونهاهُم؛ فقد ثبتَ أنَّهُم أهلٌ لفهْمِ ذٰلك والعملِ بهِ.

ولا يخرجُ عن هٰذا الخطابِ أحدٌ مِن البشرِ، حيثُ إنَّهُم بالِغونَ وعاقلونَ، فلا يخرجُ أحدٌ أصلاً إلَّا الصبيُّ والمجنونُ، وأمَّا العُجْمَةُ؛ فلا تكونُ مُسقطةً للتكليفِ وتوجُّهِ الخطابِ وفهمِه، فتنبَّهْ.

وهٰذه الخطاباتُ الموجَّهةُ إلى كافَّةِ بني آدمَ بلفظِ: (وأنتُم)، و(كُم)، توجبُ على كلِّ البشرِ معرفةَ كلامِ ربِّهم، ولا يُعْذَرُ أحدٌ بالجهلِ بهِ[1]، فهو مسؤولٌ عن إضاعَتِه أهليَّتَه.

---

(١) بتفصيل فقهيٍّ عقدي ليس هٰذا مكانه، وقد أفردها بعض إخواننا بالتأليف.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ إنسانٍ أهلٌ لمعرفةِ ذلك بالتعلُّمِ ، وهذا هو الحدُّ الفارقُ بينَ الإنسـانِ والحيواناتِ البُهْمِ ، فالإنسانُ مِن حيثُ إنَّهُ إنسانٌ قابلٌ للفهْمِ ، وأهلٌ للعلمِ والمعرفةِ، ومِن هذا أخذَ اللهُ تعالى العَهْدَ مِن ذُريَّةِ آدمَ بأجمعِهم ، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1]، فأجابوا بـ ﴿بَلى﴾ ، و ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[2].

فتفكَّـر وتدبَّرْ وتأمَّلْ أيُّها الإنسانُ! هل يُنادي اللهُ تعالى ويخاطِبُ ويأمُرُ وينهى مَن لا يفهَمُ الخطابَ؟ كلاَّ ؛ تعالى اللهُ وتقدَّسَ عن العَبَثِ، وعمَّا يقولهُ الظالمونَ علوّاً كبيراً، وعما يعتقدُهُ المبطِلونَ تنزُّهاً وتقديساً.

واللهِ العـظيمِ ؛ إنَّ الذينَ يجهلونَ كلامَ ربِّهم، ولا يجتهِدونَ في فهمِه ومعـرفتِـه؛ فهُم المحرومونَ عن فضلِ ربِّهم، والمحرومونَ مِن هدايتِه وتوفيقِه وجنَّتِـه ورضوانِه، وهُم الَّذينَ إذا أُلْقوا في نارِ جهنَّمَ؛ قالَ لهُم خَزَنَتُها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[3]؟ فيقولونَ: بلى ؛ قد جاءتْنا النُّذُرُ، ولكنْ ما صدَّقناهم، ولم نعتنِ بكلامِهم!

معَ أنَّ هؤلاءِ المحرومينَ يتفلسفونَ في العلومِ الفلسفيةِ تفلسفاً، ويدقِّقونَ تدقيقـاً، ويشقُّونَ الشعرةَ مئةَ شقٍّ، ويعتنونَ بالأمورِ الدُّنيويةِ والزخارفِ الفانيةِ اعتناءٍ عظيماً، ولكنْ معَ ذلك يجهلونَ كلامَ ربِّهم، وأوامرَ إلهِهم، فهلْ يُعذرونَ بهذا الجهلِ ؟! كلاَّ؛ أبداً لا يُعْذَرونَ قطعاً؛ كما روى الإمامُ البخاريُّ في كتابِ

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) يس: ٦٠.

(٣) كما في سورة الملك: ٨.

الـرقاق مِن «صحيحهِ»[1] عن حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ قالَ: «ترتَفِعُ الآمانَةُ، ويُقالُ للرجلِ: ما أَحْذقَهُ! وما أَذكاهُ! وما أَعلَمه! وليس في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن خردلٍ مِن إيمانٍ» الحديث.

وفي «الدُّرِّ المنثورِ»[2] عن «مصنَّفِ ابنِ أبي شيبةَ» عن عبدِ اللهِ بنِ عمرُ رضي اللهُ عنهما؛ قال: «يأتي على الناسِ زمانٌ يجتمعونَ ويصلُّونَ في المساجدِ وليسَ فيهم مؤمنٌ».

وفي حديثٍ آخرَ مرفوعٍ[3]: «يأْتي زَمانٌ لا يَبْقى مِنَ القُرْآنِ إلاَّ رَسْمُهُ، ولا مِنَ الإسـلامِ إلاَّ اسْمُـهُ، فيقـولونَ: إنَّهُم مُسْلِمونَ، ولا يعرِفونَ مِن الإسلامِ حَقيقتَهُ، ويقرؤونَ القرآنَ، ولا يعرِفونَ مِن معانيهِ إلاَّ البعضَ اليسيرَ».

فكلُّ هٰذا حجةٌ عليهِم.

---

(١) برقم (٦٤٩٧)، واللفظ فيه مختلفٌ جدّاً، مع طوله، لكنَّ المعنى إجمالاً متَّفق، فلعلَّ المصنِّف يرويه من ذاكرته.

(٢) (٦ / ٥٣).

وهو في «المصنَّف» (١٩٤٣٢)، و«المستدرك» (٤ / ٤٤٢)؛ بسند صحيح عنه.

ورواه ابن عدي (٣ / ١٠٣٨) من الطريق نفسه مرفوعاً، ولا يصحُّ، ففيه روَّاد بن الجرَّاح؛ صدوق، اختلط بأخرة فترك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد، فالمحفوظ الموقوف.

ويغني عنه ـ مرفوعاً ـ ما رواه ابن حبَّان في «صحيحه» (٦٧٢٣) عن ابن مسعود: «سيكـون في آخـر الـزمـان قومٌ يجلسـون في المسـاجد حِلَقاً حِلَقاً، إمامُهم الدنيا، فلا تجالسوهم؛ فإنه ليس لله فيهم حاجة».

وسنده حسنٌ.

(٣) ولكنه ضعيف جدّاً؛ كما شرحه مطوَّلاً شيخُنا الألباني في «الضعيفة» (١٩٣٦)، وانظر أيضاً «مشكاة المصابيح» (١٩٣٦) وما سيأتي (ص ٣٣٠).

فيا أخي! بعدَ أنْ عَلِمْتَ أنَّ هٰذه الخطاباتِ العامَّةَ لكافةِ بني البشرِ، فهُمْ بأجمَعِهِم مكلَّفونَ بفهْمِ ذٰلك، والإيمانِ بِهِ، والعملِ بموجَبِهِ، وبذٰلك قد قامتْ الحجَّةُ عليهِم، وخصوصاً في هٰذه الأزمنةِ الحاضرةِ، منذُ أَلْهَمَ اللهُ تعالى لهُم اختراعَ هٰذه الآلاتِ الحديثةِ (المذياع = الراديو)، فهي تبلِّغ الأصواتَ مِن الشرقِ إلى الغربِ في حينِها، فهُم بأنفسِهم يتلونَ القرآنَ بأصواتٍ موسيقيَّةٍ ونغماتٍ مصريَّةٍ[1]؛ لأغراضِهِم السياسيةِ، أو للتجارةِ واكتسابِ الأموالِ، فبهٰذه يقيمونَ حجَّةَ اللهِ على أنفسِهم، وهم لا يشعُرونَ، حتى لا يبقى لهم مجالٌ لأنْ يقولوا ما جاءَنا مِن رسولٍ ولا نذيرٍ، فسبحانَ اللهِ الخالقِ الحكيمِ.

وإنَّما كرَّر اللهُ تعالى هٰذه الخطاباتِ العموميةَ في مواضعَ كثيرةٍ مِن كتابه للتقريرِ؛ كي يقرِّر الحجَّةَ عليهِم، ويؤكِّدَها تأكيداً، فتنبَّهْ وتدبَّرْ ولا تكنْ مِن الغافلينَ المحرومينَ، والمفتونينَ الهالكينَ.



(١) لعلَّهم يهتدون، وإلى الحق يرجعون.

فصلٌ
[الآياتُ والخِطاباتُ القرآنيةُ الموجَّهةُ إلى المؤمنينَ]

وأمَّا الآياتُ والخطاباتُ والأوامرُ الموجَّهةُ إلى المؤمنينَ خاصةً؛ فكثيرةٌ جدّاً، لا تخفى على قارىء القرآن، وإنِّي أذكُرُها هنا لزيادةِ البيانِ، وحبّاً لكلامِ ربِّنا الرحمٰنِ؛ لأنَّ مَن أحبَّ شيئاً؛ أكثرَ ذِكْرَه، وإنِّي أُحبُّ ربِّي وأُحبُّ كلامَه، ثم أحبَّ رسولَه محمداً ﷺ، وأُحبُّ كلامَه وأحاديثَه أيضاً.

أَهْلُ الحديثِ هُمُ أَهْلُ الرَّسُولِ وإِنْ
لَمْ يَصْحَبُوا شَخْصَهُ أَنْفاسَهُ صَحِبُوا[1]

وهٰذا هو الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ.

ثمَّ بعدَ ذكرِ الآياتِ أُبيِّنُ ما يتعلَّقُ بها مِن أحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ قوليةً وفعليةً، وما ثبتَ عن الصحابةِ والسَّلفِ الصالحينَ رضيَ اللهُ تعالى عنهم، وجَعَلَنا منهُم، وحَشَرنا في زمرَتِهم؛ بفضلِه ومنِّه آمينَ.

●●●●●

الآيةُ الأولى في سورةِ البقرةِ: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَقولوا راعِنا

(١) سبق إيراده (ص ٤٣)

وقُولوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا ولِلْكَافِرينَ عَذابٌ أليمٌ﴾[1].

هٰذا خطابٌ قد خاطَبَ اللهُ تعالى بهِ المؤمنينَ بأنْ لا يقولوا مثلَ ما قالتِ اليهودُ في معاملةِ رسولِ اللهِ ﷺ مِن سوءِ الأدبِ، بلْ عليهِمْ أنْ يُراعوا معهُ الأدبَ، ويستَمِعوا لما يقولُه ويُلقي إليهِم، وأما إساءَةُ الأدبِ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ في المخاطبةِ معهُ؛ فأثرٌ مِن آثارِ الكفرِ الذي يستحقُّونَ بهِ العذابَ الأليمَ، فيجبُ الاحتراسُ منهُ؛ بتركِ الألفاظِ الموهمةِ للمساواةِ المنافيةِ للآدابِ.

ولا شكَّ أنَّ مَن يعامِلُ أُستاذَهُ ومرشِدَه معاملةَ المساواةِ في القولِ والعملِ يقلُّ احترامُه لهُ، وتزولُ هيبتُه مِن نفسِه، حتى تقلَّ الاستفادةُ منهُ أو تنعدمَ؛ لأنَّ المدارَ في التَّربيةِ على التَّأَسِّي والقدوةِ؛ مثلاً: إنَّ مَن أراهُ مِثلي لا أراهُ إماماً وقُدوةً لي، فإنْ رضيتُهُ بالمواضعةِ والتقليدِ وكذَّبتْني المعاملةُ؛ فأيُّ قيمةٍ لهٰذا الرِّضى؟!

والعِبْرَةُ بما في الواقعِ ونفسِ الأمرِ، وهو أنَّ مَن اعتقدَ أنَّ فلاناً فوقَه علماً وكمالاً، وأنَّهُ في حاجةٍ للاستفادةِ مِن علمِه وإرشادِه وأخلاقِه وآدابِه؛ فإنَّهُ لا يستطيعُ أنْ يسوِّي نفسَه بهِ في المعاملةِ القوليةِ والفعليةِ.

ولماذا كان ذٰلك كذٰلك؟ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنَّما يتكلَّم عن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لسعادةِ مَن يستمعُ ويعقلُ ويأخذُ ما يؤمَرُ بهِ بالأدبِ، ويسألُ عما لا يفهَمُهُ بالأدبِ، ومَن فاتَتْهُ هٰذه السعادةُ؛ فهو الشقيُّ.

واعلمْ أنَّ لمَنْ جاءَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ حظّاً مِن هٰذا الأدبِ، وليسَ هو

---

(١) البقرة: ١٠٤.

خاصّاً بمَنْ كانَ في عصرِه ﷺ مِن المؤمنينَ، فهٰذا كتابُ اللهِ الذي كانَ يتلوهُ عليهِم، وكانَ يجبُ الاستماعُ لهُ والإنصاتُ لأجلِ تدبُّرِه، هو الذي يُتْلى علينا بعينِه، لم يذهبْ منهُ شيءٌ، وهو كلامُ اللهِ الذي بهِ كانَ الرسولُ رسولاً تجبُ طاعتُه والاهتداءُ بهديِه.

فانظُرْ يا أيُّها المؤمنُ إلى الذي يقابلُه الأكثرونَ بهِ؛ إنَّهم يلغَطونَ في مجلسِ القرآنِ، فلا يستمعونَ، ولا ينصتونَ، ومَنْ أنصَتَ واستمعَ؛ فإنَّما يُنْصِتُ طرباً بالصوتِ، واستِلْذاذاً بتوقيعِ نغماتِ القارئِ، وإنَّما يفعلونَ ذٰلك في مجالسِ الغناءِ بلا فرقٍ، ولا يلتفتونَ إلى شيءٍ مِن معانيهِ إلَّا ما يَرَوْنَه مدعاةً لسرورِهم معَ الغفلةِ عمَّا فيها مِن العبرةِ، أليسَ هٰذا أقربَ إلى الاستهانةِ بالقرآنِ منهُ بالأدبِ اللائقِ الذي ترشدُ إليهِ هٰذه الآيةُ الكريمةُ وأمثالُها وتتوعَّدُ على تركِه بجعلِه مجاوراً الكفرَ الذي يسوقُ صاحبَه إلى العذابِ الأليمِ؟!

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

قد خاطَبَ اللهُ تعالى المؤمنينَ؛ عربَهُم وعجمَهُم، وأمرَهم بأن يستعينوا على تكميلِ الإيمانِ والثَّباتِ عليهِ بالصَّبْرِ على جهادِ النَّفسِ وعلى طعْنِ الأعداءِ وسفاهةِ السُّفهاءِ؛ فإنَّ أهلَ الحقِّ يعاديهم أهلُ الباطلِ وأحزابُه، ويؤذونَهم في سبيلِ الحقِّ والدعوةِ إلى الدينِ والتوحيدِ، خصوصاً توحيدَ الألوهيَّةِ وتوحيدَ العبادةِ والمدافعةَ عنه وعنِ أنفسِهم، فهو سبحانه وتعالى يأمُرُهم بالصَّبرِ على

(١) البقرة: ١٥٣.

ذلك كلِّه، والدوامِ والاستمرارِ على الجهادِ بالسِّنانِ والبيانِ والبَنانِ، والصبرِ على ذلك بالطَّوعِ والرغبةِ؛ فإنَّهُ تعالى وَعَدَ وأكَّدَ أنَّهُ معَ الصابرينَ، والمشركونَ يؤذونَ المؤمنينَ ويصدُّونَ النَّاسَ عنهُم في كلِّ عصرٍ وزمانٍ، فأمرَهُم اللهُ تعالى أن يستعينوا في مقاومةِ ذلك كلِّه وفي سائرِ ما يعرِضُ لهُم مِن المصائبِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ.

أمَّا الصَّبْرُ؛ فقد ذُكِرَ في القرآنِ سبعينَ مرةً، وأمرَ اللهُ تعالى بهِ الأنبياءَ كلَّهم عليهِم الصلاةُ والسلامُ، وهٰذا يدلُّ على عظمِ أمرِه، وكثرةِ نتائجِه.

وقد جعلَ اللهُ تعالى التواصي بهِ في سورةِ العصرِ[1] مقروناً بالتواصي بالحقِّ، إذ لا بدَّ للدَّاعي إلى الحقِّ منهُ.

والمرادُ بالصبرِ في هٰذه الآياتِ كلِّها: مَلَكَةُ الثَّباتِ والاحتمالِ التي تهوِّنُ على صاحبِها كلَّ ما يلاقيهِ في سبيلِ تأييدِ الحقِّ، ونشرِ الدينِ والتوحيدِ.

وإنَّما يظهرُ الصبرُ في ثباتِ الإنسان على عملٍ اختياريٍّ يَقْصِدُ بهِ إثباتَ حقٍّ، أو إزالةَ باطلٍ، أو الدعوةَ إلى عقيدةٍ، أو تأييدَ فضيلةٍ، أو إيجادَ وسيلةٍ إلى عملٍ عظيمٍ؛ لأنَّ أمثالَ هٰذه الكليَّاتِ التي تتعلقُ بالمصالحِ العامَّةِ، هي التي تقابَلُ مِن النَّاسِ بالمقاومةِ والمحادَّةِ التي يعوزُ فيها الصبرُ ومصارعةُ الشدائدِ، فالثَّابتُ على العملِ في مثلِ هٰذه الحالِ هو الصابرُ والصبَّارُ، وليسَ كلُّ متحمِّلٍ للمكروهِ مِن الصَّابرينَ الذينَ أخبرَ اللهُ تعالى في هٰذه الآيةِ أنَّهُ معَهُم، وبشَّرهُم بالفوزِ، وأثنى عليهِم، بل لا بدَّ مِن العملِ للحقِّ والثباتِ فيه، وعلى ذلك جرى رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه عليهِم الرِّضى والرِّضوان، حتى فازوا بعاقبةِ

(١) ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الصبرِ المحمودةِ، ونصَرَهُم اللهُ تعالى معَ قلَّتِهم وضَعْفِهم على جميعِ الأمَمِ مع قوَّتِها وكَثْرَتِها، وإنَّما كانَ ذٰلك بالصبرِ في اللهِ ولله.

والمتحمِّلُ للمكروهِ معَ السآمةِ والضَّجَرِ لا يُعدُّ صابراً، وهو شأْنُ مُنْتَحلي العلمِ ومدَّعي الصَّلاحِ في هٰذه الأزمنةِ، تراهُم أَضعفَ الناسِ قُلوباً، وأشدَّهم اضطراباً إذا عَرَضَ لهُم شيءٌ على غيرِ ما يَهْوَونَ، فمَن لم يستَعِنْ على عملِهِ بالصبرِ؛ لا يتمُّ لهُ أمرٌ، ولا يثبتُ على عملٍ، لا سيما الأعمالُ العظيمةُ؛ كتربيةِ الأممِ، والانتقالِ بها مِن حالٍ إلى حالٍ.

وجهُ الحاجةِ إلى الاستعانةِ بالصبرِ على تأْييدِ الحقِّ والقيامِ بأَعبائِه ظاهرٌ جليٌّ، وأَما الحاجةُ إلى الاستعانةِ بالصلاةِ؛ فوَجْهُها خفيٌّ محجوبٌ، لا يكادُ ينكشِفُ إلَّا للمصلِّينَ الذينَ هُم في صلاتِهم خاشِعونَ، وهي التوجُّهُ إلى اللهِ تعالى، وحضورُ القلبِ معهُ سبحانَه، واستغراقُهُ في الشعورِ بهَيْبتِه وجلالِه وكمالِ سلطانِه، وهي التي قالَ اللهُ تعالى فيها: ﴿وإنَّها لَكَبيرةٌ إلَّا عَلى الخاشِعينَ﴾[1]، ولأنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ، والإنسانُ خُلِقَ هلوعاً، إذا مسَّهُ الشرُّ جزوعاً، وإذا مسَّهُ الخيرُ منوعاً، إلَّا المصلِّينَ الذينَ هُم على صلاتِهم دائِمونَ[2].

وليستْ هٰذه الصلاةُ هي الصورةَ المعهودةَ مِن القيامِ والركوعِ والتلاوةِ باللسانِ فقط، والذي نشاهدُ مِن المعتادينَ عليها الإصرارَ على الفواحشِ والمنكَراتِ، وارتكابِ الآثامِ والسيئاتِ.

---

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) كما في سورة المعارج: ١٨ ـ ٢٣.

وإنَّ اللهَ تعـالى معَ الصَّابرينَ، ولم يَقُلْ: معكُم؛ ليفيدَ أنَّ معونَتَه إنَّما تمدُّهُم إذا صارَ الصَّبرُ وصفاً لازماً لهُم، ولكنَّ أكثرَ مَن يدَّعي الإيمانَ حيثُ إنَّهُ جاهلٌ بمعنى كلامِ ربِّهِ، فهو محرومٌ مِن حقيقةِ الإيمانِ الصَّحيحِ، والصلاةِ الصَّحيحةِ، فلهٰذا صارَ محروماً مِن نتائجِ الإيمانِ والصَّبرِ والصلاةِ، فتدبَّرْ وكُنْ مِن المؤمنينَ الصَّادقينَ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1].

قد خاطبَ اللهُ تعالى المؤمنينَ؛ آمِراً إيَّاهُم بالأكلِ مِن الحلالِ الطيِّبِ مِن رزقِ اللهِ، ولا يضيِّقوا على أنفسِهم - مثلِ متَّخذي الأندادِ - بتركِ الأكلِ مِنَ الطَّيِّباتِ؛ كتركِ أكلِ اللحمِ، فكلوا واشكُروا للهِ الذي خَلَقَ لكُم هٰذه الأشياءَ، وسهَّلَ عليكُم أسبابَها؛ بأن تتَّبعوا سنَنَهُ الحكيمةَ في طلبِ هٰذه الطَّيِّباتِ واستخراجِها واستعمالِها فيما خُلِقَتْ لأجْلِه، والثَّناءِ عليهِ جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه، وأنَّ هٰذه الطَّيباتِ مِن فضلِه وإحسانِه لعبادِه، ليس لمَن اتَّخذوهُ أنداداً لهُ تأثيرٌ فيها، ولذٰلك قالَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تعبُدونَ﴾؛ أي: إنْ كنتُم تخصُّونَه بالعبادةِ والاعتقادِ بالانفرادِ بالسُّلطةِ والتأثيرِ؛ فاشكروا لهُ جلَّ جلالُه أنَّهُ خَلَقَ هٰذهِ النعمَ وأباحَها لكُم، فلا تجعلوا لهُ أنداداً تطلبونَ منهُم الرزقَ، أو ترجعونَ إليهِم في التَّحليلِ والتَّحريمِ، أو ترجُونَ منهُم جَلْبَ المنافعِ أو دَفْعَ المضارِّ، وإلَّا كنتُم كافرينَ باللهِ؛ كالذينَ من قبلِكُم؛ جَهِلوا معنى عبادةِ اللهِ تعالى، فاتَّخذوا بينَهُم

(١) البقرة: ١٧٢.

وبينه وسطاءَ في طلبِ الرزقِ، ورُؤساءَ يُحلُّونَ ويحرِّمونَ.

ومِن الشكرِ لهُ تعالى استعمالُ القُوى التي غُذِّيَتْ بتلكَ الطَّيِّباتِ في نفعِ أنفسِكُم وأُمَّتِكم، وليس مِن الطَّيِّباتِ ما يأْخذهُ شيوخُ الطريقةِ مِن مُريديهِم مِن النُّذورِ، بل هو مِن الخبائثِ والسُّحْتِ.

ولا يَفهَمُ هٰذه الآيةَ حقَّ فهْمِها إلَّا مَن كانَ عارفاً بتاريخِ المللِ والأممِ عنـدَ ظُهـورِ الإسلامِ وقبلَه؛ فإنَّ المشركينَ وأهلَ الكتابِ كانوا فِرقاً وأصْنافاً؛ يُحـرِّمونَ على أنفسِهم أشياءَ، ويعذِّبونَ أنفسَهم بصومِ الدَّهرِ، وقد وَرِثوا هٰذه الأشياءَ عن آبائِهم الوثنيِّينَ، الذينَ يرونَ أنَّ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالى محصورٌ في تعذيبِ النَّفسِ، وتركِ حظوظِ الجسدِ.

وقد تفضَّلَ اللهُ تعالى على هٰذه الأمةِ المحمَّديَّةِ بجعْلِها أُمَّةً وسطاً؛ تُعطي الجسدَ حقَّه، والروحَ حقَّها، فأحلَّ لنا الطَّيباتِ؛ لتتَّسِعَ نعَمُه الجسديةُ علينا، وأمـرَنا بالشكرِ عليها؛ ليكونَ لنا منها فوائدُ روحانيةُ عقليةٌ، فلم نكُنْ جسمانيّاً محضاً كالأنعامِ، ولا روحانيّاً خالصاً كالملائكةِ.

فالمؤمنونَ مكلَّفونَ بمعرفةِ هٰذه الأشياءِ، فإذا لم يعرفوها؛ فقد ضيَّعوا صفةَ الإيمانِ، وصاروا مِن المحرومينَ مِن فضائلِ الإيمانِ وفَهْمِ كلامِ اللهِ تعالى؛ القرآنِ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصاصُ في القَتْلى الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى فمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخيهِ شَيْءٌ فاتِّباعٌ بالمَعْروفِ وأداءٌ إليهِ بإحسانٍ ذٰلكَ تَخْفيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ ورَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بعْدَ**

ذٰلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي القِصاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾[1] .

هٰذا خطابٌ خاصٌّ مِن اللهِ تعالى، موجَّهٌ إلى المؤمنينَ، فمَنْ كان مؤمناً؛ فلْيَعْرِفْ خطابَ ربِّه الحكيمِ العليمِ ؛ فإنَّه تعالى أرشدَ عبادَه المؤمنين إلى ما فيهِ صلاحُهم وسعادتُهم في حياتِهم ومماتِهم، ودنياهم ودينِهم .

وقد فرَضَ اللهُ تعالى الحكيمُ على المسلمينَ الحدودَ؛ مِن القِصاصِ والرَّجمِ والضَّربِ، ولا شكَّ أنَّ القصاصَ بالعدلِ والمساواةِ هو الأصلُ الذي يربِّي الأممَ والشعوب، وأنَّ تركَه بالمرَّةِ يُغري الأشقياءَ بالجراءَةِ على سفكِ الدِّماءِ، فقَتْلُ القاتلِ هو الذي يربِّي الناسَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ويمنعُهم مِن القتلِ ؛ إلَّا إذا رضيَ أولياءُ المقتولِ ، وعَفَوْا بعاطفةِ الرَّحمةِ، أو ملاحظةِ المصلحةِ بأَخْذِ الدِّيةِ، فلا تمنعُه الشريعةُ الإلٰهيةُ، بل تُرَغِّبُهم إليهِ .

وقولُه تعالى : ﴿الحُرُّ بالحُرِّ﴾ الآية، مفهومُ اللفظِ غيرُ مرادٍ على إطلاقِه؛ لأنَّهُ قد جرى العملُ مِن عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى الآنَ على قتلِ الرَّجلِ بالمرأةِ، ومنطوقُ الآيةِ أنَّ الحرَّ يُقْتَلُ بالحُرِّ. . . إلخ، وأمَّا كونُ الحرِّ يُقتَلُ بالعبدِ، والرَّجُلُ بالمرأةِ؛ فهٰذا يؤخذُ مِن لفظِ القِصاصِ ، وصريحِ النَّفْسِ بالنَّفْسِ .

ففي إقامةِ القِصاصِ الحياةُ الطيِّبةُ، وصيانةُ النَّاسِ من اعتداءِ بعضِهم على بعضٍ ، وأمرَهُم بالقتلِ ؛ ليقلَّ القتلُ أو ينتَفِيَ ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّهُ إذا قتلَ نفساً يُقتَلُ بها؛ يرتَدِعُ عنِ القتلِ ، فتُحْفَظُ الحياةُ، وأما الاكتفاءُ بالدِّيةِ أو بالحبسِ والنَّفيِ ؛ فلا يردَعُ كلَّ أحدٍ عن سفكِ دمِ خصمِه .

(1) البقرة: ١٧٨ ـ ١٧٩ .

فالآيةُ خطابٌ وأمرٌ للمؤمنينَ كلِّهم، فيجبُ عليهِم أن يستعملوا عقولَهم في فهمِ خطابِ ربِّهم؛ ليعرِفوا دقائقَ الأحكامِ، وما فيها مِن المنفعةِ للأنامِ، فمَنْ ينكرُ أو لا يعملُ بإجراءِ القِصاصِ بعدَ هٰذا البيانِ؛ فلا عقلَ لهُ ولا جَنانَ، فالحكوماتُ الإسلاميةُ الحاضرةُ ـ كمصرَ وسورَيةَ والعراقِ وإيرانَ وأفغانَ وتركيةَ وغيرِها ـ وإنِ ادَّعتْ أنَّها إسلاميةٌ، ولكنها محرومةٌ مِن العدلِ؛ بسببِ عدمِ فهمِها معاني القرآنِ، فاعتبروا يا أُولي الألبابِ والأبصارِ!

* * * * *

الآيةُ الخامسةُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الَّذينَ مِنْ قبلِكُم لَعَلَّكُمْ تتَّقونَ﴾[1].

قد خاطبَ اللهُ تعالى المؤمنينَ كلَّهم، وأعلَمَهُم أنَّـهُ قد فرضَ عليهِم الصِّيامَ كما كانَ مفروضاً على الأممِ السابقةِ، فأفادَ أنَّهُ ركنٌ مِن أركانِ الدِّينِ، وأنَّهُ مِن أقوى العباداتِ وأعظمِ ذرائعِ التَّهذيبِ، وفيهِ إشعارٌ بوَحْدَةِ الدِّينِ في أُصولِه ومقصدِه، لا تدخلُ فيهِ الكيفيَّةُ والكمِّيَّةُ، وإنَّما فرضَ اللهُ تعالى الصِّيامَ؛ لأنَّهُ يستعدُّ بهِ العبدُ المؤمنُ لتَقْوى اللهِ تعالى، واللهُ غنيٌّ عنَّا وعن عمَلنا، وما كَتَبَ علينا الصيامَ إلَّا لمنفعتِنا.

ومعنى (لعلَّ) الإعدادُ والتهيئةُ، وإعدادُ الصيامِ نفوسَ الصائمينَ لتقوى اللهِ تعالى أنَّهُ أمرٌ موكولٌ إلى نفسِ الصائمِ، لا رقيبَ عليهِ فيهِ إلَّا اللهُ تعالى، وسرٌّ بينَ العبدِ وربِّه لا يشرفُ عليهِ أحدٌ غيرُه سبحانَه، فإذا تركَ الإنسانُ شهواتِه ولذَّاتِه لأجلِ امتثالِ أمرِ ربِّه مدةَ شهرٍ كاملٍ في السنةِ؛ لا جرمَ أنَّه يحصلُ له

---

(1) البقرة: ١٨٣.

مِن تكرارِ هٰذه الملاحظةِ المصاحبةِ للعملِ مَلَكَةُ المراقبةِ للهِ تعالى، والحياءِ منهُ سبحانَه وتعالى أنْ يراهُ حيثُ نهاهُ، وفي هٰذه المراقبةِ مِن كمالِ الإيمانِ باللهِ تعالى أكبرُ معدٍّ للنفوسِ ومؤهلٍ لها لسعادةِ الرُّوحِ في الآخرةِ وفي الدُّنيا أيضاً.

انـظرْ؛ هل يُقْـدِمُ مَن تُلابِسُ هٰذه المـراقبـةُ قلبَـه على غشِّ النـاسِ ومخادعتِهم؟ هل يسهُلُ عليهِ أن يراهُ اللهُ تعالى آكلاً لأموالِ النَّاسِ بالباطل ؟ هل يحتالُ على اللهِ تعالى في منعِ الزَّكاةِ، وهَدْمِ هٰذا الركنِ الركينِ مِن أركانِ دينِه؟ هل يحتالُ على أكلِ الرِّبا؟ هل يقتَرِفُ المنكراتِ؟

كلَّا؛ إنَّ صاحبَ هٰذه المراقبةِ لا يسترسلُ في المعاصي، إذ لا يطولُ أمدُ غفلَتِه عنِ اللهِ تعالى، وإذا نسيَ وألَمَّ بشيءٍ منها؛ يكونُ سريعَ التذكُّرِ، قريبَ الفيءِ والـرجـوعِ بالتـوبـةِ الصحيحةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1].

وهٰذا هو روحُ الصَّومِ وسرُّهُ؛ يورِثُ هٰذه المراقبةَ، وهٰذا هو معنى كونِ العملِ للهِ تعالى.

ويؤيِّدُ هٰذا ما وردَ مِن الأحـاديثِ المتَّفقِ عليها؛ كقولِه ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمضانَ إيماناً واحْتِساباً؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[2].

فيا أيُّها العبدُ المؤمنُ! أنتَ المخاطَبُ بفهمِ هٰذه الأشياءِ، والعملِ بها،

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) رواه: البخاري (٤ / ٩٩)، ومسلم (٩٥٧)؛ عن أبي هريرة.

وانظر كتابنا «صفة صوم النبي ﷺ في رمضان» (ص ٢٣ ـ الطبعة الثانية)، ففيه زيادة فائدة.

والتَّحلِّي بتقوى اللهِ تعالى في سرِّكَ وجهْرِك، وأمَّا إذا لم تفهَمْهُ، ولم تجتَهِدْ في تفهُّمِه؛ فأنْتَ المحرومُ مِن فضلِ ربِّكَ؛ كما صرتَ محروماً مِن فهمِ كلامِه الذي وجَّهَهُ إليكَ، فتنبَّهْ وتدبَّرْ ولا تكنْ مِن المحرومينَ؛ كأكثرِ مَنْ يدَّعي الإسلامَ مِن المسلمينَ الجغرافيينَ اليومَ.

* * * * *

الآيةُ السادسةُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1].

قد خاطبَ اللهُ تعالى المؤمنينَ كافَّةً وعامَّةً ـ عربَهم وعجمَهم، شرقيهم وغربيِّهم ـ آمراً إيَّاهُم بأنْ يدخُلوا في حديقةِ المسالَمَةِ والاتحادِ عامَّةً، ويكونوا عِبادَ اللهِ المؤمنينَ إخواناً.

وبهٰـذا يرشِـدُنـا اللهُ تعـالى إلى أنَّ شأنَ المؤمنينَ الاتفـاقُ والاتحـادُ والمسالمةُ، ولهٰذا قد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لسانِه ويدِه، والمهاجرُ مَن هَجَرَ مَا نَهى اللهُ عنهُ»[2].

وقد شرَّفَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ بهٰذا الخطابِ.

و ﴿السِّلم﴾: المُسالَمَةُ، والانقيادُ، والتسليمُ، والسلامُ، والصلحُ، ودينُ الإسلامِ.

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) رواه البخاري (١ / ٥٠) بلفظه، ورواه مسلم (رقم ٤٠) مقتصراً على الشطر الأول.

فمعنى الآيةِ: تمسَّكوا واعملوا بجميعِ شرائعِ الإسلامِ.

فهٰذا يوجبُ علينا أن ننظرَ في جميعِ ما جاءَ بهِ الشارعُ[1] محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ في كلِّ مسألةٍ؛ قولاً وعملاً، وأَنْ نفهَمَ المرادَ مِن ذٰلك كلِّه، لا أَنْ يأْخذَ كلُّ واحدٍ بكلمةٍ ويجعَلَها حجةً على الآخرِ، أو تحكيمَ الاحتمالِ بلا حجَّةٍ ولا دليلٍ أو تعصبٍ للمذاهب.

واللهُ تعالى يرشِدُنا بهٰذه الآيةِ أَنْ نكونَ نحنُ المسلمينَ على منهجٍ واحدٍ في الدِّينِ، ونحنُ نجدُ في كلامِ كثيرٍ مِن علمائِنا مثلَ هٰذا الكلامِ، والدعوةَ إلى الاتِّفاقِ، ولكنْ يسدُّهُ فشوُّ الجهلِ، وتعصُّبُ أهلِ الجاهِ مِن العلماءِ لمذاهِبِهم التي إليها ينتَسِبونَ، وبجاهِها يعيشونَ ويكْرَمونَ، وتأْييدُ الأمراءِ لهُم؛ استعانةً بهِم على إخضاعِ العامَّةِ، وقطعِ طريقِ الاستقلالِ العقليِّ والنفسيِّ على الأمَّةِ؛ لأنَّ هٰذا أعونُ لهُم على الاستبدادِ.

وهٰذه الآيةُ تَنْعَى على ﴿الَّذينَ جَعلُوا القُرْآنَ عِضِينَ﴾[2]؛ أَيْ: أجزاءً، حيثُ آمنـوا ببعضٍ وكفـروا ببعضٍ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾[3]، وإنكارٌ على الَّذينَ يؤمنونَ ببعضِ الكتابِ ويكفرونَ ببعضٍ؛ أَيْ: يعملونَ ببعضِه على أَنَّهُ دينٌ ويتركونَ بعضاً بالتأْويلِ أو دعوى النَّسْخِ.

ولا شكَّ أَنَّ الأخْذَ بالقرآنِ والدِّينِ بجملتِه واجبٌ على كلِّ مؤمنٍ، وكذا

---

(1) من الألفاظ المنهي عنها عند علمائنا. انظر تعليقي على «الفتاوى المهمَّات» نشر دار ابن الجوزي.

(2) الحِجْر: ٩١.

(3) الحِجْر: ٩٢.

فهمُ معناهُ، وفهمُ هدايته، فتدبَّرْ.

وهٰذه الآيةُ كآيةِ: ﴿واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا﴾[1]، وكآيةِ: ﴿ولا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2].

ولكنْ؛ يا أسفا! نحنُ قد خالَفْنا كلَّ هٰذه النصوصِ، فتفرَّقْنا، وتنازَعْنا، وشاقَّ بعضُنا بعضاً بشُبهةِ الدِّينِ، إذ اتَّخذْنا مذاهبَ متفرِّقةً؛ كلُّ فريقٍ يتعصَّبُ لمـذهبٍ، ويعادي سائرَ إخوانِه المسلمينَ لأجلِهِ؛ زاعماً أنَّهُ ينصرُ الدينَ وهو يخـذلُـهُ بتفـريقِ كلمةِ المسلمينَ، هٰذا سنِّيٌّ يقاتِلُ شيعيّاً، وهٰذا شيعيٌّ ينازِلُ إباضيّاً، وهٰذا شافعيٌّ يُغري التاتارَ على الحنفيَّةِ، وهٰذا حنفيٌّ يقيسُ الشافعيةَ على الذمِّيَّةِ، وهٰؤلاءِ مقلِّدةُ الخَلَفِ يحادُّونَ مَنِ اتَّبَعَ طريقَ السَّلَفِ[3]، وسببُهُ الانحرافُ عن الصِّراطِ المستقيمِ؛ بسببِ الجهلِ بمعنى كلامِ ربِّ العالمينَ؛ اتباعاً لخطواتِ الشَّيطانِ الرجيمِ، ولهٰذا قال اللهُ تعالى: ﴿ولا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إنَّـهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ﴾[4]؛ أي: لا تسيروا سيرَهُ، ولا تتَّبِعـوا سُبُلَه في التفرُّقِ في الدِّينِ.

وسُبُــلُ الشَّيطانِ وخـطواتُـهُ هي كلُّ أمـرٍ يخـالِفُ سبيلَ الحقِّ والخيرِ والمصلحةِ العامَّةِ.

ولا شكَّ أنَّ الذينَ يتَّبعونَ سبيلَ اللهِ لا يتفرَّقونَ في الدِّينِ؛ قالَ اللهُ عزَّ

(١) آل عمران. ١٠٣.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) وهٰؤلاء الحـزبيُّون المعاصـرون يوقع بعضهم ببعض، ويشتم بعضهم بعضاً، ويمزِّق بعضهم بعضاً!! فلا قوة إلا بالله.

(٤) الأنعام: ١٤٢.

وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُم فِي شَيْءٍ﴾[1].

وأهلُ الحقِّ إذا دَبَّ فيهِم تنازعٌ يرجِعونَ حالاً إلى كتابِ اللهِ تعالى وسنَّةِ رسوله محمدٍ ﷺ.

فالآياتُ يُفسِّرُ بعضُها بعضاً، وطريقُ الحقِّ هو التوحيدُ والوحدةُ والإسلامُ، وطرقُ الشيطانِ هي مثاراتُ التفرقِ والخصامِ، والشَّيطانُ يزيِّنُ طرقَه.

فيا أيُّها المؤمنُ! تفهَّمْ خِطابَ ربِّكَ العليمِ الحكيمِ واعملْ بهِ؛ تكنْ سالماً مِن العذابِ والنَّكالِ في الدُّنيا والآخرةِ، وإلا تكنْ خاسراً مِن حزبِ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فتنبَّهْ.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ إِنْ يَأْتِيَ يومٌ لَا بَيْعٌ فيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شَفاعَةٌ والكَافِرونَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾**[2].

قد نَادى اللهُ تعالى وخاطَبَ المؤمنينَ مِن عبادِهِ؛ آمراً إيَّاهُم بإنفاقِ الأموالِ في سبيلِ اللهِ ومرضاتِهِ، وإعلاءِ شَرْعِه وكلماتِه، ونشرِ دينِه ومصالحِ عبادِهِ المؤمنينَ، وتربيةِ الأيتامِ والعاجزينَ، مما رزقَهُم اللهُ تعالى في هٰذه الحياةِ الدُّنيا، قبلَ فواتِ الفرصةِ، ولا يغترُّوا بدَجلِ الدَّجَّالينَ الذينَ يفتِنونَ الناسَ بأنَّهُم وأسلافَهُم يشفعونَ في حقِّهم يومَ القيامةِ، ويقيسونَ اللهَ العليَّ العظيمَ والغنيَّ الحكيمَ بالمخلوقينَ مِن الأمراءِ والحكامِ؛ بأنَّهُم بإرشائِهم إياهُم يستميلونَهم؛

---

(١) الأنعام: ١٥٩.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

رعايةً لمالِهم ودولتِهم، فيظنُّ الغِرُّ المفتونُ أنَّ دارَ الآخرةِ كذلك!

فاللهُ تعالى ربُّ العالَمينَ نبَّهَهُم بأنَّهُ لا ينفعُ يومَ القيامةِ لا الأخلَّاءُ ولا المشايخُ ولا المالُ ولا السلطانُ، وإنَّما ينفعُ العبدَ المؤمنَ إيمانُهُ وعملُه الصالحُ الخالصُ للهِ عزَّ وجلَّ، فلا تكفُروا نعمَ اللهِ بالبخلِ وتركِ الإنفاقِ في مرضاةِ اللهِ، ووضعِها في غيرِ موضِعِها.

والوثنيُّونَ كانوا يظنُّونَ أنَّ الإنسانَ يمكنُ أنْ ينجوَ في الآخرةِ بفداءٍ يَفْتَدي بهِ أو شفاعةٍ مِن سَلَفِه الربَّانيينَ؛ كدَأْبِ الأمراءِ والسَّلاطينِ، وقُصارى هٰذا الاعتقادِ أنَّ سعادةَ الآخرةِ هي كالمعروفِ للعامَّةِ مِن سعادةِ الدُّنيا، فمَن كانَ يطلُبُ في الآخرةِ السعادةَ؛ فعليهِ أنْ يعتمدَ على أحدِ المقرَّبينَ عندَ اللهِ؛ ليشفَعَ لهُ هناك.

وقد ردَّ اللهُ جلَّ جلالُه عليهم ردّاً ظاهراً، وأمَرَ المؤمنينَ مخاطِباً إيَّاهم أنْ يطلُبوا مَرضاةَ اللهِ بإنفاقِ أموالِهم في سبيلِ اللهِ في هٰذه الحياةِ الدُّنيا، ولا يكونوا كافرينَ بأصْلِ الدينِ؛ فإنَّهُ لا ينفعُ يومَ القيامةِ بيعٌ ولا خلَّةٌ ولا شفاعةٌ.

والحاصلُ أيُّها العبدُ المؤمنُ! لا تعتَمِدْ على مالِك، وتجارتِك، وجاهِك، وشيخِك، وآبائكَ، وعلمِك، وفضلِك؛ فإنَّهُ لا ينفعُك شيءٌ مِن ذٰلك، بل يكونُ وَبالاً وحسرةً عليكَ، وإنَّما ينفعُكَ إيمانُكَ باللهِ، وامتثالُ أمرِه خالصاً لهُ، والكافرونَ لنِعَمِ اللهِ وفهمِ كلامِه وامتثالِ أمرِه هُم الظالمونَ الذينَ ظلموا أنفُسَهم وهُم لا يشعرُونَ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتِكُمْ بالمَنِّ والأذَى كَالَّذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ولاَ يُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عليهِ تُرابٌ فأصابَهُ وَابِلٌ فَتركَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرينَ﴾[1].

قد نَادى اللهُ تعالى وخاطَبَ المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عنِ الأخلاقِ الذَّميمةِ مما يُبْطِلُ الصَّدقاتِ والحَسَناتِ، ألا وهو المنُّ والمنَّةُ والأذَى، نهى المؤمنينَ خاصَّـاً بعـدَ أنْ رغَّبَ إلى الإنفـاقِ في سبيلِ اللهِ وإعـلاءِ كلمتِـه ومصـالـحِ المسلمينَ؛ لأنَّ الذي ينتفعُ بما أنْفَقَ وتصدَّقَ يومَ القيامةِ إنَّما هو المؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، المخلصُ للهِ تعالى وحدَهُ.

ثمَّ مَثَّلَ اللهُ تعالى الذي يُرائي أو يَمُنُّ بالتُّرابِ والغبارِ الذي على الحجرِ الأملسِ؛ يظنُّ الـرَّائي أنَّـهُ ترابٌ يصلُحُ للزَّرْعِ ونحوِه، ولكنْ إذا جاءَ المطرُ الشديدُ؛ أزالَهُ بالكلِّيَّةِ، وتركَ الحجرَ صلْداً، فهٰكذا لا يقدِرُ المرائي والمنَّانُ على شيءٍ مِمَّا كَسَبَ يومَ القيامةِ، حينما يكونُ أحوجَ إليهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يهدي القـومَ الكـافـرينَ إلى الحقِّ، ولا ينوِّرُ بصرَهُم وبصيرَتَهُم؛ لعدمِ صلاحيَّتِهم للفضلِ والرَّحمةِ.

فيها أيُّها العبدُ المؤمنُ! أنتَ المخاطَبُ بهٰذه المواعظِ والنَّصائحِ، فعليكَ أنْ تفهَمَها وتَتَّعِظَ بها، وإلَّا تكنْ جاهلاً غافلاً، بل كافراً[2].

ومِن نتيجـةِ هٰذا الجهـلِ نَرى أكثـرَ النـاسِ يُراؤونَ في الأعمـالِ،

---

(١) البقرة: ٢٦٤.

(٢) بجحودك لأوامر ربِّك.

ويتظاهرونَ بالصَّلاحِ والدينِ لأجْلِ الناسِ والمصالحِ الدنيويَّةِ، ولذا قلَّ النفعُ والانتفاعُ فيما بينَ الأمَّةِ في هٰذه الحياةِ الدُّنيا، وأمَّا في الآخرةِ فمعدومٌ النَّفعُ بالكلِّيَّةِ؛ لأنَّ شرطَ قبولِ العملِ ونفعِه في الآخرةِ كونُهُ صادراً عن الإيمانِ باللهِ تعالى، ومُخْلِصاً لهُ تعالى، والمرائي والمنَّانُ ليس بمخلصٍ، والكافرُ ليس بمؤمنٍ، ﴿واللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرينَ﴾؛ لعدَمِ صلاحيَّتِهم، وخُبْثِ طينَتِهم على ما يعلَمُهُ اللهُ تعالى، فنعوذُ باللهِ مِن الشِّركِ والكفرِ والرِّياءِ وكلِّ ما يُحْبِطُ العملَ؛ كما نستعيذُ بِهِ تعالى مِن الشَّيطانِ وخطواتِه ووساوِسِهِ والشِّركِ والنِّفاقِ.

واعلمْ أنَّ الإنفاقَ في سبيلِ اللهِ مِن أشقِّ الأمورِ على النفوسِ، لا سيَّما إذا اتَّسعت دائرةُ المنفعةِ الدينيَّةِ، وأَما الإنفاقُ لهوى النفسِ؛ فسهلٌ، ولذا ترى الإنفاقَ لنشرِ علمِ الدينِ قليلاً، وأَما لما يُظَنُّ فيهِ المنفعةُ الدنيويَّةُ مِن الحسابِ والفلسفةِ والإنكليزيَّةِ؛ فتجدهُ كثيراً معتنىً بِهِ كلَّ الاعتناءِ.

المنُّ: هو أنْ يذكُرَ المحسنُ إحسانَه لمَن أحسنَ إليهِ؛ يظهرُ بِهِ تفَضُّلَه عليهِ. والأذى أعمُّ منهُ، ومنهُ أنْ يذكُرَ المحسنُ إحسانَه لغيرِ مَن أحسنَ إليهِ، وهٰذا ربَّما يكونُ أشدُّ عليهِ مِمَّا لو ذكَرَهُ لهُ، أو يتطاولَ عليهِ بسببِ إنعامِه عليهِ. وكلُّ واحدٍ مِن المنِّ والأذى كافٍ وحدَهُ لإحباطِ العَملِ وعدمِ استحقاقِ الثوابِ على الإنفاقِ.

وقد خصَّ اللهُ تعالى المؤمنينَ بهٰذا الخطابِ وأَمثالِه، ونهاهُم نهياً صريحاً أنْ يُبْطِلوا صدقَاتِهم بالمنِّ والأذى؛ مبالغةً في التَّنفيرِ عن هاتينِ الرَّذيلتينِ.

وقد مضتْ سنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بأَنَّ الإيمانَ هُو الذي يهدي قلبَ صاحبِه إلى الإخلاصِ ووضعِ النفقاتِ في مواضعِها، فالكافرُ بمُقْتَضى هٰذه السنَّةِ محرومٌ

مِن هٰذه الهدايةِ التي تجمعُ لصاحِبها بينَ صلاحِ القلبِ والعملِ ، وسعادةِ الدُّنيا والآخرةِ.

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا كَسَبْتُم ومِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الخَبيثَ مِنْهُ تُنْفِقونَ ولسْتُمْ بآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فيهِ واعْلَموا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَميدٌ﴾[1].

قَدْ نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهم أَنْ يُنْفِقوا ويتصدَّقوا مِن أَطيبِ أموالِهم؛ كما أَمَرهم في الآيةِ السابقةِ بأَنْ يُنْفِقوا بخلوصِ نيَّاتِهم، وحُسْنِ طويَّاتِهم؛ لنفعِ عبادِ اللهِ؛ طالباً ثوابَه مِن اللهِ عزَّ وجلَّ.

والطيِّبُ: هو الجيِّدُ المستطابُ، وضدُّه الخبيثُ المُسْتَكْرَهُ، ولذٰلك قالَ في مقابلِ هٰذا الأمرِ: ﴿ولا تَيَمَّموا الخَبيثَ مِنْهُ تُنْفِقونَ﴾، والطيِّبُ الحلالُ، والخبيثُ الحرامُ.

فينبغي أَنْ يُعْطِي المزكي مِن أَوْسَطِ أموالِه، بل مِن أَعلاها، لا من حَشَفِهِ ورديئِهِ، ويؤيِّدُ هٰذا قولُه تعالى: ﴿لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

وكيفَ تقصدونَ إعطاءَ المالِ الخبيثِ والحرامِ والرَّديءِ الدَّنيءِ في سبيلِ اللهِ ولستُم ترضَوْنَ لأنفسِكم أَنْ تأخذوهُ إلَّا إذا تساهَلْتُم مع غَمْضِ العينِ؟

وإهداءُ الرَّديءِ يُشعِرُ بقلَّةِ احترامِ المُهْدى إليهِ، ولا شكَّ أَنَّ ما يُبذلُ في

---

(١) البقرة: ٢٦٧.

(٢) آل عمران: ٩٢.

سبيلِ اللهِ وابتغاءِ مرضاتِه هو كالمُعطى له، فيجبُ على المؤمنِ أنْ يجعلَهُ مِن أجودِ ما عندَه وأحسنِه؛ ليكونَ جديراً بالقَبولِ؛ فإنَّ الذي يَقْبَلُ الرَّديءَ مُغْمِضاً فيهِ إنَّما يقبَلُه لحاجتِه، واللهُ تعالى لا يحتاجُ أصلاً، بل غنيٌّ عن ذلك وعن كلِّ الأشياءِ، ولذلك قالَ: ﴿واعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَنِيٌّ حميدٌ﴾.

ولم يبقَ بعدَ هذا التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والتعليمِ الكاملِ والتَّأديبِ الشاملِ إلَّا أن يكونَ المؤمنُ بهذا الهَدْيِ أشدَّ النَّاسِ رغبةً في الصَّدقةِ والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ بحَسْبِ سَعَتِه وحالِه، وأنْ يكونَ في بذلِه مُخلِصاً متحرِّياً مواقعَ الفائدةِ، مبتعداً بعدَ البَذْلِ عمَّا يَذهَبُ بثمرتِه مِن المنِّ والأذى والرياءِ، ولكنَّكَ تجدُ كثيراً مِن اللابسينَ لباسَ الإيمانِ يتقلَّبونَ في النِّعمِ وهمْ أشدُّ الناسِ لها كفراً، إذ كانوا أشدَّ الناسِ إمساكاً وبخلاً.

فاعتبرْ أيُّها المؤمنُ! وتفهَّمْ خِطابَ ربِّ العالمينَ، ولا تضيِّعْ أهليَّتَكَ فيما لا فائدةَ فيهِ مِن الأشعارِ والمدائحِ والخرافاتِ والتُّرهاتِ وسفاسفِ الخيالاتِ، فتكونَ مِن المحرومينَ الهالكينَ.

* * * * *

الآيةُ العاشرة فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ . فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وإنْ تُبْتُمْ فلَكُمْ رُؤوسُ أمْوالِكُمْ لَا تَظْلِمونَ ولا تُظْلَمونَ﴾**[1].

فقد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ آمراً إيَّاهُم بأنْ يتَّقوهُ، ثمَّ أمرَهُم بتركِ ما بقيَ مِن الرِّبا الذي كانوا يُرابونَه في الجاهليةِ ويتحرَّزونَ عنهُ كلَّ

(١) البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩

الاحترازِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أَيْ: إِنْ كانَ إيمانُكم كاملاً صادِقاً بجميعِ ما جاءَ بِهِ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي.

فـ ﴿ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾ يؤخَذُ منهُ أَنَّ مَن لم يتركْ ما بقيَ مِن الرِّبا بعدَ نهيِ اللهِ تعالى عنهُ، وتوعُّدِه عليهِ، لا يعدُّ مِن أهلِ الإيمانِ.

ومِنَ الناسِ مَن يؤمنُ ببعضِ الكتابِ إيماناً يبعَثُ على العملِ، ويكفرُ ببعضٍ، فلا يُذْعِنُ لهُ ولا يعملُ بهِ، فهو يجْحَدُهُ بفعلهِ وإِنْ أقرَّ بِهِ بلسانِه، ولا يعتدُّ اللهُ تعالى بإيمانِ مثلِ هٰذا إلَّا إذا صدَّقَ قلبُه عملَ لسانِه.

فيا أَيُّها المؤمنونَ! إِنْ لم تتركُوا مَا بقيَ مِن الرِّبا كما أُمِرْتُم؛ فاعلموا واستيقِنوا أَنَّكُم على حربٍ مِن اللهِ ورسولِه، إذ نَبَذْتُم ما جاءَكُم بهِ رسولُه بالخروجِ عنِ الشَّريعةِ وعدمِ الخضوعِ للحُكْمِ، وهٰذا يقتضي أَنْ يكونوا عالِمينَ بذٰلك. فهٰذا إعلامٌ مِن اللهِ تعالى للمسلمينَ بأَنَّكُم خارجونَ عن حُكمِ اللهِ ورسولِه، محاربونَ لهما؛ ما دمتُم تتعاملونَ بالرِّبا.

فبعدَ هٰذه النصوصِ؛ أَلا يجبُ على المسلمينَ أَنْ يجتهدوا في تفهُّمِ كلامِ ربِّهم، ولا ريبَ أَنَّ العملَ بلا علمٍ وفهمٍ لا يكونُ صحيحاً مستقيماً، ولكنَّ المسلمينَ في ظلماتِ الجهالةِ منغمِسونَ، وفي ردغاتِ التقليدِ متلوِّثونَ، فلهٰذا تراهُم مِن فهمِ كلامِ ربِّهم محرومينَ، وهٰذه مصيبةٌ عظيمةٌ ابتُلِي بها المسلمونَ، فـ ﴿إِنَّا للهِ وإِنَّا إليهِ راجعونَ﴾(١).

* * * * *

---

(١) البقرة: ١٥٦.

الآيةُ الحادية عشرة فيها أيضاً: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ ولْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بالعَدْلِ ولا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ ولْيُمْلِلِ الَّذي عَلَيْهِ الحَقُّ ولْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فإنْ كَانَ الَّذي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أو ضَعيفاً أَوْ لا يَستطيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ واسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فإنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فرَجُلٌ وامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إحْداهُما فَتُذَكِّرَ إحْداهُما الأُخْرى ولا يَأْبَ الشُّهَداءُ إذا مَا دُعُوا ولا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبوهُ صَغيراً أَوْ كَبيراً إلى أَجَلِهِ ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وأَقْوَمُ للشَّهَادَةِ وأَدْنى أَلَّا تَرْتَابوا إلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حَاضِرَةً تُديرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبوها وأَشْهِدُوا إذا تَبَايَعْتُمْ ولا يُضارَّ كَاتِبٌ ولا شَهِيدٌ وإنْ تَفْعَلُوا فإنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ واللهُ بِكُلِّ شيْءٍ عَليمٌ . وإنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ولَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهانٌ مَقْبوضَةٌ فإنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذي اؤتُمِنَ أَمانَتَهُ ولْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ولا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ ومَنْ يَكْتُمْها فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ واللهُ بِما تَعْمَلونَ عَليمٌ﴾[1].

قد نَادى اللهُ تَعالى وخاطَبَ بهٰذه الآيةِ العظيمةِ عبادَهُ المؤمنينَ خاصَّةً أيضاً، وأَمرَهُم وأَرْشَدَهُم إلى ما فيهِ صلاحُ دُنياهُم ومعاملتِهم، وضَبْطِ أَموالِهم، وحِفْظِ حُقوقِهم، وتوثيقِ ذٰلك بكاتبٍ عَدْلٍ وشهادةِ شاهِدَيْنِ.

فانظُرْ إلى هٰذا الإرشادِ الإلٰهيِّ، وتفهَّمْ مَعانيهَ، ولاحِظْ منافعَهُ وفوائِدَهُ؛ فإنَّهُ يرقيكَ إلى المدنيَّةِ العُلْيا والإنسانيَّةِ العُظمى.

وقد أَمرَ اللهُ تعالى بكتابةِ الدَّينِ والإشهادِ عليهِ وأَخْذِ الرَّهْنِ إذا لم يتيسَّر

(١) البقرة: ٢٨٢ - ٢٨٣.

الاستيثاقُ بالكتابةِ والإشهادِ، وذلكَ أنَّ مَن يُضيِّعُ مالَه بإهمالِ المحافظةِ عليهِ لا يكونُ محموداً عندَ الناسِ ولا مأجوراً عندَ اللهِ؛ لأنَّ المالَ وقايةٌ للحياةِ والعِرْضِ، وإنَّما اللازمُ اكتسابُهُ مِن طُرُقِ الحِلِّ، وإنفاقُهُ في سبيلِ الخيرِ والبرِّ؛ قالَ اللهُ العزيزُ الحكيمُ: ﴿ولا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً﴾[1]؛ أيْ: تقومُ وتَثْبُتُ بها منافعكُم ومصالحُكم.

والدَّينُ الذي أَمرَ اللهُ بكتابتِه عامٌّ يشمَلُ القَرْضَ والسَّلَمَ وبيعَ الأعيانِ إلى أجَلٍ، وحيثُ إنَّ اللهَ تَعالى أمرَ المتدايِنَيْنِ بالكتابةِ؛ فهٰذا يستلزمُ عليهما تعلُّمَ الكتابةِ وإتقانَها؛ لأنَّ ما يتوقَّفُ عليهِ الشيءُ الضَّروريُّ ضروريٌّ.

وقد أرشَدَ اللهُ تعالى إلى أنْ يكونَ بينَ المتعامِلَيْنِ كاتبٌ يكتبُ بالعدلِ بلا مَيْلٍ ولا حيفٍ، والعدلُ في الكاتبِ يستلزمُ كونَ الكاتبِ عالماً بالحقوقِ والشُّروطِ، فالعدلُ يَهْدي الكاتِبَ إلى العلمِ، وأمَّا العلمُ فلا يهديهِ إلى العدلِ، فلهٰذا لا يقعُ الفسادُ مِن العَدْلِ، وإنَّما يقعُ الفسادُ مِن العلماءِ الفاقِدينَ لصفةِ العدالَةِ كما لا يَخْفى.

وبهٰذا قد أرشدَ اللهُ تَعالى الأمَّةَ الأميَّةَ إلى نظامِ المدنيَّةِ العُليا؛ لحفظِ الحقوقِ والأحكامِ فيها، حتى لا يقعَ التَّنازعُ، ثمَّ أكَّدَ تعالى ذٰلك بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ولا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إلى أَجَلِهِ﴾؛ أيْ: لا تَمَلُّوا ولا تَضْجَروا أو لا تكسَلوا مِن كتابة الدَّينِ والحقِّ، سواءٌ كانَ قليلاً أو كثيراً.

فهٰذا دليلٌ ظاهرٌ على أنَّ الكتابةَ يُعْمَلُ بها، وأنَّها مِن الأدلَّةِ التي تُعْتَبَرُ عندَ استيفاءِ شروطِها، ودليلٌ أيضاً على أنَّ الكتابةَ واجبةٌ في القليلِ والكثيرِ، ففي

(١) النساء: ٥.

الآيةِ إرشادٌ إلى عدمِ التَّهاونِ بشيءٍ مِن الحقوقِ أنْ يذهَبَ سدىً، وهي قاعدةٌ عظيمةٌ مِنْ قواعدِ الاقتصادِ، والعملُ بها آيةُ الكياسةِ والعقلِ.

﴿ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ الآية؛ الخطابُ للمؤمنينَ، والإشارة في ﴿ذٰلِكُمْ﴾ إلى جميعِ ما ذُكِرَ مِن الأحكامِ لا لواحدٍ منها، ﴿وأَقْوَمُ للشَّهَادَةِ وأَدْنَى أَنْ لا تَرْتَابُوا﴾، وأقربُ إلى انتفاءِ ارتيابِ بعضِكم ببعضٍ؛ فإنَّ هٰذا الاحتياطَ في كتابةِ الحقوقِ، والإشهادِ عليها، وتقوى اللهِ، والعدلِ مِن المتعامِلينَ والكتَّابِ والشهداءِ، يمنعُ كلَّ ريبةٍ، وكلَّ ما يترتَّبُ على الارتيابِ مِن المفاسِدِ والعداواتِ والمخاصماتِ.

﴿إلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حَاضِرَةً تُدِيْرُونَها بينَكُمْ فليْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ لا تَكْتُبُوها﴾؛ أي: نقداً بنقدٍ، ويداً بيدٍ؛ بأنْ يأْخُذَ المشتري المبيعَ والبائعُ الثمنَ، فلا حرجَ في تركِ كتابتِها ولا إِثْمَ.

ففي نَفْيِ الجُناحِ إشارةٌ إلى أنَّ كتابةَ ذٰلك أَوْلى وأَضبطُ، فهو إرشادٌ إلى استحبابِ ضبطِ الإنسانِ لمالِه وإحصائِه لما يَرِدُ عليهِ وما يصدُرُ عنهُ، وذٰلكَ مِنَ الكمالِ المدنيِّ، ومِن أسبابِ ارتقاءِ أُمورِ الكسبِ والتجارةِ، ولم يجعلِ اللهُ تعالى هٰذا حتماً؛ لأنَّهُ مما يشقُّ على غيرِ المرتقينَ في المدنيَّةِ، والترخيصُ فيهِ دليلٌ على وجوبِ كتابةِ الدُّيونِ المؤجَّلةِ، فتنَبَّهْ.

ثمَّ خَتَمَ اللهُ تعالى بالموعظةِ التي تُعينُ النفسَ على الامتثالِ في جميعِ الأعمالِ، فقالَ: ﴿واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾؛ أَيْ: اتَّقوا اللهَ في جميعِ ما أَمرَكُم بهِ ونهاكُم عنهُ، وهو تعالى يعلِّمُكم ما فيهِ قيامُ مصالِحِكُم وحفظِ أَموالِكم وتقويةِ رابطتِكم، وهو سبحانَه العليمُ بكلِّ شيءٍ، فإذا

شرعَ شيئاً؛ فإنّما يشرَعُهُ عنْ علمٍ محيطٍ بأسبابِ درءِ المفاسدِ وجلبِ المصالحِ لمَنِ اتَّبَعَ شرعَهُ.

وكرَّرَ اللهُ لفظَ الجلالةِ لكمالِ التذكيرِ وقوَّةِ التأثيرِ[1].

فحيثُ إنَّ اللهَ خاطَبَ المؤمنينَ آمراً إيَّاهُم بكتابةِ الدَّينِ وحفظِ الحقوقِ؛ يجبُ على كلِّ مؤمنٍ عاقلٍ بالغٍ معرفةُ هٰذا الخطابِ والعملُ بمقتضاهُ، وليسَ فيهِ حرجٌ أصلاً؛ لأنَّ الإنسانَ قابلٌ للتعلُّمِ والتفهُّمِ، وإنْ كانَ يُرى في بادىءِ الرَّأْيِ حرجاً وصعباً، ولكنْ في الحقيقةِ هو عينُ السُّهولةِ والسَّعَةِ واليسرِ، فالتعلُّلُ بالحرجِ باطلٌ، كما أنَّ التعلُّلَ بالحرجِ في تحريمِ أنواعِ الشِّركِ والمعاصي واجتنابِها باطلٌ، فكما أنَّهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ أحدٌ مِن البشرِ مشركاً بنوعٍ ما مِن أنواعِ الشِّركِ، كذٰلك لا يجوزُ أنْ يفرِّطَ في شيءٍ مِن الحقوقِ.

فالحقُّ المحتَّمُ عليكَ أيُّها الإنسانُ أنْ لا تضيِّعَ أهليَّتَكَ لفهمِ خطابِ ربِّكَ الذي هو أرحمُ لكَ مِن نفسِكَ ومِن والديكَ، وألَّا تكونَ محروماً كالمحرومينَ مِن المشركينَ والمجوسِ وعبدةِ الأوثانِ وسَدَنةِ القبورِ وعبَّادِها، فتكونَ مِن أهلِ الخسرانِ.

ولكنَّ الأسَفَ كلَّ الأسفِ أنَّ المسلمينَ محرومٌ أكثرُهُم مِن هٰذه المزيَّةِ الإنسانيَّةِ والكمالاتِ المدنيَّةِ؛ فإنَّ أكثرَهُم لا يعرفونَ القراءةَ ولا الكتابةَ،

---

(١) ومن عجبٍ أنَّ كثيراً من الصوفية ـ ويتابعهم بعض من عوام المسلمين السنِّيِّينَ ومثقَّفيهم ـ يستدلون بهٰذه الآية: ﴿واتَّقوا الله ويعلِّمكم الله﴾ على أنَّ التقوى تورِّث العلم، لذٰلك تراهم يجتهدون في العبادة؛ تاركينَ العلم وطلبه!

وهٰذا كلُّه خطأ لغةً ومعنىً، بل الصواب في تفسير الآية ما ذكره المصنف.

وخصوصاً أهل البدوِ وأهل القرى، حتَّى إنَّ مِن علمائِهم مَن لا يعرِفُ الكتابةَ، فلهٰذا قد ضاعتِ الحقوقُ فيما بينَهُم، وكَثُرَ التَّخاصُمُ والدَّعاوى، فشاعَ الظلمُ والعدوانُ، وأكثرُ هٰؤلاءِ إنَّما يقرؤونَ القرآنَ للتعيُّشِ في المحافلِ والمآتمِ، ولا يعرفونَ مِن معانيهِ شيئاً، فصارَ أكثرُهُم كمثلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً، فداستْهُم الطائفةُ التي أتقنتْ هٰذه الأمورَ، وعمِلَتْ بما يتعلَّقُ بإصلاحِ شؤونِ الحياةِ البشريَّةِ؛ كالإنكليزِ والأمريكانِ والروسِ والفرنسويينَ، والقرآنُ الكريمُ وإنْ كنَّا نحنُ مؤمنينَ بأنَّهُ كلامُ اللهِ تعالى ونحفظُه ونتلوهُ ونختِمُه، ولكنْ عن فهْمِ معانيهِ جاهلونَ، فهو حجَّةٌ علينا ونحنُ غافلونَ.

فيا أيُّها المسلمُ! انْتَبِهْ مِنْ غفلَتِكَ، واستَعْمِلْ عقلَكَ، وتدبَّرْ وتفهَّمْ كلامَ ربِّكَ؛ لِتكونَ عبداً للهِ مُخلِصاً، فيكفيَكَ كلَّ حاجاتِكَ دُنيا وأُخرى، وينصُرَكَ على أعدائِكَ نصراً مُبيناً، ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾[1]، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[2].

* * * * *

الآيةُ الثانيةَ عشرةَ في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيْعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كَافِرينَ﴾[3].

قد خاطَبَ اللهُ تَعالى المؤمنينَ محذِّراً إيَّاهُم عن فتنِ أهلِ الكتابِ ودسائسِهِم، وكذا سائرِ الكفَّارِ؛ لأنَّ مقصودَ الكفَّارِ إنَّما هُو إدخالُكُم في الكفرِ

(١) الزمر: ٣٦.
(٢) محمد: ٧.
(٣) آل عمران: ١٠٠

كأنفسِهِم كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ ولا النَّصَارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

وقد عُلِمَ بلا شكٍّ أَنَّ أَهْلَ الكتابِ قد سَلَكُوا سُبُلَ التأْويلِ في الكتابِ فحرَّفوهُ وانصرفوا عن هدايتِه إلى تقاليدَ وضَعُوها لأنفسِهِم، فإذا أَطَعْتُموهُم وسلكْتُمْ مسالِكَهُم فإنَّكُم تكفُرونَ بعدَ إيمانِكُم.

والحاصلُ أنَّ طاعةَ أهلِ الكفرِ ـ أيِّ كافرٍ كانَ ـ يردُّكُم آخراً إلى الكفرِ، فالسَّلامَةُ في عَدَمِ إطاعتِهِم، فيجبُ على العبدِ المؤمنِ أنْ لا يطيعَ كافراً، ولا يسكنَ معهُ؛ لأنَّهُ إنَّما يقصدُ إخراجَ المؤمنِ عن إيمانه، ولهٰذا تَرى الَّذينَ أطاعوا الكفَّارَ وانْخَدَعوا بعطاياهُم قدِ انسلخوا مِن الإيمانِ كلِّيّاً أو جزئيّاً؛ بإدخالِهم في الدِّينِ المحمَّديِّ ما ليسَ منهُ؛ كالرُّهبانيَّةِ، والطريقةِ المحدثَةِ، والمذاهبِ المختَرَعَةِ، والانحناءِ عندَ اللقاءِ، واعتقادِ تصرُّفِ الأرواحِ، وأنَّها تعلمُ الغيبَ، فتُعينُ مَن تحبُّهُ مِن مخلصيهِ، وتضرُّ مَنْ تُبْغِضُهُ، فكلُّ هٰذا نتيجةُ جهلِهِم بمعاني أوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واختلاطِهم بفريقٍ مِن أهلِ الكتابِ والمشركينَ مِن عَبَدَةِ القبورِ والأرواحِ، وسدنةِ اللاتِ والعُزَّى، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُم مُسْلِمونَ . واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بينَ قُلوبِكُمْ فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْواناً . وكُنْتُمْ عَلى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كذٰلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) البقرة: ١٢٠.

تَهْتَدُونَ﴾(1).

قد خاطبَ اللهُ تعالى المؤمنينَ، وناداهُم آمِراً إيَّاهُم بأنْ يتَّقوهُ حقَّ تقواهُ؛ أيْ: بالِغوا في التَّقوى حتى لا تتركوا مِنَ المستطاعِ منها شيئاً.

﴿ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾؛ أيْ: استمرُّوا على الإسلامِ، وحافِظوا على أعمالِه حتى الموتِ؛ لأنَّ المرءَ يموتُ غالباً على ما عاشَ عليهِ، فإذا عاشَ على اليقينِ والتَّقوى حقَّ التَّقوى والاحتراسِ مما يُنافي الإسلامَ؛ ماتَ على ذُلك بفضلِ اللهِ الذي أجْرى هذا مِن سُنَّتِهِ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطى واتَّقى. وصَدَّقَ بالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرى﴾(2)، وكما قالَ النبيُّ ﷺ: «اعْمَلوا؛ فكلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ»(3).

ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى لنا ما بهِ يتحقَّقُ ذُلك الأمرُ والنهيُ، فقالَ: ﴿واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلا تَفرَّقُوا﴾؛ حبلُ اللهِ هو القرآنُ؛ كما صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ(4)، فمَن كانَ معتصماً بهِ؛ كانَ آخذاً بالإسلامِ، وإنَّما الاجتماعُ في نفسِ الاعتصامِ؛ فهو يوجِبُ علينا أنْ نجعلَ اجتماعَنا ووحدَتَنا بكتابِه، إليهِ نجتمعُ، وبه نتَّحِدُ، لا بجنسيَّاتٍ نتبِعُها، ولا بمذاهِبَ نبتدِعُها، ولا بمواضعاتٍ نضعُها، ولا بسياساتٍ نختَرعها.

---

(1) آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣.

(2) الليل: ٥ ـ ٧.

(3) رواه: البخاري (٧ / ٥٤٤)، ومسلم (٢٦٤٧)؛ عن علي بن أبي طالب.

(4) انظر تخريج الحديث الوارد فيه في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ٢٠٢٤) لشيخنا الألباني.

وانظر: «الدر المنثور» (٢ / ٢٨٤ ـ ٢٨٦).

ثمَّ نهانا عن التفرُّقِ والانفصامِ بعدَ هٰذا الاجتماعِ والاعتصامِ ؛ لما في التفرُّقِ مِن زوالِ الوحدةِ، التي هي مَعْقِدُ العزَّةِ والقوَّةِ، وبالعزَّةِ يعتزُّ الحقُّ فيعلو في العـالَمينَ، وبالقوَّةِ يُحْفَظُ هو وأهلُهُ مِن هجماتِ الواثِبينَ وكيدِ الكائدينَ، وهٰذا كقولِه تعالى: ﴿وأَنَّ هٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[1].

فمِن هٰذه السُّبلِ المتفرقةِ إحداثُ المذاهبِ والشِّيعِ في الدِّينِ، ومنها عصبيةُ الجنسيةِ الجاهليةِ.

وقـد اعتصمَ أهـلُ أُوروبا في هٰذا العصرِ بالعصبيةِ الجنسيةِ كما كانتِ العربُ في الجاهليةِ، فسَرى سُمُّ ذٰلك إلى كثيرٍ مِن مُتَفَرْنجَةِ المسلمينَ، فحاولَ بعضُهم أَنْ يجعلوا في المسلمينَ جنسياتٍ وطنيةً؛ مخادعينَ للناسِ بأَنَّهُم بذٰلك ينهضـونَ بالـوطنِ، ويُعْلونَ شأْنَهُ؛ كالأتراكِ الكماليينَ[2]، فبذٰلكَ انخلعوا عنِ الدِّينِ وهُم لا يشعرونَ.

فيا أيُّها المسلمونَ! أما تفيقونَ مِن سكْرَتِكُم؟ وأَما تنتبهونَ مِن غفلَتِكم، فترجعونَ إلى كتابِ ربِّكُم، وتتعلَّمونَ أمرَ مولاكُم، فتعتصمونَ بحبلِه المتينِ، وتنـالـونَ العـزَّ والسعادةَ في الدُّنيا والدينِ والآخرةِ؟ وإلاَّ فيا حسرةً عليكم في الدَّارينِ! وتكونونَ أُلعوبةً في أيدي المستعمِرينَ البلاشفةِ[3] والإنكليزِ والأمريكانِ.

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) نسبة إلى كمال أتاتورك، الذئب الأغبر، الذي كان من أسباب تقويض الخلافة العثمانية، وقد هلك قديماً، قاتله الله... وقد سار على نهجه ونسقه كثيرون!

(٣) نسبة إلى الثورة البلشفية في روسيا في أوائل هٰذا القرن.

ولا تغترُّوا أيُّها الإخوانُ المؤمنونَ بترَّهاتِ المشايخِ الدَّجَّالينَ، وأربابِ المذاهبِ الخوَّانينَ؛ فإنَّها لا تُسمِنُ ولا تُغْني مِن شيءٍ، وإنَّما هي عينُ الضَّلالِ والخسرانِ، فتنبَّهْ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلونَ**﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ وخاطَبَهُم بهٰذه الآيةِ، فنهاهُم عنِ اتِّخاذِهم الأحبابَ والأصدقاءَ والوزراءَ وأهلَ الشورى مِن غيرِ المؤمنينَ؛ مِن المشركينَ والوثنيِّينَ وأهلِ الكتابِ والملحدينَ والزَّنادقةِ وعبدةِ الأرواحِ والقبورِ.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً﴾؛ أيْ: لا يوقعونَكُم في الفسادِ، أو يقصِّرونَ في مصالِحِكم.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ في الحقيقةِ هُم بمقتضى طبيعَتِهم يودُّونَ عَنَتَكُم ومشقَّتَكُم الشَّديدَةَ ووقوعَكُم في الضِّيقِ والضَّنْكِ، فبذٰلك يصلونَ إلى مقاصِدِهم.

﴿قَدْ بَدَتِ البغضاءُ﴾ وظهَرَتْ مِن كلماتِهم الصادرَةِ ﴿مِن أفواهِهِم وما تُخْفي صُدُورُهُم﴾ مِن الحَسَدِ والعَداوَةِ وسوءِ القَصْدِ ﴿أَكْبَرُ﴾ وأشدُّ؛ فإنَّهُم يتربَّصونَ بكُمُ الدَّوائِرَ، وهٰذا قطعيٌّ لا شكَّ فيهِ.

---

(١) آل عمران: ١١٨.

فحاصلُ المعنى أنَّ اللهَ تعالى نهى المؤمنينَ أنْ يتَّخذوا لأنفسِهم بطانةً وصاحبَ سرٍّ ومشورةٍ مِن الكافرينَ ؛ لأنَّهُم لا يألونَهم ما استطاعوا خَبالاً وإفساداً لأمْرِهم إذا وَجَدُوا إلى ذٰلك سبيلاً ، ولأنهم يتمنَّوْنَ عَنَتَكُم ووقوعَكُم في الشدَّةِ والضررِ الشديدِ والمشقةِ والضيقِ ، فبذٰلك يحصِّلونَ مرادَهُم .

وقد أقامَ اللهُ تَعالى العلاماتِ الفارقةَ بينَ مَن يصلُحُ أنْ يُتَّخَذَ بِطانةً ومَن لا يصلُح أنْ يُتَّخَذَ لخيانَتِه وسوءِ عاقبةِ مُباطنتِه ، فاعتبروا إنْ كنتُم تعقِلونَ . فالذي يَصْلُحُ للبطانةِ صاحبُ عقلٍ ودينٍ وحزمٍ وحِذْقٍ ودرايةٍ وتجربةٍ ، وأمَّا الذي لا يصلُحُ ؛ فأجنبيٌّ دخيلٌ لا يتصلُ بصاحبِ الملكِ في جنسٍ ولا دينٍ ، فمَثَلُه كمَثَلِ أجيرٍ في بناءِ بيتٍ لا يهمُّه إلَّا استيفاءُ أُجرته إذا صَدَقَ في العملِ ، فهُو إذا فقد العيشَ فارَقَها وارتدَّ إلى منبتِه الذي ينتَسِبُ إليهِ ، وهٰذا بمقتضى الطَّبيعةِ إذا خَلا عن أغراضٍ أُخَرَ .

ومَن تتبَّعَ التواريخَ التي تحكي لنا عن سنَّةِ اللهِ في خلقِه وتصريفِه لشؤونِ عبادِه ؛ رأى أنَّ الدولَ في نموِّها وبسطتِها ما كانتْ مصونةً إلا برجالٍ منها ؛ يعرفونَ لها حقَّها كما تعرِفُ لهُم حقَّهُم ، وما كانَ شيءٌ مِن أعمالِها بيدِ أجنبيٍّ عنها ، وأنَّ تلكَ الدولَ ما انخفَضَ مكانُها ، ولا سقطتْ في هُوَّةِ الانحطاطِ ؛ إلَّا عندَ دُخولِ العنصرِ الأجنبيِّ فيها ، وارتقاءِ الغرباءِ إلى الوظائفِ الساميةِ في أعمالِها ؛ فإنَّ ذٰلك كانَ في كلِّ دولةٍ آيةَ الخرابِ والدَّمارِ .

انظرْ إلى سقوطِ الدولةِ الأمويَّةِ ، ثم سقوطِ الدولةِ العباسيَّةِ ، ثم سقوطِ الدَّولةِ التركيةِ العثمانيةِ .

ولهٰذا يحِقُّ لنا أنْ نأسَفَ غايةَ الأسَفِ على أُمراءِ الشرقِ مِن المسلمين ،

حيثُ سلَّموا أُمورَهم ووكَّلوا أعمالَهم للأجانِبِ عنهُم، بل زادوا في مُوالاةِ الغرباءِ والثقةِ بهم، وغَفِلوا أنَّهُم إذا اؤتُمِنوا خانوا، وإذا عُزِّزوا أهانُوا، يقابِلونَ الإحسانَ بالإساءةِ آخراً، والرُّكونَ إليهم بالجفوةِ، والثقةَ بهم بالخدعةِ.

أما آنَ لأمراءِ الشرقِ أنْ يَدينوا بأحكامِ اللهِ التي لا تُنْقَضُ؟!

أَلَمْ يأْنِ لهُمْ أنْ يَرْجِعوا إلى حِسِّهِم ووجدانِهِم؟!

أَلَمْ يأْتِ وقتٌ يعملونَ فيهِ بما أرشَدَهُم كتابُ اللهِ ويتنوَّرونَ بنورِهِ؟!

أَلَمْ تنبِّهْهُمُ الحوادثُ؟!

فيا أيُّها الأمراءُ العظامُ! ما لكُم وللأجانِبِ عنكُم؟! قد علمتُم شأْنَهُم؛ مكَّارونَ غدَّارونَ(١)!

وعليكُم أيُّها المسلمونَ أنْ تعلِّموا أولادَكم معاني كتابِ ربِّكم، فيفهموهُ ويعمَلوا بهِ، في كلِّ ما أرشَدَ في الدِّينِ والدُّنيا والتجارةِ والسِّياسةِ والصَّنْعَةِ والهندسةِ، حتى يفوزوا بسعادةِ الدُّنيا، ويعيشوا أحراراً كراماً إلى أنْ يفوزوا بسعادةِ الآخرةِ أيضاً، ولا شكَّ أنَّ كلًّا مِن سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ لا تحصلُ بالأماني بلا عملٍ، فعليكُم بالعملِ بالجدِّ والاجتهادِ.

* * * * *

الآيةُ الخامسةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلوا الرِّبَا أَضْعافاً

---

(١) ما أشبه اليوم بالأمس! فليرعَوِ من اغترَّ بهؤلاء، وليرجِعْ من تَكَبْكَبَ معهُم! وليتُبْ من وطَّأ لهم!

فإذا فعلوا ذلك؛ نالوا رضى اللهِ ورضى الناس، وأمِنوا عذاب الله وغضبه.

مُضاعَفَةً واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . واتَّقُوا النَّارَ الَّتي أُعِدَّتْ لِلكافِرينَ . وأَطِيْعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمونَ﴾[1] .

فيا أَيُّها الإنسانُ المتَّصِفُ بصفةِ الإيمانِ! أَعْمِلْ عقلَكَ، وافهَمْ كلامَ ربِّكَ، فلا تعامِلْ بالرِّبا، ولا تأْكلْهُ أَضعافاً مضاعفةً بمرورِ الأشهرِ والسنينِ، ولا تظلِمْ أَخاكَ بأَخْذِ مالِه بغيرِ حقٍّ؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ مبنيٌّ على تهذيبِ النفوسِ، وإصلاحِ حالِ المجتمعِ، لا توفيرِ ثروةِ بعضِ الأفرادِ مِن أَهلِ الأَثَرَةِ[2]، والإسلامُ دينُ الإنسانيةِ لا دينُ القسوةِ والبخلِ واستغلالِ ضرورةِ المحتاجِ .

فيا أَيُّها المؤمنونَ! اتَّقوا اللهَ في أَهلِ الحاجةِ والبؤسِ، فلا تحمِّلوهُم مِن الـدَّينِ مايخـربُ بيوتَهم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾ في دُنياكُم بالتراحُمِ والتعاونِ فتحابُّونَ، والمحبَّةُ أُسُّ السعادةِ، وأَمَّا الكافِرونَ الذينَ قَسَتْ قلوبُهُم، واستحوذَ عليهِم الطمعُ والبخلُ؛ فأَعدَّ اللهُ تعالى لتعذيبِهم نارَ جهنَّمَ[3] .

فأَنْتُم أَيُّها المؤمِنونَ! لا تكونوا مِثْلَهُم، بل اتَّقوا الأعمالَ التي تصيرُ سبباً لدخولِ فاعِلِها نارَ جهنَّمَ، ﴿وأَطِيعوا اللهَ والرَّسولَ﴾ فيما نَهَيا عنهُ مِن أَكلِ الرِّبا، ﴿لعلَّكُمْ تُرْحَمونَ﴾ في الدُّنيا بما تفيدُكُم الطاعةُ مِن صلاحِ مجتمِعِكُم، وفي الآخرةِ بحسنِ الجزاءِ على أَعمالِكُم؛ فإنَّ الراحمينَ يرحمُهُم الرحمٰنُ جلَّ جلالُه .

* * * * *

(1) آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣١ .

(2) هي الأنانيَّة وحبّ الذات .

(3) قال المصنفُ تعليقاً: «جهنَّم البلاشفة في الدنيا كما ابتُلِي بها أهل روسيا وبخارى، وأما في الآخرة فنار جهنَّم الدائمة، أعاذنا الله تعالى منها» .

الآيةُ السادسةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ تُطِيْعُوا الَّذينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبوا خاسِرينَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَهُ المؤمنينَ منبِّهاً إيَّاهُم أنَّهُم إذا أطاعوا الكفرةَ رغبةً فيما عندَهُم مِن المالِ والمنالِ يردُّونَهُم عن دينِهم، ويهدمونَ إيمانَهُم وهُم لا يشعُرونَ، فينقَلِبونَ خاسِرينَ؛ كما هو شأْنُ الكفارِ مَعَ المسلمينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ مِن وقعةِ أُحُدٍ إلى الآنَ، وإلى يومِ الدِّينِ؛ يعني: إذا أطعتُمُ الكفارَ، وطلبتُمْ مِنْهُمُ الأمانَ، وكانتْ حالُكُم معهُم كحالِ المغلوبِ معَ الغالبِ؛ يتَوَلَّوْنَ عليكُم حتى يردُّوكُمْ عن دينِكُم استدراجاً، فتنقَلِبوا خاسِرينَ للدُّنيا والآخرةِ؛ كما صارتْ حالُ أميرِ فرغانَةَ خُدايار خان، وأميرِ بُخارى وخوارزمَ عبدِالأحدِ خان، وعالمِ خان وإسفنديار خان[2].

وكما نشاهدُ اليومَ أنَّ كثيراً مِمَّنْ يدَّعي الإسلامَ يطيعُ الكفارَ ويميلُ إليهِمْ وينخَدِعُ بهم؛ لما عندَهُم مِن المالِ، فينخَلِعُونَ عنِ الدينِ باسمِ المدنيَّةِ، ويسلِّمونَ أولادَهُم إلى مدارسِهِم، فهُم يعلمونَهُم اللادينيَّةَ والدُّهريَّةَ، وهُم لا يشعُرونَ، وإنَّما يكتفونَ بالاسمِ الخالي عنِ المسمَّى، فيهدِمونَ الدِّينَ هَدْماً؛ كما هُو مُشاهَدٌ في أكثرِ البلدانِ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ.

* * * * *

الآيةُ السابعةَ عشرةَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كالَّذينَ كَفَرُوا وقَالوا لإخوانِهِمْ إذا ضَرَبُوا في الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزَّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنا مَا مَاتُوا

---

(١) ال عمران: ١٤٩.

(٢) هم بعض أمراء بلاد العجم في آخر القرن التاسع عشر الميلادي.

وما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذٰلك حَسْرةً في قلوبِهِمْ واللهُ يُحْيي ويُميتُ واللهُ بِما تَعْمَلونَ بَصيرٌ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ ـ ناهياً إيَّاهُم ـ أَنْ لا يكونوا كالكافِرينَ في الاعتقادِ الفاسدِ، والإفسادِ بينَ العبادِ، والكافرونَ يقولونَ: لو لم يُسافِرْ فلانٌ لم يَمُتْ، ولكنْ سافَروا للتِّجارةِ أو للكسبِ أو للغزوِ فماتُوا أو قُتِلُوا.

وقد قَرَنَ اللهُ تعالى هٰذا القولَ بالكفرِ؛ للإشعارِ بأَنَّ مثلَهُ لا ينبغي أَنْ يصدُرَ عنْ مؤمنٍ؛ لأنَّهُ إنَّما يصدُرُ عنِ الكافرينَ، وقولُهم هٰذا باطلٌ عقلاً وديناً:

أمَّا عقلاً؛ فإنَّ هٰذا القولَ مخالفٌ للمعقولِ، مصادمٌ للوجودِ؛ فإنَّ مَن ماتَ أو قُتِلَ فقد انتهى أمرُه، وصارَ قولُ: (لو كانَ كذا) عَبثاً؛ لأنَّ الواقعَ لا يرتَفِعُ، والحسرةَ على الفائتِ لا تُفيدُ، ومِن شأنِ المؤمنِ أَنْ يكونَ صحيحَ العقلِ، سليمَ الفطرةِ، ولذٰلك قد وجَّهَ اللهُ تعالى الخطابَ إلى العقلاءِ، وبيَّنَ أَنَّ أُولي الألبابِ هُمْ يعقِلونَهُ ويتذكَّرونَ بهِ ويقبَلونَ هِدايَتَهُ.

وقالَ اللهُ تعالى فيمَنْ لا إيمانَ لهُم: ﴿ولَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ولَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بِها ولَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعونَ بِها أُولٰئِكَ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الغافِلونَ﴾[2].

وأمَّا ديناً؛ فهٰذا القولُ يدلُّ على جهلِ قائلِه بالدِّينِ، أو جُحودِه؛ فإنَّ الدينَ يرشِدُ إلى تحديدِ الآجالِ، وكونِها بإذنِ اللهِ تعالى كما لا يَخْفى.

(١) آل عمران: ١٥٦

(٢) الأعراف: ١٧٩.

﴿واللهُ يُحْيي ويُميتُ﴾؛ أيْ: والحقيقةُ أنَّ اللهَ تَعالى يُحيي مَن يَشاءُ بمُقْتَضى سُنَنِه في بقاءِ أسبابِ الحياةِ، وإنْ طوى بالأسفارِ بساطَ كلِّ برٍّ، ونَشَرَ شِراعَ كلِّ بحرٍ، وخاضَ معامعَ الحربِ، وصارعَ الأهوالَ والخطوبَ، ويميتُ مَن يشاءُ بمُقْتضى سُننِهِ في أسبابِ الموتِ، وإنِ اعتصَمَ في الحصونِ المشَيَّدَةِ، وحُرِسَ بالجنودِ المجنَّدَةِ.

﴿واللهُ بما تَعْمَلونَ بَصيرٌ﴾، فلا يَخْفى عليهِ ما تكنُّونَ في أنفُسِكُم مِن الاعتقادِ، وما يؤثِّرُ في قلوبكُم مِن الأقوالِ والأحوالِ، فاحرِصوا على أنْ يكونَ تركُكُم لأقوالِ الكفارِ ناشئاً عن طهارةِ نفوسِكُم مِن وساوِسِهِم.

فيا أيُّها المؤمنونَ! اجتهِدوا في سبيلِ فهْمِ كلامِ ربِّكُم الحكيمِ، ولا تضيِّعوا عمرَكُم وحياتَكُم في القيلِ والقالِ مِن مقالاتِ أصحابِ الجحيمِ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةَ عشرةَ فيها أيضاً: **﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِروا ورَابِطوا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾**[1].

قد نَادى اللهُ تعالى المؤمنينَ وخاطَبَهُم؛ آمِراً إيَّاهُم بالصَّبْرِ والدَّوامِ على امتثالِ الأوامرِ، والانتهاءِ عنِ المناهي، مع تحمُّلِ ما يلحقُ مِن الأذى، والمصابرةِ في مقابلةِ الأعداءِ الذينَ يقاوِمونَهُم؛ ليغلبوا على أمرِهم، ورابِطوا الخيلَ كما يربطونَها؛ استعداداً للجهادِ في كلِّ وقتٍ وزمانٍ.

﴿واتَّقُوا اللهَ أيُّها المؤمنونَ لعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾؛ يكثِرُ اللهُ تعالى مِن هٰذه

---

(١) آل عمران: ٢٠٠.

الوصيةِ، ومعَ ذٰلك نرى المسلمينَ قدِ انصرفوا عنها بَتَّةً، حتى صارَ التقيُّ عندَ الناسِ هو الأهبلَ الذي لا يعقِلُ مصلحَتَهُ ولا مصلحةَ الناسِ، والأبلهُ الذي هو أجهلُ مِن حِمارِ تُوما[1]، ولا شيءَ أشأمُ مِن فهْمِ التَّقوى بهٰذا المعنى، والتَّقوى: أنْ تَقِيَ نفسكَ مِنَ اللهِ؛ أيْ: مِن غَضَبِهِ وسخطِهِ وعقوبتِه، ولا يمكِنُ هٰذا إلّا بعدَ معرفتِه ومعرفةِ ما يرضيهِ وما يسخِطُهُ، ولا يعرفُ هٰذا إلّا مَنْ فَهِمَ كتابَ اللهِ تعالى، وعرفَ سنَّةَ نبيِّهِ محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، وسيرةِ السَّلفِ الصالحينَ؛ مطالباً نفسَه بالاهتداءِ بذٰلك كلِّه، فمَن صبرَ وصابرَ ورابطَ لأجْلِ حمايةِ الحقِّ وأهلِه، ونشرِ دعوتِه، واتَّقى ربَّهُ في سائرِ شؤونِه؛ فقد أعدَّ نفسَه بذٰلك للفلاحِ والفوزِ بالسعادةِ عندَ اللهِ تعالى.

وإرادةُ الفلاحِ الدنيويِّ مِن هٰذه الآيةِ ظاهرةٌ؛ فإنَّ الصبرَ ومصابرةَ الأعداءِ والمرابطةَ والتَّقوى كلَّها مِن أسبابِ الفوزِ على الأعداءِ في الدُّنيا؛ كما أنَّها معَ حُسْنِ النيةِ وقصدِ إقامةِ الحقِّ والعدلِ الذي هو شأْنُ المؤمنِ مِن أسبابِ سعادةِ الآخرةِ، وهٰذه الأعمالُ كلُّها اختياريَّةٌ، داخلةٌ في مقدورِ الإنسانِ، ولذٰلك أمرَ اللهُ تعالى بها المؤمنينَ، فعَمَلُهُ إذاً هو سببُ فلاحِه.

فعليكُم أيُّها المؤمنونَ ـ سواءٌ كنتُم عرباً أو عجماً، شرقيِّينَ أو غربيِّينَ ـ أنْ تفهَمُوا أوامرَ ربِّكُم، فامتثِلوها لعلَّكم تفلِحونَ.

وأمَّا الذي يجهَلُ هٰذه الأوامرَ، ويقتصِرُ على صُوَرِ بعضِ العباداتِ، ويقيمُ في التَّكايا والزَّوايا؛ فهو لا يفلحُ أبداً، ولا ينالُ الخلافةَ أصلاً، بل ينخَمِلُ في زوايا الحرمانِ خُمولاً كما هو المشاهَدُ، فاعتبروا يا أُولي الأبصارِ.

---

(١) هو حكيمٌ مشهورٌ، يُضرب المثل بجهل حماره!

الآيةُ التاسعةَ عشرةَ في سورةِ النساءِ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وعَاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوفِ فإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً ويَجْعَلَ اللهُ فيهِ خَيْراً كَثيراً﴾**[1].

قد نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ، وخاطبَهم بهٰذه الآيةِ عامَّةً؛ مِن غيرِ فرْقٍ بينَ عالمٍ وجاهلٍ، وعربيٍّ وعجميٍّ؛ ناهياً إيَّاهُم عن العاداتِ الجاهليَّةِ، والمعاملاتِ الحيوانيَّةِ، فقالَ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً﴾؛ أيْ: لا يحلُّ لكُمْ أيُّها المؤمنونَ باللهِ وبما أُنْزَلَ على رسولِه محمدٍ ﷺ أنْ تستمرُّوا على سنَّةِ الجاهليَّةِ في هضْمِ حقوقِ النساءِ، فتجعلوهنَّ ميراثاً لكُم كالأموالِ والعروضِ والعبيدِ، وتتصرَّفوا فيهنَّ كيفَ تشاؤونَ، فإنْ شاءَ أحدُكُم تزوَّجَ امرأةَ مَنْ ماتَ مِن أقاربِه تزوَّجَ، وإنْ شاءَ زوَّجَها غيرَه، وإنْ شاءَ أمسكَها ومنعَها الزَّواجَ، وهٰذا هو العَضْلُ، والعضلُ: التضييقُ والتَّشديدُ؛ أيْ: لا يحلُّ لَكُم إرْثُ النساءِ ولا عَضْلُهُنَّ لأجْلِ أنْ تذْهَبُوا ببعْضِ ما آتَيْتُموهُنَّ مِن ميراثٍ أو صَداقٍ أو غيرِ ذٰلك.

والخطابُ لجميعِ المؤمنينَ لتكافلِهم، فيصْدُقُ بما أعطوْهُ للنساءِ مِن ميراثٍ ومهرِ زواجٍ وغيرِ ذٰلك.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ أيْ: ظاهرةٍ معلومةٍ؛ كالزِّنا، والنُّشوزِ، وسوءِ الخُلُقِ الفاحشِ، فإذا أَتَيْنَ بالفاحشةِ المبيِّنةِ دونَ الظِّنَّةِ والشُّبهةِ، وكذا إذا نَشَزْنَ عن طاعتِكُم بالمعروفِ المشروعِ، ولم ينفعْ معهُنَّ التأديبُ، وساءَتْ

---

(1) النساء: ١٩.

عشرتُهُنَّ؛ فلكُم حينئذٍ أنْ تعضُلوهُنَّ لتذهبوا ببعضِ ما آتَيْتُموهُنَّ مِن صداقٍ وغيرِه.

﴿وعَاشِرُوهُنَّ بالمَعْروفِ﴾؛ أيْ: يَجِبُ عليكُمْ أيُّها المؤمنونَ أنْ تُحْسِنُوا عِشرةَ نسائِكُم، وهُنَّ يعاشِرْنَكُم كذٰلك.

فيا أيُّهـا المؤمنُ! أنتَ المخاطَبُ بهٰذه الأوامرِ، وأنتَ الملزومُ بالعملِ بهٰذه الفضائلِ ومكارمِ الأخلاقِ، فعليكَ السعيُ للتعلُّمِ حتى تفهَمَ أوامرَ ربِّكَ، فترتقيَ مِن حيزِ الحيوانيَّةِ إلى أعلى دَرَجاتِ الإنسانيَّةِ، فتعيشَ سعيداً، وتصيرَ عائلتُكَ سعيدةً، ويصيرَ أولادُكَ سعداءَ.

* * * * *

الآيةُ العشرونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلوا أموالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ إلَّا أنْ تكونَ تِجارةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ ولا تَقْتُلوا أنْفُسَكُمْ إنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحيماً﴾**[1].

قد نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ وخاطَبَهُم مخصِّصاً إيَّاهُم بالنَّهْيِ عنْ أكلِ أموالِ إخوانِهِم المؤمنينَ بالباطلِ؛ أيْ: لا يأْكُلْ بعضُكُم مالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، وإنَّما أضافَ الأموالَ للجميعِ للتَّنبيهِ على تكافلِ الأمةِ في حقوقِها ومصالِحِها، كأنَّهُ تعالى يقولُ: إنَّ مالَ كلِّ واحدٍ منكُم هو مالُ أُمَّتِكُم، فإذا استباحَ أحدُكُم أنْ يأْكُلَ مالَ الآخرِ بالباطلِ؛ كانَ كأنَّهُ أباحَ لغيرِه أكلَ مالِه وهضْمَ حقوقِه؛ لأنَّ المرءَ كمـا يَدينُ يُدانُ، فيجبُ على صاحبِ المـالِ الجـائـزِ لهُ بذلَـه أو البذلَ منهُ

---

(١) النساء: ٢٩.

للمحتاجِ ، فكما لا يجوزُ للمحتاجِ أنْ يأْخُذَ شيئاً مِنْ مالِ غيرِه بالباطلِ ، كالسرقةِ والغصبِ والنهبِ والغدرِ والغشِّ ، لا يجوزُ لصاحبِ المالِ أنْ يبخَلَ عليهِ بما يحتاجُ إليهِ .

والإسلامُ لم يُبِحْ للمحتاجِ أنْ يأْخُذَ ما يحتاجُ إليهِ مِن أيدي أصحابِ الأموالِ بدونِ إذنِهِم وبدونِ رِضاهُم؛ لأنَّ في ذلك مفسدةً عظيمةً ، واتِّكالَ الكسالى على كَسْبِ غيرِهم ، ففيهِ فسادُ نظامِ الاجتماعِ ، وانحطاطُ البشرِ ، فيؤدِّي إلى الفوضى في الأموالِ ، والضَّعْفِ والتَّواني في الأعمالِ ، والفسادِ في الأخلاقِ والآدابِ ؛ كما لا يخفى على أُولي الألبابِ ، فوجَبَ أنْ لا يأْخُذَ أحدٌ مالَ أحدٍ إلا بحقٍّ ، أو يبذلَ صاحبُ المالِ ما شاءَ عن كرمٍ وفضلٍ ، فمتى يعودُ المسلمونَ إلى دينِهم ، ويكونونَ حُجَّةً لهُ على جميعِ المللِ ؛ كما كان سلفُهم مِن الصحابةِ والتَّابعينَ لهُم بإحسانٍ رضيَ اللهُ عنهُم ، فيُقيموا المدنيَّةَ الصحيحةَ في هذا العصرِ كما أقامَها أُولئكَ الأبرارُ في عصورِهم؟

ويدخلُ في الباطلِ : الغَصْبُ ، والسرقةُ ، والغِشُّ ، والخِداعُ ، والرِّبا ، والغَبْنُ ، والتَّغريرُ ، ونحوُها .

﴿إلَّا أنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي : لا تقصِدوا إلى أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ ، ولكنِ اقصِدوا أنْ تربحوا بالتِّجارةِ التي تكونُ صادرةً عنِ التَّراضي منكُم ، وتخصيصُ التجارةِ بالذِّكرِ دونَ سائرِ أسبابِ الملكِ لكونِها أكثرَ وقوعاً وأوْفَقَ لذوي المروءاتِ .

﴿وَلا تَقْتُلُوا أنْفُسَكُم﴾ ؛ ظاهرُ الآيةِ أنَّ النَّهْيَ إنَّما هو عن قتلِ الإنسانِ لنفسِه ، وهو الانتحارُ ، والمتبادَرُ مِن الأسلوبِ أنَّ المرادَ لا يقتلُ بعضُكُم بعضاً ،

وهو الأقْوى، واختيرَ هٰذا التعبيرُ للإشعارِ بتعاونِ الأمةِ وتكافلِها ووحدتِها، فلا تقتُلوا أنفسكُم حقيقةً بالانتحارِ، ولا مجازاً بقتلِ بعضِكم لبعضٍ ، فيرشِدُنا اللهُ تعالى إلى أنَّهُ يجبُ علينا أنْ نحترِمَ نفوسَ الناسِ بجعلِها كنفوسِنا، فاحترامُنا لنفوسِنا يجبُ أنْ يكونَ أولى ، فلا يُباحُ بحالٍ مِن الأحوالِ أنْ يقتُلَ أحدٌ نفسَهُ؛ كأنْ يبخعَها ليستريحَ مِنَ الغمِّ وشقاءِ الحياةِ، فمهما اشتدَّتِ المصائبُ على المؤمنِ؛ فإنَّهُ يصبرُ ويحتسبُ ولا ينقطعُ رجاؤهُ مِن الفَرَجِ الإلٰهيِّ ، ولذا نرى بَخْعَ النفسِ والانتحارَ[1] يكثُرُ فيما بينَ الكفَّارِ، حيثُ يقلُّ الإيمانُ، ويفشو الكفرُ والإلحادُ، ومِن فوائدِ الإيمانِ مدافعةُ المصائبِ والأكدارِ، فالمؤمنُ لا يتألَّمُ مِن بُؤسِ الحياةِ كما يتألَّمُ الكافرُ.

﴿إنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحيماً﴾ ؛ لأنَّ فيما نهاكُم عنهُ حفظ دمائكم وأموالِكُم التي هي قِوامُ مصالِحِكُم ومنافعِكُم ، فيجبُ أَن تتراحموا فيما بينكُم ، ويكونَ كلٌّ منكُم عوناً للآخرينَ على حفظِ النفسِ ، ومدافعةِ رزايا الدَّهرِ، ومَن يرتَكِبُ تلكَ المنهيَّاتِ عُدواناً وظُلماً فسوفَ نُصليهِ ناراً

ولا يشكُّ ذو عقلٍ وإيمانٍ ولهُ خبرةٌ بمعاني كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ مِن جُملةِ أكلِ أموالِ النـاسِ بالباطلِ ما يأْخُذُهُ مشايخُ الطُّرُقِ مِن مريديهِم، ومـا يأْخُـذُهُ سَدَنَـةُ القُبـورِ مِن زائـريها وناذِريها، وما يأْخُذُهُ ويأْكُلُهُ أصحـابُ التَّكـايا والـزَّوايا أصحابُ البطالةِ والكُسالى ، وما يأْخُذُهُ قُرَّاءُ القرآنِ

---

(١) وقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله : «من قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته في يده يتوجَّأ بها في نار جهنم خالداً مخلَّداً فيها أبداً».

أخرجه : البخاري (١٠ / ٢٦١)، ومسلم (١٠٩)؛ عن أبي هريرة.

لأجْلِ قراءتِهم؛ بشرْطِ إهداءِ ثوابِ القراءةِ لِمَن يريدُ المستأْجِرُ؛ كما هو مبيَّنٌ مشروحٌ في كتبِ العلماءِ الأعلامِ .

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والعشرونَ فيها أيضاً : **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتُمْ سُكَارى حَتَّى تَعْلموا مَا تَقولونَ ولا جُنُباً إلَّا عَابري سَبيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وإنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَو لاَمَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فامْسَحُوا بِوُجوهِكُمْ وأَيْدِيْكُمْ إنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾**[1] .

قد خاطبَ اللهُ تعالى عبادَهُ المؤمنينَ ـ عَرباً كانُوا أو عَجَماً ـ ناهِياً إيَّاهُم عنْ قُربانِ الصَّلاةِ وهُم سُكَارى لا يعلمونَ ما يَقولونَ، وهذا التَّعليلُ للنَّهْيِ يُفيدُ أنَّ العلمَ بما يقولُه الإنسانُ في الصَّلاةِ مِن تلاوةٍ وذِكْرٍ واجِبٌ أو شرطٌ، والعلمُ فهْمُهُ، وهذا يدلُّ على وجوبِ معرفةِ اللغةِ العربيةِ على كلِّ مسلمٍ لفهْمِ ما يقولُ في الصَّلاةِ .

فتنبَّهْ أيُّها المسلمُ! وتدبَّرْ أيُّها المؤمنُ! هل لَكَ مِن نَصيبٍ مِن فهمِ كلامِ ربِّكَ الحكيمِ ؟ فإنْ كنتَ ذا نصيبٍ؛ فاحمَدْ ربَّكَ، واستزدْ مِن ذلك، وأمَّا إذا لمْ يكنْ لكَ نصيبٌ منهُ؛ فأنتَ مِن المَحرومينَ، فتُبْ إلى اللهِ توبةً صحيحةً، واجتهدْ في تعلُّمِ كلامِ ربِّكَ وفَهْمِهِ بغايةِ جَهْدِكَ، عسى اللهُ تعالى أنْ يرزُقَكَ عِلماً نافعاً، وفهماً مُستقيماً، وأما إذا لَم تَتُبْ، وأَصرَرْتَ على مَا أنتَ عليهِ مِنَ الجهْلِ ؛ فأنْتَ مِنَ الخاسِرينَ في الدَّارينِ، ولا ينفعُكَ ما تعلَّمْتَ مِن الفلسفةِ،

---

(١) النساء : ٤٣ .

أو ما ضَيَّعْتَ فيهِ عُمُـرَكَ مِن دواوينِ الأشعـارِ؛ كأكثـرِ البُخاريِّينَ الذينَ ضَيَّعوا أعمـارَهُم في ديوانِ ميرزا بيدل، الـذي يقرِّرُ في ديوانِهِ أنَّ أَصْلَ الإنسانِ كانَ قِرداً[1]، وأنَّ اللحيةَ للرجالِ ليس لها شيءٌ غيرَ التَّشويشِ! فلهٰذا ترى وتشاهدُ أكثرَهُم في أوَّلِ حزبِ الشُّيوعيَّةِ دُخولاً حينما أعلنَتْ الرُّوسيا الشيوعيةَ[2]؛ لأنَّ لهُم قابليَّةً تامَّةً لقَبولِها؛ كما لا يخفى على الخبيرِ.

وأمـا باقي مسائلِ الجنابةِ والاغتسالِ منها والتيمُّمِ في حالِ المرضِ والسفرِ وعند عدمِ وجودِ الماءِ وكيفيَّتِهِ؛ فمعلومةٌ ومبيَّنَةٌ في كتبِ الفروعِ.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والعشرونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَطِيعوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسولَ وأُولي الأَمْرِ مِنْكُمْ فإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فرُدُّوهُ إِلى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذٰلكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْويلاً﴾[3].

قد نادى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ وخاطبَهم عموماً؛ آمِراً إيَّاهُم بأنْ يُطيعوا اللهَ تعالى، والطاعةُ هي العملُ بكتابِهِ العزيزِ، ويطيعوا الرَّسولَ، وهي العملُ بسنَّتِهِ؛ لأنَّهُ هو الَّذي يُبيِّنُ للنَّاسِ ما أَنْزَلَ اللهُ تعالى إلى النَّاسِ مِن الكتابِ.

---

(١) كما قَرَّرَتْهُ (!) نظرية دارْون البائدة، التي تراجع عنها أصحابها وتركها أربابها، ومع ذلك؛ فلا نزال نسمع إلى الآن من يتغنَّى بها من جهلة المتسمين بأسماء إسلامية!!

(٢) والآنَ... سقطت الشيوعية! وعلى يد من؟! على يد دعاتها ومؤسسيها، بعد أن أُسقط في أيديهم، وعلموا من أنفسهم فسادها وكسادها، فالحمد لله الذي أراح المسلمين منهم.

(٣) النساء: ٥٩.

وقد أعادَ اللهُ تعالى لفظَ الطَّاعةِ لتأكيدِ طاعةِ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ دينُ توحيدٍ محضٍ، لا يجعلُ لغيرِ اللهِ أمراً ولا نهياً ولا تشريعاً ولا تأثيراً، والرسولُ ﷺ إنَّما يُبيِّنُ ما شرَعَهُ اللهُ تعالى لَنا مِنَ الدِّينِ والشَّرعِ.

مثالُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى هُو الذي شرَعَ لنا عبادَةَ الصلاةِ وأمرنا بها، ولكنَّهُ لم يبيِّنْ لنا في الكتابِ كيفيَّتَها وعدَدَ رَكعاتِها، ولا ركوعَها وسجودَها، ولا تحديدَ أوقاتِها، فبيَّنَها رسولُ اللهِ ﷺ بأمرِهِ تعالى إيَّاهُ بذلك، فقالَ ﷺ: «صلُّوا كَما رأَيْتُموني أُصَلِّي»[1].

واعلَمْ أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ وأهلَ الكتابِ كانُوا يؤمنونَ بالجِبْتِ والطَّاغوتِ، فيتحاكَمونَ إلى الكهَّانِ والأحبارِ، ويجعلونَهُم شارِعاً، وطواغيتُهم رؤساؤهُم الذينَ يحكمونَ فيهِم بأهوائِهم، وكانُوا يقولونَ: إنَّ هؤلاءِ الرُّؤساءِ أعلَمُ مِنَّا بالتَّوراةِ وبمصلحتِنا.

فاللهُ تعالى قد بيَّنَ لنا حالَهُم، وقَرَنَهُ ببيانِ ما يَجِبُ أنْ نَسيرَ عليهِ في الدِّينِ والشَّريعةِ والأحكامِ، حتى لا نَضِلَّ كما ضَلَّ المشركونَ وأهلُ الكتابِ الَّذينَ اتَّخذوا أفراداً مِنهم أرباباً إذ جعلوهُم شارِعينَ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿أطِيعوا اللهَ وأطِيعوا الرَّسولَ وأولي الأمْرِ مِنْكُم﴾.

وقد اختلفَ المفسِّرونَ في أُولي الأمرِ:

فمنهُمْ مَن قال: هُمُ الأمراءُ مِن المسلمينَ بشرطِ أنْ لا يأْمُروا بمعصيةٍ ومحرَّمٍ.

---

(١) رواه البخاري (٢ / ٩٢) عن مالك بن الحويرث.

ومنهُم مَنْ قال: هُمُ العلماءُ؛ لأنَّ العلماءَ هُم الذينَ يمكِنُهُم أنْ يستَنْبِطوا الأحكامَ غيرَ المنصوصةِ مِن الأحكامِ المنصوصةِ.

ومنهُم مَنْ قالَ: هُمُ الذينَ يُناطُ بهِم النَّظَرُ في أمرِ إصلاحِ الناسِ ومصالِحِهم.

والأقربُ إلى الصوابِ أنَّ أُولي الأمرِ جماعةُ أهلِ الحلِّ والعقدِ مِن المسلمينَ، وهُم العلماءُ والأمراءُ والحكامُ ورؤساءُ الجندِ وسائرُ الرؤساءِ والزُّعماءِ الذينَ يَرْجِعُ إليهِم الناسُ في الحاجاتِ والمصالحِ العامةِ، فهٰؤلاءِ إذا اتَّفقوا على أمرٍ أو حكمٍ؛ وَجَبَ أنْ يُطاعُوا فيهِ، بشَرْطِ أنْ يكونوا مِنَّا، وأنْ لا يُخالِفوا أمرَ اللهِ ولا سنَّةَ رسوله ﷺ التي عُرِفَتْ بالتَّواتُرِ، وأنْ يكونَ ما يتَّفِقونَ عليهِ مِنَ المصالحِ العامةِ، وأمَّا العباداتُ وما كانَ مِن قبيلِ الاعتقادِ الدينيِّ؛ فلا يتعلَّقُ بهِ أمرُ أهلِ الحلِّ والعقدِ، بل هُو ممَّا يُؤخَذُ عنِ اللهِ ورسوله فقط، ليس لأحدٍ فيهِ رأيٌ إلَّا أنْ يكونَ في فهْمِهِ.

وإذا لم يَكُنِ الأمرُ منصوصاً في كتابِ اللهِ ولا سنةِ رسوله؛ فينظُرُ فيهِ أُولو الأمرِ إذا كانَ مِن المصالحِ، فيتشاورونَ في تقريرِ ما ينبغي العملُ بهِ، فإذا اتَّفقوا وأجْمَعوا؛ وجَبَ العملُ بهِ، وإنِ اختَلَفوا وتنازعوا؛ فقولُه تعالى: ﴿فإنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ﴾، ذٰلكَ بأنْ يُعْرَضَ على كتابِ اللهِ وسنةِ رسوله وما فيهِما مِن القواعدِ العامَّةِ، فما كانَ موافقاً لهُما؛ عُلِم أنَّهُ صالحٌ لنا، ووجَبَ الأخذُ بهِ، وما كانَ منافِياً عُلِمَ أنَّهُ غيرُ صالحٍ، ووجَبَ تركُهُ، وبذٰلك يزولُ التَّنازعُ وتجتمعُ الكلمةُ.

والغَرَضُ مِن هٰذا الردِّ أنْ لا يقعَ خلافٌ ولا نزاعٌ في الدِّينِ والشَّرعِ، فلا

يُفْضي إلى التفرُّقِ الذي يجعلُ المسلمينَ شِيعاً ومذاهِبَ ويُذيقُ بعضَهم بأْسَ بعضٍ.

ولكنَّ الأسفَ أَنَّ المسلمينَ لم يعْمَلوا بالآيةِ، بل استبــدُّوا، فتفــرَّقـوا واختلَفوا إلى أَنْ تمزَّقوا وصاروا محكومينَ تحتَ سيطرةِ الإفرنجِ ، ومرذولينَ أُسراءَ تحتَ أرجلِ المستعمرينَ، فإنا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ.

واعلمْ أَنَّ المسائلَ الدينيَّةَ لا ينبغي أَنْ يكونَ فيها تفرُّقٌ ولا خلافٌ؛ لأنَّ اللهَ ربَّ العـالمينَ يقولُ: ﴿أَقِيْمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيهِ﴾[1]؛ لأنَّ العملَ فيها بالنصِّ لا بالرأْيِ ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وإذا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذاعُـوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإلى أُولي الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2]، فبيَّنَ أَنَّ ما ينظرُ فيهِ أُولو الأمرِ هو المسائلُ العامةُ؛ كمسائلِ الأمنِ والخـوفِ، وأَنَّ العامةَ لا ينبغي لها الخوضُ في ذلك، بل عليها أَنْ تَرُدَّهُ إلى الرَّسولِ وإلى أُولي الأمرِ، فهؤلاءِ يتولَّوْنَ استنباطَهُ وإقناعَ الآخرينَ بهِ.

فأُولو الأمرِ لا يختصُّ بالأمراءِ والفقهاءِ فقطْ[3]، بل هُمُ العارِفونَ بمصالحِ الأمةِ حسبَ اختلافِ الزَّمانِ والمكانِ، ولا يكفي فيهِ معرفةُ أُصولِ الفقهِ وفروعِهِ.

﴿إنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ﴾؛ أَيْ: أَطيعوا اللهَ وأَطيعوا الرَّسولَ،

---

(1) الشورى: ١٣.

(2) النساء: ٨٣.

(3) بل الأرجح والأصوب أَنَّهُم الأمراء والفقهاء، إذ لو فتحنا هذا الباب؛ لدخَله مَن لم يحسِنْه بحجة أنه عارف بمصلحة الأمة!!

ورُدُّوا الشيءَ المتنازَعَ فيهِ إلى اللهِ ورسولِه؛ بعَرْضِه على الكتابِ والسنةِ إنْ كُنْتُم تؤمنـونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ صِدْقاً؛ فإنَّ المؤمنَ لا يُؤْثِرُ على حكمِ اللهِ شيئاً، والمؤمنُ باليومِ الآخِرِ يهتَمُّ بجزاءِ الآخرةِ أشدَّ مِن اهتمامِه بحظِّ الدُّنيا.

وفيهِ دليلٌ على أنَّ مَن لا يؤْثِرُ اتباعَ الكتابِ والسنَّة على أهوائِهِ وحظوظِه، ولا سيَّمـا في مسائلِ المصالحِ العامةِ فيهِ، لا يكونُ مؤمناً باللهِ واليومِ الآخِرِ إيماناً يُعْتَدُّ بهِ.

﴿ذٰلكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْويلاً﴾؛ واللهِ العظيمِ؛ لو جرى المسلمونَ عليهِ لما أصـابَهم ما أصـابَهم مِن الشقـاءِ والتفـرُّقِ والانخـذالِ، فقد رأَيْنا كيفَ سَعِدَ المهتدونَ بهِ؛ كالخلفاءِ الراشدينَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُم، وكيفَ شَقِيَ بهِ الذينَ أعْرَضوا عنهُ واستبدُّوا بالأمرِ؛ كأمراءِ بُخارى.

وحَمَلَ بعضُهم ﴿أُولي الأمْرِ﴾ على أفرادِ الأمراءِ والسَّلاطينِ مُطْلقاً، حتَّى الجاهِلينَ الجائِرينَ والفسَّاقِ الظالمينَ!

وبعضُهم على الأئمَّةِ المجتهدينَ في الفقهِ، ثمَّ قالوا: إنَّهُم قدِ انقرَضوا، وإنَّـهُ لا يجـوزُ أنْ يخْلُفَهُم أحَـدٌ، فلا يجوزُ للمسلمينَ عَرْضُ المسائلِ على الكتابِ والسنةِ والعملُ بما يهديانِ إليهِ، بل يجبُ أنْ يُقلِّدَ أحداً مِنَ المجتَهدينَ، وإنِ اختلَفَتْ آراؤهُم، حتى في العباداتِ والعقائدِ، حتى صارَ الحنفيُّ يمكُثُ حاضراً في المسجدِ، وتقومُ الجماعةُ في صلاةِ الصبحِ مثلاً، والإمامُ شافعيٌّ أو مالكيٌّ أو حنبليٌّ، فلا يَقْتَدي هٰذا الحنفيُّ الحاضرُ معهُم؛ لزعْمِهِ أنَّهُ لا يصحُّ اقتداؤهُ خَلْفَهُ، فينتَظِرُ حتى يجيءَ إمامُ مذهَبِهِ فيأْتَمَّ بهِ.

يا أَسفىٰ على حالِ المسلمينَ! إنَّهُم قد وَقَفوا في دينِهم وشريعتِهم عندَ

الكتبِ التي أَلَّفها المقلِّدونَ في القرونِ الوسطى وما بعدَها، حتى صارَ الناسُ ينسبــونَ كلَّ ما هُم عليهِ مِن الضَّعْفِ والــوَهَنِ والجهــلِ والفقـرِ إلى دينِهم وشريعتِهم، وقد سَرى هٰذا الاعتقادُ إلى الذينَ يتعلَّمونَ علومَ أُوروبا وقوانينَها، فمنهُم مَن مَرَقَ مِن الإسلامِ ، وفضَّلَ تلكَ القوانينَ على الشريعةِ؛ اعتقاداً منهُم أَنَّ الشَّـريعةَ هي ما يعرِفُهُ مِن كتُبِ الفقهِ، ولا يعرِفُ مِن القرآنِ ولا مِنَ السُّنَّةِ المحمَّديَّةِ شيئاً؛ كأَكْثَرِ الأتراكِ الكماليينَ، والتاتارِ الروسيينَ، والأوزبكيينَ التركستانيينَ.

فمـا دامَ المسلمـونَ تارِكينَ العمـلَ بكتـابِ اللهِ ربِّهم، وسنـةِ رسولِه، وراضينَ بهٰذا الجهلِ المركَّبِ؛ فإِنَّ حالَتَهُم لا تتغيرُ عمَّا هُم عليهِ مِن الاختلافِ والانشقاقِ والإسارةِ؛ فإِنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتَّى يُغيِّروا ما بأَنْفُسِهم، فتنبَّهْ.

وقد خاطبَ اللهُ تعالى أُمَّةَ الإسلامِ كلَّها بإقامةِ القواعدِ الأربعِ المنصوصةِ في هٰذه الآيةِ: إطاعةِ كتابِ اللهِ، وإطاعةِ سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وإطاعةِ أُولي الأمرِ مِن أَنفُسِهِم، وردِّ الأمرِ عندَ التَّنازُعِ إلى كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه، فالواجبُ على مجموعِ الأمةِ الإسلاميَّةِ مطالبتُهم بذٰلك، ولا يُترَكُ الأمرُ فوضى، ويجبُ أَنْ يكونَ لأولي الأمرِ مجمعٌ عندَ الأمَّةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَهُم بصيغةِ الجمعِ في الآيتينِ، فلا يستَبِـدُّ واحـدٌ بالرأْيِ ، وإِنَّما الخطابُ في الآيةِ لأمَّةِ الإجابةِ في الإِسلامِ ، وهي المذعنَةُ لأمرِ الإسلامِ ونهيِه، العالمةُ بما لا بدَّ من علمِه فيه.

فيا أُمَّةَ الإسلامِ! متى تفيقونَ مِن سكرتِكُم؟ ومتى تُفْتَحُ أَعيُنُكم؟ ومتى تفهَمُـونَ خطابَ ربِّكم فتعملوا بهِ؛ فإِنَّكُم أَنتُم المخاطَبونَ، وأَنتُم المكلَّفونَ؟ أما تخجَلونَ مِن جهالتِكُم؟ وأَما تستَحْيونَ مِن إضاعَتِكم أَهليَّتِكم؟ إلى متى تكونونَ

تحتَ حُكْمِ المستعمِرينَ محكومينَ؟ وإلى متى تكونونَ عبيداً وإماءً لعبيدٍ مثلِكم، بل تفوِّضونَ مِن نهايةِ جهلِكم أُمورَكُم إلى أرواحِ أمواتٍ لا تدرونَ حالَها؛ أهِيَ في أعلى عِلِّيينَ، أَم في أَسفلِ السَّافِلينَ؟

فأُفٌّ عليكُم فأُفٌّ عليكُم إنْ لم تتوبوا مما أنتُم عليهِ!!

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ والعشرونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَميعاً﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ جميعاً، وخاطَبَهُم كلَّهم عربَهم وعجمَهم؛ آمراً إيَّاهُم أنْ يحتاطوا في أوطانِهم مِن كيدِ الأعداءِ، فيأْخُذوا ويهيِّئوا ما ينقِذُهُم مِن شرِّ الأعداءِ عندَ كيدِهم وهجومِهم، فيحافِظوا على أمنِهم الداخليِّ والخارجيِّ.

والأعداءُ الخارجيُّونَ هُم المخالِفونَ لنا في الدِّينِ، وأما الدَّاخليونَ فهم أصحابُ الأغراضِ الفاسدةِ؛ مِن عُشَّاقِ الجاهِ والرِّياسةِ، وأُسراءِ الشهوةِ والهوى منَّا[2]، وكذا أصحابُ البدعِ والطرقِ والمذاهبِ المختلفةِ؛ فإنَّهم الأدواءُ المفسدةُ في الملَّةِ الإسلاميَّةِ.

وأمَّا أخذُ الحذرِ؛ فإمَّا بالمعاهداتِ مؤقتةً، وإما باتِّقاءِ شرِّهم بالقوةِ والأسلحةِ والاحتراسِ.

---

(١) النساء: ٧١.

(٢) هم العدوُّ فاحذرْهُم!

ولا شكَّ أنَّ العدوَّ إذا أنِسَ غِرَّةً منا؛ هاجمنا وهدَّدنا، وإذا دَعَوْناهُم إلى دينِنا؛ عارَضونا فيهِ؛ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمونَهُم اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الآية[1].

فعلى أهلِ النفوسِ المستعدَّةِ للفهْمِ أنْ تبحَثَ عن كلِّ ما يتوقَّفُ عليهِ امتثالُ الأمرِ مِن علمٍ وعملٍ، ويدخُلُ في الاستعدادِ والحذرِ معرفةُ الأسلحةِ واتِّخاذُها واستعمالُها، وذٰلك يتوقَّفُ على معرفةِ الهندسةِ والكيمياءِ والطبيعةِ وجرِّ الأثقالِ، فيجبُ تحصيلُ كلِّ ذٰلك وإتقانُهُ كما هُو الشأنُ في هٰذه الأيامِ، وذٰلك أنَّهُ تعالى أطْلَقَ الحذرَ، ولا يتحقَّقُ الامتثالُ إلا بما تتحقَّقُ بهِ الوقايةُ والاحترازُ في كلِّ زمنٍ بحسبهِ؛ مِن المدافعِ بأنواعِها، والبنادِقِ، والبوارِجِ المدرَّعَةِ، وحاملةِ الطياراتِ، وأنواعِ السلاحِ، وآلاتِ الهدمِ، والطياراتِ، والدباباتِ، والقنبلَةِ الذريَّةِ المُهْلِكَةِ. وإنَّهُ يجبُ تحصيلُ العلمِ بصنعِ هٰذه الأسلحةِ، وما يلزمُها، وسائرِ الفنونِ الحربيةِ، والمسلمونَ صاروا أقلَّ الناسِ حذراً مِن الأعداءِ باعتقادِ القَدَرِ مِن غيرِ علمٍ بمعناهُ، حتى إنَّ أكثرَ بلادِهم ذهبتْ مِن أيديهم وهُم لا يتوبونَ ولا يَذَّكَّرونَ ولا يتدبَّرونَ أمرَ اللهِ في هٰذه الآيةِ وما في معناها، ولا يمتَثِلونَ إيَّاهُ، وإنَّكَ إذا ذكَّرْتَهُم يقولونَ: القَدَرُ هٰكذا، فبذٰلكَ يُبْطِلونَ الشرائعَ والأوامرَ الإلٰهيَّةَ.

﴿فانْفِرُوا ثُبَاتٍ أوِ انْفِرُوا جَميعاً﴾؛ أيْ: انفروا جماعةً في إثْرِ جماعةٍ، بأنْ تكونوا فصائلَ وفرقاً، وهو الذي يتعيَّنُ إذا كانَ الجيشُ كثيراً، أو كانَ موقعُ العدوِّ يقتضي ذٰلك، وهو الغالبُ، أو انفروا كلُّكُم مجتمعينَ إذا قضتِ الحالُ بذٰلك.

---

(1) الأنفال: ٦٠

ويتوقَّفُ امتثالُ هٰذا الأمرِ على أَنْ تكونَ الأمةُ كلُّها مستعدةً دائماً للجهادِ؛ بأَنْ يتعلَّمَ كلُّ فردٍ مِن أَفرادِها فنونَ الحربِ، ويتمرَّنوا عليها بالعملِ، ويدخلُ فيهِ اقتناءُ السلاحِ معَ العلمِ بكيفيَّةِ استعمالِه، والتمرُّنُ على الرميِ بالمدافعِ وبندقِ الرصاصِ في هٰذا الزمانِ؛ كما كانوا يتمرَّنونَ على رميِ السهامِ في الأزمنةِ السابقةِ.

وقد قصَّرَ المسلمونَ في هٰذا جدّاً جدّاً، وقد سبقَهُم إليهِ غيرُهم، فيجبُ على الحكوماتِ الإسلاميةِ أَنْ تُقيمَ هٰذا الواجبَ بنفسِها، لا أَنْ تبقى فيهِ عالةً على غيرِها، ويجبُ على الأمةِ الإسلاميَّةِ أَنْ تواتيها وتساعدَها عليهِ، وأَنْ تُلْزِمَها إيَّاهُ إذا هي قصَّرتْ فيهِ.

والـذين يتبـطَّؤونَ عن الجهـادِ والـدفـاعِ هُم منافِقونَ، وليسوا بمؤمنينَ صادِقينَ؛ لأنَّـهُ لا همَّ لهُم ولا عنايةَ بأمرِ الدينِ، وإنَّما أَكبرُ همِّهم شهواتُهـم، فليحاسِبِ المسلمونَ أَنفسَهُم في هٰذا الزمانِ، ولْيَزِنُوا بهٰذه الآيةِ وما شابَهَها إيمانَهُم.

والعجبُ أَنَّ بعضَ الأممِ التي لا تدينُ بالقرآنِ كأُوروبا وأَمريكا والبلاشفةِ أَقـربُ إلى أَحكـامِـه فِي ذٰلك ممَّنْ يدَّعونَ اتِّباعَهُ مِن أَصحابِ التَّكايا والزَّوايا والـطُّرُقِ والمـذاهِـبِ، وإنَّمـا الغلبةُ والعزَّةُ لمَنْ يكونُ أَقربَ إلى هدايةِ القرآنِ بالفعـلِ على مَنْ يكـونُ أَبعدَ عنها، وإنِ انتسَبَ إليهِ بالقولِ؛ كالذينَ جَعَلوا القرآنَ مأْكلاً ومكسباً وهُـم غافِلونَ عن معناهُ والعملِ بهِ، فالقرآنُ حجَّةٌ عليهِم.

* * * * *

الآيةُ الـرابعةُ والعشرونَ فيها أَيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

سَبيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ولا تَقُولوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عليكُمْ فتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلونَ خَبيراً﴾[1].

قَدْ نَادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَهُ المؤمنينَ مرشِداً إِيَّاهُم أَنَّهُم إذا دَخلوا في بلادِ الكفرِ لا يحْسَبوا كلَّ مَن يجدونَهُ هناكَ كافِراً فيقتلوهُ، بل عليهِمْ أَنْ يتبَيَّنُوا ويتثبَّتُوا فيمَنْ تظهَرُ منهُمْ علاماتُ الإيمانِ والإسلامِ ؛ كالشَّهادَةِ أو السَّلامِ الذي هو تحيَّةُ المؤمنينَ وعـلامـةُ الأمْنِ والاستئمـانِ، وأَنْ لا يحمِلوا مِثْلَ هٰذا على المخادَعةِ، إذ رُبَّما يكونُ الإيمانُ قد طافَ على هٰذه القلوبِ، وإِنْ لم يكنْ تمكَّنَ فيها، فنهى اللهُ تعالى عن إنكارِ إسلامِ مَنْ يَدَّعي الإسلامَ، ولو بإلقاءِ تحيَّتِهِ، فكيفَ بمَنْ ينطِقُ بالشَّهادتينِ؟

ثمَّ ذكرَ اللهُ تعالى مَا مِن شأْنِهِ أَنْ يقوِّيَ الشُّبْهَةَ في نفسِ مَنْ يظنُّ أَنَّ إظهارَ الإسـلامِ لأجْـلِ التقيَّةِ، وهـو ابتغاءُ عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا، فهدى اللهُ تعالى المؤمنَ بهٰـذا إلى أَنْ يتَّهِمَ نفسَه، ويفتِّشَ عن قلبِهِ، ولا يَبني الظنَّ على مَيْلِه وهواهُ، بل أَوْجَبَ عليهِ أَنْ يبْنِيَ على الظَّاهِرِ ويقبَلَهُ حتى يتبَيَّنَ لهُ خلافُهُ.

قالَ ابنُ جَريرٍ[2]: «قولُهُ جَلَّ جلالُه: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا﴾: يا أَيُّها الذينَ صدَّقوا اللهَ وصدَّقوا رسولَه فيما جاءَهُم بهِ مِن عندِ ربِّهم، ﴿إذا ضَرَبْتُمْ في سبيلِ اللهِ﴾: إذا سِرْتُم مسيراً للهِ في جهادِ أعدائِكُم، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: فتأَنَّوْا في قتلِ مَن أَشكلَ عليكُم أَمرُه فلم تعلَموا حقيقةَ إسلامِه ولا كفرِه، ولا تستعْجِلوا على قتلِ

---

(١) النساء: ٩٤.

(٢) في «جامع البيان» (٥ / ٢٢١).

أحدٍ؛ إلاَّ على قتلِ مَن علمْتُموهُ يقيناً حَرْباً لكُم ولله ولرسوله، ولا تَقُولوا لِمَن استسلمَ لكُم فلمْ يقاتِلْكُم مُظْهِراً لكُم أنَّهُ مِن أهلِ ملَّتِكم ودعوتِكُم ﴿لستَ مُؤمناً تبتغونَ عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا﴾ فتقتلوهُ؛ طلباً لمالِ الدُّنيا الزائلِ، وإنَّما أذِنَ اللهُ تَعالى لكُم في قتالِ الذينَ يقاتِلونَكُم للدِّفاعِ عنِ الحقِّ وإعلاءِ كلمتِه، ونشرِ هدايتِه، ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثيرةٌ كذلكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ جاهِلينَ وكُفَّاراً ﴿فَمَنَّ اللهُ عليكُم﴾ بالهدايةِ إلى الإسلامِ، فمنكُم مَنْ أسلَمَ لظهورِ حقيقةِ الإسلامِ لهُ مِن أوَّلِ وهلَةٍ؛ كأبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ، ومنكُم مَن أسلَمَ تَقِيَّةً أو لسببٍ آخرَ، ثمَّ حَسُنَ إسلامُه عندما خبرَ الإسلامَ وعرفَ محاسنَه.

فظاهرُ حكْمِ الآيةِ أنَّ كلَّ مَن أظهَرَ الإسلامَ يُقبَلُ منهُ ويُعدُّ مسلماً، ولا يُبْحَثُ عنِ الباعثِ لهُ على ذلك، ولا يتَّهَمُ في صدقِه وإخلاصِه إلا إذا ظهَرَ منهُ ما ينافيهِ مِن الكفريَّاتِ والشركيَّاتِ والزَّندقةِ والإلحادِ، ولم يَتُبْ منها بعدَ التعليمِ والتنبيهِ، بل عاندَ وأصرَّ عليها، فحينئذٍ يُقْتَلُ..

* * * * *

الآيةُ الخامسةُ والعشرونَ فيها أيضاً: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ للهِ ولو عَلى أنْفُسِكُمْ أوِ الوالِدَيْنِ والأقْرَبينَ إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أو فَقِيراً فاللهُ أوْلَى بِهِما فلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أنْ تَعْدِلُوا وإنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضوا فإنَّ اللهَ كَانَ بِما تَعْمَلونَ خَبيراً﴾[1].

قد نادَى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ عموماً ـ شرقيَّهُم وغربيَّهُم ـ آمِراً

---

(١) النساء: ١٣٥

إيَّاهُم أنْ يكـونـوا في جميعِ معاملاتِهم قائمينَ بالعدلِ ، ويعاملوا غيرَهُم كما يعامِلونَ أنفُسَهُم ، فيحبُّونَ لهُم ما يحبُّونَ لأنفسِهم .

والقوَّامونَ بالقسطِ هُمُ الذينَ يُقيمونَ العدلَ بالإتيانِ بهِ على أتمِّ الوجوه وأكملِها وأدومِها ؛ فإنَّ ﴿قوَّامينَ﴾ جمعُ قوَّامٍ ، وهو المبالغُ في القيامِ بالشيءِ ، والقيامُ بالشيءِ هو الإتيانُ بهِ مُسْتوياً تامّاً لا نقصَ فيهِ ولا عِوَجَ ، ولذلك أمرَ اللهُ تَعالى بإقامةِ الصلاةِ ، وإقامةِ الشهادةِ ، وإقامةِ الوزنِ بالقسطِ ؛ لتأْكيدِ العنايةِ بهٰذه الأشياءِ .

وهٰذه العبارةُ أبلغُ ما يمكنُ أنْ يقالَ في تأْكيدِ أمرِ العدلِ والعنايةِ بهِ ؛ أيْ لِتَكُنِ المبالغةُ والعنايةُ بإقامةِ القسطِ على وجهِهِ صفةً مِن صفاتِكُم ، بأنْ تتحرَّوْهُ بالدقةِ التامةِ ، حتى يكونَ مَلَكَةً راسخةً في نُفوسِكُم .

والقسطُ يكونُ في العملِ ؛ كالقيامِ بما يجبُ مِن العدلِ بينَ الزَّوجاتِ والأولادِ ، ويكونُ في الحكمِ بينَ الناسِ ممَّن يولِّيهِ السلطانُ أو يحكِّمُهُ الناسُ فيما بينَهُم .

وكانَ ينبغي أنْ يكونَ المسلمونَ بمثلِ هٰذه الهدايةِ أعدلَ الأممِ ، وأقومَهُم بالقسطِ ، وكـذلـكَ كانُـوا عنـدَمـا كانوا مهتدينَ بالقرآنِ ، وصدَقَ على سلَفِهِم الصـالـحِ قولُه تعالى : ﴿وممَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحَقِّ وبهِ يَعْدِلُونَ﴾[1] ، ثمَّ خَلَفَ مِن بعـدِ أُولئـكَ خَلْفٌ نَبذوا هدايةَ القرآنِ وراءَ ظهورِهم ، حتى صارتْ جميعُ الأممِ تَضْرِبُ المثلَ بظُلمِ حكَّامِهم ، وسوءِ حالِهم ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ .

---

(١) الأعراف : ١٨١ .

واللهُ تَعالى عَمَّمَ الأمـرَ بالقسطِ؛ لأنَّ العدلَ حفظُ النظامِ، وقِوامُ أمرِ الاجتماعِ، وعـدمُ محاباةِ أحدٍ في ذلك لِغناهُ أو فَقْرِه أو قَرابتِه؛ لأنَّ العدلَ والحقَّ مقدَّمانِ على الحقوقِ الشخصيَّةِ وحقوقِ القرابةِ وغيرِها.

وكانتْ محاباةُ الأقربينَ معهودةً في الجاهليَّةِ؛ لأنَّ أمرَهم قائمٌ بالعصبيَّةِ، فنَهى اللهُ تعالى عنْ ذلك كلِّه، وأمرَ بالعدلِ في كلِّ حالٍ، وأنْ يكونوا شُهداءَ للهِ، وأنْ يتحَرَّوْا فيها الحقَّ الَّذي يَرضاهُ ويأْمُرُ بهِ مِن غيرِ مراعاةٍ ولا مُحاباةٍ لأحدٍ، ولا يكـونـوا كبعضِ البُخـاريِّينَ الـذينَ يقيمونَ الآنَ في الحرمَيْنِ وغيرِهما مِن البلدانِ؛ فإنَّهُم وإنْ كانـوا في الـظاهـرِ مسلمينَ، ولكنَّهُم بالعصبيةِ الجاهليةِ متلَبِّسـونَ، حتى إنَّهُم يشهدونَ زوراً لجماعتِهم، ولا يتحاشَوْنَ عنْ ذلكَ، بل يفتَخِرونَ بذلك؛ كما هو مشاهَدٌ ومعلومٌ، فهُمْ مُشاقُّونَ للهِ والرَّسولِ، والناسُ عنهُم غافِلونَ.

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ﴾؛ أي: أيُّها المؤمنونَ! كونوا شهداءَ بالحقِّ لوجهِ اللهِ، وامتثالِ أمرِه، واتِّباعِ شرعِه، الذي تُنالُ بهِ مرضاتُه ومثوبَتُه، ولو كانتِ الشهادةُ على أنفسِكم؛ بأنْ يثبُتَ بها الحقُّ عليكُم، ومَن أقرَّ على نفسِه بحقٍّ؛ فقد شُهِدَ عليها؛ لأنَّ الشَّهادةَ إظهارُ الحقِّ؛ كما أقرَّ ماعزٌ رضيَ اللهُ عنهُ بالزِّنا في حضرةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقالَ: يا رسولَ اللهِ! طَهِّرْني[1]! أو على والـديكُم وأقـربِ الناسِ إليكُم؛ كأولادِكُم وإخوتكم؛ فإنَّهُ ليسَ مِن برِّ الوالدينِ ولا مِن صلةِ رحمِ الأقربينَ أنْ يُعانُوا على ما ليسَ لهُم بحقٍّ بالإعراضِ عنِ الشهـادةِ عليهِم، أو ليِّها وتحريفِها لأجْلِهم، وإنَّما البرُّ والصِّلةُ في الحقِّ

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) عن بُريدة.

والمعروفِ، والحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبع.

ولا تُحابوا الغنيَّ طمعاً في برِّه، ولا خوفاً مِن شرِّه؛ كما هُو شأْنُ أكثرِ الناسِ اليومَ، فهُم محادُّونَ ومشاقُّونَ للهِ والرسولِ، ولا الفقيرَ عطفاً عليهِ ورحمةً بهِ.

فهل يتدبَّرُ المسلمونَ هٰذه الآيةَ كما أمرَهُم اللهُ تعالى بتدبُّرِ القرآنِ، فيقيموا العدلَ والشهادةَ بالحقِّ؟ أم يعملونَ برأْيِ أهلِ الحيلِ، فيرتكبونَ الظلمَ والعدوانَ، إلى أنْ يستحقُّوا غضَبَ اللهِ الدَّيَّانِ، فيسلِّطَ عليهم البلاشفةَ والطائفةَ الطاغيةَ الدُّهريةَ، فتسومُهُم سوءَ العذابِ في هٰذه الحياةِ الدُّنيا؛ كما سلَّطَ اللهُ تَعالى تلكَ الطائفةَ على بلادِ الروسِ وبُخارى وكابكازيا والتركستان وبعضِ بلادِ الصينِ والهندِ لمَّا غيَّروا وبدَّلوا أمرَ اللهِ عزَّ وجلَّ؟ ﴿ولَعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبْقى﴾[1].

* * * * *

الآيةُ السادسةُ والعشرونَ فيها أيضاً: **﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا آمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ والكِتَابِ الَّذي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ والكِتَابِ الَّذي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ومَنْ يَكْفُرْ باللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً﴾**[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَه المؤمنينَ كافَّةً؛ آمِراً إيَّاهُم أنْ يجمَعُوا بينَ الإيمانِ بهِ، وبرسولِهِ الأعظمِ محمدٍ ﷺ خاتمِ النَّبيِّينَ، وبينَ جميعِ الرُّسلِ الذينَ أرسَلَهُم اللهُ تعالى سابقاً، والقرآنِ الذي نزَّلَهُ عليهِ، وبينَ الإيمانِ بجميعِ

---

(١) طه: ١٢٧.

(٢) النساء: ١٣٦.

الكتبِ التي نزَّلَها على رسلهِ مِن قبلِ بعثةِ خاتمِ النبيِّينَ ﷺ؛ بأنْ يعْلَموا أنَّ اللهَ تَعالى قد بَعَثَ قبلَه رُسُلاً، وأنزلَ عليهِم كتباً، وأنَّهُ لم يتركْ عبادَهُ في الأزمنةِ الماضيةِ سدىً محرومينَ مِن البيِّناتِ والهُدى، وأمرَهُم أنْ يدوموا ويثبُتوا على هٰذا الإيمانِ ثُبوتاً دائمياً، ولا يكفُروا ولا يُنْكِرُوا شيئاً مِنْ ذٰلك أصلاً، وأمَّا مَنْ يَكْفُرْ باللهِ وملائكتِه وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً:

ـ فالإيمانُ باللهِ هُو الركنُ الأولُ.

ـ والإيمانُ بجنسِ الملائكةِ الذينَ يحمِلُونَ الوَحْيَ إلى الرسلِ هو الركنُ الثاني.

ـ والإيمانُ بجنسِ الكتبِ التي نَزَلَ بها الملائكةُ على الرسلِ هو الركنُ الثالثُ.

ـ والإيمانُ بجنسِ الرسلِ الذينَ بلَّغتهم الملائكةُ تلكَ الكتبَ إليهِم وهُم بلَّغوها الناسَ هو الركنُ الرابعُ.

ـ والإيمانُ باليومِ الآخرِ الذي يُجْزى فيهِ المكلَّفونَ على عملِهم بتلكَ الكتبِ معَ الإيمانِ بما ذُكِرَ، كلٌّ بحسبِ كتابه هو الركنُ الخامسُ.

ومَن فرَّقَ بينَ كُتُبِ اللهِ ورسلِه، فآمَنَ ببعضٍ وكفَرَ ببعضٍ؛ كاليهودِ والنَّصارى؛ لا يُعْتَدُّ بإيمانِه؛ لأنَّهُ متَّبِعٌ للهوى فيهِ، أو للتَّقليدِ الذي هُو عينُ الجهلِ.

وقد وَصَفَ اللهُ تعالى خاتمَ رسلِه وأُمَّتِه التي هي خيرُ الأممِ بقولِه تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ والمؤمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ

لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(1)، فمَن كَفَرَ بواحدٍ مِن المذكوراتِ؛ فقد ضلَّ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ، وبَعُدَ عن طريقِ الهدايةِ ومحجَّةِ السَّلامةِ بُعْداً فاحِشاً.

ويَقْرُبُ مِن هٰذا مَن يؤمنُ ببعضِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ويعظِّمُه ويكفرُ ببعضٍ ويبغِضُه، فيحبُّ البعضَ ويُبْغِضُ البعضَ؛ كالرَّافضةِ والشيعةِ.

ويقرُبُ منهم أيضاً مَن يؤمنُ ببعضِ الأئمَّةِ المجتَهِدينَ ويحبُّهُ ويعظِّمُه ويَتبعُهُ، ويبغضُ البعضَ، بل يكفُرُ بهِ؛ كأكثرِ الأحنافِ مِن البُخاريِّينَ والهنودِ والأتراكِ؛ فإنَّهُم يعظِّمونَ الإمامَ أبا حنيفةَ وأصحابَه فيتَّبعونَهم ويحبُّونَهم ويقلِّدونهم، وأمَّا الأئمةُ الباقونَ كالإمامِ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وغيرِهم مِن أئمَّةِ السنةِ؛ فيبغضونَهُم ويبغضونَ مَن يقلِّدونَهم، فيقولونَ في كُتُبِهم: لَنا ولهم، وعندَنا وعندَهم، ولنا كذا وكذا، وللخصمِ كذا وكذا؛ كما بيَّنْتُ ذٰلك في كتابي «البرهانُ الساطعُ على تبرُّؤِ المتبوعِ مِن التَّابعِ»، فعليكَ بمطالعتِه إنْ كنتَ طالباً للحقِّ والحقيقةِ؛ فإنَّهُ مطبوعٌ في مصرَ، ومنشورٌ في العالمِ الإسلاميِّ بحولِ اللهِ وقوَّته.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والعشرونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذوا الكَافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المؤمِنينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً﴾(2).

قد نَادى اللهُ تَعالى وخاطَبَ عِبادَهُ المؤمنينَ عامَّةً؛ ناهِياً إيَّاهُم عنِ اتِّخاذِ

---

(1) البقرة: ٢٨٥.

(2) النساء: ١٤٤.

الكافِرينَ أَوْلياءِ مِن دُونِ المؤمنينَ؛ فإنَّ هٰذا مِن فعلِ المنافِقينَ؛ فإنَّهُم يوالونَ الكفَّارَ، وينصرونَهُم مِن دُونِ المؤمنينَ؛ ليستفيدوا منهُم المالَ، وينالوا بسببِهم الجاهَ والرياسةَ.

فحذَّرَ اللهُ تَعالى المؤمنينَ أَنْ يفعَلُوا مثلَ فعلِهم؛ ابتغاءَ العزَّةِ عندَهم، أو رجاءَ المنفعةِ منهُم؛ فإنَّهُ ربَّما يخطرُ ببالِ صاحبِ الحاجةِ أَنَّ ذٰلك لا يضرُّ.

والمرادُ مِن الولايةِ هُنا النصرةُ بالقولِ أو الفعلِ فيما يُنافي مصلحةَ المسلمينَ.

﴿أَتُريدُونَ أَنْ تَجعَلوا للهِ عَلَيْكُم سُلْطاناً مُبيناً﴾؛ يعني أَنكم إذا واليتُمُ الكفَّارَ وناصرتُموهُم؛ كما والى شريفُ مكةَ حسينُ الإنكليزَ ونَاصَروهُ على حُكومَةِ التُّركِ الإسلاميةِ[1]؛ فقد أَقمتُم الحجَّةَ على أَنفسِكُم باستحقاقِ عذابِ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، واستحْقَقْتُم أيضاً أَنْ يسلِّطَهم اللهُ تعالى عليكُم بذنوبِكم، فتُخْذَلوا بدَلَ أَنْ تُنْصَروا، وتُحَقَّروا مكانَ أَنْ تُعَزُّوا.

ولا شكَّ أَنَّ المؤمنينَ ما اضمحلَّتْ دُوَلُهُم وسلطنتُهُم إلَّا باتِّخاذِهِم الكافِرينَ أولياءَ مِن دُونِ المؤمنينَ؛ فإنَّهُم لما اتَّخَذوا الوزراءَ والبطانةَ مِن دُونِ المؤمنينَ الصادقينَ، واعتمدوا على دولٍ غيرِ إسلاميةٍ؛ ففي النتيجةِ صاروا مِن المحرومين.

فيا أَيُّها المؤمنونَ! أَما تُفيقونَ مِن غفلَتِكُم؟ وأَما تَصْحَونَ مِن سكْرَتِكُم؟

---

(١) ومن عجبٍ قلبُهم الوقائع بتسميات مخالفة! واليوم ـ ونحن في منتصف شهر صفر ١٤١١هـ ـ التاريخ يعيد نفسه، ولكن عكسيّاً!! فإلى الله المشتكى من سوء الأحوال، ومرارة الحال!

وأمـا تفتحـونَ عيونَكُم وتستعملونَ عقـولَكم وتعتبـرونَ بمـا جَرى في ماضيكُم وحاضِركم، فتَفْهمُوا كلامَ ربِّكُم العليمِ الحكيمِ فتَعْملوا بمقتضاهُ؛ لأنَّكُم أنتُم المخـاطَبـونَ والمكلَّفونَ بذلك لا الكفارُ، وأنتُم المأْمورونَ بذلك لا الإفرنجُ، أتريدونَ أن تُقيموا حُجَجَ اللهِ على أنفسِكُم؟ بل قد أقمْتُم حُجَّةَ اللهِ عليكُم، فلهٰـذا سلَّطهُم عليكُم وأنتُم سُكـارى أو حيارى، ومفتونونَ تأْكلونَ وتتمتَّعُونَ، فبئْسَ ما تفعَلونَ!!

وَمَـا لِجُـرْحٍ بِمَـيِّتٍ إيلامُ

لَقَـدْ أَسْـمَـعْـتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًا ... ولٰـكِـنْ لا حَيَاةَ لِمَـنْ تُنَـادِي

أَرَى أَلْـفَ بَانٍ لاَ يَقُـومُ بِهَـادِمٍ ... فَكَـيْفَ بِبَـانٍ خَلْفَـهُ أَلْـفُ هَادِمِ

* * * * *

الآيةُ الثـامنـةُ والعشـرونَ في سورةِ المائدةِ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيْمَةُ الأنْعامِ إلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وأَنْتُمْ حُرُمٌ إنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾[1].

قد نَادى اللهُ تَعالى وخاطَبَ المؤمنينَ عامَّةً؛ عربَهم وعجمَهم، عالِمَهُم وجاهِلَهُم، ولَمْ يَخُصَّ أحـداً دونَ أحدٍ، فالمؤمنونَ هُمُ المخاطَبونَ المكلَّفونَ بفهْمِهِ والعملِ بهِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: «إنَّ المرادَ بالعقودِ عهودُ اللهِ التي عَهِدَ إلى عِبادِهِ، وما أَحلَّ اللهُ وما حرَّمَ، وما فرضَ وما حدَّ في القرآنِ كلِّهِ، لا تغدروا

---

(١) المائدة: ١.

ولا تنكُثوا»[1].

والظَّاهِرُ أنَّ اللهَ تَعالى أمرَنا بالوفاءِ بجميعِ العقودِ الصحيحةِ التي عقَدَها علينا، والتي نتعاقَدُ عليها فيما بيْنَنا إذا لم تكنْ مخالفةً للنَّصِّ.

وأساسُ العقودِ الثابتُ في الإسلامِ هو هٰذه الجملةُ البليغةُ ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وهي تُفيدُ أنَّهُ يَجِبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يفيَ بما عقدَهُ وارتبطَ بهِ، وليسَ لأحدٍ أنْ يقيِّدَ ما أطلَقَهُ الشَّارعُ إلا ببيِّنةٍ منهُ، فالتَّراضي مِن المتعاقدينَ شرطٌ في صحَّةِ العقدِ، فكلُّ قولٍ أو فعلٍ يعدُّه النَّاسُ عقداً فهو عقدٌ يَجِبُ أنْ يوفوا بهِ كما أمرَ اللهُ تعالى ما لم يتضَمَّنْ تحريمَ حلالٍ أو تحليلَ حرامٍ ممَّا في الشرعِ؛ كالعقدِ بالإكراهِ، أو على إحراقِ دارِ أحدٍ، أو الإكراهِ على بيعِها أو إيجارِها، أو على الفاحشةِ، أو أكلِ شيءٍ مِن أموالِ النَّاسِ بالباطلِ، كالرِّبا والمَيْسِرِ والرِّشوةِ.

والأصلُ الإباحةُ في الأشياءِ، ومِن جُمْلَتِها العقودُ والشروطُ في أمورِ الدُّنيا، والحظرُ لا يَثْبُتُ إلَّا بدليلٍ، ويؤيِّد إطلاقَ الآيةِ حديثُ: «الصُّلْحُ جائزٌ بينَ المُسلمينَ إلَّا صُلحاً أحلَّ حراماً، أو حرَّمَ حلالاً»[2]، وحديثُ: «المسلمونَ

---

(1) أخرجه: ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان»؛ كما في «الدر المنثور» (٣ / ٥).

(2) رواه هٰكذا تامّاً: الترمذي (١١٥٢)، وابن ماجه (٢٣٥٢)، والدارقطني (٣ / ٢٧)، والحاكم (٤ / ١٠١)، والبيهقي (٦ / ٧٩)؛ عن عمرو بن عوف.

وفي سنده كثير بن عبدالله، وهو ضعيف جداً.

وقد صحَّت الفقرة الأولى منه، فقد أخرجه: أحمد (٢ / ٣٦٦)، وأبو داود (٣٥٩٤)، وابن حبان (١١٩٩)، والدارقطني (٣ / ٢٧)، والحاكم (٢ / ٤٩)؛ عن أبي هريرة.

وسنده حسن.

على شُروطِهم»[1] رواه الترمذي وأبو داود؛ «إلاَّ شرْطاً حرَّمَ حَلالاً أو أحلَّ حراماً».

ولكنَّ الأسفَ أنَّ المسلمينَ لمَّا جَهِلُوا معانيَ خطابِ ربِّهم وأمرِ مولاهُم الـرَّحمٰنِ العليمِ الحكيمِ ؛ صاروا غدَّارينَ وغشَّاشينَ وخدَّاعينَ ومكَّارينَ، لا يوفونَ بعهودِهم، ولا هُم صادِقينَ وناصحينَ في أقوالِهم وأعمالِهم، وخصوصاً في مكـةَ؛ فإنَّ أكثـرَ سكَّـانِهـا موصـوفـونَ بتلكَ الصفـاتِ الشنيعـةِ؛ تُجَّارُهم ومُـطوِّفوهم، وكانَ اللازمُ المحتَّمُ عليهم أن يكونوا صادقينَ وأُمناءَ وناصحينَ، حتى يكونوا قدوة للمسلمينَ في أنحاءِ العالم الإسلاميِّ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ.

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والعشرونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ولا الشَّهْرَ الحَرامَ ولا الهَدْيَ ولا القَلائِدَ ولا آمِّينَ البيتَ الحَرامَ يَبْتَغونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ ورِضْواناً﴾**[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ ناهياً إيَّاهُم أنْ لا يجعلوا شعائرَ دينِ اللهِ حلالاً يتصرَّفونَ فيها كيفَ يشاؤونَ، وهي معالِمُه التي جَعَلَها أماراتٍ يعلمونَ بها الهُدى مِن الضَّلالِ ؛ كمناسكِ الحجِّ وسائرِ فرائضهِ وحدودِه وحلالِه وحرامِه، بل اعملوا فيها بما بيَّنَه لكم.

---

(١) هو قطعة من حديث أبي هريرة الذي أوردتُه في التعليق السابق.
وأما زيادة: «إلا شرطاً...» الآتية؛ فهي لا تصحُّ، إذ هي تابعة لحديث عَمرو بن عوف السابق أيضاً!!

(٢) لمائدة: ٢.

ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى ما يتعلَّقُ بأعمالِ الحجِّ.

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿وتَعاوَنُوا عَلى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والعُدْوانِ﴾.

فالأمْرُ بالتعاونِ على البرِّ والتَّقوى مِن أركانِ الهدايةِ الاجتماعيةِ في القرآنِ؛ لأنَّهُ يوجِبُ على النَّاسِ إيجاباً دينيّاً أن يُعينَ بعضُهم بعضاً على كلِّ عملٍ مِن أعمالِ البرِّ التي تنفعُ النَّاسَ أفراداً وأقواماً في دينِهم ودنياهُم، وكلِّ عملٍ مِن أعمالِ التَّقوى التي يدفعونَ بها المفاسدَ والمضارَّ عنْ أنفسِهم، وأكَّدَ هٰذا الأمرَ بالنَّهيِ عن ضدِّه، وهو التعاونُ على الإثمِ بالمعاصي والعصبيةِ وكلِّ ما يعوقُ عنِ البرِّ والخيرِ، وعلى العدوانِ الذي يُغري الناسَ بعضَهم ببعضٍ.

وكانَ المسلمونَ في الصَّدْرِ الأوَّلِ جماعةً واحدةً؛ يتعاونونَ على البرِّ والتقوى مِن غيرِ ارتباطٍ ونظامٍ بشريٍّ؛ كما هو شأنُ الجمعيَّاتِ اليومَ؛ فإنَّ عهدَ اللهِ وميثاقَه كانَ مُغنياً لهُم عن غيرِه لإيمانِهم بهِ إيماناً كاملاً، وفهمِهم كلامَ ربِّهم فهماً صحيحاً[1].

وقد شهِدَ اللهُ تعالى لهُم بذٰلك: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ والملائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قَائِماً بالقِسْطِ﴾[2]، و﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ تَأْمُرونَ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤمِنُونَ باللهِ﴾[3].

ولكنْ؛ لما انتشرَ بأيدي الخَلْفِ ذٰلك العقدُ، ونُكِثَ ذٰلك العهدُ؛ صرْنا

---

(١) فليعتبر بهٰذه النفيسة أرباب الأحزاب وأصحاب الحركات والجماعات! ولتقارَن بما سيأتي من كلام المصنِّف وتعليقي عليه.

(٢) آل عمران: ١٨.
(٣) آل عمران: ١١٠.

محتـاجينَ إلى تأليفِ جمعياتٍ خاصةٍ بنظامٍ خاصٍّ لأجلِ جمعِ طوائفَ مِن المسلمينَ، وحملِهم على إقامةِ هٰذا الواجبِ في التّعاونِ على البرِّ والتّقوى؛ فلا بدَّ لنا من تأليفِ الجمعياتِ الدينيَّةِ والخيريَّةِ والعلميَّةِ إذا كُنَّا نريدُ أنْ نَحيا حياةً عزيزةً[1].

﴿واتَّقُوا اللهَ﴾؛ أي: اتقوا اللهَ أيها المؤمنونَ؛ بالسَّيْرِ على سُننِهِ التي بيَّنها لكُم في كتابِه، وفي نظامِ خَلْقِه؛ لِئلا تستحقوا عقابَه الذي يُصيبُ مَن أعرضَ عن هِدايتِه؛ ﴿إنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ﴾ لِمَن لم يتَّقِه بعدمِ اتِّباعِ شرعِه، ومراعاةِ سُننِه في خلقِه؛ فإنَّهُ لا هوادةَ ولا محاباةَ في عقابِه؛ لأنَّهُ لم يأْمرْ بشيءٍ إلَّا وفِعْلُهُ نافعٌ وتركُه ضارٌّ، ولم ينهَ عن شيءٍ إلَّا وفعْلُهُ ضارٌّ وتركُه نافعٌ، وفي معنى المأْمورِ بهِ كلُّ ما رغَّبَ فيهِ، وفي معنى المنهيِّ عنهُ كلُّ ما رغَّبَ عنهُ وحذَّرَ منهُ.

فلهٰذا؛ كانَ تركُ هدايتِه مُفضياً بطبعهِ إلى الحرمانِ مِن المنافعِ، والوقوعِ في المضارِّ التي منها فسادُ الفطرةِ وعَمَى البصيرةِ، وإنَّما يظلمُ الإنسانُ نفسَه، ولا عَتَبَ له إلَّا عليها.

فيا أَيُّها المؤمنَ! لا تضيِّعْ أهليَّتَك، ولا تظلمْ نفسَك، بل اجتهدْ لفهمِ كلامِ ربِّكَ والعملِ بموجَبِهِ؛ تكنْ عبداً مؤمناً، وتنلْ رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والأخرى، وإلَّا تكنْ خاسراً، فتنبَّه.

* * * * *

(١) وفي هٰذا الكلام نظر شديد ينقضُه ما علَّقت عليه ـ قبلُ ـ من كلام المصنف، وقد طوَّلتُ بيانه وشرحه في كتابي «الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي».

الآيةُ الثلاثونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ وامْسَحُوا برؤوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ وإنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهَّرُوا وإنْ كُنْتُمْ مَرْضَى إوْ عَلى سَفَرٍ أو جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أو لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكُمْ لعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ بعدَ أَنْ أمرَهُم بالوفاءِ بعهدِ الربوبيةِ وعهدِ العبوديةِ؛ أَنْ يَقوموا بما عاهَدوا والتزموا مِن السَّمْعِ والطاعةِ للهِ ولرسولِه، فيقوموا بطاعتِه مخلِصينَ طاهِرينَ، فقالَ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ﴾؛ أَيْ: إذا أَردتُم القيامَ إلى إلى أَداءِ الصلاةِ؛ فاغسلوا هٰذه الأعضاءَ إذا كنتُم مُحدِثينَ.

ففرضُ الوضوءِ أربعٌ: **الأولُ**: غسلُ الوجهِ، **الثاني**: غسلُ اليدينِ إلى المرفقينِ، **الثالثُ**: المسحُ بالرأسِ، **الرابعُ**: غسلُ الرجلينِ إلى الكعبينِ، أو مسحُ الساترِ عليهما[2].

﴿وإنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهَّرُوا﴾؛ أَيْ: اغتسلوا غُسْلاً كامِلاً، والجنابةُ الموجِبَةُ للغَسلِ معروفةٌ عندَ جميعِ المسلمينَ.

هٰذا إذا وجدتُم الماءَ، ولم يمنَعْهُ مِن استعمالِه مانعٌ، وأَمَّا إذا حَدَثَ حادِثٌ؛ فحكمُهُ قولُه تعالى: ﴿وإنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ

(١) المائدة: ٦.

(٢) كالخُفَّين والجوربين

مِنَ الغَـائِطِ أو لاَمَسْتُمُ النِّسـاءَ فَلَمْ تَجِـدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُـوا صَعيداً طَيِّباً فامْسَحُوا بِوُجوهِكُمْ وأيْدِيكُم منهُ ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عليكُمْ مِن حَرَجٍ ولكِنْ يريدُ ليطهِّرَكُمْ وليُتِمَّ نعمَتَهُ عليكُم لعلَّكُم تشكُرونَ﴾ ـهُ على فضلِه ورأفتِه وتطهيرِه وتيسيرِه؛ لأنهُ تعـالى رؤوفٌ رحيمٌ بكُم، وهـو لا يشـرعُ لكُم إلاَّ ما فيهِ الخيرُ والنفـعُ لكُم، ويطهِّرُكم مِن القذرِ والأذى، ومِن الرَّذائلِ والمنكراتِ والعقائدِ الفاسدةِ، فتكونوا أنـظفَ النَّـاسِ أبداناً، وأزكاهُم نُفوساً، وأصحَّهُم أجساماً، وأرقاهُم أرواحاً، وَلِيُتِمَّ نعمتَـه عليكُم بالجمـعِ بينَ طهارةِ الأرواحِ وتزكيَتِها، وطهارةِ الأجسادِ وصحَّتِهـا؛ فإنَّ الإنسـانَ روحٌ وجسـدٌ، لا تكمُـلُ إنسانيَّتُه إلاَّ بكمالِهما معاً، فالصلاةُ تطهِّرُ الروحَ، وتزكِّي النفسَ؛ لأنها تنهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ.

فما أعظمَ نعمةَ اللهِ تعالى على الناسِ بهذا الدينِ القويمِ! ولهٰذا قال: ﴿لعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾، فتقوموا بشكرِ النِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، فدينُ الإسلامِ دينُ اليُسْرِ، ودينُ النظافةِ، ودينُ الحياءِ، ودينُ الصِّدْقِ، ودينُ الأمانةِ، ودينُ الصِّيانةِ، ودينُ العفَّةِ، ودينُ العقلِ، ودينُ الفهمِ؛ كما أنَّهُ دينُ التَّوحيدِ، ودينُ الإخلاصِ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! هل عرفتُم هٰذه الأوصافَ؟ وهل اتَّصفتُم بها؟ أو أنتُم جاهِلونَ بها، لا تعرفونَ مِن الإسلامِ إلاَّ اسمَه، ومِن القرآنِ إلاَّ رسمَه؟ تقرؤونَه في المحـافـلِ والمـآتمِ والختمـاتِ، وعلى رؤوسِ القبـورِ، وعلى ماكينـةِ راديون[1]، أو لأنْ تَهَبُوا ثوابَهُ لمن يُعطي لكُم الدُّريهماتِ؛ كما نشاهدكُم في شرقِ الأرضِ وغربِها!

---

(١) يريد المِذْياع.

أما تتوبونَ إلى اللهِ وتتَّقونَه؟ وأما تستحيونَ مِنَ اللهِ ومِن الإنسانيّةِ، وقد جاءتْ أشراطُ الساعةِ، وقامتْ علاماتُ القيامةِ، فتُسألونَ يومئذٍ عنِ التوحيدِ، وعنِ القرآنِ، وعنِ العملِ بهِ؟

*****

الآيةُ الحاديةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قوَّامينَ للهِ شُهَداءَ بالقِسْطِ ولا يجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوى واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعْمَلونَ﴾**[1].

قد نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ عامَّةً، وخاطبَهم آمراً إيَّاهُم بأنْ يكونوا قوَّامينَ للهِ شهداءَ بالقسطِ:

القَوَّامُ: هو المبالغُ في القيامِ بالشيءِ، وهو الإتيانُ بهِ مقوَّماً تامَّاً؛ لا نَقْصَ فيهِ ولا عِوَجَ، وهٰذا عامٌّ شاملٌ لجميعِ ما أُخذَ علينا الميثاقُ بهِ مِن التكاليفِ، حتى المباحاتِ؛ أيْ: كونوا مِنْ أَصحابِ الهِمَمِ العاليةِ، وأَهلِ الإتقانِ والإخلاصِ للهِ تعالى في كلِّ عملٍ تعملونَهُ مِن أَمرِ دينِكم ودُنياكُم.

ومعنى الإخلاصِ للهِ في أَعمالِ الدُّنيا: أَنْ تكونَ بنِيَّةٍ صالحةٍ؛ بأَنْ يريدَ العاملُ بعلمِهِ الخيرَ والتزامَ الحقِّ؛ مِن غيرِ شائبةِ اعتداءٍ على حقِّ أَحدٍ أو إيقاعِ ضررٍ بهِ.

والشَّهادةُ بالقسطِ معروفةٌ، وهي أَنْ تكونَ بالعدلِ؛ بدونِ محاباةِ المشهودِ له ولا المشهودِ عليهِ لقرابتِه وولائهِ، ولا لمالِه وجاهِه، ولا لفقرِه ومسكنَتِه.

---

(١) المائدة: ٨.

فالشهـادةُ عبـارةٌ عن إظهـارِ الحقِّ للحـاكمِ ؛ ليحكُمَ بهِ، والإقـرارِ بهِ لصاحبِهِ. والقِسْطُ هو ميزانُ الحقوقِ، فإذا خولِفَ؛ انتشرتِ المفاسدُ وضروبُ العدوانِ بينَهم، وتقطَّعتْ روابطُهم الاجتماعيةُ، وصار بأسهُم بينَهم شديداً، فلا يلبثونَ أنْ يسلِّطَ اللهُ تَعالى عليهم بعضَ عبادِهِ الذينَ هُم أقربُ إلى إقامةِ العدلِ منهُم، فيُزيلونَ استقلالَهُم، ويذيقونَهُم وبالَهم، وتلكَ سنَّةُ اللهِ التي شاهَدْناها في الأممِ الحاضرةِ، وشَهِدَ بها تاريخُ الأممِ الغابرةِ، ولكنَّ الجاهلينَ الغافلينَ لا يسمعونَ ولا يُبْصِرونَ، فأنَّى يُبْصِرونَ ويتَّعِظونَ؟

﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلوا﴾؛ أيْ: لا يحمِلَنَّكُم بغضُ قومٍ وعـداوتُهم لكُم أو بغضُكم وعداوتُكم لهُم على عدمِ العدلِ في أمرِهم بالشهادةِ لهُم أو الحكمِ لهُم، فلا عُذْرَ لمؤمنٍ في تركِ العدلِ وإيثارِه على الجَوْرِ والمحـاباةِ، فلا يتوهَّمَنَّ متوهِّمٌ أنَّهُ يجوزُ تركُ العدلِ في الشهادةِ للكافرِ، أو الحكمُ لهُ بحقِّه على المؤمنِ.

ولم يكتَفِ اللهُ تعالى بالتحذيرِ من عدمِ العدلِ مهما كان سببُه والنيَّةُ فيه، بل أكَّدَهُ تأكيداً بقولِه: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾؛ أيْ: قد فَرَضْتُ عليكُم العـدلَ فرضـاً لا هوادةَ فيهِ، فاعدِلوا هو أقربُ لتقوى اللهِ؛ أيْ: لاتِّقاءِ عذابِه وسَخَطِه باتقاءِ معصيتِه ـ وهي الجَوْرُ الذي هو مِن أكبرِ المعاصي؛ لما يتولَّدُ منه مِن المفاسدِ ـ.

﴿واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعْمَلونَ﴾؛ لا يخفى عليهِ تعالى شيءٌ مِن أعمـالِكُم ظاهِـرِها وباطِنها، ولا مِن نيَّاتِكم وحيَلِكُم فيها، وهو تعالى الحكمُ العدلُ القائمُ بالقسطِ، فاحذروا أنْ يجازِيَكُم بالعدلِ على تركِكُم العدلَ.

وقد مضتْ سنّةُ اللهِ العادلةُ في خلقهِ بأنَّ جزاءَ تركِ العدلِ وعدمِ إقامةِ القسطِ في الدُّنيا هو ذلُّ الأمةِ وهوانُها واعتداءُ غيرِها مِن الأممِ على استقلالِها، ولَجزاءُ الآخرةِ أذلُّ وأخْزى وأشدُّ وأبقى؛ كأهلِ بخارى وما وراءَ النهرِ والتركستانِ؛ لمَّا فشا فيهم الظلمُ ومعاصي اللهِ وارتكابُ المناهي؛ سلَّطَ اللهُ تعالى عليهم الروسَ، ثم البلاشفةَ، فساموهُم سوءَ العذابِ، وكذا أهلُ الأندلسِ والمغربِ.

وقد ثَبَتَ[1] في الحديثِ القدسيِّ: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: «إذا عَصَاني مَنْ يعرِفني سلَّطتُ عليه مَن لا يعرِفني»، ولكنَّ الناسَ لا يعتبرونَ، حتى إنَّ أكثرَ الذينَ هَجَروا منهُم بلادَهم وسكنوا في الحرمينِ منغمسونَ في رَدْغَةِ الضلالِ مِن الظلمِ والشركِ؛ بدعاءِ غيرِ اللهِ، والنفاقِ، والحسدِ، والكذبِ والفسوقِ، والعصيانِ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِليكُمْ أَيْدِ فَكَفَّ أَ يَهمْ عنكُمْ واتَّقُوا اللهَ وعَلى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ المؤمِنونَ**﴾[2].

روى غيرُ واحدٍ مِن أئمَّةِ التفسيرِ[3] أنَّ الآيةَ نزلتْ في رجلٍ همَّ بقتلِ النبيِّ ﷺ أرسلَهُ قومُه لذلك، وكانَ بيدِه السيفُ، وليسَ معَ النبيِّ ﷺ سلاحٌ، وكانَ

(1) بل لم يثبت؛ كما سبق (ص ٣٧).

(2) المائدة: ١١.

(3) انظر ـ مثلاً ـ «الدر المنثور» (٣ / ٣٥).

منفـرداً؛ كمـا روى الحاكمُ وصحَّحه[1] مِن حديثِ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «أنَّ غَوْرث بنَ حارثٍ المُحاربيَّ قامَ على رأسِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقالَ: مَن يمنَعُكَ؟ قال: اللهُ. فوقعَ السيفُ مِن يدِه، فأخذَهُ النبيُّ ﷺ، وقالَ: مَن يمنَعُكَ؟ قالَ: كنْ خيرَ آخذٍ. قالَ: تَشْهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وأنِّي رَسولُ اللهِ. قالَ: أعاهِدُكَ أنْ لا أقـاتِلَكَ ولا أكونَ معَ قومٍ يقاتِلونَك. فخلَّى سبيله، فجاءَ إلى قومِه وقالَ: جئتُكُم مِن عندِ خيرِ الناسِ».

وفي روايةٍ[2]: نزلتْ في قصةِ النبيِّ ﷺ معَ بني النَّضيرِ، إذ ذهبَ إليهِم ومعهُ أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وطلحةُ والزبيرُ وعبدُالرحمٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُم، وكـانَ النبيُّ ﷺ عاهدَ بني النضيرِ على أنْ لا يحارِبوهُ وأنْ يعينوهُ على الدِّيَّاتِ، فلما طلبَ منهُم ذٰلك وهو بينَهُم؛ أظْهَرُوا لهُ القَبولَ، وقالوا: اقعُدْ حتى نجمعَ لكَ ونطعِمَكَ، فلما جلسَ بجانبِ جدارِ دارٍ لهُم؛ وجدوا أنَّ الفرصةَ قد سنَحَتْ لهُم للغـدرِ بهِ، فأرادوا أنْ يطرحـوا عليهِ حجارةً ويقتلوهُ، وإنَّما اعتلُّوا بصنعِ الطعامِ؛ ليكونَ لهُم فيهِ وقتٌ ينقلونَ فيهِ الصخرةَ إلى سطحِ الدارِ، ولا شكَّ أنَّهُم كانـوا يريدونَ قتـلَ مَن معهُ أيضاً، فأعلمَ جبريلُ النبيَّ ﷺ بذٰلك،

---

(1) أخـرجه: أحمد (٣ / ٣٩٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٢٣)، والحاكم (٣ / ٢٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣ / ٣٧٣)، وابن سعد (٢ / ٦١ - ٦٢)؛ من طرق يقوِّي بعضها بعضاً.

وأصل الحديث في: «صحيح البخاري» (٢٩١٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٣٤)؛ عن جابر.

وله شاهدٌ أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٣ / ٢٨٨) من مرسَل الحسن.

(2) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦ / ١٤٤) عن يزيد بن أبي زياد.

وإسناده ضعيف معضَل.

فانطلقَ وتركَهُم.

فنزلتِ الآيةُ في ذلك مذكِّرةً بهذه القصةِ وبقصةِ المحاربي وأمثالِهما مِن وقائعِ الاعتداءِ التي كانتْ كثيرةً حتى بعدَ قوَّةِ الإسلامِ بكثيرٍ مِن المسلمينَ، فهو سبحانَه يذكِّرُ المؤمنينَ بذلك كلِّه، والمِنَّةُ له جلَّ جلالُه في ذلك، ليستْ قاصرةً على مَن وقعتْ لهُم تلكَ الوقائعُ مِن النبيِّ ﷺ والمؤمنينَ، بل هي منَّةٌ عامةٌ، يجبُ أنْ يشكُرَها لهُ عزَّ وجلَّ كلُّ مؤمنٍ إلى يومِ القيامةِ؛ كما وقعَ للعبدِ الضعيفِ راقمِ هذه الكلماتِ في بلادِ فرغانةَ حينما حبستْني البلاشفةُ الدَّهريَّةُ، وحكمتْ عليَّ بالإعدامِ رمياً بالرصاصِ[1]، فنَجَّاني اللهُ مِن كيدِهم وحبْسِهم، وأوصَلَني إلى حرمِه وجوارِ بيتِه الحرامِ، واستعمَلَني لتعليمِ عبادِهِ معالمَ دينِهم، وكانَ ذلك عام ١٣٤٦هـ؛ كما بيَّنْتُ[2] الواقعةَ في كتابي المطبوعِ بمصرَ بمطبعةِ عيسى الحلبي المنشورِ في أنحاءِ الدُّنيا «حكمِ اللهِ الواحدِ الصمد في حكمِ الطالبِ من الميتِ المدد»، والآنَ عام ١٣٦٦هـ أنا حيٌّ في بلدِ اللهِ الأمينِ، معلِّمٌ للناسِ معالمَ الدينِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[3]، ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عبدَهُ﴾[4].

واعلمْ أنَّ مِن فوائدِ هذا التذكيرِ للمتأخرينَ ترغيبَهُم في التأسِّي بسلفِهم

(١) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ العَزيزِ الحَميدِ﴾ [البروج: ٨].

(٢) ونقلتُها عنه في مقدِّمتي لكتابه «مفتاح الجنة» (ص ٤ ـ ٥) بزيادة إيضاح عمَّا هنا، فليُنْظَر.

(٣) الطلاق: ٢ ـ ٣.

(٤) الزمر: ٣٦.

الصالحِ في القيامِ بما جاءَ بهِ الدينُ مِن الحقِّ والعدلِ والبرِّ والإحسانِ، واحتمالِ الجهدِ والمشاقِّ، والصبرِ على ذلك في سبيلِ اللهِ، وهذا هو المعنى العامُّ للجهادِ في سبيلِ اللهِ.

والعبدُ المؤمنُ إذا يئسَ مِن نفسِه؛ بتقطُّعِ الأسبابِ، وتغليقِ الأبوابِ، وتغلُّبِ الأعداءِ، وتقلُّبِ الأولياءِ، يتذكَّرُ أنَّ اللهَ تعالى وليُّهُ ووكيلُه، وأنَّهُ هو الذي بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، وأنَّهُ هو الذي يجيرُ ولا يُجار عليهِ، فيَقْوى إيمانُه، وتتجدَّدُ قوَّتُه، فينصرُه اللهُ تعالى بما يستفيدُ مِن الإيمانِ والذِّكرى والتوكُّلِ، فحسبنا اللهُ، ونعمَ الوكيلُ إذا توكَّلنا عليهِ حقَّ التوكلِ، فيا ربَّنا وفِّقْنا لفهمِ معاني كتابِك، والعملِ بمقتضاهُ بفضلِك ومنِّكَ آمين.

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إليهِ الوَسيلَةَ وجَاهِدُوا فِي سَبيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾**[1].

قَدْ نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَه المؤمنينَ عامةً، وأمرَهم بأنْ يتَّقوهُ ويبتغوا إليهِ وحدَه الوسيلةَ بالعملِ الصالحِ، ولا يكونوا كأهْلِ الكتابِ مغرورينَ بآبائِهم وساداتِهم.

اتِّقاءُ اللهِ: هو اتِّقاءُ سخطِهِ وعقابِه ومخالفةِ سننِه ودينِه وشرعِهِ. والوسيلةُ إليهِ: هي ما يُتَوَسَّلُ بهِ إليهِ؛ أيْ: ما يُرجى أنْ يتوَصَّلَ بهِ إلى مرضاتِه والقربِ منهُ تعالى واستحقاقِ المثوبةِ في دارِ كرامتِه، ولا يُعرَفُ ذلك على الوجهِ الصحيحِ

---

(١) المائدة: ٣٥

إلَّا بتعريفِه تعالى، وقد تفضَّلَ علينا بهٰذا التعريفِ بوحيِه إلى رسولِه محمدٍ ﷺ.

وحقيقةُ الوسيلةِ إلى اللهِ: مراعاةُ سبيلِه بالعلمِ والعبادةِ، وتحرِّي مكارمِ الأخلاقِ والشريعةِ، فهي كالقربةِ.

وقال حذيفةُ وعطاءٌ ومجاهدٌ والحسنُ رضيَ اللهُ عنهُم: «تقرَّبوا إليهِ بطاعتِه والعملِ بما يُرضيه»(١).

ومِن جملةِ الوسيلةِ إليهِ تعالى الجهادُ في سبيلِه ﴿وجَاهِدُوا في سَبيلِهِ﴾؛ أيْ: جاهِدوا أنْفُسَكُم بكفِّها عنِ الأهواءِ، وحمْلِها على التزامِ الحقِّ في جميعِ الأحوالِ، وجاهِدوا أعداءَ الإسلامِ الذينَ يقاوِمونَ دعوتَه وهدايتَه للناسِ.

والجهادُ مِنَ الجهدِ، وهو المشقَّةُ والتعبُ، وسبيلُ اللهِ هي طريقُ الحقِّ والخيرِ والفضيلةِ، فكلُّ جهدٍ يحملُه الإنسانُ في الدفاعِ عنِ الحقِّ والخيرِ والفضيلةِ، أو في تقريرِها وحملِ الناسِ عليها؛ فهو جهادٌ في سبيلِ اللهِ.

﴿لعلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾؛ أيْ: اتَّقوا اللهَ لعلَّكُم تفوزونَ، وابتَغوا ما يَجبُ فعلُه على رجاءِ الفوزِ والفلاحِ، واحتمِلوا الجُهْدَ والمشقَّةَ في سبيلِه رجاءً للفوزِ والفلاحِ والسعادةِ في المعاشِ والمعادِ.

هٰذا هو التفسيرُ المأثورُ عنِ السَّلفِ الصالحينَ، ولم يؤثَرْ عن صحابيٍّ ولا تابعيٍّ ولا أحدٍ مِن علماءِ السَّلفِ أو عامَّتِهم أنَّ الوسيلةَ إلى اللهِ تَعالى تُبْتَغى بغيرِ ما شرعَه اللهُ للناسِ؛ مِنَ الإيمانِ، والعملِ بموجَبِه.

ولكنْ قد حَدَثَ في القرونِ الوسطى التوسُّلُ بأشخاصِ الأنبياءِ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٣ / ٧١).

والأولياءِ[1]، وتسمِيَتِهم وسائلَ إلى اللهِ تعالى، والإقسامُ على اللهِ بهِم، وطلبُ قضاءِ الحاجاتِ، ودفعُ الضرِّ، وجلبُ النفعِ منهم عندَ قبورِهم أو في حالِ البعدِ عنها، وشاعَ هٰذا وكثُرَ، حتى صارَ كثيرٌ من الناسِ يدعونَ أصحابَ القبورِ في حاجاتِهم معَ اللهِ تعالى، أو يدعونَهم مِن دونِ اللهِ تعالى، والدعاءُ هو العبادةُ؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «الدُّعاءُ هُو العِبادَةُ»[2]، وفي رواية: «الدُّعاءُ مُخُّ العبادةِ»[3]، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾[4]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمثالُكُم﴾[5]، ولكنَّ بعضَ المصنِّفينَ يزعُمُ أنَّهم يُدْعَون، والعوامُّ يأخذونَ بمثلِ هٰذا القولِ المخالفِ لقولِ اللهِ تعالى وقولِ رسولِه ﷺ لعمومِ الجهلِ.

والعبدَ الضعيفَ قد حقَّقْتُ هٰذه المسألةَ حقَّ التحقيقِ في مؤلَّفاتي المطبوعةِ المنشورةِ؛ كـ «حكمِ اللهِ الواحدِ الصمد في حكمِ الطالبِ مِن

---

(١) يُنظر بيان ذٰلك وتفصيله في كتاب «القول الجليّ في حكم التوسل بالنبيِّ والولي» للشيخ محمد عبدالسلام الشقيري، بتحقيقي، نشر المكتبة الإسلامية، عمان.

(٢) رواه: أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والنسائي في «الكبرى» - كما في «تحفة الأشراف» (٩ / ٣٠) -، وأحمد (٤ / ٢٦٧ و٢٧١ و٢٧٦)؛ عن النعمان بن بشير.

وسنده صحيح، صححه ابن حجر في «الفتح» (١ / ٤٩) وغيرُه.

ونسبه العجلوني في «كشف الخفاء» (١٢٩٥) لمسلمٍ!! وتابعه على هٰذه النسبة الأخ الدكتور محمد الصباغ في تعليقِه على «أحاديث القصاص» (رقم ٤٤)، فوهما!!

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧١) عن أنس، وفي سنده ابن لهيعة والوليد بن مسلم؛ ضعيفان! ومع ذٰلك سكت عنه الحافظ في «الفتح» (١١ / ٩٤)!!

(٤) الجنّ: ١٨.

(٥) الأعراف: ١٩٤.

الميتِ المـددِ»، و«أوضحِ البرهان في تفسيرِ أمِّ القرآن» المطبوعِ في مكةَ، و«مفتـاحِ الجنَّـةِ لا إلـهَ إلا اللهُ»، و«البـرهانِ الساطِع في تبرُّؤ المتبوعِ مِن التَّابِع»، و«العقودِ الدُّرِّيَّة السُّلطانيَّة فيما يُنْسَبُ إلى الأيَّامِ النَّيْروزيَّة» المطبوعِ في مصرَ، و«تحفةِ الأبرار في فضائلِ سيِّدِ الاستغفار» المطبوعِ في الصينِ، وغيرِهـا، ولشيخِ الإسـلامِ أحمـدَ بنِ تيميةَ رسالةُ «قاعدةٍ جليلةٍ في التوسُّلِ والوسيلةِ»[1]، فعلى كلِّ مؤمنٍ طالبٍ للحقِّ بمطالعةِ تلكَ الكتبِ، ولا يكنْ كأكثرِ البخاريِّينَ والهنديِّينَ والأتراكِ والإفريقيِّينَ عُبّاداً لأهلِ القبورِ والأرواحِ ؛ فإنَّهم بهٰذا الاعتقادِ مشركون، ولا ينفعُهم عندَ اللهِ دعوى الإسلامِ، أو المجاورةُ في الحرمينِ ؛ إلاَّ إذا تابوا وأصلحوا وبيَّنُوا، فاللهُ تعالى قابلُ التوبِ وغافرُ الذنبِ، وأمَّا إذا لم يتوبوا، بل أصرُّوا على ما هُم عليهِ مِن الاعتقادِ الشركيِّ ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ شديدُ العقابِ، ذو الطَّوْلِ والقدرةِ والقوةِ، لا إلهَ إلاَّ هُو، ولا معبودَ بحقٍّ سواهُ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهودَ والنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَولِياءُ بَعْضٍ ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإنَّهُ مِنْهُم إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمينَ﴾**[2].

نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ وخاطبَهم ـ ناهياً إيَّاهُم ـ أن لا يتَّخِذوا اليهودَ

---

(١) وهو مطبوعٌ مراراً، أجودُها النسخة التي قام عليها تحقيقاً وتخريجاً أخونا الفاضل الشيخ ربيع بن هادي المدخلي، وفقه الباري.

(٢) المائدة: ٥١.

والنَّصارى أولياءَ لأنفسِهم يناصِرونَهم، وإنْ كانَ سببُ النزولِ خاصّاً[1]، ولكنَّ العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ، فلا يجوزُ لمسلمٍ موالاةُ الكفارِ موالاةَ النصرِ والمظاهرةِ؛ لأنَّ موالاتَهُم علامةٌ على مرضِ القلبِ والرغبةِ إليهم[2]، ولهٰذا نهى اللهُ تعالى عن موالاةِ الكفارِ والمشركينَ عامَّةً، فقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ الآية[3].

قالَ ابنُ جَريرٍ[4] رحمَهُ اللهُ تعالى: «إنَّ اللهَ تعالى قد نَهى المؤمنينَ جميعا أنْ يتَّخِذوا اليهودَ والنَّصارى أنْصاراً وحلفاءَ على أهلِ الإيمانِ باللهِ ورسولِه، وأخبرَ أنَّهُ مَنِ اتَّخَذَهُم نَصيراً وحَليفاً ووَلِيّاً مِن دونِ اللهِ ورسولِه؛ فإنَّهُ منهُم، وأنَّ اللهَ ورسولَه متهُ بريئانِ».

قالَ البَيْضاويُّ[5]: «أي: فلا تَعْتَمِدوا عليهم، ولا تُعاشِروهُم معاشرةَ الأحْبابِ، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ولا شكَّ أنَّهم متَّفقونَ على خلافِكم؛ يوالي بعضُهم بعضاً؛ لاتِّحادِهم في الدِّينِ، فمَن والاهُم منكُم؛ فإنَّهُ مِن جُملَتِهم، وهٰذا التشديدُ في وجوبِ مجانبتِهم؛ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (لا تَتَراءى ناراهُما)[6]».

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٣ / ٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢ / ١٠٩).

(٢) فتأمَّلوا رعاكم الله! وانظر ما سبق (ص ١٢٣).

(٣) الممتحنة: ١.

(٤) في «جامع البيان» (٦ / ٢٧٦).

(٥) في «أنوار التنزيل» (ص ٧٢٩).

(٦) والرواية بتمامها: «أنا بريءٌ من كل مسلم يُقيم بين أظهر المشركين، لا تراءى ناراهما». =

ولكنَّ المنـافقينَ في كلِّ زمـانٍ ومكانٍ يوالونَ الأعداءَ؛ ليتَّخِذوا عندَهُم الأيادي إذا دالتِ الـدولةُ لهُم، وهٰذا هو الذي خرَّبَ الدولةَ التركيةَ الإسلاميةَ وأبـادَهـا؛ فإنَّ كثيراً مِن وزرائهـا منـذُ قرنٍ أو قرنينِ في سياستِه ما بينَ روسيٍّ وإنكليزيٍّ وألمـانيٍّ وأمريكانيٍّ، حتى تغلغلَ نفوذُ هٰذه الدولِ في أحشاءِ هٰذه الدولةِ، فأضعفَ استقلالَها في بلادِها، ويُخْشى أكبرُ منهُ، ألا وهو قيامُ قيامَتِها ومحوُها واضمِحلالُها، وقد وقعتْ.

وأمَّا الذينَ استَعْمَرَتِ الأجانبُ بلادَهم بأيِّ صورةٍ من صورِ الاستعمارِ؛ فأمرُ منـافقيهِم أظهـرُ، يتقـرَّبونَ إلى الأجانبِ بما يضرُّ أُمَّتَهم، حتى فيما لم يكلِّفوهُم إيَّاهُ.

فيا أيُّها المسلمونَ! أما تعتَبِرونَ بآياتِ ربِّ العالَمينَ وما جرى عليكُم مِن الأمـورِ، فترجِعوا إلى الإنْصاف، والتحلِّي بأحسنِ الأوْصاف، فتكونوا مؤمنينَ صادِقينَ، ولسعادةِ الدَّارَينِ نائِلينَ.

* * * * *

الآيةُ الخامسةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُم عَنْ دِينِهِ فَسَوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ

= رواه: أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)؛ عن جرير بن عبدالله.
وسنده صحيح.
ورواه النسائي (٨ / ٣٦) مرسلاً!
وقد أُعِلَّ به (!)، وليس بشيء، فانظر تحقيق شيخنا في «الإرواء» (١٢٠٧) في ردِّه.

مَنْ يشاءُ واللهُ واسِعٌ عَليمٌ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ منبِّهاً إيَّاهُم بأنَّ منهُم من يرتدُّ عن الـدينِ ـ والعياذُ باللهِ تعالى ـ كالمُنافقينَ المرضى القلوبِ، وارتدادُهم لا يضرُّ الإسلامَ وأهلَه، وإنَّما يقيمُ اللهُ الدينَ ويؤيِّدُه بالمؤمنينَ الصادقينَ، فمَن يرتدَّ منكُم عنْ دينِه؛ فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونَه، فيُؤْثِرونَ ما يحبُّه اللهُ مِن إقامةِ الحقِّ والعدلِ.

وهٰـذا إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى بالغيبِ؛ فإنَّهُ بعد وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ ارتدَّ بعضُ العربِ عنِ الإسلامِ، وقالَ المرتدُّونَ: نُصلِّي ولا نُزَكِّي، فكلَّمَهُم أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فلم يقبَلوا نُصحَه، فقاتَلَهُم أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[2]، فالقومُ الذينَ يحبُّهُم اللهُ ويحبُّونَه هم أبو بكرٍ وأصحابُه رضيَ اللهُ تعالى عنهُم.

وقد وصفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ الصادقينَ بستِّ صفاتٍ:

الأولى: أنَّـهُ تعالى يحبُّهم؛ قالَ اللهُ تعالى: **﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُم ذُنوبَكُم﴾**[3]، فجعلَ اتباعَ الرسولِ ﷺ سبباً لمحبَّةِ اللهِ تعالى.

الثانيةُ: أنَّهُم يحبُّونَ اللهَ تعالى؛ كما في الآيةِ المذكورةِ وآياتٍ كثيرةٍ، وفي «الصحيحين» عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ مرفوعاً: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وجَدَ

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) والحـديث في ذلـك مرويٌّ في: «صحيح البخـاري» (١٣٩٩ و١٤٠٠)، و«صحيح مسـلم» (رقم ٢٠)؛ عن أبي هريرة.

(٣) آل عمران: ٣١.

حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليهِ مِمَّا سواهُما. . .» الحديث[1]، والحبُّ يستلزمُ الطاعةَ ويقتضيها بسنةِ الفطرةِ كما قيلَ:

تَعْصِي الإلٰـهَ وأنْتَ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هٰذا لَعَـمْـرِي في الـقِياسِ بَديعُ
لَوْ كَانَ حُبُّـكَ صَادِقـاً لأطَـعْتَـهُ ... إنَّ الـمُـحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطيعُ

الصفةُ الثالثةُ والرابعةُ: الذِّلَّةُ على المُؤْمنينَ والعِزَّةُ على الكافرينَ؛ كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]؛ يعني: أنهم عاطفونَ عليهم على وجه التذلُّل والتواضعِ، وأنهم مع شرفِهم وفضلِهم على المؤمنينَ خافضونَ لهُم أجنحَتَهُم.

الصفةُ الخامسةُ: الجهادُ في سبيلِ اللهِ، وهٰذا مِن أخصِّ صفاتِ المُؤْمنينَ الصَّادقينَ، وأعظمُ الجهادِ بذلُ النفسِ والمالِ في قتالِ أعداءِ الحقِّ، وضِعافُ الإيمانِ قد يجاهِدونَ، ولٰكنْ في سبيلِ منفعتِهم دونَ سبيلِ اللهِ.

الصفةُ السادسةُ: كونُهم لا يخافونَ لومةَ لائمٍ؛ بخلافِ المنافقينَ؛ فإنهم يخافونَ لومةَ لائمٍ؛ أيْ أنَّهُم لتمكُّنِهم في الدِّينِ، ورسوخِهِم في الإيمانِ، لا يخافونَ لومةً ما مِن أفرادِ اللومِ، كانَ اللائمُ كائناً مَن كانَ؛ لأنَّهُم لا يعملونَ العملَ رغبةً في جزاءٍ أو ثناءٍ مِن الناسِ، ولا خَوفاً مِن مَكْروهٍ يصيبُهُم منهُم، فيخافونَ لومةَ هٰذا أو ذاك، وإنَّما يعملونَ العملَ لإحقاقِ الحقِّ، وإبطالِ الباطلِ، وتقريرِ المعروفِ، وإزالةِ المنكرِ؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ تعالى بتزكيةِ أنفسِهم وترقيتِها.

---

(١) رواه: البخاري (١ / ٥٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) الفتح: ٢٩.

﴿ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يَشاءُ﴾؛ أيْ: الصفاتُ الستُّ فضلُ اللهِ يعطيهِ مَن يشاءُ مِن عبادِه، ﴿واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾، فلا ينبغي للمؤمنِ أنْ يغفَلَ عن فضلِ اللهِ الكريمِ عزَّ وجلَّ.

* * * * *

الآيةُ السادسةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الَّذينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً ولَعِباً مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ والكُفَّارَ أَوْلِياءَ واتَّقُوا اللهَ إنْ كنْتُمْ مُؤْمنينَ**﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهِياً إيَّاهُم عنِ اتِّخاذِ أعداءِ الدِّينِ أولياءَ وأحباءَ؛ لأنَّهم يتَّخذونَ دينَكُم الإسلامَ هُزُواً ولَعِباً؛ أيْ: شيئاً يُمْزَحُ بِهِ ويُسخَرُ منهُ ويُعْبَثُ بِه، فلا توالوا أهلَ الشركِ والكفرِ والإلحادِ، ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾؛ أي: اتَّقوا اللهَ في أمرِ الموالاةِ، فلا تَضعوها في غيرِ موضعِها ﴿إنْ كنْتُم مؤمنينَ﴾ صادقينَ في إيمانِكم، تحفظونَ كرامَتَه، وتتجنَّبونَ مهانتَه؛ لأنَّ هٰؤلاءِ الأعداءَ إذا ناديتُم إلى الصلاةِ، ودعوتُم إلى التوحيدِ؛ اتَّخذوها هُزواً ولَعباً.

والحاصلُ أنَّ الاستهزاءَ والسخريةَ بالعباداتِ الإسلاميةِ مِن شأنِ الكفارِ والمُشْركينَ أعداءِ الدينِ، فلهٰذا قد صرَّحَ العلماءُ في عامةِ كتبِ الفقهِ والعقائدِ أنَّ من اسْتَهْزأَ أو تَمَسْخَرَ بالعباداتِ الإسلاميةِ؛ فقد كفرَ[2]؛ كما يفعلُ أكثرُ جهلةِ البُخاريِّينَ في حفلاتِهم وولائمِهم، والمولويونَ والرفاعيُّونَ في حلقاتِ أذكارِهم

---

(١) المائدة: ١٥٧.

(٢) يُنظر أبواب الردَّة من سائر كتب الفقه، وانظر أيضاً: «تفسير القرطبي» (٨ / ١٩٦ - ١٩٨) في تفسير آية ﴿قُلْ أَباللهِ وآياتِهِ ورُسُلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئونَ. . . ﴾.

وعبادتِهم؛ مِن الغناءِ والرقصِ والدورانِ والتخنُّثِ[1]، فهُم قد سلكوا مسلكَ اليهودِ والنَّصارى والمجوسِ والوثنيِّينَ وهُم لا يشعُرونَ.

فيا أيُّها المسلمونَ! أفيقوا من سكرتِكم، وارْجِعوا إلى دينِكم الذي جاءَ بهِ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ، واتَّقوا غضبَ اللهِ وعقابَه.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ . وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً واتَّقوا اللهَ الَّذي أَنْتُمْ بهِ مُؤمِنونَ**﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن تحريمِ ما أحلَّ لهُم مِن المأكولاتِ والمشروباتِ والمنكوحاتِ، كما كانَ يفعَلُ أهلُ الجاهليةِ وبعضُ الجهلةِ مِن هٰذه الأمةِ ومِنَ النصارى والوثنيِّينَ؛ لأنَّ بعضَ المتقشِّفينَ منهُم كانوا يظنُّونَ أنَّ بتحريمِ التمتُّعِ بالطيِّباتِ طبعاً مِن اللحومِ والأدهانِ والنساءِ يحصلُ الكمالُ والقربُ الإلٰهيُّ؛ كامتناعِ الرهبانِ من التزوُّجِ، أو أنواعِ الصيامِ المبتدَعِ، فأزالَ اللهُ تعالى هٰذا الظنَّ بقولِه: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّموا طيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكُم﴾؛ أي: لا تحرِّموا على أنفسِكم ما أحلَّ اللهُ لكُم من الطيِّباتِ المستلذَّةِ، بأن تتعمَّدوا تركَ التمتُّعِ بها تنسُّكاً وتقرُّباً إليهِ تعالى، ﴿وَلا تَعْتَدوا﴾ فيها بتجاوزِ حدِّ الاعتدالِ إلى الإسرافِ الضارِّ بالجسدِ؛

(١) ولأحد علماء الأحناف المتأخرين كتابٌ لطيف سماه «الوَقْص لمُسْتَحِلِّي الرقص» مطبوع قديماً.

(٢) المائدة: ٨٧ ـ ٨٨.

كالزيادةِ على الشِّبعِ والرِّيِّ، أو كجعلِ التمتُّعِ بلذَّتِها أكبرَ همِّكم، وعلى هٰذا المعنى قولُه تعالى: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفوا﴾[1]، ولا تعتدوا الطيباتِ المحلَّلةَ بتجاوزِها إلى الخبائثِ المحرمةِ، فالاعتداءُ يشملُ الأمرينِ: اعتداءُ الطيباتِ نفسِها إلى الخبائثِ، والاعتداءُ فيها بالإسرافِ؛ لأنَّ حذفَ المفعولِ يفيدُ العمومَ.

﴿إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتـدينَ﴾ الذينَ يتجاوزونَ حدودَ شريعتِه، وسُنَنَ فطرتِه، ولو بقصدِ عبادتِه.

وتحريمُ الطيباتِ المحلَّلةِ قد يكونُ بالفعلِ مِن غيرِ التزامٍ بيمينٍ ولا نذرٍ، وقد يكونُ بالتزامٍ، وكلاهُما غيرُ جائزٍ، ولا يحرُمُ على أحدٍ شيءٌ يحرِّمُه على نفسِه بهٰذه الأقوالِ.

وأمـا تركُ الطيباتِ كالمحرماتِ تنسُّكاً وتعبُّداً للهِ تعالى بتعذيبِ النفسِ وحرمانِها فقد فُتِنَ بهِ كثيرٌ مِن العُبَّادِ والمتصوِّفةِ، فكانَ مِن بدعِهِم التَّرْكيَّةِ[2] التي تُضـاهي بدعَهُم العمليةَ، وقـد اتَّبعوا فيها سَنَنَ مَن قبلَهُم شبراً بشبرٍ، وهٰؤلاء أخذوها عن بعضِ الوثنيِّينَ؛ كالبراهمةِ الذينَ يحرِّمونَ جميعَ اللحومِ، ويزعمونَ أنَّ النفسَ لا تزكو ولا تَكمُلُ إلا بحرمانِ الجسدِ مِن اللذَّاتِ.

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) وقاعدة البدع التَّركيَّة مهمة جدّاً، يجب التنبُّه إليها، فما تركه رسولُ اللهِ ﷺ لا يجوز القيام به وعملُه تعبُّداً، وكذا ما عمله رسول اللهِ ﷺ وقام به لا يجوز تركُه تعبُّداً وتقرُّباً.

وللغُمـاري المبتـدع رسالةٌ سمَّاها «. . . الدَّرْك. . .» تخبَّط فيها وهبط إلى أسفلِ دركٍ!! وفي كتابي «علم أصول البدع» تقرير هٰذه القاعدة، والرد الإجمالي على رسالته، ولله الحمد.

وفي «الصحيحين»[1] عن عائشةَ رضيَ اللهُ تعالى عنها: أنَّ ناساً مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ سألوا أزواجَ النبيِّ ﷺ عن عملِه وعبادتِه في السرِّ، فقال بعضُهم: إنِّي لا آكُلُ اللحمَ وأصومُ دائماً، وقالَ بعضُهم: لا أتزوَّجُ النساءَ، وقالَ بعضُهم: أقومُ الليلَ ولا أنامُ على فراشٍ، فبلغَ ذٰلكَ النبيَّ ﷺ، فقالَ: ما بَالُ أقوامٍ يَقولُ أحَدُهُم كذا وكذا؟! ولٰكنِّي أصومُ وأُفْطِرُ، وأنامُ وأقومُ، وآكُلُ اللحمَ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغِبَ عنْ سُنَّتي؛ فليْسَ منِّي».

وقد وردَ في البابِ أحاديثُ كثيرةٌ كلُّها تدلُّ على سماحةِ دينِ الإسلامِ[2]، وأنَّ الغلوَّ والتشديدَ ليس منهُ البتَّةَ، بل مِن دينِ المجوسِ والوثنيِّينَ.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً﴾: هٰذا تصريحٌ بالأمرِ بضدِّ مقتضى النهيِ قبلَه. ﴿واتَّقُوا اللهَ الَّذي أَنْتُم بِهِ مؤمنونَ﴾: في الأكلِ وغيرِه، ولا تَفْتَروا عليهِ تعالى في تحليلٍ ولا تحريمٍ، ولا تعتدوا حدودَه فيما أُحلَّ وفيما حرَّمَ؛ فإنَّ اتِّقاءَ سخطِهِ في ذٰلك مِن لوازمِ إيمانِكُم بهِ، ومِن اعتداءِ حدودِه في الأكلِ والشربِ الإسرافُ فيهِما، فمَن جعلَ شهوةَ بطنِه أكبرَ همِّه؛ فهو مِن المعتدينَ المسرفينَ، ومَن بالغَ في الشِّبعِ؛ فهو من المعتدينَ المسرفينَ، ومَن أنفَقَ في ذٰلك أكثرَ مِن طاقتِه، وعرَّضَ نفسَه لذُلِّ الدَّينِ، أو أكلَ أموالَ الناسِ بالباطلِ؛ فهو من المعتدينَ المسرفينَ، وما كانَ المعتدي المسرفُ مِن المتَّقينَ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! أنتُم المخاطَبونَ المكلَّفونَ بهٰذه الخطاباتِ والأوامرِ والنَّواهي، فاعرِفوها وافهَموها واعْمَلوا بها؛ تكونوا متَّقينَ، وأمَّا إذا جهِلْتُم وخالَفْتُم

---

(١) رواه: البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)؛ عن أنس.

(٢) ولأخينا سليم الهلالي رسالة في «سماحة الإسلام» طُبعت قريباً.

فتجاوزتُم واعتـدَيْتُم؛ فأنتُم المعتدونَ، وأنتُم الظالمون، فبهِ تُهْلِكونَ أنفُسكُم وأُمَّتَكُم في هٰذه الحياةِ الدُّنيا، ولَعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى، فيا خسارةَ مَن يجهلُ أمرَ ربِّهِ فيكونَ مِن المحرومينَ الخاسرينَ الهالِكينَ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ . إنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ فهَلْ أنْتُم مُنْتَهونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ منبِّهاً إيَّاهُم؛ بأنَّ الخمرَ والقمارَ والأنصابَ والأزلامَ كلَّها رجسٌ وخبيثٌ مِن عملِ الشيطانِ لإضلالِ بَني الإنسانِ.

والخمرُ كلُّ شرابٍ مسكرٍ في أيِّ شيءٍ كانَ.

والميسرُ القمارُ والمقامرةُ، سواءٌ كانَ بالأزلامِ والأقلامِ والسِّهامِ، فكلُّ قمارٍ ميسرٌ محرَّمٌ بالنَّصِّ، وحتى لَعِبُ الصبيانِ بالجَوْزِ والبيضِ والكعابِ[2]، وكانَ أهلُ الجاهليةِ يتقامرونَ في جاهليَّتِهم حتى جاءَهُم الإسلامُ، فنهاهُم اللهُ تعالى عن هٰذه الأخلاقِ الذَّميمةِ.

وأمَّا الأنصابُ؛ فهي حجارةٌ كانَ أهلُ الجاهليةِ يذبحونَ قرابينَهُم عندَها،

---

(١) المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) هي لعبٌ صبيانية، وانظر تعليقي على «تشبُّه الخسيس بأهل الخميس» (ص ٤٨) للإمام الذهبيّ.

ويعظِّمونَ تلكَ الحجارةَ، فيعبُدونَها، ويتقرَّبونَ إليها، فيدخُلُ فيها المشاهِدُ والقبورُ المبنيَّةُ على القببُ، والأشجارُ التي يعظِّمونَها، ويعلِّقونَ عليها الخِرَقَ.

وأمَّا الأزلامُ فهي قِداحٌ وقِطَعٌ مِن الخشبِ كانوا يستقسمونَ في الجاهليةِ لأجلِ التفاؤلِ أو التشاؤمِ.

وأمَّا الرجسُ فهو المستقذرُ حسّاً أو معنىً؛ كلحمِ الخنزيرِ، أو الدَّمِ المسفوحِ[1]، أو الميتةِ، وكذا الكفرُ والشركُ رجسٌ معنويٌّ، وهو محمولٌ على جميعِ ما ذُكِرَ مِن الخمرِ والميسرِ والأنصابِ والأزلامِ؛ كما قالَ جلَّ جلالُه: ﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوْثانِ﴾[2]، وكانتِ الأنصابُ والأزلامُ مِن لوازمِ الأوثانِ، والشيطانُ يزيِّنُ لأعدائِه بني آدمَ ابتداعَها وإيجادَها، ثم يوسوِسُ لهم بأَنْ يعكُفُوا عليها، ويزيِّنُها لهُم لما فيها مِن شدَّةِ الضررِ بهِم.

﴿فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾، وإذا كانَ الأمرُ كذلك؛ فاجتنبوا هٰذا الرجسَ كلَّه، وابعدوا عنهُ؛ رجاءَ أَنْ تُفْلِحوا وتفوزوا بما فُرِضَ عليكُم مِن تزكيةِ أنفسِكم وتحليتِها بذكرِ ربِّكُم، ومراعاةِ سلامةِ أبدانِكُم، والتوادِّ والتآخي بينَكُم.

وأما تعاطي ما ذُكِرَ مِن الأشياءِ؛ فإنه يصدُّ عن ذلك، ويحولُ دونَه؛ كما بيَّنَه اللهُ تعالى بقوله: ﴿إنَّما يُريدُ الشَّيطانُ أنْ يوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ﴾، والخطابُ هنا للمؤمنينَ الذينَ طهَّرهم التوحيدُ مِن خرافاتِ الشركِ كلِّها.

---

(١) وفي ذلك تفصيل فقهيٌّ، يُنظر له «السلسلة الصحيحة» (١ / ٥٤٤) لشيخنا الألباني.

(٢) الحج: ٣٠.

وإحداثُ السُّكرِ العداوةَ والبغضاءَ معروفٌ ومشهودٌ؛ لأنَّ السُّكرَ يُفْقِدُ العقلَ، فينشأُ عنهُ القتلُ، والضربُ، والعدوانُ، والسلبُ، والفسقُ، والفحشُ، وإفشاءُ السرِّ، وهتكُ الأسرارِ، وخيانةُ الحكوماتِ والأوطانِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وأما الميسرُ؛ فهو مثارٌ للعدوانِ والبغضاءِ أيضاً، ولكنْ بينَ المتقامِرَيْنِ ومَن يتَّصلُ بهما.

ولمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى علَّتينِ لتحريمِ الخمرِ والميسرِ: إحداهُما اجتماعيةٌ، والأخرى دينيَّةٌ، والدينيةُ تصدُقُ على الألعابِ التي اشتدَّ ولوعُ كثيرٍ مِن الناسِ بها؛ كالشِّطرنج[1]، فالظاهرُ أَنْ تُعَدَّ بذلك محرمةً؛ كالميسرِ؛ لأنها تصدُّ عن ذكرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ، وإنْ كانَ اللعبُ بها على غيرِ مالٍ؛ كما شاهدنا كثيراً منهُم في الطائفِ في أيامِ الاصطيافِ؛ فإنَّهُم ينهمكونَ في اللعبِ حتى تفوتَهم الصلاةُ، أو يؤخرونَها عن أوقاتِها، وإنْ يُصلُّوا؛ فيصلُّونَ بالعجلةِ، بلا طُمأنينةٍ ولا تعديلِ أركانٍ ولا خشوعٍ؛ لئلا يفوتَه اللعبُ.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾: استفهامٌ يتضمن الأمرَ بالانتهاءِ، وهذا أبلغُ ما يُنهى بهِ، وقد أكَّدَ اللهُ تعالى تحريمَ الخمرِ والميسرِ مِن تسعةِ وجوهٍ:

أحدها: أنه تعالى جعلَ الخمرَ والميسرَ رجساً، وكلمةُ الرجسِ تدلُّ على مُنْتهى القبحِ والخبثِ، ولذلك أُطلِقَتْ على الأوثانِ.

الثاني: أنه تعالى صدَّر الجملةَ بـ ﴿إنَّما﴾ الدالَّةِ على الحصرِ للمبالغةِ في ذمِّها.

---

(١) وللإمام الآجري كتاب «تحريم النرد والشطرنج والملاهي» مطبوعٌ.

الثالث: أنه تعالى قرنَهما بالأنصابِ والأزلامِ، التي هي مِن أعمالِ الوثنيَّةِ وخرافاتِ الشركِ، وقد وردَ في الحديثِ: «مُدْمِنُ الخمرِ كعابدِ الوثنِ»، رواهُ ابنُ ماجه[1].

الرابعُ: أنَّهُ تعالى جعلهُما مِن عملِ الشيطانِ، لِما ينشأُ عنهُما مِن الشرورِ والطُّغيانِ.

الخامسُ: أنَّه تعالى جعلَ الأمرَ بتركِهما من مادةِ الاجتنابِ، وهو أبلغُ مِن التَّركِ.

السَّادسُ: أنَّه تعالى جعلَ اجتنابَهُما معدّاً للفلاحِ ومرجاةً لهُ، فارتكابُهما موجبٌ للخسرانِ والخيبةِ.

السَّابعُ: أنَّهُ تعالى أخبرَ أنهما صادَّانِ عن ذِكرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ.

الثَّامنُ: أنَّهُ تعالى جعلَهُما مثاراً للعدوانِ والعداوةِ والبغضاءِ، وهي مِن أشرِّ المفاسدِ.

التَّاسعُ: أنَّه تعالى أمرَ بالانتهاءِ عنهُما بصيغةِ الاستفهامِ المقرونِ بفاءِ

---

(١) برقم (٣٣٧٥).

ورواه: البخاري في «التاريخ الكبير» (١ / ١ / ٣٨٦)، وابن أبي شيبة (٨ / ٦)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١١١٧)، وابن عدي في «الكامل» (٦ / ٢٢٣٤)؛ من طريق محمد بن سليمان الأصبهاني عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١ / ٦٧٤): «إسناده جيد».

قلتُ: هو دون ذلك بقليل، فمحمَّد بن سليمان: «صدوق يخطىء»؛ كما قال ابن حجر نفسه، فهو ـ بالكاد ـ حسنٌ.

ولكنْ للحديث شواهد عدَّة، أوردها شيخُنا في «الصحيحة» (٦٧٧)، فلتنظر.

السببيَّةِ.

فيا أيها المؤمنونَ! هل تفهمونَ هٰذه الخطاباتِ الموجَّهةَ إليكُم، وتنتهونَ عمَّا أنتُم عليهِ مِن المنكَراتِ والجهالاتِ والخرافاتِ والترَّهاتِ؟

*****

الآيةُ التاسعةُ والثلاثونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيدِيكُمْ ورِماحُكُم لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يخافُهُ بالغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بعدَ ذٰلكَ فلهُ عَذابٌ أَليمٌ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ منبِّهاً إيَّاهُم أنَّهُ تعالى يختبرُهم في حالِ إحرامِهم للحجِّ والعمرةِ بإرسالِ شيءٍ كثيرٍ مِن الصَّيدِ يسهُلُ عليهِم أخذُهُ بأيديهِم وبرماحِهم.

﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يخافُهُ بالغَيْبِ﴾؛ أي: يبتليكُم بهِ وأنتُم محرِمونَ؛ ليعلمَ مَن يخافُ اللهَ غائباً عن نظرِ الناسِ، غيرَ مراءٍ لهُم، ولا خائفٍ من إنكارِهم، فيتركُ أخذَ شيءٍ مِن الصيدِ، ويختارُ شظَفَ العيشِ على لذَّةِ اللحمِ؛ خوفاً مِن اللهِ تعالى، وطاعةً لهُ في سرِّه، ﴿فَمَنِ اعْتَدى بعْدَ ذٰلكَ فلهُ عذابٌ أَليمٌ﴾.

وجهُ الابتلاءِ بذٰلك أنَّ الصيدَ أَلذُّ الطعامِ وأَطيبُه، وخصوصاً في السفرِ الطويلِ؛ كالسفرِ إلى الحرمينِ وبينَ الحرمينِ، وسهولةُ تناولِ اللذيذِ تُغري بهِ، فتركُ ما لا يُنالُ إلا بمشقَّةٍ لا يدلُّ على التَّقوى والخوفِ مِن اللهِ تعالى؛ كما يدلُّ عليهِ تركُ ما يُنالُ بسهولةٍ.

---

(١) المائدة: ٩٤.

وهل يُعَدُّ تركُ الزِّنا مما لا يصلُ إليهِ إلاَّ بسعيٍ وبذلِ مالٍ وتوقُّعِ فضيحةٍ؛ كتركِ يوسفَ الصديقِ عليهِ السلامُ لهُ إذ غلَّقَتِ امرأةُ العزيزِ الأبوابَ دونَه، وقالَتْ: هيتَ لكَ[1]، وكقصةِ أحدِ الثلاثةِ الذينَ دَخلوا الغارَ وانطبقتْ عليهِمُ الصخرةُ[2].

فالحاصلُ أيُّها المؤمنونَ! أنتُم المختَبرونَ المبتَلَوْنَ في نيَّاتِكم وأعمالِكم، فهل تمتَثِلونَ أمرَ ربِّكُم في سرِّكم وجهرِكم، أو تعتَدونَ ذلك، وتُظْهِرونَ الامتثالَ في الظَّاهرِ ومرائي الناسِ، وتركبونَ المنهيَّ المحظورَ في السرِّ؛ كالمنافقينَ الذينَ هُم في الدَّركِ الأسفلِ من النارِ.

* * * * *

الآيةُ الأربعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَقْتُلوا الصَّيْدَ وأَنْتُمْ حُرُمٌ ومَنْ قَتَلَهُ منكُمْ مُتَعَمِّداً فَجزاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الكعبةِ أو كفَّارةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلكَ صِياماً لِيَذوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ومَنْ عادَ فيَنْتَقِمُ اللهُ منهُ واللهُ عزيزٌ ذو انتقامٍ﴾[3].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ الذين قصدوا حجَّ بيتِ اللهِ الحرامِ؛ ناهياً إيَّاهُم عن قتلِ الصيدِ في حالِ إحرامِهم، فاصطيادُ المُحْرِمِ وقتلُه الصيدَ حرامٌ عليهِ، وإذا صدرَ عنهُ الاصطيادُ وقتلهُ عامداً؛ فعليهِ الجزاءُ في الدُّنيا، وهو أنَّهُ يتصدَّقُ بمثلِ ما قتلَ مِن النَّعمِ . . . إلخ.

---

(١) كما في سورة يوسف: ٢٣.

(٢) وقصتهم في ذلك طويلة، رواها: البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) المائدة: ٩٥.

فعلى هٰذا يجبُ على مَن أرادَ الحجَّ مِن المؤمنينَ أنْ يعلمَ ويتعلَّمَ ما يتعلَّقُ بالحجِّ مِن الفرائضِ والسُّننِ والمحرَّماتِ والمكروهاتِ، حتى يكونَ آتياً بالحجِّ على وجهِ الكمالِ، فيكونَ حجُّهُ مبروراً، ولكنَّ الأسفَ ألفُ أسفٍ على جهلِ المسلمينَ، وعدمِ مبالاتِهم بأمورِ دينِهم وأوامرِ مولاهُم ربِّ العالمينَ وسنن سيدِ المرسلينَ سيِّدنا محمدٍ ﷺ، فتدبَّرْ.

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والأربعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وإِنْ تَسْأَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ القُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفا اللهُ عَنْها واللهُ غَفورٌ حَليمٌ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ؛ ناهياً إياهم عن السؤالِ عمَّا لم يؤمَروا باعتقادِهِ أو فعلِه أو تركِه؛ لأنَّ الدينَ قد كَمُلَ، فلا يحتاجُ إلى التَّكميلِ حتى يحتاجَ إلى السؤالِ، وإنَّما عليكُم الأخذُ والعملُ بما بلَّغه الرسولُ ﷺ إليكُم، فكونُوا مُنقادينَ لهُ ﷺ، وما لم يُبلِّغْهُ الرسولُ محمدٌ ﷺ إليكُم فلا تسألوا عنهُ، ولا تَخوضوا فيهِ؛ فإنَّكُم إنْ خُضْتُم فيما لا تكليفَ فيهِ عليكُم؛ فربما جاءَكُم بسببِ ذٰلك الخوضِ الغيرِ اللازمِ مِن التكاليفِ مَا يثقُلُ عليكُم ويشقُّ.

وقد ذكرَ المفسِّرونَ في تفسيرِ هٰذه الآيةِ أحاديثَ كثيرةً، فمنها ما رواهُ ابنُ جريرٍ وأصحابُ الصِّحاحِ والسننِ[2] عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ في سؤالِ

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) رواه: البخاري (٨ / ٢١١)، ومسلم (٢٣٥٩)، والترمذي (٣٠٥٨)، والنسائي في «التفسير» (١٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (٧ / ٨١).

الرجلِ : «مَن أنا ومَن آبائي . . . » إلخ؟

وفي الحجْ : «أفي كلِّ عامٍ يا رسولَ اللهِ»[1].

وفي الصحيحين[2] من حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «ذَروني ما تركْتُكُم؛ فإنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قبلَكُم بكَثْرةِ سؤالِهم، واخْتِلافِهم على أنبيائِهم، فإذا نهيْتُكُم عَنْ شَيْءٍ؛ فاجْتَنِبوهُ، وإذا أمَرْتُكُمْ بشيءٍ؛ فأْتُوا منهُ ما استطعتُمْ».

وعن أبي ثعلبةَ الخشنيِّ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ : «إنَّ اللهَ تَعالى فَرَضَ فرائِضَ فلا تُضَيِّعوها، وحرَّمَ حُرُماتٍ فلا تَنْتَهِكوها، وحدَّ حُدوداً فلا تَعْتَدوها، وسَكَتَ عَنْ أشياءَ رحمةً بكُمْ مِن غيرِ نِسْيانٍ فلا تَبْحَثوا عنها»[3].

---

(1) رواه: الترمذي (٣٠٥٧ و٨١٤)، وابن ماجه (٢٨٨٤)، وأحمد (١ / ١١٣)؛ من طريق علي بن عبدالأعلى عن أبيه عن أبي البَخْتري عن علي.

وضعَّفه الترمذي بقوله: «حديث غريب».

وعبد الأعلى بن عامر الثعلبي ضعَّفه غير واحد.

وأبو البَخْتَري ـ واسمه سعيد بن فيروز ـ لم يلقَ عليّاً؛ كما في «جامع التحصيل» (ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

ولم يُشر شيخُنا في «الإرواء» (٩٨٠) إلى هذه العلة!

وأما الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط في تعليقِه على «جامع الأصول» (٣ / ٤)؛ فلم يُشر إلى علة عبدالأعلى!

وللحديث شواهد عدَّة دون ذكر سبب النزول، منها ما بعده؛ كما في سبب وروده.

(2) رواه: البخاري (٩ / ٧٧)، ومسلم (١٣٣٧).

(3) رواه: الدارقطني (٤ / ١٨٤)، والبيهقي (١٠ / ١٢)، والخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» (٢ / ٩)؛ من طريق داود بن أبي هند عن مكحول عنه.

وقد أعلَّه الحافظ ابنُ رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٤٢) بعلَّتين: **الأولى**: =

وفي روايةٍ: «وعَفا عَنْ أشياءَ مِن غيرِ نِسيانٍ فلا تَبْحَثوا عنها، ولٰكِنْ إذا نزلَ القُرآنُ بها مُجملةً فسألتُم عن بيانِها؛ بُيِّنَتْ لكُم؛ لاحتِياجِكُم إليها، عفا اللهُ عنها»[1].

أي: ما لم يذكُـرْهُ في كتابِه فهو مما عُفِيَ عنهُ، فاسكُتوا أنتُم عنها كما سكتَ عنها.

واعلمْ أنَّ اللهَ تعـالى قد بيَّنَ لعبـادِهِ بنصِّ الخـطابِ ما لا بدَّ لهُم منـهُ لإصلاحِ أمرِ معادِهِم ومعاشِهِم، وبفحوى الخطابِ أو الإشارةِ ما يفتحُ لهُم بابَ الاجتهادِ في كلِّ ما لَه علاقةٌ بأُمورِ مصالِحهِم، فالواجبُ أنْ يُتْرَكَ أمرُ التَّشريعِ إليهِ تعالى؛ لأنَّهُ تعالى أعلمُ بمصالحِ العبادِ مِن أنفسِهم.

وهٰذه الآيةُ تدلُّ على أنَّهُ لا تجوزُ الزيادةُ على نصوصِ الشارعِ، والتَّنَطُّعُ في الدينِ باستعمالِ الرَّأْيِ في العباداتِ وأحكامِ الحلالِ والحرامِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانَه قد أكمَلَ الدينَ، وأتمَّ بهِ نعمتَه على المؤمنينَ بما أنزلَهُ مِن القرآنِ على خاتَمِ رسلِهِ، وبما قامَ بهِ الرسولُ ﷺ أكملَ قيامٍ مِن بيانِ مرادِ اللهِ تعالى مِن تنزيلِه، وهٰذه مسألةٌ قطعيةٌ ثابتةٌ بالنَّقلِ والعقلِ، ولأنَّ هٰذا الدينَ يُسرٌ، قد رفعَ اللهُ تعالى منهُ الحرجَ كما نطقَ بهِ النصُّ، ولذا سمَّاهُ النبيُّ ﷺ بالحنيفيَّةِ السمحةِ[2].

= الانقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة. الثانية: الاختلاف في رفعه ووقفه.

فعلى هٰذا؛ فإن مَن حسَّنه قد وهم!!

(١) لم أقف على هٰذه الرواية، فلعلها السابقة نفسها، لكن بالمعنى.

(٢) انظر الحديث الوارد في ذٰلك، وتخريجه مفصَّلاً في «الإتمام» (٢٤٨٩٩)

وقالَ ﷺ: «إنَّ هٰذا الدِّينَ يُسرٌ، ولنْ يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلاَّ غَلَبَهُ»، رواه البخاري[1].

وقالَ ﷺ: «يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا»، رواه الشيخان[2].

ومن الأسئلة المنهيِّ عنها[3]: البحثُ عن أُمورٍ غيبيَّةٍ، وقد وردَ الشرعُ بالإيمانِ بها معَ تركِ البحثِ عن كيفيَّتِها؛ كسؤالِ المَلَكَيْنِ في القبرِ، ووزْنِ الأعمالِ، والسؤالِ عنْ وقتِ قيامِ الساعةِ، وعنِ الرُّوحِ، وعن مدَّةِ هٰذه الأمَّةِ، والبحثِ في صفاتِ اللهِ؛ مِن: الاستواءِ على العرشِ، ويدِ اللهِ، ونفسِ اللهِ، إلى أمثالِ ذٰلك مما لا يُعْرَفُ إلاَّ بالنَّقلِ الصِّرفِ.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والأربعونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ إلى اللهِ مَرْجِعُكُم جَميعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ**﴾[4].

قد نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ وخاطَبَهُم؛ آمراً إيَّاهُم بصيغةِ الإغراءِ بأَنْ يهتمُّوا بإصلاحِ أنفسِهم؛ بالعلمِ الصَّحيحِ، والعملِ الصالحِ، وبيَّنَ لهُم أنَّهُم إذا أصلَحوا أَنْفُسَهم، وقاموا بما أُوجبَ اللهُ عليهِم مِن علمٍ وعملٍ وتعليمٍ وإرشادٍ؛ فلا يضرُّهم مَن ضلَّ مِن النَّاسِ عن محجَّةِ العلمِ الصَّحيحِ بالجهلِ

(١) (١٠ / ١٠٧) عن أبي هريرة.

(٢) البخاري (١ / ١٧١)، ومسلم (١٧٣٤)؛ عن أنس

(٣) من حيث كُنهها وحقيقتُها ومآلها.

(٤) المائدة: ١٠٥.

والتقليدِ، وعن صراطِ العملِ الصالحِ بالفسقِ والإفسادِ في الأرضِ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! الزموا صلاحَ أنفسِكُم وتزكيتَها بما شرعَهُ اللهُ لكُم، لا يضرُّكُم ضلالُ غيرِكم إذا اهتديتُم، إذ لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى.

ومِن أُصولِ الهدايةِ: الدعوةُ إلى الخيرِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عنِ المنكرِ، فإذاً لا تكونونَ مُهتدينَ إلا إذا بلَّغتُم دعوةَ الحقِّ والخيرِ، وعلَّمتُم الجاهلينَ ما أعطاكُم اللهُ تعالى من العلمِ والدينِ، فلا تكتُموا الحقَّ والعلمَ كما كتَمَهُ مَن كانَ قبلَكُم فلعنَهُم اللهُ تعالى على لسانِ أنبيائِهم ولسانِ نبيِّكُم محمدٍ ﷺ. ﴿إلى اللهِ مرجِعُكُم جَميعاً فيُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُم تَعْمَلونَ﴾، فيُجازيكُم ويحاسِبُكم بما كنتُم تعملونَ في الدُّنيا.

وقد روى الحفَّاظُ بسندِهم عن قيسٍ أنَّهُ قالَ: قامَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، فحمَدِ اللهَ، وأثنى عليهِ، ثمَّ قالَ: أيُّها الناسُ! إنَّكُم تقرؤونَ هذه الآيةَ: ﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ...﴾ الآية، وإنكم تضعونَها على غيرِ موضعِها، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا المنكرَ ولم يُغيِّرُوهُ؛ أوْشَكَ أنْ يعُمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ»[1]، ويا أيُّها الناسُ! إيَّاكُم والكذبَ؛ فإنَّ الكذبَ مجانِبُ الإيمانِ. رواه أصحابُ «السنن» الأربعة.

روى الترمذي[2] بسندِه عن أبي أُميَّةَ الشَّعباني؛ قال: «أتيتُ أبا ثعلبةَ

(١) أخرجه: أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٩)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والنَّسائي في «التفسير» (١٧٧)، وأحمد (١ / ٢، ٥، ٧، ٩)، وسنده صحيح.

وانظر تخريج «إياكم والكذب...» في تعليقي على «الفارق...» (ص ٦٧).

(٢) رواه: أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)؛ من طريق =

الخشنيَّ رضيَ اللهُ عنهُ، فقلتُ لهُ: ما تصنعُ في هٰذه الآيةِ؟ قالَ: أيَّةُ آيةٍ؟ قلتُ: قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ﴾. قالَ: أما واللهِ لقد سألتَ عنها خَبيراً، سألتُ عنها رسولَ اللهِ ﷺ،

عمرو بن جارية عن أبي أميَّة الشعباني به.

وفيه جهالة عمرو بن جارية اللخمي.

وعتبة بن أبي حكيم؛ صدوق، يخطىء كثيراً.

أما أبو أمية؛ فروى عنه ثلاثة، ووثَّقه ابن حبان.

ولكن للحديث شواهد:

شاهدان موقوفان للقطعة الأولى عند ابن جرير (٧ / ٩٦)، وفيهما ضعف يسير.

وشاهد ثالث عن معاذ مرفوعاً، بلفظه تقريباً، عند ابن مردويه؛ كما في «الدر» (٢ / ٣٤٠)، ولم أقف على سنده.

وشاهد رابع: أخرجه: أحمد (٦٥٠٨ و٧٠٤٩ و٧٠٦٣)، وأبو داود (٤٣٤٢)؛ عن ابن عَمرو بسند حسن.

وشاهد خامس، أخرجه: ابن حبان (٢٨٤٩)، والدولابي (٢ / ٣٥)؛ عن أبي هريرة بسند صحيح.

وأما القطعة الثانية؛ فلها شواهد عدَّة، خرَّجها شيخُنا في «الصحيحة» (٤٩٤ و٩٥٧).

فإنْ قيل: «إن المعروف في تفسير الآية يخالفُه الظاهر»؛ كما قال شيخنا في «الضعيفة» (٣ / ٩٥)؛ فالجواب: إنَّ المخالف أولاً هو الحديث السابق لهٰذا في كتابنا، وهو المروي عن أبي بكر.

وهناك جمعٌ سهلٌ إن شاء الله، وهو أن حديث أبي بكرٍ يُنَزَّلُ على الزمان المعتاد والحياة الطبيعية، أما عند فساد الأحوال وآخر الزمان؛ فيكون الوجه لحديث أبي ثعلبة عند عدم جدوى الأمر والنهي.

وهٰذا جمعٌ ظاهرُ الوضوح.

ثم رأيتُ نحو ما ذكرتُه في «مشكل الآثار» (٢ / ٦٦) للإمام أبي جعفر الطحاوي، والحمد لله على توفيقه.

فقالَ: «بلِ ائْتَمِروا بالمعروفِ، وتَنَاهَوْا عنِ المُنكرِ، حتَّى إذا رأَيْتَ شُحّاً مُطاعاً، وهوىً متَّبعاً، ودُنيا مؤثرةً، وإعجابَ كُلِّ ذي رأْيٍ برأْيِهِ؛ فعليكَ بخاصَّةِ نفسِكَ، ودَعْ عنكَ أمرَ العوامِّ؛ فإنَّ مِن ورائِكُمْ أيَّاماً؛ الصَّابرُ فيهِنَّ مثلُ القابضِ على الجَمْرِ، للعامِلِ فيهنَّ مثلُ أَجْرِ خمسينَ رجُلاً يعمَلونَ كعَمَلِكُم».

والحاصِلُ أنَّهُ قد عُلِمَ مِن هٰذه الرواياتِ أنَّ السَّلفَ اتَّفقوا على أنَّ المؤمنَ لا يَكونُ مُهتدياً بمجرَّدِ إصلاحِه لنفسِه؛ إذا لم يهتمَّ بإصلاحِ غيرِه ويأْمرْ بالمعروفِ وينْهَ عنِ المنكرِ، ويُفْهَمُ منهُ أنَّ هٰذا فرضٌ لازمٌ دائمٌ، إلا إذا فسدَ أهلُ الزمانِ فساداً لا يُرجى معهُ تأْثيرُ الوعظِ والإرشادِ، والموفِّقُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ والأربعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ حِينَ الوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُم أَو آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُم...﴾ الآية[1].

قد خاطَبَ اللهُ تعالى المؤمنينَ منبِّهاً إيَّاهُم أنَّهُ مَن حضرَهُ الموتُ وعندَه مسلمونَ حاضِرونَ يجبُ عليهِ أنْ يُشْهِدَ على وصيَّتِه عدلينِ مِن المسلمينَ، وأما إذا لم يكنْ عندَه مسلمٌ حاضرٌ، فأَمرَ بشهادةِ رجلينِ مِن غيرِ المسلمينَ، فإنِ ارتيبَ بشهادَتِهما ـ أي: الكافِرَيْن ـ؛ اسْتُحْلِفا باللهِ بعدَ الصلاةِ؛ ما اشْتَرَيْنا بشهادتِنا ثمناً قليلاً، وليسَ على شهودِ المسلمينَ إقسامٌ، وإنَّما الإقسامُ على الشهودِ إذا كانا كافِرَيْن.

والآيةُ تفيدُ الحثَّ على الوصيَّةِ، وتأْكيدَ أمرِها، وعدمَ التَّهاونِ فيها

(١) المائدة: ١٠٦.

بشواغلِ السفرِ، وتفيدُ الإشهادَ على الوصيَّةِ في الحضرِ والسفرِ؛ ليكونَ أمرُها أثبَتُ، والرجاءُ في تنفيذِها أقوى، وأنْ يكونَ الشاهدانِ مِن المؤمنينَ الموثوقِ بعدالتِهم، وأنَّ إشهادَ غيرِ المسلمينَ على الوصيَّةِ جائزٌ مشروعٌ عندَ فقدِ أهلِ الإيمانِ؛ كالسَّفرِ، وجوازُ تغليظِ الأقسامِ بالأوقاتِ التي تؤثِّرُ في قلوبِ الشهودِ.

ولهٰذا قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللهُ تعالى: «الأيْمانُ تَغْلُظُ بالزَّمانِ والمكانِ».

وتفصيلُ تفسيرِ الآيةِ مذكورٌ في التفاسيرِ عموماً، و«تفسيرِ المنارِ»[1] خصوصاً، فارجعْ إليها أيُّها المؤمنُ الذي يهمُّهُ دينُه.

*****

الآيةُ الرابعةُ والأربعونَ في سورةِ الأنفالِ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبارَ . ومَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمئذٍ دُبُرَهُ إلَّا متحرِّفاً لِقِتالٍ أو متحيِّزاً إلى فِئةٍ فقدْ باءَ بغَضَبٍ مِنَ اللهِ ومَأْواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصيرُ﴾[2].

قَد نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَهُ المؤمنين منبِّهاً إيَّاهُم: إذا لقيتُمُ الكفارَ حالَ كونِهم زاحِفينَ زحفاً لقتالِكم؛ فلا تولُّوهُم الأدْبارَ؛ أي: فلا تولُّوهُم ظهورَكُم منهزمينَ منهُم، وإنْ كانوا أكثرَ عَدداً منكُم وعُدداً، وإذا كانَ التَّزاحُفُ من الفريقينِ، أو كانَ الزَّحفُ مِن المؤمنينَ؛ فتحريمُ الفرارِ والهزيمةِ أولى، ولفظُ: ﴿إذا لَقيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا زَحْفاً﴾ يَصْلُحُ للأحوالِ الثلاثةِ.

---

(١) انظر (٧ / ٢٠٢) منه

(٢) الأنفال: ١٥ ـ ١٦.

﴿ومَنْ يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، ويولِّي ظهرَهُ إلى العدوِّ فارّاً منهُم؛ ﴿إلَّا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ﴾؛ أي: متحرِّفاً لمكانٍ مِن أمكنةِ القتالِ رآهُ أحوجَ إلى القتالِ فيه، وأبلغَ في النِّكايةِ بالعدوِّ، ﴿أو متحَيِّزاً إلى فئةٍ﴾؛ أي: متنقلاً إلى فئةٍ مِن المؤمنينَ في حيِّزٍ غيرِ الذي كانَ فيهِ؛ لينصرَهُم على عدوٍّ تكاثَرَ جمعُهُ عليهِم، ﴿فَقَدْ بَاءَ بغَضَبٍ مِنَ اللهِ ومَأْواهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصيرُ﴾؛ لارتكابِه معصيةَ الفرارِ.

والآيةُ تدلُّ على أنَّ الفرارَ مِن الزَّحفِ مِن كبارِ المعاصي، وقد جاءَ التصريحُ بذلك في أحاديثَ صحيحةٍ، أصحُّها عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ مرفوعاً عند الشيخين[1]؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اجْتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ»؛ أي: المُهْلِكاتِ. قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما هُنَّ؟ قالَ: «الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولِّي يومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ الغافِلاتِ المؤمناتِ»؛ إلَّا إذا كانَ الكفارُ أزيدَ مِن الضِّعْفِ، أو لتدبيرٍ حربيٍّ، وهو التحيُّزُ إلى فئةٍ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! جاهِدوا أعداءَ الله وأعداءَ الدينِ والتوحيدِ، واثْبُتوا فيهِ، ولا تتزلزلوا؛ لأنَّكُم إذا قُتِلْتُم فأنتُم الشهداءُ الفائزونَ بالرِّضا والرضوانِ وأنواعِ نِعَمِ الجِنانِ مِن الحورِ والغِلمانِ، وإذا نُصِرْتُم وغلَبْتُم؛ فأنتم الغانِمونَ الفاتحونَ الفالحونَ نائلونَ السعادةَ والدولةَ برفعِ لواءِ الدينِ، واعلموا أنه لا يموتُ أحدٌ إلا بانقضاءِ أجلِه المقدَّرِ، فآمِنوا بهذا القدرِ؛ فإنَّ القدرَ لا يتغيَّرُ، واحذَروا عنِ الغدرِ؛ فإنَّ الغدرَ شينٌ وعارٌ، وسببٌ للمذلَّةِ في الدُّنيا وعذابِ النارِ في الآخرةِ وبئسَ المصيرُ.

---

(١) رواه: البخاري (٥ / ٢٩٤)، ومسلم (٨٩).

الآيةُ الخامسةُ والأربعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أطيعوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ وأَنْتُمْ تَسْمَعونَ . ولا تَكُونُوا كَالَّذينَ قَالُوا سَمِعْنا وهُمْ لاَ يَسْمَعونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بإطاعتِه وإطاعةِ رسولِه محمدٍ ﷺ وامتثالِ أمرِه، وناهياً إيَّاهُم عن أن يتولَّوْا ويُعْرِضوا عن الرسولِ؛ تاركينَ إطاعتَه، ومخالفينَ لهُ، والحالُ أنَّكُم تسمعونَ منهُ كلامَ اللهِ المصرِّحَ بوجوبِ طاعتِه وموالاتِه واتِّباعِه ونُصرتِه؛ أيْ: تسمعونَ سماعَ الفهمِ والتصديقِ والإذعانِ، الذي هو شأنُ المؤمنينَ الذينَ دَأْبُهُم أَنْ يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنا وإليكَ المَصيرُ﴾[2]، والموصوفونَ بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ . الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئكَ الَّذينَ هَداهُمُ اللهُ وأُولَئكَ هُمْ أُولو الأَلْبابِ﴾[3]، وأصحابُ العقولِ السليمةِ.

﴿ولا تكونوا﴾ أيُّها المؤمنونَ الصادقونَ ﴿كالَّذينَ قالوا سَمِعْنا وهُم لا يسمَعونَ﴾؛ أيْ: لا يسمعونَ سماعَ تفقُّهٍ واعتبارٍ يتبَعُه الانتفاعُ والعملُ، وهكذا كانَ المنافقونَ، والكفارُ المعانِدونَ، والمقلِّدونَ الجامِدونَ، والمتعصِّبونَ الضَّالُّونَ، وقد سلكَ مِن هذه الأمةِ مسلَكَهُم؛ شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ؛ فإنَّ كثيراً منهُم وإنْ قرأَ القرآنَ وسَمِعَهُ واستمعَهُ، ولكنَّهُم لا يعملونَ بهِ؛ إلَّا ما وافقَ هواهُم، أو وافقَ قولَ متبوعِهِم وأحبارِهم ورهبانِهم، ويحملونَ ما خالَفَ مذهَبَ

---

(1) الأنفال: ٢٠ ـ ٢١.

(2) البقرة: ٢٨٥.

(3) الزمر: ١٧ ـ ١٨.

متبوعِهِم على النَّسخِ أو التأويلِ، كما تَقَوَّلَ بهِ أبو الحسنِ الكرخيُّ الحنفيُّ في كتابِه «أُصولِ الفقهِ»[1]، وقد نبَّهْتُ عليهِ في كتابي المطبوعِ المنشورِ «البرهانِ الساطِع في تبرُّؤ المتبوعِ مِن التابِع».

فيا أيُّهـا المؤمنـونَ! كونـوا مؤمنينَ صادقينَ، وانتَفِعوا بالإيمانِ والقرآنِ؛ مُتدبِّرينَ معناهُ، ومتفكِّرينَ فحواهُ، حتى تكونوا فالِحينَ.

* * * * *

الآيةُ الســادسة والأربعونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيْبُوا للهِ وللرَّسُولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بينَ المَرْءِ وقَلْبِهِ وأَنَّهُ إليهِ تُحْشَرونَ**﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَه المؤمنينَ عموماً ـ عربِهم وعجمِهم، وعالِمِهم وجاهِلِهم ـ؛ آمراً إيَّاهُم أنْ يستجيبوا للهِ والرسولِ بالعنايةِ والاستعدادِ؛ أي: إذا عَلِمْتُم ما فرضْنا عليكُمْ مِن الطاعةِ وشأنِ سماعِ التفقُّهِ مِن الهدايةِ، وقد دعـاكُم الـرسولُ محمدٌ ﷺ بالتبليغِ عنِ اللهِ تعالى لما يُحيِيكُم مِن الأعمالِ الصالحةِ، وأفضلُها الجهادُ في سبيلِ اللهِ، والقيامُ بالدفاعِ عن المُهاجَمينَ.

ومنـذُ تركَ المسلمـونَ الجهـادَ والدفاعَ والاستعدادَ لهُ؛ تلاشَتْ حياتُهم القوميَّةُ[3] ومكانتُهم الإسلاميةُ كما لا يخفى.

---

(١) قارن بـ «بدعة التعصب المذهبي» لأخينا الفاضل محمد عيد عباسي، كان الله له.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) أي: التي يحيا فيها أقوامُهم! لا القومية التي تنسى الإسلام، بل تحاربه!!

فيا أيُّها المؤمنونَ! أجيبوا الدعوةَ بعنايةٍ وهمَّةٍ وعزيمةٍ وقوَّةٍ.

ولا شكَّ أنَّ العملَ بالقرآنِ ينبوعُ السعادةِ، وأنَّ طاعةَ رسولِ اللهِ ﷺ خزينةُ الفلاحِ والنجاحِ، وأنَّ طاعتَهُ ﷺ واجبةٌ في حياتِه وبعدَ مماتِه، فيما عُلِم أنه دعا إليهِ دعوةً عامةً مِن أمرِ الدينِ الذي بعثَهُ اللهُ تعالى بهِ؛ كبيانِه ﷺ لصفةِ الصلاةِ وعددِها، والمناسِكِ، ومقاديرِ الزكاةِ، وغيرِ ذلك من السننِ الدينيَّةِ إلى يومِ القيامةِ.

﴿واعْلَموا﴾ أيُّها المؤمنونَ ﴿أنَّ اللهَ تَعالى يَحولُ بينَ المرءِ وقلبه وأنَّهُ إليهِ تُحْشَرونَ﴾، وهٰذا تنبيهٌ لأمرينِ عظيمينِ أمرَنا اللهُ تعالى أن نعلَمَهُما علماً يقينيّاً:

الأوَّلُ: أنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في البشرِ الحيلولةَ بينَ المرءِ وقلبه، الذي هو مركزُ الوجدانِ والإدراكِ ذي السلطانِ على إرادتِه وعملِه، وهٰذا أخوفُ ما يخافُه المُتَّقي على نفسِه إذا لم يَيْأَسْ مِن رَوْحِ اللهِ فيها.

ومعرفةُ هٰذه الجملةِ تُثْمِرُ الخوفَ والرجاءَ، فكم مِن مُتَّقٍ مُهْتَدٍ يضلُّ عن الصراطِ المستقيمِ، ويميلُ إلى مَهاوي الجَحيمِ؛ بسببِ شُبهةٍ تزعزِعُ الاعتقادَ، أو شهوةٍ يغلبُ بها الغِيُّ على الرشادِ، فيطيعُ هواهُ، ويتَّخِذُهُ إلٰهاً مِن دونِ اللهِ، على أنَّـهُ فيهِ مختارٌ بلا جَبرٍ ولا اضطرارٍ؛ كما وقعَ في هٰذا العصرِ مِن بعضِ معاصِرينا؛ كعبدِاللهِ القَصيمِيِّ في كتابِه «هٰذي هي الأغلالُ»؛ فإنَّهُ قد خالَفَ النصوصَ الصريحةَ القرآنيةَ، والأحاديثَ الصحيحةَ النبويَّةَ، في أحدٍ وعشرينَ موضعاً مِن هٰذا الكتابِ، ظاهرُه الكفرُ والزندقةُ، بعدَ أنْ كانَ مؤمناً موحِّداً يدافعُ عنِ الإيمانِ والتوحيدِ وأهلِه، ويصارعُ أهلَ الشركِ والخرافاتِ؛ كما في مؤلَّفاتِه السـابقـةِ؛ ككتـابـه «الصـراعِ بينَ الإسـلامِ والوثنيَّةِ»، و«البُروقِ النجديَّةِ»،

و «شيوخِ الأزهرِ»[1] وغيرِها، ولكنْ؛ قد صَدَقَ اللهُ العظيمُ: ﴿أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ﴾.

ومِن جملةِ الأسبابِ الظاهرةِ مصاحبةُ المُتَفَرْنِجينَ والزنادقةِ، والطَّمعُ فيما عندَهم مِن مالِ الدُّنيا.

اللهُمَّ ثَبِّتْ قلوبَنا على دينِك، ﴿رَبَّنا لاَ تُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾[2].

اللهُمَّ توفَّنا مسلمينَ، وألْحِقْنا بالصَّالحينَ.

ويقابِلُ هٰذا مِن الحيلولةِ ما حَكَى بعضُهم عن نفسِه: أَنَّهُ كانَ مُنْهَمِكاً في الشَّهواتِ والمنهيَّاتِ؛ تاركاً لهُداهُ وطاعةِ ربِّه، فنزلَ يوماً في زورقٍ معَ خِلَّانٍ لهُ في نهرِ دجلةَ للتنزُّهِ، ومعهُم النبيذُ والمعازفُ، فبينما هُم يعزفونَ ويشرَبونَ؛ إِذ التقوا بزورقٍ آخرَ فيهِ تالٍ للقُرآنِ يرتِّلُ سورةَ ﴿إِذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[3]، فوقعتْ تلاوتُهُ مِن نفسِهِ موقعَ التأْثيرِ والعِظةِ، فاستمعَ لهُ وأَنْصَتَ، حتى إذا بلغَ ﴿وإِذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[4]؛ امتلأَ قلبُه خشيةً مِن اللهِ وتدبُّراً؛ لاطِّلاعِهِ على صحيفةِ عملِه يومَ يلقاهُ، فأَخَذَ العودَ مِن العازفِ، فكسرَه، وأَلقاهُ في دجلةَ، وثنَّى بنَبْذِ قِنانِ النَّبيذِ وكؤوسِه فيها، وصارَ يردِّدُ الآيةَ، وعادَ إلى منزلِه؛ تائباً مِن كُلِّ

---

(١) وكتبُه الأربعة هٰذه مطبوعة، أما كتابُه «. . . الأغلال»؛ فقد ردَّ عليه عدد كبير أهل العلم، وبيَّنوا زيوفَه!

(٢) آل عمران: ٨.

(٣) التكوير: ١.

(٤) التكوير: ١٠.

معصيةٍ، مجتهداً في كلِّ ما يستطيعُ مِن طاعةٍ[1].

فيا أيُّهـا المؤمنونَ! انتبهوا لتذكيرِ اللهِ تعالى إيَّانا بهٰذا الشَّأنِ مِن شؤونِ الإنسانِ وسُنن اللهِ تعالى في الإراداتِ والأعمالِ.

وأمرُهُ تعالى إيَّانا بأَنْ نعلَمَها علمَ إيقانٍ وإذعانٍ؛ يفيدُنا فائدتينِ لا يكمُلُ بدونِهما الإيمانُ:

الفـائـدةُ الأولى: أَنْ لا يأْمَنَ الطائعُ المشمِّرُ مِن مكرِ اللهِ فيغترَّ بطاعتِه ويُعْجَبَ بنفسِه، وأَنْ لا ييأَسَ العاصي والمقصِّرُ في الطاعةِ مِن رَوْحِ اللهِ وفضلِهِ وعنايتِه، ومَن لم يأْمَنْ مِن عقابِ اللهِ ولم ييأَسْ مِن رحمةِ اللهِ؛ يكُنْ جديراً بأَنْ يراقِبَ قلبَــه، ويحــاسِبَ نفسَــه على خواطِـره؛ ليظلَّ على صراطِ العـدلِ المستقيمِ؛ متجنِّباً الإفراطَ والتفريطَ، ويتحرَّى دائماً أَنْ يكونَ بينَ خوفٍ يَحْجُزهُ عن المعاصي ورجاءٍ يحمِلُه على الطاعاتِ.

الفائدَةُ الثانيةُ: هو تذكُّرُ حَشْرِنا إليهِ عزَّ وجلَّ، ومحاسبتِه إيَّانا على أعمالِنا القلبيةِ والبدنيَّةِ، ومجازاتِه إيَّانا عليها، إمَّا بالعذابِ الأليمِ، وإمَّا بالنَّعيمِ المقيمِ.

---

(١) وقريب من ذٰلك قصة توبة الفُضيل بن عياض الزاهد العابد؛ قال الذهبي:

«وكان قاطع طريق، وسبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها؛ إذ سمـع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ للذينَ آمَنوا أن تخشَعَ قلوبُهُم...﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها؛ قال: بلى يا ربِّ، قد آن. فرجع، فآواه الليلُ إلى خربةٍ، فإذا فيها سابلةٌ [وهم قومٌ عابرون في طريق ما]، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نُصبح؛ فإنَّ فضيلاً على الـطريق يقـطع علينـا. قال: ففكـرتُ، وقلتُ: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقومٌ من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدعَ، اللهم إني قد تبتُ إليك، وجعلتُ توبتي مجاورة البيت الحرام». «السير» (٨ / ٣٧٣).

فيا أيُّها المؤمنونَ! لا تغترُّوا بظاهرِ طاعاتِكُم وعباداتِكُم، بل اطلُبوا مِنَ اللهِ تعالى الدوامَ والثباتَ على الإيمانِ والتوفيقِ.

﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾[1].

اللهُمَّ! يا مُقَلِّبَ القُلوبِ! ثَبِّتْ قُلوبَنا على دينِك، وارزُقْنا حسنَ الخِتامِ.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والأربعونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَخُونوا اللهَ والرَّسولَ وتَخُونوا أَماناتِكُمْ وأَنْتُم تَعْلمونَ. واعْلَموا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وأَنَّ اللهَ عندَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ﴾**[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ الصادقينَ؛ ناهِياً إيَّاهُم عن ارتكابِ خيانَتَيْنِ؛ كما هو شأْنُ المنافقينَ؛ يخونونَ اللهَ، ويخونونَ رسولَ اللهِ، ويخونونَ المؤمنينَ، فنهى اللهُ تعالى المؤمنينَ عن هذه الفِعْلَةِ القبيحةِ والخَصْلَةِ الشنيعةِ، ففيهِ عبرةٌ لمنافقي هذا الزمانِ، الذينَ يخدمونَ أَعداءَ الدينِ والملَّةِ والأوطانِ، معَ كونِهم أُمراءَ في بلادِ الإسلامِ.

وطالِعوا يا أيُّها المؤمنونَ قصَّةَ أبي لُبابةَ[3] واعتَبِروا بها.

وقد ذكروا في نزولِ الآيةِ أسباباً، ومهما يكنْ سببُ النزولِ؛ فالآيةُ

---

(١) آل عمران: ٨.

(٢) الأنفال: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) انظر: «أسباب النزول» (ص ٢٦٩) للواحدي، و«الدر المنثور» (٤ / ٤٨)، و«تفسير الطبري» (١٣ / ٤٨١)، و«الإصابة» (٤ / ١٦٧)، وما سيأتي (ص١٩٩).

عامَّةٌ[1]، تشمَلُ كلَّ خيانةٍ، ولذلك فسَّرَ عبدُاللهِ بنُ عبَّاسٍ[2] رضيَ اللهُ تعالى عنهُما خيانةَ اللهِ بتركِ فرائضِهِ وارتكابِ معصيتِه، والأمانةَ بكلِّ ما ائتَمَنَ اللهُ عليهِ العبادَ بأنْ ينقُضَها.

فيا أيُّها المؤمنونَ! لا تَخونوا اللهَ تَعالى بتعطيلِ فرائضِه، أو تعدِّي حُدودِه، وانتهاكِ محارِمه التي بيَّنَها لكُم في كتابِه، ولا تَخُونوا الرَّسولَ بالرغبةِ عنْ بيانِه لكتابِ اللهِ تعالى إلى أهوائِكُم أو آراءِ مشايِخِكُم أو آبائكُم، أو المخالفةِ عنْ أمرِهِ إلى أوامِرِ أُمرائِكُم وتركِ سنَّتِه إلى سنَّةِ أوليائِكُم؛ بناءً على زعمِكُم أنَّهُم أعلمُ بمرادِ اللهِ ورسولِه منكُم، ولا تخونوا أماناتِكُم فيما بينَكم وبينَ أولياءِ أُمورِكم مِن الشؤونِ السياسيةِ، ولا سيَّما الحربيةِ، وفيما بينَكم بعضِكُم مع بعضٍ مِن المعاملاتِ الماليةِ وغيرِها، حتى الاجتماعيةِ والأدبيةِ؛ فقد وردَ في الحديثِ: «المجالِسُ بالأمانةِ إلَّا ثَلاثةَ مجالسَ: سَفْكَ دَمٍ حرامٍ، أو فرجٍ حرامٍ، أو اقتطاعَ مالٍ بغيرِ حقٍّ»، رواه أبو داود والترمذي وأحمد[3].

وفي حديثِ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «إذا حدَّثَ الرجلُ بحديثٍ ثُمَّ التفتَ؛

---

(١) قال ابنُ كثيرٍ في «تفسيره» (٢ / ٤٧٤): «والصحيح أنَّ الآية عامَّةٌ، وإنْ صحَّ أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعمُّ الذنوب الصغار والكبار، اللازمة والمتعدية».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣ / ٤٨١)، وأورده السيوطي في «الدر» (٤ / ٤٩) وزاد نسبتَه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) رواه: أبو داود (٤٨٦٩)، وأحمد (٣ / ٣٤٢ - ٣٤٣)؛ من طريق ابن أبي جابر عن جابر. وفي سنده جهالة.

وعزو المصنِّف الحديث للترمذي وهمٌ، فانظر «جامع الأصول» (٦ / ٥٤٥).

وقوله ﷺ: «المجالسُ بالأمانة» له شواهد وطرقٌ تحسِّنه.

فهُو أمانةٌ»[1].

فإفشاءُ السرِّ خيانةٌ محرَّمةٌ، وآكَدُ الأماناتِ السرُّ، وأحقُّها بالحفظِ ما يكونُ بينَ الزوجينِ، والخيانةُ مِن صفاتِ المنافقينَ، والأمانةُ مِن صفاتِ المؤمنينَ.

وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا إيْمانَ لمَنْ لا أمانَةَ لهُ، ولا دِينَ لمَنْ لا عَهْدَ لهُ»[2]، رواه أحمدُ وابنُ حِبَّان.

وفي المتَّفقِ عليهِ في «الصَّحيحينِ»[3] عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا آؤتُمِنَ خَانَ»، وزادَ مسلمٌ: «وإنْ صامَ وصلَّى وزعَمَ أنَّهُ مسلمٌ».

فكلُّ ما يجبُ حفظُه فهو أمانةٌ، وكلُّ حقٍّ ماديٍّ أو معنويٍّ يجبُ عليكَ أداؤهُ إلى أهلِه فهو أمانةٌ.

إنَّ الأمانةَ مِن الصِّفاتِ الدِّينيَّةِ التي قامَ عليها بناءُ المدنيَّةِ، وبها حُفِظَ العمرانُ والإصلاحُ لحالِ الأمَّةِ، ولا بقاءَ لدولةٍ بدونِها؛ لأنَّ عليها مدار الثقةِ في جميعِ الحالاتِ.

قولُـه: ﴿وأنْتُم تَعْلَمـونَ﴾؛ أي: والحالُ أنَّكُم تعلمونَ مفاسدَ الخيانةِ،

---

(١) أخـرجه: أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وأحمد (٣ / ٣٢٤ و٣٥٢ و٣٧٩ ـ ٣٨٠ و٣٩٤)؛ من طريقين عن عبدالرحمٰن بن عطاء عن عبدالملك بن جابر عن جابر.

وسنده جيِّد؛ لحال عبدالرحمٰن، فقد قال فيه الحافظُ: «صدوق فيه لينٌ».

(٢) حديث حسن، خرَّجتُه في تعليقي على «الفارق بين المصنف والسارق» (ص ٦٧) للسيوطي.

(٣) رواه: البخاري (١ / ٨٣)، ومسلم (٥٩).

وتحـريمَ اللهِ تعـالى إيَّاهـا، وسوءَ عاقبةِ تلكَ المفاسدِ في الدُّنيا والآخرةِ، أو تعلمونَ أَنَّ ما فعلتموهُ خيانةٌ؛ لظهورِه، وأمَّا ما خَفِيَ عنكُم حُكْمُه؛ فالجهلُ بهِ عذرٌ إذا لم يكنْ ممَّا عُلِمَ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ؛ كفِعلةِ أَبي لُبابةَ التي كانتْ هفوةً سببُها الحرصُ على المالِ والولدِ، وسنذكُرُ القصةَ في آخرِ البابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ولمَّا كانَ حبُّ الأموالِ والأولادِ مُردياً في الخيانةِ؛ أَعلَمَنا اللهُ تعالى بهِ عقبَ النَّهيِ عنها، فقالَ: ﴿واعْلَمُوا أنَّما أَمْوالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، الفتنةُ: هي الاختبارُ والامتحانُ بما يشُقُّ على النفسِ فعلُه أو تركُه أو قَبولُه أو إنكارُه، فتكونُ في الاعتقـادِ والأقـوالِ والأعمـالِ؛ يمتَحِنُ اللهُ تعـالى المؤمنينَ والكـافـرينَ والصـادقينَ، ويحاسِبُهم ويجازيهِم بما يترتَّبُ على فتنَتِهم مِن اتِّباعِ الحقِّ أو الباطلِ، وعملِ الخيرِ أو الشَّرِّ.

وفتنةُ الأموالِ والأولادِ عظيمةٌ، لا تَخْفى على ذي فهمٍ وعقلٍ، فالواجبُ على المؤمنِ اتِّقاءُ خطرِ الفتنةِ في الأموالِ؛ بكسبِها مِن الحلالِ، وإنفاقِها في سبيلِ اللهِ، واتِّقاءُ الحرامِ في الكسبِ والإنفاقِ، واتِّقاءُ خطرِ الفتنةِ الثانيةِ في الأولادِ بما أوجبَ اللهُ تعالى على الوالدينِ مِن حُسْنِ تربيةِ الأولادِ على الدِّينِ والفضائلِ، وتجنُّبِهم أسبابَ المعاصي والرذائلِ.

﴿واللهُ عندَهُ أجرٌ عَظيمٌ﴾، وهٰذا تذكيرٌ مِن اللهِ للمؤمنينَ بما يُعينهم على ما يجبُ عليهِم مِن اتِّقـاءِ الفتنتينِ، وهـو إيثـارُ ما عندَ اللهِ سبحانَه مِن الأجرِ العظيمِ لمَن راعى أَحكامَ دينِه وشرعِه في الأموالِ والأولادِ، ووقفَ عندَ حدودِهِ.

فيا أَيُّها المؤمنونَ! خافوا مِن اللهِ ربِّكُم، ولا تَخونوا الأماناتِ، بل تُوبوا إلى

اللهِ توبةً نصوحاً.

ولكنْ؛ مِن الأسفِ أنَّنا نشاهِدُ كثيراً ممَّنْ يدَّعونَ الإيمانَ يخونونَ اللهَ ورسولَه في انتهاكِ حُرُماتِ دينِهم مِن الشِّركيَّاتِ، ودعاءِ الأرواحِ والأمواتِ، والاستغاثةِ بهِم، ومِن الفواحشِ والفُجورِ، ويخونونَ أُمَّتَهُم ودولَتَهم بثمنٍ قليلٍ أو كثيرٍ مِن المالِ يرجونَه أو ينالونَه مِن عدوِّهِم، وقد يكونُ مِن مالِ أُمَّتِهم وغنائمِ وطنِهم، أو خوفاً على مالِهم وولدِهم.

وقد أسقطتِ الخيانةُ دولةً كانتْ أعظمَ الدُّولِ في الأرْضِ قوةً وبأْساً؛ بارتكابِ رجالِها الرشوةَ والخيانةَ مِن أهلِها ومِن الأجانبِ، حتى مُسِخَتْ مِن الدِّينِ إلى اللَّادينيَّة، فصارتْ دولةً صغيرةً فقيرةً، ألا وهي تركيًا اللادينيَّة، ولٰكنَّ الخَلَفَ المغرورَ لذٰلك السلفِ المخرِّبِ يدَّعونَ أنَّما أسقطَها تعاليمُ الإسلامِ القويمةُ؛ لأنها صارتْ قديمةً!!

واللهِ العظيمِ؛ إنَّهم لو أقاموا واجباً واحداً أو أدباً واحداً مِن آدابِ القرآنِ؛ لكانَ كافياً لوقايَتِها مِن الزَّوالِ، وإنَّما سببُ كلِّ هٰذه الأمورِ الجهلُ بمعاني القرآنِ كما لا يخفى، فصاروا مِن المحرومينَ.

وأما قصةُ أبي لُبابةَ رضيَ اللهُ عنهُ كما ذكرَها ابنُ كثيرٍ في «تفسيرِه» وكذا البغويُّ[1] وعامَّةُ المفسِّرينَ[2]؛ فقد روى عبدُ الرزاقِ وأبو قتادةَ والكلبيُّ والزُّهريُّ أنَّ هٰذه الآيةَ نزلتْ في شأْنِ أبي لبابةَ هارونَ بنِ عبدِالمنذرِ الأنصاري، وذٰلك

(١) في «معالم التنزيل» (٢ / ٦١٩).

(٢) انظر ما سبق تعليقاً (ص ١٩٥).

وأزيد هنا أنَّ المرويَّ فيه كلُّه مراسيل ومعاضيل، فانظر «الفتح السماوي» (٢ / ٦٥٥) والتعليق عليه.

«أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حاصرَ يهودَ بني قريظةَ إحدى وعشرينَ ليلةً، فسألوا رسولَ اللهِ ﷺ الصُّلْحَ على ما صالحَ عليهِ إخوانَهُم مِن بني النَّضيرِ على أنْ يسيروا إلى إخوانِهم إلى أذرعاتَ وأريحاءَ مِن أرضِ الشامِ، فأبى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يعطيَهُم ذلك؛ إلاَّ أنْ ينزلوا على حُكمِ سعدِ بنِ معاذٍ رضيَ اللهُ عنهُ، فأبَوْا، وقالوا: أرسِلْ إلينا أبا لُبابةَ بنَ عبدِالمنذرِ، وكانَ مناصحاً لهم؛ لأنَّ مالَه وولدَهُ وعيالَه كانتْ عندَهُم، فبعثَه رسولُ اللهِ ﷺ، فقالوا: يا أبا لُبابةَ! ما ترى؟ أننْزِلُ على حُكْمِ سعدِ بنِ معاذٍ، فأشارَ أبو لبابةَ بيدِه على حلقِهِ؛ أنَّهُ الذبحُ، فلا تفعلوا. قالَ أبو لُبابةَ: واللهِ ما زالتْ قدمايَ مِن مكانِهما حتى عرفْتُ أنِّي قد خُنْتُ اللهَ ورسولَه. ثم انطلَقَ على وجهِهِ، ولم يأْتِ رسولَ اللهِ ﷺ، ودخَلَ المسجدَ، وشدَّ نفسَه على ساريةٍ مِن سواري المسجِدِ، وقالَ: واللهِ لا أبرَحُ ولا أذوقُ طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ أو يَتوبَ اللهُ عليَّ. فلمَّا بلغَ رسولَ اللهِ ﷺ خبرُه؛ قالَ: أما لو جاءَني لاستغفرتُ لهُ، فأما إذا فعلَ ما فعلَ؛ فإنِّي لا أُطلِقُهُ حتى يتوبَ اللهُ عليهِ. فمكثَ سبعةَ أيَّامٍ لا يذوقُ فيها طعاماً ولا شراباً، حتى خرَّ مَغْشِيّاً عليهِ، ثمَّ تابَ اللهُ عليهِ، فقيلَ لهُ: يا أبا لُبابةَ! قد تابَ اللهُ عليكَ. فقالَ: لا واللهِ؛ لا أُحِلُّ نفسي حتى يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ هو الذي يَحُلُّني بيدِه. فجاءَ، فحلَّهُ بيدِه، ثمَّ قالَ أبو لبابةَ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ مِن تمامِ توبتي أنْ أهْجُرَ دارَ قومي التي أصبتُ فيها الذَّنبَ، وأنْ أنخَلِعَ مِن مالي كلِّه. فقالَ النبيُّ ﷺ: يجزيكَ الثُّلثُ، فتصدَّقْ بهِ».

وتصدقُ الآيةُ أيضاً على قصةِ حاطبِ بنِ أبي بلتَعَة[1].

---

(١) وهـو غير ثعلبة بن حاطب الذي رُويت فيه روايات فيها نفاقه (!) وخيانته (!)

وإنَّما صدرَ منهما هاتانِ الخيانتانِ؛ حبّاً للمالِ والأولادِ.

وعن هٰذا قالَ تعالى: ﴿واعْلَمُوا أنَّما أمْوالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

وقـد رُوِيَ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ أُتِيَ بصبيٍّ فقبَّلَهُ، وقالَ: «أما إنَّهُم مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ، وإنَّهُم لَمِنْ رَيْحانِ اللهِ عزَّ وجلَّ»[1].

وبالجملةِ؛ وإنْ رووا في السببِ قصصاً؛ فالصحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ؛ لأنهُ يُؤخَذُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السَّببِ عندَ أهْلِ الحقِّ، والخيانةُ تعمُّ الصغارَ والكبارَ واللازمةَ والمتعديةَ[2]، والأهمُّ ما يتعلَّقُ بالمملكةِ، وحفظِ الوطنِ، وصيانةِ كيانِ الإسـلامِ والمسلمينَ، وأهمُّ منهـا ما يتعلَّقُ بالـدينِ والإيمانِ؛ كإدخالِ الشـركِ والـوثنيَّةِ في الـدينِ باسمِ التصوُّفِ، وباسمِ الوِلايةِ، وباسمِ الحالِ

= وكلها لا تصح ولا تثبت. وأما قصة حاطب؛ فستأتي عند المصنف (ص ٢٩١).

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (٣٤٤٨) من طريق يحيى بن يحيى عن ابن لهيعة عن الأسود عن عروة عن عائشة.

وسنده ضعيفٌ؛ لحال ابن لهيعة، فالراوي عنه إنما لقيَه بعد اختلاطه واحتراق كتبه.

وله شاهدٌ، أخرجه: أحمد (٦ / ٤٠٩)، والترمذي (١٩١١)؛ من طريق ابن أبي سُويد عن عُمر بن عبدالعزيز عن خولة بنت حكيم.

وابن أبي سُويد ـ واسمه محمد ـ وثَّقه ابنُ حبان، ولم يرو عنه إلا اثنان.

ولا يُعرف سماعُ لعمر بن عبدالعزيز من خولة.

فلعله إن شاء الله يتقوَّى به.

وأورد السيوطي في «الجامع الصغير» القطعة الثانية من الحديث «الولد من رَيْحان الجنة»، فأودعه شيخُنا في «ضعيفه» (٦١٦٦).

أما القطعة الأولى؛ فلها شواهد عدة، فانظر «المجمع» (٨/١٥٥)، وما سيأتي (ص٣١٠).

(٢) من كلام ابن كثير؛ كما سبق نقلُه عنه.

ورجالِ الغيبِ، فتنبَّهْ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والأربعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ منبِّهاً إيَّاهُم، وموصياً بهِم: أنْ يتَّقوا اللهَ في كلِّ ما يجبُ أنْ يُتَّقى بمقتضى دينِه وشرعِه، وبمقتضى سننِه في نظامِ خَلْقِه؛ يجعلُ لكُم بمقتضى هٰذه التقوى مَلَكَةً مِن العلمِ والحكمةِ، تُفرِّقونَ بها بينَ الحقِّ والباطلِ، وتفصِلونَ بينَ الضارِّ والنافعِ، وتميزونَ بينَ النُّورِ والظُّلمةِ، وتزيلونَ بينَ الحجَّةِ والشُّبهةِ، ويحصلُ لكُم نورُ البصيرةِ الذي يفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطلِ، وهو الفرقانُ الحكميُّ العلميُّ، والفرقانُ العمليُّ الذي هو ثمرةُ العلميِّ، وهٰذا النورُ لا يحصُلُ ولا يصلُ إليهِ طالبُه إلاَّ بالتقوى.

وقد أمرَ اللهُ تعالى بالتَّقوى في مواضعَ مِن كتابهِ؛ باتِّقائه، وباتِّقاءِ النارِ، وباتِّقاءِ الشركِ والمعاصي، وباتقاءِ الفتنِ العامَّةِ في الدُّولِ والأممِ، وباتِّقاءِ الفشلِ والخذلانِ في الحربِ، وباتِّقاءِ ظُلمِ النساءِ، وبيَّنَ أنَّ العاقبةَ في إرثِ الأرضِ للمُتَّقينَ؛ كما أنَّ أرضَ الجنةِ في الآخرةِ للمُتقينَ، والتقوى أجرُها كثيرٌ، وعاقبتُها حميدةٌ، والتقوى حصولُها موقوفٌ على العلمِ الواسعِ بمعاني الكتابِ والسنةِ، وكمالُ هٰذا يتوقَّفُ على معرفةِ سننِ اللهِ تعالى في الإنسانِ منفرداً ومجتمعاً؛ كما أرشدَ اللهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ مِن كتابه.

ولكنْ؛ لما دخلَ الأعاجمُ في الإسلامِ، وغلبوا على أمورِ المسلمينَ؛

---

(١) الأنفال: ٢٩.

كأبي مسلمٍ الخُراسانيِّ[1] وأمثالِه، وهُم جاهِلونَ بمعاني كلامِ ربِّهم؛ خرجوا عنِ التَّقوى الواجبةِ، وهم لا يفرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ، فأَدخلوا في الدينِ والإسلامِ ما ليسَ منهُ، فأفسدوا السياسةَ، وفرَّقوا بينَ المسلمينَ، وجعلوهُم مذاهبَ وفِرقاً، وصاروا سبباً لضعْفِهم وزوالِ مُلكِهم ودُولِهم.

فيا أيُّها المؤمنونَ! اتَّقوا اللهَ، وتوبوا إليهِ، وارجعوا عما أَنتُم عليهِ مِن الشِّركيَّاتِ والجهالاتِ والتُّرَّهاتِ والتعصُّباتِ؛ ليكفِّرَ عنكُم سيئاتِكم الماضيةَ، ويغفرَ لكُم، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ، فإنْ تبتُم؛ تابَ اللهُ عليكُم، ويوفقكُم ويعطيكُم السعادةَ والدولةَ في الدُّنيا والآخرةِ.

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والأربعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا لَقيتُمْ فِئَةً فاثْبُتوا واذْكُروا اللهَ كَثيراً لعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ . وأَطِيعوا اللهَ ورَسولَهُ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ ريحُكُمْ واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرينَ﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى، وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إياهم بالثبوتِ عندَ لقاءِ العدوِّ، وإكثارِ ذكرِ اللهِ تعالى قلباً ولساناً، ولا شكَّ أَنَّ الثباتَ يفيدُ في كلِّ أعمالِ البشرِ، فهو وسيلةُ النجاحِ في كلِّ شيءٍ.

فأَكثِروا مِن ذكرِ اللهِ في أَثناءِ القتالِ وتضاعيفِه؛ اذكُروهُ في قُلوبِكُم؛ بذكرِ قدرتِه ووعدِهِ بنصرِ رُسُلِه والمؤمنينَ وكلِّ مَن يَتَّبِعُ سنَّتَهم بنصرِ دينِه وإقامةِ سننِه، ويذكرِ نهيِهِ لكُم عن اليأسِ مهما اشتدَّ البأْسُ، وبأنَّ النصرَ بيدِه ومِن عندِه؛

(١) انظر ما سبق عنه (ص ٥١ و١٢٠).

(٢) الأنفال: ٤٥ ـ ٤٦.

ينصرُ مَن يشاءُ وهو القويُّ العزيزُ، فمَن ذكرَ هٰذا، وتأمَّلَ فيهِ؛ لا تهولُه قوةُ عدوِّه واستعدادُه؛ لإيمانِه بأنَّ اللهَ تعالى أقوى منهُ.

واذكروهُ أيضاً بألسنتِكم؛ موافقةً لقلوبِكُم؛ بمثلِ التكبيرِ الذي تصغُرونَ بملاحظةِ معناهُ كلَّ ما عداهُ، والدعاءِ والتضرُّعِ إليهِ عزَّ وجلَّ معَ اليقينِ بأنه لا يُعْجِزُه شيءٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾.

فهٰذا الفلاحُ وهٰذا الرجاءُ منوطٌ بالأمرينِ كلَيهما؛ أي الثباتِ وذكرِ اللهِ تعالى، هما السببانِ المعنويانِ للفلاحِ والفوزِ في القتالِ في الدُّنيا، ثم في نيلِ الثوابِ في الآخرةِ، وكانَ جنودُ المسلمينَ حينما كانوا يسمعونَ الأذانَ في ميدانِ القتالِ يبكونَ بنشيجٍ عالٍ، ويكِرُّون على الأعداءِ الكفارِ، فكانوا يُنصَرونَ.

ولا شكَّ أنَّ تأثيرَ الإيمانِ في قلوبِ الشعبِ الإسلاميِّ ينفذُ إلى أعماقِ القلوبِ باستحسانِ الموتِ في سبيلِ الدفاعِ عنِ الدينِ وعنِ الوطنِ، ولو لم يكنْ هناكَ أملٌ في المكافأةِ، وهٰذا هو الشعورُ الإيمانيُّ، والوجدانُ الإسلاميُّ.

وقد أمرَ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ بالإكثارِ مِن ذِكرِه، وحثَّهم عليهِ، ووصفَ الصادقينَ بهِ في آياتٍ أُخرى كما وصفَ المنافقينَ بقلَّتِه؛ لأنَّ الذكرَ غذاءُ الإيمانِ، فلا يكمُلُ إلَّا بكثرتِه، فمَن غفِلَ عن ذكرِ اللهِ تعالى؛ استحوذَ الشيطانُ على قلبِه، وزيَّنَ لهُ الشرورَ والمعاصي.

فيا أيُّها المؤمنونَ! أطيعوا اللهَ ربَّكُم في هٰذه الأوامرِ المرشدةِ إلى أسبابِ الفلاحِ في القتالِ وغيرِه، وأطيعوا رسولَه محمداً ﷺ فيما يأمرُ بهِ وينهى عنهُ مِن شؤونِ القتالِ وغيرِها؛ مِن حيثُ إنَّهُ ﷺ هو المبيِّنُ لكلامِ اللهِ الذي أنزلَه إليهِ على ما يريدُه اللهُ تعالى منهُ، والمنفِّذُ لهُ بالقولِ والعملِ والحُكْمِ.

﴿ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ ريحُكُم﴾: هٰذا النهيُ مَسوقٌ للأمرِ بالثباتِ وكثرةِ الذِّكرِ وبطاعةِ اللهِ والرسولِ، ومتمِّمٌ للغرضِ منهُ، فإنَّ الاختلافَ والتنازعَ مدعاةُ الفشلِ، وهو الخيبةُ والنُّكولُ عن إمضاءِ الأمرِ، وتذهَبَ ريحُكم وقوتُكم فيظهرَ عدوُّكُم عليكُم.

﴿واصْبِرُوا إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرين﴾: بالمعونةِ والتأييدِ، ومنْ كانَ اللهُ معهُ؛ فلا يغلبُه شيءٌ.

فيا أيُّها المسلمونَ! كونوا مؤمنينَ عامِلينَ بهٰذه الإرشاداتِ الربّانيةِ، ولا تغترُّوا بسفاسِفِ الفلاسفةِ وترَّهاتِ الملاحدةِ، واجتهدوا في العملِ بالأوامرِ الإلٰهيةِ، وكونوا صابرينَ عليها، حتى تنالوا الدَّرجاتِ العُلى في الدُّنيا والآخرةِ.

والمسلمونَ منذُ تنازعوا واختلفوا وصاروا مذاهبَ وطُرُقاً يتعصَّبُ بعضُهم لبعضٍ؛ صاروا يُعادي بعضُهم بعضاً، ويضلِّلُ بعضُهم بعضاً، قد ذهبتْ ريحُهم، وتلاشتْ قوتُهم، وصاروا طعمةً لكلابِ الإنكليزِ، وخنازيرِ الروسِ البلاشفةِ، وذئابِ الطليانِ والفرنسيس، ولكنَّ العجبَ أنهم لا ينتبهونَ، وعنْ سكرتهم لا يفيقونَ، بل في غيِّهم وطغيانِهم يعمَهونَ، قد أعماهُم الجهلُ، وأضلَّهم الفكرُ الفاسدُ والخيالُ الكاسدُ.

فيا أيُّها المسلمونَ! اتركوا المذاهبَ المبتدعةَ والطُّرقَ الوثنيةَ كليّاً، واكتفوا كلُّكم جميعاً بالتمذهبِ بمذهبِ الإمامِ الأعظمِ على الإطلاقِ بالاتفاقِ سيِّدنا محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ عقيدةً وعملاً، فحينئذٍ تتَّحِدونَ وتتَّفِقونَ، فتفوزونَ وتسعدونَ وتقوونَ وتُنْصَرونَ وتؤيَّدونَ بالنصرِ الإلٰهيِّ، وهٰذا هو الحقُّ، وماذا بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟

الآيةُ الخمسونَ في سورةِ التوبةِ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا آباءَكُمْ وإخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فأُولٰئكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن اتخاذِ الآباءِ والإخوانِ الكافرينَ أولياءَ إنْ هُم أصرُّوا على كُفرِهم، وآثروهُ على الإيمانِ؛ لأنَّ باختلافِ الدينِ تنقَطِعُ العلاقةُ، فلا ينبغي للمؤمنِ أنْ يوصِلَ هٰذه العلاقةَ المقطوعةَ، والكافرُ مِن حيثُ إنَّهُ كافرٌ لا يحبُّ المؤمنَ مِن حيثُ إنَّهُ مؤمنٌ، فلهٰذا؛ إذا تولَّى وأحبَّ العبدُ المؤمنُ الكافرَ - ولو أباهُ أو أخاهُ -؛ فقد ظلَمَ نفسَه بوضعِ الحبِّ في غيرِ موضعِه، والمؤمنُ يحبُّ اللهَ ورسولَه أشدَّ مِن حبِّه نفسَه؛ فضلاً عن حبِّ أبيهِ وأخيهِ، فلهٰذا يجاهدُ في اللهِ، ويقاتلُ، ولو معَ أبيهِ وأخيهِ وأقربائِه الكافرينَ.

فمَن تركَ الجهادَ في سبيلِ اللهِ لأجْلِ رعايةِ آبائِه وأبنائِه وإخوانِه وأزواجِه وعشيرتِه، أو لأجْلِ حفظِ أموالِه وأملاكِه وتجارتِه وكسبِه، أو مساكنِه العاليةِ وقصورِهِ الفاخرةِ وبساتينِه الزاهرةِ، وقدَّمَ حبَّ هٰذه الأشياءِ على حبِّ اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيلِه؛ فليتربَّصوا ولينتظروا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِه، وهٰذا وعيدٌ لهُم؛ لتذهَبَ أنفسُهم فيهِ كلَّ مذهبٍ.

ولا شكَّ أنَّ الذينَ يؤثِرونَ حبَّ أهلِهم وأموالِهم على حبِّ اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيلِه منافقونَ، ولا يصدُرُ هٰذا إلا عنِ المنافقينَ، ولا ريبَ أنَّ الذينَ اتَّصفوا بتلكَ الصفاتِ غيرُ تامِّي الإيمانِ أو غيرُ صحيحيهِ، ومَن آثرَ حبَّ هٰذه

---

(1) التوبة: ٢٣.

الأشياءِ على حبِّ اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيلِه؛ فهو مِن المحرومينَ مِن الصلاحِ والإصلاحِ، والفوزِ بسعادةِ الدارينِ، والحاصلُ مِن حبِّ اللهِ ورسولِهِ والجهادِ في سبيلِه، وبهِ يحصُلُ الولاءُ والاتحادُ بينَ المؤمنينَ، فتزولُ خرافاتُ الشركِ ومفاسدُه، ويُقامُ الحقُّ والعدلُ؛ كما لا يخفى.

فيا أيُّها المؤمنونَ! ارجِعوا إلى حبِّ ربِّكُم، واجتهدوا في فهمِ كلامِه وخطابِه؛ لأنَّهُ خاطبَكُم وأمرَكُم ونهاكُم، فلا تكفُروا هٰذه النعمةَ العظمى والدولةَ الكبرى، ولا تضيِّعوا أعمارَكُم وأنفاسَكُم بسفاسِفِ الهوى وترَّهاتِ الآراءِ، وخُذوا حظَّكُم مِن نعمِ ربِّكُم، ولا تكونوا مِن المحرومينَ والمردودينَ الخاسِرينَ، فلا ينفعُكم آباؤكُم ولا أبناؤكم، ولا أموالُكم وجاهُكُم، ولا ساداتُكُم وشيوخُكُم، ولا مذهبُكم وطريقتُكم، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بقلْبٍ سَليمٍ﴾[1]؛ أي: سليمٍ مِن الشركِ، وسليمٍ مِن الكفرِ، وسليمٍ مِن النفاقِ، وسليمٍ مِن الشكِّ، وسليمٍ مِن الزندقةِ، وسليمٍ مِن الرياءِ.

اللهُمَّ ارزُقنا قلباً سليماً، وإيماناً ثابتاً، وتوحيداً خالصاً، ولساناً ذاكراً آمينَ.

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والخمسونَ في سورةِ التوبةِ أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّما المُشْركونَ نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرامَ بعدَ عامِهِمْ هٰذا وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إنْ شاءَ إنَّ اللهَ عَليمٌ حَكيمٌ﴾[2].

(١) الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) التوبة: ٢٨.

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ؛ منبِّهاً إيَّاهُم بأنَّ المشركينَ أنجاسٌ، فلا تتركوهُم يقرَبونَ المسجدَ الحرام ويُقيمونَ فيه.

ولفظُ النجسِ إذا وُصِفَ بهِ الإنسانُ؛ فالمرادُ به أنَّهُ شرِّيرٌ خبيثُ النفسِ، وإنْ كانَ طاهرَ البدنِ والثوبِ حسّاً، في المثلِ: الناسُ أجناسٌ، وأكثرُهم أنجاسٌ، نجَّستهُم الذنوبُ، فلا ترى أنجسَ مِن المشركِ والكافرِ.

فمعنى الآيةِ: يا أيُّها المؤمنونَ! اعلموا أنَّ المشركينَ ليسوا كما تعلمونَ مِن ظاهرِ حالِهم، بل هم أنجاسٌ فاسدو الاعتقادِ، يُشْركونَ باللهِ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ، فيعبدونَ الرجسَ مِن الأوثانِ والأصنامِ، ويدينونَ بالخرافاتِ والأوهامِ، ولا يتنزَّهونَ عنِ النجاساتِ والآثام، ويأكلونَ الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرِ، ويستحلُّونَ القمارَ والزِّنا مِن الأرجاسِ، وقد تمكَّنَتْ صفاتُ النجسِ منهُم حسّاً ومعنىً، حتى كأنَّهُم عينُه وحقيقتُه، فلا تمكِّنوهُم بعدَ هٰذا العامِ ـ عامِ تسعةٍ مِن الهجرةِ، وثاني عامِ الفتحِ ـ أن يقرَبوا المسجدَ الحرامَ بدخولِ أرضِ الحرمِ؛ فضلاً عنْ دخولِ البيتِ نفسِه، وطوافِهم عراةً فيهِ؛ يشركونَ بربِّهم في التلبيةِ، وإذا صلَّوْا عندَ البيتِ لمْ تكنْ صلاتُهم إلَّا مكاءً وتصديةً[1].

وقد روى مسلمٌ[2] عن عبدِاللهِ بنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما: أنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لأُخْرِجَنَّ اليهودَ والنَّصارى مِن جزيرةِ العربِ؛ فلا أتْرُكُ فيها إلَّا مُسلِماً». وفي روايةٍ[3]: «أخْرِجوا المشركينَ مِن جَزيرةِ العربِ».

---

(١) كما في سورة الأنفال: ٣٥.

(٢) برقم (١٧٦٧)، وهو عن عُمر، لا عن ابنه.

(٣) وهي في: البخاري (٦ / ١١٨)، ومسلم (١٦٣٧)؛ عن ابن عباس.

ولم يتفرَّغْ لذلك أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، وأجلاهُم عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في خلافتِه، وأَجَّلَ لمنْ يقدُمُ تاجراً ثلاثاً.

وعنِ ابنِ شهابٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا يجتَمِعُ دينانِ في جَزيرةِ العربِ»، أخرجهُ مالكٌ في «الموطإ»[1].

لأنَّ إقامتَهُم لا تخلو عن إيقاعِ فتنةٍ، وإفسادِ عقيدةٍ وأخلاقٍ، وهٰذا ظاهرٌ بيِّنٌ.

ويا أيُّها المؤمنونَ! إنْ خطرَ ببالِكم أنَّكُم إذا منعتُم المشركينَ تنقطعُ عنكُم الأرزاقُ، فتقعونَ في الضيقِ والفقرِ؛ فاعلموا أنَّ اللهَ الكريمَ الرزاقَ يُغنيكُم مِن فضلِه، وفضلُه تعالى كثيرٌ.

والمنافقونَ في كلِّ عصرٍ وزمانٍ يُلقونَ الشبهةَ في قلوبِ الناسِ، فحيثُ إنَّ أكثرَ الناسِ ضعيفو الإيمانِ، يميلونَ إلى الكفارِ، ويعتمدونَ عليهِم، ويرضَوْنَ بدخولِهم في أرضِ الحرمينِ؛ فهُم يُفْسِدونَ دينَهُم وعقيدتَهم شيئاً فشيئاً؛ كما هو معروفٌ في الشَّريفِ حُسينٍ وأحزابِهِ[2].

إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بحقائقِ الأمورِ، وما في الصدورِ، وحاجاتِ عبادِه،

---

(1) (2 / 892 و893) مرسلاً.

ووصله جماعةٌ من طُرق عدة؛ كما تراه في: «نَصْب الراية» (3 / 453)، و«التلخيص الحبير» (4 / 124)، وهو حديث صحيح.

وزعم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (9 / 343) أنّه موصولٌ في «الصحيحين» عن ابن عباس!! وليس كذٰلك، إنما ذاك حديثٌ آخر، وهو: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»! وسبق تخريجه.

(2) انظر ما سبق (ص 150)، والتعليق عليه.

وحكيمٌ فيما شرعَهُ في الأمرِ والنهيِ ، فآمِنُوا باللهِ، وامتثلوا أمرَه صدقاً وإخلاصاً؛ تَرَوا فضلَ اللهِ داراً عليكُم بتسخيرِ عبادِه لكُم وتمهيدِ سبيلِ المَلِكِ والمُلْكِ، وبسطِ الرزقِ، ويزيدكُم نصراً وغنىً إذا وفيتُم بما شرَطَه عليكُم؛ بمثلِ قولِه: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم﴾[1].

اللهُم اهدِنا فيمَن هديتَ يا ربَّ العالمين.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والخمسونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنَّ كَثيراً مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيَأْكُلونَ أَموالَ النَّاسِ بالباطِلِ ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ والَّذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها في سبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بعَذابٍ أَليمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بها جِباهُهُم وجُنوبُهُم وظُهُورُهُم هٰذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقوا ما كُنْتُم تَكْنِزونَ﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ منبِّهاً إيَّاهُم بأَنَّ كثيراً مِن العلماءِ والعبَّادِ والمشايخِ والساداتِ ليأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ، ويمنعونَهم عن السلوكِ في سبيلِ اللهِ وسبيلِ الحقِّ والطاعةِ.

وحيثُ إنَّ اليهودَ والنصارى اتَّخذوا أَحبارَهم ورهبانَهُم أرباباً مِن دونِ اللهِ، ورفعوهُم فوقَ قدْرِهم، وافتُتِنَ هٰؤلاءِ العلماءُ والعبَّادُ واغترُّوا ففسدوا، فأرادَ اللهُ تعالى أَنْ يُبيِّنَ لنا شيئاً مِن سيرةِ جمهورِ هٰؤلاءِ الرؤساءِ الدينيِّينَ العلميةِ والعمليَّةِ ليعرفَ المسلمونَ حقيقةَ حالِهم، والأسبابَ التي تحمِلُهم على محاولةِ الصدِّ عن

---

(1) سورة محمد: ٧.

(2) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

سبيلِ اللهِ تعالى، وأنَّ أكثرَهم يعبدونَ أهواءَهُم وشهواتِهم.

واستعمـلَ أكلَ الأموالِ بمعنى أخذِها والتصرُّفِ فيها بوجوهِ الانتفاعِ، وإسنادُ هٰذه الجريمةِ المُزْرِيةِ إلى الكثيرِ منهُم دونَ جميعِهم مِن دقائقِ تحرِّي الحقِّ في عباراتِ الكتابِ العزيزِ، فهو تعالى لا يحكُمُ على الأمَّةِ الكبيرةِ بفسادِ جميعِ أفرادِها أو فسقِهم أو ظلمِهم، بل يسنِدُ ذٰلك إلى الكثيرِ أو للأكثرِ.

والمعنى العامُّ لأكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ هو أخذُها بغيرِ وجهٍ شرعيٍّ، فمنها ما يبذُلُهُ كثيرٌ مِن الناسِ لِمَنْ يعتقِدونَ أنهُ عابدٌ قانتٌ للهِ زاهدٌ في الدُّنيا؛ ليدعو لهُم ويشفعَ لهُم عندَ اللهِ في قضاءِ حاجاتِهم وشفاءِ مَرضاهُـم؛ لاعتقادِهم أنَّ اللهَ تعالى يستجيبُ دعاءَهُ ولا يردُّ شفاعتَه.

الـدعاءُ مشروعٌ دونَ أخذِ المالِ بهِ أو عليهِ، والرَّجاءُ باستجابتِهِ حسنٌ، واعتقـادُهُ بالجـزمِ جهـلٌ، أو لظنِّهم أنَّ اللهَ تعـالى أعطاهُ سلطاناً وتصرُّفاً في الكونِ، فهو يَقضي الحاجاتِ مِن دفعِ الضُّرِّ عمَّنْ شاءَ وجَلْبِ الخيرِ لمَن يشاءُ متى شاءَ، وهٰذا هو اعتقادُ الوثنيِّينَ في أوثانِهم ومعبوداتِهم، قد طرأتْ على أتباعِ الأنبياءِ عليهِم السَّـلامُ بدسائسِ الدَّخيلِ فيهِم، وتأوَّلها لهُم الرؤساءُ الدينيُّونَ المضلُّونَ؛ بأنَّها لا تُنافي التَّوحيدَ الذي جاءَ بهِ الرسلُ عليهِم السلامُ.

ومنهـا ما يأخُـذُه سَدَنَـةُ قبـورِ الأنبياءِ والصـالحينَ والمعـابدِ التي بُنِيَتْ بأسمائِهم مِن الهدايا والنُّذورِ التي يحمِلُها إلى تلكَ الأماكنِ أمثالُ مَن ذكَرْنا مِمَّنْ لا يعقِلونَ معنى التَّوحيدِ الخالصِ.

والنَّصارى يَبْنونَ الكنائسَ والأديارَ بأسماءِ القدِّيسينَ والقدِّيساتِ، فتُحْبَسُ عليها الأراضي والعقاراتُ، وتُقدَّم لها النُّذورُ والهدايا؛ تقرُّباً إلى تلكَ الأسماءِ

والمسمَّيات

وهٰذا وما قبلَه ممَّا اتَّبَعَ المسلمونَ فيهِ سَنَنَهم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ [١]، ويَدْعونَ تلكَ الأسماءَ معَ اللهِ تارةً، ومِن دونِه تارةً، ويُنْذَرُ لهُ وحده تارةً، ومعَ اللهِ تارةً.

فهٰذه البدعُ الشّركيةُ تتبرَّأُ منها أديانُ الأنبياءِ الموحاةُ إليهم مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والنفقةُ فيها كلُّها مِن الباطلِ، وآكِلوها مِن رؤساءِ الدِّينِ وسدنةِ المعابدِ مِن الذينَ يأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ.

ومنها ما يأخُذُه بعضُ قسوسِ نصارى الكاثوليك جُعْلاً على مغفرةِ الذنوبِ أو ثمناً لها، وكذا ما يأخذهُ دجاجلةُ مَن يدَّعي الإسلامَ على بعضِ التَّمائمِ، وذٰلك أنَّهُ إذا اشتراها الزَّاني أو الزَّانيةُ بثمنِ كذا وعلَّقَه على نفسِه؛ يُغفَرُ كلُّ ذنوبِه.

ومنها ما يأخذُه العلماءُ الدَّجَّالونَ على فتاوى تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ، فأولو المطامعِ والأهواءِ يفتونَ الملوكَ والأمراءَ والأغنياءَ بما يُساعدُهم على إرضاءِ شهواتِهم والانتقامِ مِن أعدائِهم بضروبٍ مِن الحيلِ والتأويلِ.

ومنها الرشوةُ، وهو ما يأخذُه صاحبُ السلطةِ الدينيَّةِ أو المدنيَّةِ ـ رسميةً أو غيرَ رسميةٍ ـ مِن المالِ وغيرِه لأجْلِ الحُكْمِ أو المساعدةِ على إبطالِ حقٍّ أو إحقاقِ باطلٍ.

---

(١) كما أشار إلى ذٰلك النبي ﷺ فيما صحَّ عنه.
انظر الحديث الوارد في ذٰلك وتخريجَه في «تشبُّه الخسيس» (ص ٢٠ ـ ٢١) للإمام الذهبي، بتحقيقي.

ومنها الرِّبا، خُصوصاً الفاحشَ منهُ، وهو فاشٍ عندَ اليهودِ والنصارى، وقد تعامَلَ بمعاملتِهم بعضُ فقهاءِ المسلمينَ، وخُصوصاً في بُخارى وما وراءَ النهرِ؛ فإنَّ أكثرَهم يعامِلونَ بالرِّبا مع حيلتِهم الشرعيةِ الشريَّةِ الملعونةِ، وأكثرُ هؤلاءِ لا يُعطونَ الزَّكاةَ المفروضةَ، بل يأْخذونَها ويتعلَّلونَ بعلَلٍ شيطانيَّةٍ وفتاوى إبليسيَّةٍ؛ كأنهم خارجونَ عن خطابِ ﴿وأَقِيْمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ﴾[1].

ومنها قراءَتُهم القرآنَ لأجْلِ المالِ، وإهداءُ ثوابِها إلى روحِ مَن يريدُ المستأْجِرُ، وغيرُها مِن الأمورِ التي لا تَخْفى على العالِمِ بالدينِ؛ فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ.

وأمَّا صدُّهُم عن سبيلِ اللهِ؛ فهو منعُهم الناسَ عنِ الإسلامِ؛ فإنَّ سبيلَ اللهِ في الدينِ هي طريقُ معرفتِه الصحيحةِ وعبادتِه القويمةِ التي تُرضيهِ. ورأْسُ معرفتِه: التوحيدُ والتنزيهُ، وأمَّا أكثرُ الأحبارِ والرهبانِ؛ فمشركونَ غيرُ موحِّدينَ، ومشبِّهونَ غيرُ منزِّهينَ؛ كما عُلِم مِن الآياتِ السابقةِ. وأمَّا عبادتُه القويمةُ؛ فهي أنْ يُعْبَدَ وحدَه بما شرعَهُ هو دونَ البشرِ، وهم قد غيَّروا وبدَّلوا وأَحْدَثوا. فمعرفةُ اللهِ تعالى وعبادتُه على الوجْهِ الحقِّ المُرضي لهُ تعالى محصورةٌ في الإسلامِ الذي حَفِظَه اللهُ تعالى بكتابِه المنزَّلِ وما بيَّنَه مِن سنَّةِ نبيِّهِ المرسلِ محمدٍ ﷺ.

وكلُّ ما ابتدعَه جهلةُ المسلمينَ والكائدونَ لهُ مِن غيرِهم، فالقرآنُ الحكيمُ والسنَّةُ الصحيحةُ حجَّةٌ على بُطلانِه، وحفَّاظُ السنة وأنصارُها يَنْفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ، وانتِحالَ المُبطِلينَ، وتأْويلَ الجاهِلينَ.

وأمَّــا طرقُ صدِّهِم عنِ الإســلامِ والتــوحيدِ الصحيحِ؛ فهيَ تختلفُ

---

(١) البقرة: ٤٣.

باختلافِ الزمانِ والمكانِ والإمكانِ، وقد انفردَ النَّصارى بالعنايةِ بهٰذا الصَّدِّ مِن طريقي السياسةِ والدعوةِ معاً، وقد أتى اللهُ تعالى بصيغةِ المضارعِ الذي يدلُّ على الحالِ والاستقبالِ، وهُم لا يقنعونَ بصدِّ أهلِ مللِهم عنِ الإسلامِ، بل يصدُّونَ أهلَه عنهُ، كما صدُّوا الأتراكَ الكماليينَ، ودَعَوْهُم إلى دينِهم الملفَّقِ مِن الأديانِ الوثنيَّةِ والدُّهريةِ.

وقد اشتدَّتْ ضراوتُهم بعدَ الحربِ العامَّةِ عام ١٩١٦م؛ بسلبِ البلادِ الإسلاميَّةِ ما بقيَ مِن استقلالِها، وتعميمِ النصرانيةِ في جميعِ أهلِها، حتى جزيرةِ العربِ، وقد سخَّروا بعضَ أمراءِ المسلمينَ المستعبَدينَ وشيوخَ الطرقِ والفقهِ المنافقينَ الدَّجَّالينَ؛ لشدِّ أزرِهم.

فماذا نقولُ بعدَ هٰذا مِن تسخيرِنا زنادِقَتَهم وملاحِدَتَهم؟ وماذا يَفيدُ المسلمُ مِن قِراءةِ مثلِ هٰذه الآيةِ ومِن تفسيرِ علماءِ الألفاظِ والرواياتِ لها إذا لم يعرفْ مضمونَها التفصيليَّ العمليَّ في عصرِه، ويَسعى لتدارُكِ خَطْبِه؟ فلا يكونُ القرآنُ إلَّا حُجَّةً عليه[1].

وأشدُّ طريقِ الصدِّ عنِ الإسلامِ وأشرُّهُ وأضرُّه تعليمُ المدارسِ التي يُفسِدونَ عقائدَ النشءِ الذي يتعلَّمُ ويتربَّى فيها، ولكنَّ أكثرَ مسلمي زمانِنا لا يعقِلونَ كُنْهَ مفاسدِها وسوءَ عاقبتِها في الدينِ والأدبِ وسياسةِ الأمةِ واستقلالِها.

ومِن الصَّادِّينَ عنِ الإسلامِ الصحيحِ والدينِ الحقِّ: شيوخُ الطُّرقِ، وأصحابُ الدَّجلِ، وسدنَةُ المشاهدِ والقبورِ؛ فإنَّهم لانغراقِهم في ظلماتِ

---

(١) تأملوا ـ رحمكم الله ـ هٰذا الكلام العظيم الصادر من عالمٍ عاملٍ كتبه قبل نحو خمسين عاماً، وكأنه يكتبُه اليوم؛ ناظراً أحوال المسلمين، مشاهداً مآسيهم وبلاءاتهم!!

الشـركِ والجهـل والغبـاوةِ والتُّرهاتِ يصدُّونَ الناسَ عنِ الحقِّ، وعنِ التوحيدِ الصَّحيحِ، وعنِ العملِ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، والجهَّالُ يظنُّونَ فيهم الصـلاحَ والـدينَ والخيرَ، والحـالُ أنَّهم صاروا مِن شياطينِ الإنسِ؛ كما هو المشـاهَـدُ في جميعِ أنحـاءِ العالمِ الإسلاميِّ، حتى في الحرمينِ، وهٰؤلاءِ العلماءُ والشيوخُ والساداتُ وإنِ ادَّعَوْا أنَّهُم ورثةُ الأنبياءِ، وقدوةُ الأنامِ، ولكنَّ لسانَ حالِهم وشاهِدَ فِعالِهم يترنَّمُ بهٰذا البيتِ:

وكُـنْـتُ فَتىً مِنْ جُنْـدِ إبْليسَ فارْتَقى
بيَ الحَـالُ حَتَّى صَارَ إبْلِيسُ مِنْ جُنْدي

أعاذَنا اللهُ تعالى مِن شرِّهم، ومِن شُرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، ومِن شرِّ كلِّ ذي شرٍّ.

وإنَّ هٰؤلاءِ الرؤساءَ السوءَ مِن العلماءِ والمشايخِ الذينَ يجمعونَ الأموالَ ويكنِزونَ الذهبَ والفضةَ والجواهرَ، ويبنونَ القصورَ؛ أخبرَ اللهُ عنهُم، فقالَ: ﴿والَّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها فِي سَبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليمٍ﴾[1].

مقتضى السياقِ أنْ تكونَ هٰذه الجملةُ في الكثيرِ مِن الأحبارِ والرهبانِ الذينَ يأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ، ويصدُّونَ عَن سبيلِ اللهِ؛ كما نصَّ عليهِ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ[2].

فكلُّ مَنِ اتَّصف بهٰذه الصفةِ؛ فهو داخلٌ في الوعيدِ مِن الأممِ السابقةِ أو

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢ / ٥٥٠).

مِن هٰذه الأمةِ؛ كما قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ: «نزلت الآيةُ فينا وفيهم جميعاً»[1]، وهو الحقُّ؛ لأنَّ اللفظَ مطلقٌ فيَجبُ جريانُه على إطلاقِهِ وعمومِهِ.

ولا شكَّ أنَّ أكبرَ أسبابِ ضَعْفِ المسلمينَ وذهابِ دولتِهم، وتمكُّنِ أعدائِهم مِن سلبِ مُلْكِهم، ومحاولةِ تحويلِهمَ عن دينِهم: هو حرصُ علمائِهم ومشايخِهم على الدُّنيا، وبخلُ أغنيائِهم، وجُبْنُ ملوكِهم وأُمرائِهم وقوَّادِهم وزُعمائِهم، وكونُهم جاهِلينَ بمعاني كلامِ ربِّهِم، ولقد صدَقَ الذي قالَ: حبُّ الدُّنيا رأْسُ كلِّ خطيئةٍ[2].

فيا أيُّها المؤمنونَ! افهموا كلامَ ربِّكُم، ومواعظَ مولاكُم، واعتبروا بما جرى وما يجري، واجتهِدوا في إصلاحِ أنفُسِكُم؛ لِتنالوا رِضى ربِّكُم، فتفوزوا بسعادةِ الدُّنيا، وإلَّا تكونوا مِن المحرومينَ الخاسرينَ في الدَّارينِ؛ كما هو شأْنُ أكثرِ المغرورينَ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ.

*****

الآيةُ الثالثةُ والخمسونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ أَرَضِيْتُمْ بالحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلَّا قَليلٌ﴾[3].

---

(1) كما رواه البخاري (٣ / ٣١٧).

(2) قال شيخُ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢ / ١٩٦): «هٰذا معروفٌ عن جُندُب بن عبدالله البجلي، وأما عن النبي ﷺ؛ فليس له إسناد معروف».

وانظر: «المقاصد الحسنة» (٣٨٤)، و«أحاديث القصَّاص» (٧٤)، و«تخريج الإحياء» (٣ / ١٩٧ و٤٠١)، و«السلسلة الضعيفة» (١٢٢٦).

(3) التوبة: ٣٨.

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ بالاستفهامِ الإنكاريِّ والتوبيخِ، وإنْ كانَ سببُ النزولِ في واقعةِ تبوكَ، ولكنَّ الخطابَ عامٌّ لعامةِ المؤمنينَ أجمعينَ؛ تربيةً لهُم، وتنبيهاً إيَّاهُم أنْ لا يقعُدوا عنِ الجهادِ؛ لأنَّ القُعودَ عنِ الجهادِ مِن شأنِ المنافِقينَ.

وحاصلُ المعنى: يا أيُّها الذينَ دَخَلوا في الإيمانِ واتَّصفوا بهِ! ماذا عَرَضَ لكُمَ ممَّا يُنافي صحَّةَ الإيمانِ أو كمالَه المُقْتَضي للإذعانِ والطاعةِ حينَ قالَ لكُم الرسولُ: انْفِروا فِي سبيلِ اللهِ؛ لِقتالِ الرومِ الذينَ تجهَّزوا لقتالِكُم، والقضاءِ على دينِكم الحقِّ، الذي هو السبيلُ الموصلُ إلى معرفةِ اللهِ وعبادتِه، وإقامةِ شرعِه وسننِه، فأنتُم تثاقَلْتُم عنِ النُّهوضِ بالنشاطِ وعلوِّ الهمَّةِ؛ مُخْلِدينَ إلى أرضِ الرَّاحةِ واللذَّةِ؟ والحالُ أنَّ آيةَ الإيمانِ بذلُ الجهدِ بالمالِ والنفسِ في سبيلِ اللهِ: ﴿إنَّما المُؤمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بأموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ فِي سَبيلِ اللهِ أُولئكَ هُمُ الصَّادِقونَ﴾[1].

أرضيتُم أيها المؤمنونَ بالحياةِ الدُّنيا مِن الآخرةِ؟ أي: براحةِ الحياةِ الفانيةِ الدَّنيئةِ ولذَّتِها الناقصةِ؛ بدلاً مِنْ سعادةِ الآخرةِ الكاملةِ الباقيةِ الدائمةِ، إنْ كانَ الأمرُ كذلك؛ فقدِ استبدَلْتُم الذي هو أدْنأُ وأدنى بالذي هو خيرٌ وأبقى؛ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا قليلٌ؛ فلا يرضاهُ عاقلٌ بدلاً منه، وإنَّما يؤثِرهُ عليهِ مَن لا يؤمنُ بهِ.

وقد مضتْ سنَّةُ اللهِ تعالى بأنَّهُ لا بقاءَ للأممِ التي تتثاقلُ عنِ الدِّفاعِ عن نفسِها وحفظِ حقيقتِها وسيادتِها.

---

(١) الحجرات: ١٥.

فيا أيُّها المؤمنونَ! استعدُّوا للدِّفاعِ والجهادِ كما أمرَ اللهُ تعالى الحكيمُ، ولا تعتمـدوا على الأرواحِ الخـالياتِ والأجسـادِ البـالياتِ، ولا قراءةِ «دلائلِ الخيراتِ»، أو حِزْبِ النصرِ والبحرِ، أو قراءةِ «صحيحِ البخاري» بدونِ فهمٍ ولا عملٍ بما فيه؛ فإنَّ كلَّها مِن دسائسِ شياطينِ الإنْسِ؛ ليجعلوكُم محرومين مِن الـدَّولتينِ والسَّعادتينِ الدنيويَّةِ والأخْرويَّةِ. فانتَبِهوا، وارْجِعوا إلى أصلِ دينِكُم وكلامِ ربِّكُم وهدايةِ رسوله الأمينِ سيِّدنا محمدٍ خاتمِ النبيِّينَ ﷺ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والخمسونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ**﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بأنْ يتَّقوهُ، ويكونوا مَعَ الصادقينَ، وإنَّما إمامُ الصَّادقينَ هو رسولُ اللهِ ﷺ، فكونوا معهُ ملازمينَ إيَّاهُ ومُمتَثِلينَ أمرَه في غزواتِه وكلِّ حالاتِه، وفي قراءةِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «وكُونُوا مِنَ الصادقينَ»[2].

وعلى أيِّ حالٍ؛ أيهـا المؤمنونَ! اصدُقوا، والزَموا الصدقَ؛ تكونوا مِن أهلِه، وتنْجُوا مِن المهالكِ، ويجعلِ اللهُ لكُم فَرَجاً ومخرجاً في كلِّ أُمورِكم، ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ومَنْ يتوكَّلْ عَلى اللهِ فَهُو حَسْبُهُ﴾[3].

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) كما في «جامع البيان» (١١ / ٦٣) للإمام الطبري، وهي من الشواذّ.

(٣) الطلاق: ٢ ـ ٣.

وقد ثبتَ عن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:
«عليكُمْ بالصِّدْقِ؛ فإنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، ولا يزالُ الرَّجلُ يصدُقُ ويتحرَّى الصدقَ حتى يكتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقاً، وإيَّاكُم والكذبَ؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفُجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النَّارِ، ولا يزالُ الرَّجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكذبَ حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً» رواه الشيخانِ وأصحابُ السُّننِ وأحمدُ[1].

والصَّادقونَ حقيقةً هم الذينَ صدقَتْ نيَّاتُهم، واستقامَتْ قلوبُهم وأعمالُهم، وامتثلوا أمرَ ربِّهم عن صميمِ قلوبِهم، والصادقُ هو الفالحُ في الدَّارينِ، والكاذبُ هو الخاسرُ في الدَّارينِ، وساقطُ الاعتبارِ في الخافِقَيْنِ، وممحوقُ البركةِ.

ولكنَّ الأسفَ أنَّ كثيراً مِن المسلمينَ، بل مَن هُم على زِيِّ العلماءِ والأئمَّةِ والمدرِّسينَ، قد اتَّخذوا الكذبَ شعارَهم، والنفاقَ دِثارَهم، لا يستحيونَ؛ لا مِنَ اللهِ، ولا مِن بني نوعِهم، حتى إنَّ الكفَّارَ يطعنونَ عليهِم ويعيبونَهم.

فيا أيُّها المسلمونَ! أنتُم المخاطَبونَ المأمورونَ بالتَّقوى والصِّدْقِ، فلماذا صرتُم مِن المحرومينَ مِن هٰذه الصفةِ الكريمةِ، وصرتُم أُسارى النفسِ والشيطانِ والهوى، ولوَّثتُم أنفسَكم بصفاتِ أهلِ الخبثِ والجفاءِ؟!

فأفيقوا يا إخواني مِن سكرتِكُم، وتوبوا إلى اللهِ جميعاً توبةً نصوحاً، وكونوا

---

(1) رواه: البخاري في «صحيحه» (10 / 423)، وفي «الأدب المفرد» (386) ومسلم (2606 و2607)، وأبو داود (4989)، والترمذي (1972)، وأحمد في «مسنده» (1 / 384 و393 و405 و410)، وابن أبي شيبة (8 / 590)، وفي ألفاظهم تغاير خفيف.

مِن الصَّادقينَ ومعَ الصادقينَ

* * * * *

الآيةُ الخامسةُ والخمسونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ معَ المُتَّقينَ**﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَهُ المؤمنينَ آمِراً إيَّاهُم بقتالِ مَن يليهُم مِن الكفَّارِ إذا غَدَروا أو تعدَّوا، وآمراً أيضاً بأَنْ يعامِلوهُم معاملةً غليظةً بالشدَّةِ والبطولةِ والشجاعةِ؛ دونَ الرُّعونةِ والجبنِ والكسلِ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! قد أَمرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ أَنْ يُقاتِلوا الكفارَ أوَّلاً فأوَّلاً، الأقربَ فالأقربَ إلى حوزةِ الإسلامِ.

ولهٰذا قد بدأَ رسولُ اللهِ ﷺ بقتالِ المشركينَ في جزيرةِ العربِ، فلما فرَغَ منهُم ـ وقد فتحَ اللهُ تعالى عليهِ مكةَ والطائفَ واليمنَ واليمامةَ وهجرَ وخيبرَ وغيرَ ذٰلك مِن أقاليمِ جزيرةِ العربِ، ودخلَ الناسُ مِن سائرِ العربِ في دينِ اللهِ أفواجاً ـ؛ شرَعَ في قتالِ أهلِ الكتابِ، فتجهَّزَ لغزوِ الرومِ الذينَ هُم أقربُ الناسِ إلى جزيرةِ العربِ، وأولى الناسِ بالدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لأنَّهُم أهلُ كتابٍ، فبلَغَ تبوكَ، ثمَّ رجعَ لأجلِ جهدِ الناسِ، وجدْبِ البلادِ، وضيقِ الحالِ[2]. . . إلخ.

ثمَّ قامَ بعدَه ﷺ خليفتاهُ أبو بكرٍ ثمَّ عمرُ رضيَ اللهُ تعالى عنهُما، فغَزَوْا الرومَ عبدةَ الأوثانِ والصلبانِ، والفرسَ عبدةَ النيرانِ، ففتحَ اللهُ تعالى البلادَ ببركة

(١) آية: ١٢٣.

(٢) انظر تفصيل ذٰلك في «الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك» للسِّندي.

خلوص نيَّةِ هٰؤلاءِ المخلصينَ. . . وهٰكذا.

﴿وَلْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ فإنَّ المؤمنَ الكاملَ الإيمانِ هو الذي يكونَ رفيقاً لأخيهِ المؤمنِ، غليظاً على عدوِّهِ الكافرِ:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَماءُ بينَهُمْ﴾[1]، و﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2].

وفي الحديث: أنه ﷺ قالَ: «أنا الضَّحوكُ القَتَّالُ»[3]، الضَّحوكُ في وجهِ المؤمنِ، والقتَّالُ لعامَّةِ عدوِّهِ الكافرِ.

ولٰكنَّ الأسفَ أنَّ المسلمينَ لما جَهِلوا أَمرَ ربِّهم، وحقيقةَ دينِهم وشرعِهم، ولم يتمكَّنِ الإيمانُ في قلوبِهم؛ انعكسوا، فعكسوا الأمر، بحيث صاروا خاضعين متواضعين للكفار والمنافقين، وغليظي المعاملةِ وعَبوسي الوجوهِ للمؤمنينَ، فلهٰذا أذلَّهُم اللهُ تعالى تحتَ سيطرةِ الكافرينَ والمنافقينَ.

﴿واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقينَ﴾، فأنْتُم أَيُّها المؤمنونَ إذا اتَّقيتُم اللهَ تعالى وأطعتموهُ وامتثلتُم أمرَهِ؛ فاللهُ معكُم، فتكونونَ منصورينَ وغالبينَ مُفْلِحينَ وناجِحينَ وفائِزينَ في الدُّنيا والآخِرَةِ.

ولمَّا كانَ أهلُ القرونِ الثلاثةِ الذينَ هُم خيرُ هٰذه الأمَّةِ[4] في غايةِ

---

(١) محمد: ٢٩.

(٢) التحريم: ٩، التوبة: ٧٣.

(٣) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٦٢٣) دون عزوٍ، والمصنِّف ينقل منه، ولم أجد له أصلاً فيما بحثت.

(٤) كما صحَّ عنه ﷺ، فيما رواه: البخاري (٥ / ١٩٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

الاستقامةِ والقيامِ بطاعةِ اللهِ تعالى؛ لم يزالوا ظاهِرينَ على عدوِّهِم، ولم تزلِ الفتوحاتُ كثيرةً، ولم تزلِ الأعداءُ في سفالٍ وخسارٍ، ولما وقعتِ الفتنُ والأهواءُ والاختـلافاتُ، وغلبَ الجهلُ على العلمِ، وتركوا كتابَ اللهِ وراءَ ظهورِهم؛ طمعَ الأعداءُ في أطرافِ البلادِ، وتقدَّموا إليها، حتى أخذوا بلداناً كثيرةً، ولا يزالونَ يستحوِذونَ على كثيرٍ مِن بلادِ الإسلامِ.

وكلَّما قامَ ملكٌ مِن ملوكِ المسلمينَ وأطاعَ أوامرَ اللهِ وتوكَّلَ على اللهِ؛ فتحَ اللهُ عليهِ مِن البلادِ ما شاءَ بقدرِ ما فيهِ مِن ولايةِ اللهِ؛ كما هُو المشاهَدُ المعلومُ؛ كمـا فتَـحَ اللهُ تعـالى للسعوديِّينَ الوهَّابيِّينَ[1] ولاياتِ الحجازِ والحرمينِ وعامةَ جزيرةِ العـربِ؛ لنصرِهم دينَ اللهِ، وقيامِهم بتوحيدِ اللهِ حقَّ القيامِ، فاللهُمَّ ثبِّتْهُم على الحقِّ، وأيِّدْهُم بتـوفيقِـكَ، وأيِّدْ دولتَهم إلى الأبـدِ على الصـراطِ المستقيمِ آمينَ.

وأمَّـا إذا انحَـرَفـوا عنِ الصِّـراطِ المستقيمِ الـذي ميـزانُه القرآنُ وسنةُ المصطفى؛ سَلَبَ اللهُ تعالى عنهُم الدولةَ، وسلَّطَ عليهِم غيرَهم، حتى يذوقوا الذلَّ، ويحقِّروهُم تحقيراً، ﴿ذٰلكَ بأنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أنْعَمَها على قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا مَا بأنْفُسِهِمْ﴾[2]، ﴿وكذٰلكَ نُوَلِّي بعضَ الظَّالِمينَ بعضاً بِما كَانُوا يَكْسِبونَ﴾[3].

فيا أيُّهـا المسلمونَ! اتَّقوا غضبَ اللهِ وعذابَه وانتقامَه؛ أنْتُم المأمورونَ

---

(١) ولفظ (الوهَّابيين) إنما اخترعه أعداءُ دعوة التوحيد؛ تنفيراً للناس منهم، والأصل تجنُّبه والبعد عنه، لئلا يُجارى أولئك الخصوم بتلقيباتهم! فانظر ما سيأتي (ص ٢٨٣).

(٢) الأنفال: ٥٣.

(٣) الأنعام: ١٢٩.

بالتَّقوى، وأنتُم المأمورونَ بأنْ تعلموا وتفهَموا أوامرَ اللهِ، ولكنَّكُم ضيَّعتُم أهليَّتَكُم، واكتفيتُم مِن كتابِ اللهِ بتلاوتِه وتزيينِ حروفِهِ وخطوطِه؛ مِن غيرِ فهمِ معناهُ وتدبُّرِ ما فيهِ مِن الحكمِ والمواعظِ والعبرِ، فاتَّقوا اللهَ، اتَّقوا اللهَ وكونوا معَ الصادقينَ ومِن الصادقينَ، عسى اللهُ تعالى أنْ يفتَح عليكُم بابَ فضلِه بفضلِه ومنِّهِ؛ إنَّهُ تعالى لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عَملاً.

* * * * *

الآيةُ السادسةُ والخمسونَ في سورةِ إبراهيمَ: ﴿قُلْ لِعَبادي الَّذِينَ آمَنُوا ا الصَّلاَةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ خِلالٌ﴾[1].

قد أمرَ اللهُ تعالى رسولَه محمداً ﷺ أنْ يبلِّغَ لعبادِ اللهِ المؤمنينَ أنْ يقوموا للهِ بطاعتِه وأداءِ حقِّه، والإحسانِ إلى خلقِه ممَّا أعطاهُم اللهُ تعالى؛ بأنْ يقيموا الصَّلواتِ الخمسَ، معَ المحافظةِ على أدائِها في وقتِها، وحدودِها، وركوعِها، وسجودِها، وخشوعِها، وهي عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ لهُ، وبأنْ يُنْفِقوا ممَّا رزَقَهُم اللهُ تعالى؛ بأداءِ الزَّكاةِ، والنفقةِ على القراباتِ، والإحسانِ إلى الأجانبِ في السرِّ والعلانيةِ، وليبادِروا إلى ذٰلك في حياتِهم؛ لخَلاصِ أنفُسِهم؛ مِن قبلِ أنْ يأتيَ يومُ الجزاءِ، وليُعْلَمْ أنَّهُ لا بيعٌ في ذٰلكَ اليومِ ولا خِلالٌ، بل هناكَ العدلُ والقسطُ.

إنَّ اللهَ تعالى قد علِمَ أنَّ في الدُّنيا بيوعاً وأموالاً وخِلالاً يتخالُّونَ بها، فلينظرِ الرجلُ مَن يُخالِل، وعلامَ يُصاحِب؟ فإنْ كانَ للهِ؛ فليداوِمْ، وإنْ كانَ لغيرِ

(١) إبراهيم: ٣١.

اللهِ؛ فسيقطعُ عنهُ، فلا ينفعُ هناكَ أحداً بيعٌ ولا فِديةٌ، ولو افتدى بملءِ الأرضِ ذهباً لو وجدَه، ولا تنفعُه صداقةُ أحدٍ، ولا شفاعةُ أحدٍ إنْ لقيَ الله كافراً.

فيا أيها المؤمنونَ! وحِّدوا ربَّكُم، واعبدوهُ، ولا تشركوا بِهِ شيئاً، سواءٌ كانَ ملَكاً مقرَّباً أو نبيّاً مرسلاً، ولا تغترُّوا بترَّهاتِ الدَّجَّالينَ، ووساوسِ الشياطينِ، وخرافاتِ شيوخِ الطُّرقِ وعلماءِ السوءِ، بل اجتهِدوا في فهْمِ كلامِ ربِّكُم الحكيمِ الرحيمِ، وسنةِ نبيِّكُم المبعوثِ رحمةً للعالمينَ لتفوزوا.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والخمسونَ في سورةِ الإسراءِ: ﴿**وقُلْ لِعِبَادي يَقُولوا الَّتي هِيَ أَحْسَنُ إنَّ الشَّيطانَ يَنْزَغُ بينَهُمْ إنَّ الشَّيْطانَ كَانَ للإنْسانِ عَدُوّاً مُبيناً**﴾[1].

يأْمرُ اللهُ تعالى عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ أنْ يأْمرَ عبادَ اللهِ المؤمنينَ أنْ يقولوا في مُخاطباتِهم ومُحاوراتِهم الكلامَ الأحسنَ والكلمةَ الطيبةَ؛ فإنهم إنْ لم يفعلوا ذٰلك؛ نَزَغَ الشيطانُ بينَهُم، ووقعَ الشرُّ والمخاصمةُ والمقاتلةُ؛ فإنَّهُ عدوٌّ لآدمَ وذرِّيَّتِه.

ولهٰذا نهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يشيرَ الرجلُ إلى أخيهِ المسلمِ بحديدةٍ[2]؛ فإنَّ الشَّيطانَ ينزغُ في يدِهِ؛ أيْ: فربَّما أصابَه بها.

وقد روى أحمدُ في «مسنَدِه»[3] بسندِه عن الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ:

---

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) رواه: البخاري (١٣ / ٢٠)، ومسلم (٢٦١٧)؛ عن أبي هريرة.

(٣) (٥ / ٧١).

وفي سنده عليّ بن زيد بن جُدعان، وفيه ضعفٌ.

أتيتُ النبيَّ ﷺ وهـو في أزفلةٍ[1] مِن النـاس ، فسمعتُـه يقولُ: «المُسلِمُ أخو المسلمِ ؛ لا يظلِمُه، ولا يخذُلُه، التَّقوى ها هُنا (وأشارَ بيدِه إلى صدرِه)، وما توادَّ رجُـلانِ في اللهِ ففرَّقَ بينَهُما إلاَّ حَدَثٌ يُحدِثُهُ أحدُهُما، والمُحْدِثُ شرٌّ، والمحدِثُ شرٌّ، والمحدِثُ شرٌّ».

وكـانَ الكفـارُ يؤذونَ المسلمينَ، فأمرهُم اللهُ تعالى أن يقولوا التي هي أحسنُ، ولو للكافرينَ، ولا يكافِئوهُم بسفهِهِم، ولهٰذا قد قالَ ﷺ : «قُلِ الخَيْرَ وإلاَّ فاسْكُتْ»[2]، و«مِن حُسْنِ إسـلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيهِ»[3]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ والموعِظَةِ الحسنةِ وجادِلْهُم بالتي هي أحسنُ﴾[4]، وقالَ اللهُ تعالى لموسى وهارونَ عليهما السلامُ: ﴿فقُولا لهُ قَوْلاً لَيِّناً لعَلَّهُ يتذكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[5]، وقالَ لرسوله محمدٍ ﷺ : ﴿ولو كُنْتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[6].

= وقد حسَّنه الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٧٥)، وله شواهد:

أمـا القـطعة الأولى؛ فانظر لها «الصحيحة» (٥٠٤) وما سيأتي (ص ٢٧٢)، وأما القطعة الثانية؛ فانظر لها «الصحيحة» (٦٣٧) أيضاً.

(١) أي: جماعة. «نهاية ابن الأثير» (٢ / ٣٠٥).

(٢) إيرادٌ بالمعنى لقوله ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً أو ليصمت».

أخرجه: البخاري (١٠ / ٣٧٣)، ومسلم (٤٧)؛ عن أبي هريرة.

(٣) حديثٌ حسـنٌ، له طرق كثيرة، جمعتُهـا في جزء مفـرد، سمَّيتُـه «كفـاية النبيه...»، وهو الجزء الثاني عشر من سلسلتي «الأجزاء الحديثية».

(٤) النحل: ١٢٥.

(٥) طٰه: ٤٤.

(٦) آل عمران: ١٥٩.

فالإسلامُ كلُّه حسنٌ، ولكنَّ الأسفَ أنَّ أكثرَ المسلمينَ مبتَلَوْنَ باستعمالِ الأقوالِ الشنيعةِ والألفاظِ القبيحةِ؛ لجهلِهم بمعاني كلامِ ربِّهم، وآدابِ رسولِهم، وأخلاقِ نبيِّهم، بل جهلُهُم بالحقوقِ الإنسانيةِ المميزةِ عنِ الأفعالِ الحيوانيَّةِ والدرجاتِ البهيميَّةِ، فساءَتْ تربيَتُهم، وفسدَتْ أخلاقُهُم كما لا يَخْفى.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والخمسونَ في سورةِ الحجِّ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا ارْكَعوا واسْجُدوا واعْبُدوا ربَّكُم وافْعَلوا الخيرَ لعلَّكُم تفلِحونَ . وجاهِدوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ هو اجتباكُم وما جَعَلَ عليكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ هُوَ سمَّاكُمُ المسلمينَ مِنْ قَبْلُ وفي هٰذا ليكونَ الرَّسولُ شَهيداً عليكُم وتكونوا شُهداءَ على النَّاسِ فأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ واعْتَصِموا باللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فنِعْمَ المَوْلى ونِعْمَ النَّصيرُ﴾[1].

قد نادى اللهُ وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمِراً إيَّاهُم بثمانيةِ أشياءَ: الأولُ: الركوعُ، والثاني: السجودُ، والثالثُ: العبادةُ، والرابعُ: فعلُ الخيرِ، والخامسُ: الجهادُ في سبيلِ اللهِ حقَّ جهادِه، والسادس: إقامةُ الصلاةِ، والسابعُ: إيتاءُ الزَّكاةِ، والثامنُ: الاعتصامُ باللهِ وبكتابِه.

فالواجبُ المحتَّمُ على العبدِ المؤمنِ أنْ يقومَ بهٰذه الأشياءِ حقَّ القيامِ، ويؤدِّيها للهِ تعالى؛ مراعياً شرائِطَها وأركانَها وآدابَها في أوقاتِها.

فالركوعُ عبادةٌ، فلا يركعُ إلاَّ للهِ، فمَن ركعَ لغيرِ اللهِ؛ فقدْ كفرَ وأشركَ في

(١) الحج: ٧٧ ـ ٧٨.

عبادةِ اللهِ غيرَه؛ كما يفعلُه أهلُ الصينِ المجوسِ عندَ ملاقاةِ ملوكِهم وأمرائِهم وكبرائِهم وأغنيائِهم وعلمائِهم؛ فإنَّهُم ينحنونَ لهُم انحناءً فاحِشاً، وكذا مسلمو تلكَ البلادِ ينحنونَ ويركعونَ لأكابرِهم، ويسمُّونَ مَن لا ينحني ولا يركعُ بل يسلِّمُ سلامَ السنَّةِ متكبِّراً لا يعرفُ الأدبَ.

وكذا السجودُ عبادةٌ، فلا يُسْجَدُ إلَّا للهِ وحدَه، فمَن سجَدَ لغيرِ اللهِ مِن مَلَكٍ أو مَلِكٍ أو قبرٍ أو وَثنٍ؛ فقد كفرَ وأشركَ باللهِ غيرَه في العبادةِ؛ كما يفعلُه غُلاةُ البُهرة[1] لسيِّدهم، وجهلةُ الصينِ والجابانِ لملوكِهم، وجهلةُ المسلمينَ لقبورِ أوليائِهم ومشايخِهم.

والعبادةُ بأنواعِها حقٌّ للهِ وحدهُ؛ مِن دُعاءٍ، ونذرٍ، واستغاثةٍ، وغيرِها مِن أنواعِ العباداتِ، فمَن عبدَ غيرَ اللهِ؛ فقد كفرَ وأشركَ؛ كالذينَ يَدْعونَ عبدَالقادرِ الجيلانيَّ ويستغيثونَ بهِ مثلاً.

وفعلُ الخيرِ للهِ تعالى، والخيرُ كلُّه ما أمرَ اللهُ تعالى بفعلِه بصريحِ آياتِه أو بسنَّةِ رسولِه محمدٍ ﷺ، فمَنْ فعلَ خيراً لغيرِ اللهِ؛ فقد راءى وأشركَ.

وكذا الجهادُ في اللهِ تعالى حقَّ جهادِه؛ بالمالِ والنفسِ واللسانِ؛ لأنَّهُ عزَّ وجلَّ قد اجْتَبى المسلمينَ لهٰذه الدولةِ العظيمةِ مِن بينِ سائرِ الناسِ، وشرَّفَهم بدينِه الإسلامِ ومِلَّةِ خليلِه إبراهيمَ على نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ، وجعلَ هٰذا الدينَ سهلاً سَمْحاً لا حرجَ فيهِ أصلاً.

فشكراً للهِ تعالى؛ أقيموا الصلاةَ للهِ، وآتوا الزَّكاةِ للهِ إلى فقراءِ المسلمينَ

---

(١) وهم من الطائفة الإسماعيلية الباطنية، كفرةٌ مشركون

مِن غيرِ حيلةٍ، واعْتَصِموا أيُّها المسلمونَ كلُّكُم باللهِ، وتوكَّلوا عليهِ حقَّ التوكُّلِ، واعمَلوا بما أمرَ في كتابِه، وبيَّنَهُ رسولُه محمدٌ ﷺ، وهو تعالى مولاكُم وحافِظُكم وناصِرُكم على الأعداءِ، فنِعْمَ المولى ونعمَ النصيرُ.

واعلمْ أنَّ كلَّ ما أمرَ اللهُ تعالى بفعلِه فهو العبادةُ والطاعةُ، ففيهِ الثوابُ والأجْرُ عندَ اللهِ، وكلَّ ما نهى عنهُ فهو المعصيةُ، فعليكَ أيُّها العبدُ المؤمنُ بامتثالِ ما أمرَ والانتهاءِ عمَّا نهى، فإذا فعلتَ هٰكذا؛ فأنتَ العبدُ المؤمنُ حقّاً، جعلني اللهُ تعالى وإيَّاكَ مِن عبادِه المؤمنينَ الصادقينَ.

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والخمسونَ في سورةِ النورِ: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيطانِ ومَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فإنَّهُ يأْمُرُ بالفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عليكُمْ ورَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أبداً ولٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ واللهُ سَميعٌ عَليمٌ**﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عنِ اتباعِ خطواتِ الشيطانِ؛ أيْ: ما زيَّنَه الشيطانُ مِن طرقِ الكفرِ والشركِ والمعاصي؛ لأنَّ مَن يتَّبِعْ طُرُقَ الشيطانَ ويذهَبْ مذاهِبَهُ؛ فإنَّهُ يأْمُرُ ألبتةَ بالفحشاءِ والمنكرِ، ومنهُ القولُ على اللهِ بغيرِ علمٍ، ومِنَ الوسائلِ الشركيةِ والاعتقاداتِ الوثنيَّةِ، فكلُّ معصيةٍ مِن خطواتِ الشيطانِ، والنَّذْرُ للمخلوقِ مِن خطواتِ الشيطانِ، ونذرُ المعصيةِ مِن خُطواتِ الشَّيطانِ، وتحريمُ الحلالِ مِن خُطواتِ الشيطانِ، واليمينُ الفاجرُ الغموسُ مِن خُطواتِ الشَّيطانِ، ودُعاءُ غيرِ اللهِ مِن الأمواتِ والأرواحِ مِن

(١) النور: ٢١.

خُطواتِ الشَّيطانِ، والاستعانةُ مِن الملائكةِ والأرواحِ والأمواتِ مِن خُطواتِ الشَّيطانِ.

فيا أيُّها المسلمونَ! لولا فضلُ اللهِ عليكُم ورحمتُه ما زكا منكُم ولا اهتدى إلى الإيمانِ والحقِّ مِن أحدٍ أبداً، بل لكانَ ابتُلِيَ وتلوَّث بدنسِ الشركِ والمعاصي كبيرِها وصغيرِها؛ كما ابتُلِي بها كثيرٌ ممَّنْ يدَّعي الإسلامَ والزهدَ والتصوُّفَ والتَّقوى مِن المسلمينَ الجغرافيِّينَ مِن أهلِ الهندِ والتركِ والتركستانِ والصِّينِ، ولكنَّ اللهَ يُزكِّي مَنْ يشاءُ مِن خَلْقِه، فيزكِّي نفوسَهُم ويطهِّرُها، فيحفظُها مِن شِرْكِها وفجورِها ودَنَسِها وما فيها مِن عقائدَ زائفةٍ، وأخلاقٍ رديئةٍ، ﴿واللهُ سَميعٌ﴾ لأقوالِ عِبادِه، و﴿عليمٌ﴾ بمَن يستحقُّ منهُم الهدايةَ والتوفيقَ والضلالَ والرَّدى، فيعطي كلّاً استحقاقَه.

فيا أيُّها المسلمونَ! لاحِظوا هٰذه الآياتِ، وتفكَّروا في معانيها، وتدبَّروا في أسرارِها؛ فإنَّكُم أنتُم المخاطَبونَ المكلَّفونَ بهٰذه الأوامرِ، فإذا تساهَلْتُم وتجاهَلْتُم كما أنتُم عليهِ؛ اكتفاءً بأقوالِ الناسِ وترَّهاتِهم؛ فالخسارُ والبوارُ نازلٌ بكُم لا محالةَ.

* * * * *

الآيةُ الستونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلوا بُيوتاً غيرَ بُيوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسوا وتُسَلِّموا عَلى أهْلِها ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ . فإنْ لَمْ تَجِدُوا فيها أَحداً فَلا تَدْخُلوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وإنْ قيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعوا هُو أَزْكَى لَكُمْ واللهُ بِما تَعْمَلونَ عَليمٌ﴾[1].

(١) النور: ٢٨.

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن دُخولِ بيتِ الغيرِ بلا إذنٍ وبلا سلامٍ، ومنعَ مِن الدخولِ بلا إذنٍ.

فانظُر يا أيُّها المسلمُ إلى هٰذه الآدابِ الشرعيةِ الإلٰهيةِ التي أدَّبَ اللهُ تَعالى بها عبادَه المؤمنينَ؛ أمرَهم اللهُ تعالى أنْ لا يدخُلوا بيوتاً غيرَ بيوتِهم حتى يستأْنِسوا؛ أي: يستأْذِنوا قبلَ الدُّخولِ ويسلِّموا بعدَه.

وينبغي أنْ يستأْذنَ ثلاثَ مرَّاتٍ، فإنْ أُذِنَ لهُ؛ دَخلَ، وإلاَّ انصرفَ، كما وردَ بهٰذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ عن رسولِ اللهِ ﷺ[1] والخلفاءِ الراشدينَ رضيَ اللهُ عنهُم.

وروى أبو داودَ[2] في «سننِه» بسندِه عن عبدِاللهِ بنِ بُسرٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أَتى بابَ قومٍ لم يستقبلِ البابَ مِن تلقاءِ وجهِه، ولكنْ مِن ركنِه الأيمنِ أو الأيسرِ، ويقولُ: السَّلامُ عليكُمْ، السَّلامُ عليكُم».

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّما جُعِلَ الاستئذانُ مِن أَجْلِ النَّظرِ»[3].

وفي «الصحيحين»[4] عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ قالَ «لو أنَّ آمرأ اطَّلع عليكَ مِن غيرِ إذنٍ فحذَفْتَهُ بحصاةٍ، ففقَأْتَ عينَهُ؛ ما كانَ عليكَ مِن جُناحٍ».

وعن جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: أَتيتُ النبيَّ ﷺ في دَينٍ كانَ عَلى أبي،

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (١١ / ٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٣)، و«جامع الأصول» (٦ / ٥٧٧ ـ ٥٩٥).

(٢) برقم (٥١٨٦) بسند حسن.

(٣) رواه: البخاري (١٢ / ٢١٥)، ومسلم (٢١٥٦).

(٤) رواه: البخاري (١٢ / ٢١٦)، ومسلم (٢١٥٨)؛ عن أبي هريرة.

فدقَقْتُ البابَ، فقالَ: «مَنْ ذا؟». فقلتُ: أنا. قالَ: «أنا أنا»؛ كأنه كرِهَهُ[1].

وإنَّما كُرِهَ ذٰلك لأنَّ هٰذه اللفظةَ لا يُعرفُ صاحِبُها حتى يُفْصِحَ باسمِه أو كُنيتِه التي هو مشهورٌ بها، وإلَّا لا يحصُلُ المقصودُ مِن الاستئذانِ الذي هو الاستئناسُ المأمورُ بهِ.

وروى أبو داودَ[2] عن صفوانَ بنِ أُميَّة رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: دخلتُ على النبيِّ ﷺ ولم أُسَلِّم ولم أستأذِنْ، فقالَ ﷺ: «ارْجِعْ؛ فقُلِ السلامُ عليكُم، أأدْخُلُ؟».

فيا أيُّها المؤمنُ! تأدَّبْ بالأدبِ الذي أدَّبكَ اللهُ بهِ تكنْ إنساناً كاملاً؛ لأنَّ ربكَ رؤوفٌ رحيمٌ جلَّ جلالُه.

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والستونَ في هٰذه السورةِ أيضاً: **﴿قُلْ لِلْمُؤمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبصَارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلكَ أزْكَى لَهُمْ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما يَصْنَعونَ﴾**[3].

وهٰذا خطابٌ وأمرٌ للمؤمنينَ بواسطةِ رسولِ اللهِ محمدٍ ﷺ أنْ يغُضُّوا مِن أبصارِهم عمَّا حرَّمَ عليهِم، فلا ينظُروا إلَّا إلى ما أباحَ لهُم النظرَ إليهِ، وأنْ يُغْمِضوا أنظارَهَم وأبصارَهُم عن المحرَّماتِ والأجنبيَّاتِ، فإنْ اتَّفَق أنْ وقعَ النظرُ على محرَّمٍ مِن غيرِ قَصْدٍ؛ فليَصْرِفْ بصرَه عنهُ سريعاً؛ كما رواهُ مسلمٌ في

---

(1) رواه: البخاري (11 / 30)، ومسلم (2155).

(2) برقم (5176).

وأخرجه: الترمذي (2711)، وأحمد (3 / 414)، وسنده صحيح.

(3) النور: 30.

«صحيحِه»[1] عن جرير بنِ عبدِاللهِ البَجَليِّ رضيَ اللهُ عنهُ، قالَ: «سألتُ النبيَّ ﷺ عن نظرِ الفَجْأةِ؟ فأمَرَني أنْ أصرِفَ بَصَري».

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعليٍّ: «يا عليُّ! لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ؛ فإنَّ لكَ الأولى، وليسَ لكَ الآخرةُ» رواه الترمذيُّ[2].

ولا شكَّ أنَّ النظرةَ ـ وخصوصاً إلى ا أةِ الحسناءِ، والأمردِ الجميلِ الوجهِ ـ داعيةٌ إلى فسادِ القلبِ، ومحرِّكةٌ للشه ، ولذلك أمرَ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ بحفظِ الأبصارِ، كما أمرَهُم بحفظِ وجِ؛ لأنَّ النظرَ باعثٌ إلى ذلك.

﴿ذلكَ أزْكَى لَهُم﴾؛ أي: غضُّ البصرِ وحفظُ الفرجِ أزكى وأطهرُ

---

(1) برقم (٢١٥٩).

(2) برقم (٢٧٧٧).

ورواه: أبو داود (٢١٤٩)، والطحاوي في «المشكل» (٢ / ٣٥٤) و«المعاني» (٢ / ٨ ـ ٩)، والحاكم (٢٠ / ١٩٤)، وأحمد (٥ / ٣٥٣ و٣٥٧)، والبيهقي (٧ / ٩٠)؛ من طريق شريك عن أبي ربيعة عن بُريدة عن أبيه.

وفيه شريك النَّخعي، وهو سيىء الحفظ.

لكنه توبع:

فأخرجه: أحمد (١٣٦٩ و١٣٧٣)، والدارمي (٢ / ٢٩٨)، والحاكم (٣ / ١٢٣)، والبزَّار (١٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٦٧٨)؛ من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التَّيمي عن سلمة بن أبي الطُّفيل عن علي بن أبي طالب.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٤ / ٢٧٧) ـ بعد أن عزاه للبزَّار والطبراني وفاته العزو لأحمد ـ: «ورجال الطبراني ثقات».

قلت: وكذا البزَّار وأحمد! ولكن عنعنة ابن إسحاق تمنع من الحكم على السند ـ لذاته ـ بالحسن، نعم؛ هو حسن لغيره إن شاء الله.

لقلوبِهم وأنقى لدينِهم، ولهٰذا كانَ السلفُ الصالحونَ ينْهَوْنَ أنْ يُحِدَّ الرجلُ نظرَه إلى الأمردِ الصبيحِ الوجهِ[1]، وهٰذا هو سرُّ احتجابِ النساءِ عن الأجانبِ.

ولكنَّ الأسفَ أنَّ كثيراً ممَّنْ في قلوبِهم مرضٌ أباحوا النظرَ إلى الأجنبيَّاتِ والمردانِ الحسانِ الوجوهِ، وأباحوا لهُنَّ كشفَ وجوهِهنَّ[2] وإظهارَهُنَّ زينتَهُنَّ للأجانبِ وعندهم، فلهٰذا قد كَثُرَ الزِّنا واللواطُ فيما بينَ الناسِ، وخصوصاً فيما وراءَ النهرِ؛ فإنَّهُم صاروا يفتَخِرونَ بهٰذا الفعلِ القبيحِ، وحتى بعضُ العلماءِ والمدرِّسينَ يخصِّصونَ لأنفسِهم أماردةً حِسانَ الوجوهِ ويسمُّونَهم باسم (مَحْرَم)!!

فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والستونَ فيها أيضاً: ﴿وَقُلْ للمُؤمِناتِ يَغْضُضْنَ مِن أبصارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ ولا يُبْدينَ زينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنها ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيوبِهِنَّ ولا يُبْدينَ زِيْنَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعولَتِهِنَّ﴾ إلى أنْ قالَ: ﴿ولا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وتُوبُوا إلى اللهِ جَميعاً أيُّها المؤمِنونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾[3].

هٰذا أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى بواسطةِ رسولِه محمدٍ ﷺ للنساءِ المؤمناتِ، وغَيرةٌ منهُ تعالى على أزواجِ عبادِه المؤمنينَ، وتمييزٌ لهنَّ عن صفةِ نساءِ الجاهليَّةِ وفعالِ المشركاتِ والفاسقاتِ العاهراتِ عديماتِ الدينِ والحياءِ: أنْ يغمضْنَ

(١) قارن بـ «المنتقى النفيس من تلبيس إبليس» (ص ٣٦٥) بقلمي
(٢) وفي المسألة خلاف قديم، يُنظر له مطوَّلات الكتب الفقهية.
(٣) النور: ٣١.

أبصارهُنَّ عنِ الرجالِ الأجانبِ، ولا ينظُرْنَ إليهم بشهوةٍ؛ يعني: كما أنَّهُ حرَّمَ نظرَ الرجلِ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ؛ حرَّمَ أيضاً نظرَهُنَّ إلى الرجالِ الأجانبِ؛ لأنَّ الفسادَ ينشأُ مِن كلِّ واحدٍ مِن النَّظرين.

ويوضِحُ هٰذا ما رواهُ أبو داودَ والترمذيُّ[1] عن أمِّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها كانتْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ وميمونةَ، إذ أقبلَ ابنُ أمِّ مكتومٍ، فدخلَ عليهِ، وذلك بعدما أُمِرْنا بالحجابِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «احْتَجِبا منهُ». فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! أليسَ هُو أعمى لا يبصِرُنا ولا يعرِفنا؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أفعميتُما أنتُما؟! ألستُما تُبْصِرانِه؟» حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[2].

﴿وَلا يُبْدينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا مَا ظَهَرَ مِنها﴾؛ أي: لا يُظْهِرْنَ شيئاً مِن الزِّينةِ للأجانبِ إلَّا ما لا يمكنُ إخفاؤهُ.

قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «كالرداءِ والثيابِ؛ لأنَّ هٰذا لا يمكِنُها إخفاؤهُ»[3].

---

(١) رواه: أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨)، وأحمد (٦ / ٢٩٦)، والبيهقي (٧ / ٩١ و٩٢)، والنَّسائي في «عشرة النساء» (٣٥٩ و٣٦٠)، وابن حبان (٥٥٤٩)، وابن سعد (٨ / ١٢٦)؛ من طريق نبهان مولى أم سلمة عنها.

ونبهان مجهولٌ، لم يوثِّقه إلا ابن حبان، وحكم بجهالته البيهقي وابن حزم والذهبي، وقال ابن حجر: «مقبول»؛ يعني إذا توبع، وإلا فهو ليِّن الحديث!!

ومن عجبٍ أنَّ ابن حجر نفسه قد قوَّى سنده في «الفتح» (٩ / ٣٣٧)!!

(٢) هٰذا قول الترمذي في الحديث، وقد سبق ردُّه.

(٣) كما في «الدر المنثور» (٦ / ١٧٩).

وفي رسالتي «تنوير العينين...» (ص ٥٣ ـ ٥٥) ذِكر الصحيح الثابت عن ابن عباس في تفسير هذه الآية.

ولا يشكُّ ذو عقلٍ ودينٍ أنَّ أرغبَ زينةِ النساءِ: وجهُها الجميلُ، وطرفُها الكحيلُ، فبدنُها السَّمينُ.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾؛ أي: تستُرُ بخُمُرِها صدْرَها؛ لتواري ما تحتها مِن صدرِها وترائبِها؛ ليخالِفْنَ بذلك شعارَ نساءِ أهلِ الجاهليةِ؛ لأنهنَّ كنَّ يمشينَ بينَ الرجالِ بصدورِهنَّ المكشوفاتِ لا يواريها شيءٌ، وربما أظهرتْ عنقَها، وذوائبَ شعرِها، وأقرطةَ آذانِها، فأمرَ اللهُ تعالى المؤمناتِ أنْ يستتِرْنَ في هيئاتِهنَّ وأحوالِهنَّ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1].

والخمارُ ما يُغطَّى بهِ الرأسُ، وقد أمرَ اللهُ بأنْ يضرِبْنَ ويستُرْنَ بخُمُرِهنَّ على النَّحْرِ والصدرِ، فلا يُرى منهما شيءٌ.

والحاصلُ أنَّ المرأةَ لا تُظهِرُ عندَ الرجالِ الأجانبِ مِن زينتِها التي تحرِّكُ الشهوةَ؛ سواءٌ بضربِ الرجلِ وإظهارِ الوجهِ والخلخالِ، أو التعطُّرِ عندَ خروجِها مِن بيتِها، ولا يتبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليَّةِ كما هو الشائعُ الذائعُ في نساءِ أوروبا ومصرَ[2] وغيرِهما؛ فإنهنَّ فاسقاتٌ عاهراتٌ فاجراتٌ عاصياتٌ قد فسدْنَ وأفسدن وألقينَ جلبابَ الحياءِ بل الإيمانِ؛ تقليداً للأوروبياتِ والدَّهرياتِ.

فأنتُم أيُّها المؤمنونَ! توبوا إلى اللهِ جميعاً، وافعَلوا ما أمركُم اللهُ بهِ مِن هذه الصفاتِ الجمليةِ والأخلاقِ الجليلةِ، واترُكوا ما كانَ عليهِ أهلُ الجاهليةِ مِن الأخلاقِ الرذيلةِ والصفاتِ الخبيثةِ؛ فإنَّ الفلاحَ كلَّ الفلاحِ والسعادة كلَّ

---

(١) الأحزاب: ٥٩.

(٢) إلا من رحم الله منهن.

السعادةِ: في فعلِ ما أمرَ اللهُ تعالى الحكيمُ بهِ وأرشدَ إليهِ رسولُه محمدُ ﷺ وتركِ ما نَهى اللهُ ورسولُه عنهُ، واللهُ تعالى هو المستعانُ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ والستونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا ليَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذينَ مَلَكَتْ أيمانُكُم والَّذينَ لم يَبْلُغوا الحُلُم مِنكُم ثلاثَ مرَّاتٍ مِن قبلِ صلاةِ الفجْرِ وحينَ تَضَعونَ ثيابَكُم مِن الظَّهيرةِ ومِن بعدِ صلاةِ العشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لكُم ليسَ عليكُمْ ولا عليهِمْ جُناحٌ بعدَهُنَّ طَوَّافونَ عليكُم بعضُكم على بعضٍ كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ لكُمُ الآياتِ واللهُ عليمٌ حَكيمٌ﴾**[1].

قَدْ نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم أَنْ يأْمُروا خَدَمَهُم أَنْ لا يدخُلوا عليهِم إلَّا بعدَ الاستئذانِ، وكذا الأطفالُ الصغارُ الذينَ لم يبلُغوا الحُلُمَ كلَّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ في ثلاثةِ أوقاتٍ:

الأوَّلُ: قبلَ صلاةِ الفجرِ؛ لأنَّ النَّاسَ إذ ذاكَ يكونونَ نياماً في فُرُشِهم.

والثَّاني: حينَ يضعونَ ثيابَهُم مِن الظَّهيرةِ؛ أي: وقتَ القيلولةِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يضعُ ثيابَه في تلكَ الحالِ معَ أهلِه.

والثَّالثُ: مِن بعدِ صلاةِ العشاءِ؛ لأنَّهُ وقتُ النومِ، فيُؤمَرُ الخدمُ والأطفالُ أَنْ لا يهجُموا على أهلِ البيتِ في هٰذه الأحوالِ؛ لما يُخْشى أَنْ يكونَ على أهلِه، أو نحوِ ذٰلك مِن الأعمالِ، ولهٰذا قالَ: ﴿ثلاثُ عوراتٍ لكُم﴾، وأمَّا في غيرِ هٰذه الأحوالِ؛ فلا بأْسَ في دُخولِهم عليكُم؛ لأنَّهم طوَّافونَ عليكُم في

---

(١) النور: ٥٨ ـ ٥٩.

الخدمةِ وغيرِ ذٰلك، ويُغتفَرُ في الطَّوَّافينَ ما لا يُغتفرُ في غيرِهم.

فيا أيُّها المسلمونَ! حافِظوا على هٰذه الآدابِ الرَّبَّانيَّةِ والأخلاقِ الإنسانيَّةِ الكاملةِ المتمِّمَةِ للإيمانِ والحياءِ والإحسانِ، ولا شكَّ أنَّ شرعَ الإسلامِ شرعُ الكمالِ والجمالِ، وفَّقنا اللهُ تعالى للتأدُّبِ بآدابِه والتخلُّقِ بأخلاقِه.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والستُّونَ في سورةِ العنكبوتِ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[1].

قد نَادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بالهجرةِ مِن البلدِ الذي لا يقدِرونَ فيهِ على إقامةِ الدينِ والعملِ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه ﷺ إلى أرضِ اللهِ الواسعةِ، حيثُ يمكنُ إقامةُ الدينِ؛ بأنْ يوحِّدوا اللهَ ويعبُدوهُ كما أمرَهم.

وحيثُ إنَّ كثيراً مِن النَّاسِ يتركونَ الهجرةَ إلى ديارِ الإسلامِ؛ خوفاً مِن الموتِ، أو خوفاً مِن ضيقِ الرزقِ والمعيشةِ، فقد أزالَ اللهُ تعالى هٰذا الخوفَ بقولِه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2]، فكلُّ إنسانٍ لا بدَّ يموتُ عندَ انقضاءِ أجلِه المقدَّرِ، سواءٌ في الحضرِ أو السفرِ، وإنَّما يكونُ تاركُ الهجرةِ محروماً مِن الرَّحمةِ والدَّرجاتِ في الجنةِ.

والمهاجِرُ لحفظِ دينِه ينالُ كلَّ فضلٍ ورحمةٍ، ويرزقُهُ اللهُ تعالى رزقاً كثيراً

---

(١) العنكبوت: ٥٦

(٢) العنكبوت: ٥٧

وسعةً؛ مُراغماً أعداءه، وهٰذا لا شكَّ فيه ولا ريب.

وقد أخبرَ اللهُ الكريمُ عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَمَنْ يُهاجِرْ في سَبيلِ اللهِ يَجِدْ في الأرْضِ مُرَاغَماً كَثيراً وسَعَةً ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ ورَسولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ عَلى اللهِ﴾[1].

وقالَ تعالى: ﴿والَّذينَ هَاجَروا في اللهِ مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنْيا حَسَنَةً ولأَجْرُ الآخِرَةِ أكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمونَ . الَّذينَ صَبَرُوا وعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

فيا عبادَ اللهِ المؤمنينَ! إنَّما خَلَقَكُمُ اللهُ تعالى لأجْلِ عبادتِه وحدَه لا شريكَ لهُ، فاعبُدوهُ وحدَه، ولا تُشْرِكوا بهِ شيئاً، ولا تَخْتاروا الإقامةَ في دارِ الشِّرْكِ والكُفْرِ والبدعةِ لأجْلِ مالِ الدُّنيا الفانيةِ الدنيئةِ.

وأنا هٰذا العبدَ الضعيفُ جامع هذه الوريقاتِ أحمدُ اللهَ حمداً كثيراً أنَّهُ عزَّ وجلَّ قد يسَّرَ لي الهجرةَ، فهاجَرْتُ عنْ دِيارِ الشركِ والكفرِ والإلحادِ، والفسقِ والظلمِ والعنادِ؛ ديارِ ما وراءَ النهرِ والتركستانِ؛ ديارِ عبادةِ القبورِ والأرواحِ، وديارِ العقائدِ الفاسدةِ، وديارِ الشيوعيةِ والدَّهريةِ واللادينيَّةِ، واخترتُ الإقامةَ بتوفيقِ اللهِ تعالى في بلدِ اللهِ الأمينِ، وقِبلةِ المسلمينَ، وقد وفَّقني اللهُ تعالى للاشتغالِ بعلْمِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وتدريسِه وتعليمِه لعامَّةِ المسلمينَ في المسجدِ الحرامِ، وساعَدَني ملكُ المسلمينَ عبدُالعزيزِ بنُ عبدِ [3]، فجزاهُ اللهُ

---

(١) النساء: ١٠٠.

(٢) النحل: ٤١ ـ ٤٢.

(٣) توفي سنة (١٣٧٣هـ)، ترجمته في «الأعلام» (٤ / ١٩) للزِّركلي

تعالى خيراً، وأيَّدهُ بنصره ووفَّقهُ لمرضاته وقد رزقني اللهُ تعالى أهلاً وأولاداً وداراً ودولةً وعزَّةً وخيراً كثيرا أحسن ممَّا كان وفات بمرَّاتٍ، فالحمدُ لله حمداً كثيراً؛ سائلاً منهُ تعالى أنْ يُديم لي التوفيق، ويثبِّتني على القول الثابت والتوحيدِ الخالِص؛ لا إلَهَ إلا اللهُ، ويرزُقني حُسْنَ الختامِ آمين.

* * * * *

الآيةُ الخامسةُ والستُّونَ في سورةِ الأحزابِ: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عليْكُمْ إذ جَاءَتْكُمْ جُنودٌ فأَرْسَلْنا عليهِمْ رِيحاً وجُنوداً لَمْ تَرَوْها وكانَ اللهُ بِما تَعْمَلونَ بَصيراً﴾**[١].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بأَنْ يذكُروا نعمةَ اللهِ التي أنعمَهـا عليهِم، وهي كثيرةٌ لا تعدُّ ولا تُحْصى، ومِن جملتِها صَرْفُه تعالى ودفعُهُ الأعداءَ الكفارَ، وخصوصاً حينَ تألَّبوا عليهِم وتحزَّبوا عامَ الخندقِ سنـةَ خمسٍ مِن الهجـرةِ، إذ جاؤوا في حواليْ المـدينـةِ؛ ليهجُموا على المسلمينَ، ﴿إذْ جَاؤوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ومِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وإذْ زَاغَتِ الأبْصارُ وبَلَغَتِ القُلوبُ الحَنـاجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا﴾[٢]، فحاصَروا المدينةَ وفيها النبيُّ ﷺ وأصحابُه قريباً من شهرٍ، ثمَّ وقعَ القتالُ[٣]، فأرسل اللهُ تعالى على الأحزابِ ريحاً شديدةَ الهبوبِ قويَّةً، حتى لم تُبْقِ لهم خيمةً ولا شيئاً، ولا يَقَرُّ لهُم قرارٌ، حتى ارتحلوا خائبينَ خاسِرينَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ

---

(١) الأحزاب: ٩.

(٢) الأحزاب: ١٠.

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣ / ٢٩٧)

عليكُم إذ جاءَتْكُم جُنودٌ فأَرسَلْنا عليهِم ريحاً وجُنوداً لم تَرَوْها﴾، وهي الصَّبا.

وفي الحديثِ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ»[1].

وقد أرسلَ اللهُ تعالى ملائكةً زلزلتْهُم، وألقتْ في قلوبِهم الرعبَ والخوفَ، وهكذا يفعلُ اللهُ تعالى لعبادِه المؤمنينَ الصادقينَ؛ ينصرُهم وإنْ قلُّوا على الأعداءِ وإنْ كَثروا؛ لأنَّ للهِ تعالى جُنوداً مِن الريحِ، وجنوداً مِن النارِ، وجُنوداً مِن الصاعقةِ، وجُنوداً مِن الطُّوفانِ، وجُنوداً مِن الزلزالِ، وجُنوداً مِن الوباءِ... وغيرها، كما أنَّ لهُ تعالى جُنوداً مِن الملائكةِ وعبادِه الصالحينَ، وحتَّى إنَّ لهُ جُنوداً مِن الطيورِ، وجُنوداً مِن العسلِ، وجُنوداً مِن الذُّبابِ والبعوضِ وغيرِها، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلَّا هُوَ﴾[2].

فأنتُم أيُّها المؤمنونَ! كُونوا مؤمنينَ صادقينَ عامِلينَ بما أمرَ، ومُنتهينَ عمَّا نهى عنهُ، فاللهُ ينصرُكم على الأعداءِ، وأَما إذا كنتُم في إيمانِكُم كاذِبينَ، وفي دُعائِكُم وعبادتِكم مشرِكينَ، ولأوامرِه تاركينَ، ولنواهيهِ مرتكِبينَ، لا تتشبَّثونَ بالأسبابِ[3]، ولا تتَّفقونَ في الحركاتِ والذهابِ والإيابِ، بل تعتمدونَ على الأرواحِ وعلى الروحانياتِ، وتدعونَ مَن هو مثلُكم مِن المخلوقاتِ وأرواحِ الأمواتِ؛ فأنتُم الخاسرونَ المحرومون، والأذلَّاءُ المخذولونَ، فانتبِهوا مِن غفلاتِكُم، واحترِزوا مِن الخرافاتِ والتُّرهاتِ ودجلِ الدَّجالينَ وخيانةِ الضالين

(١) رواه: البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)؛ عن ابن عباس.

(٢) المدَّثر: ٣١.

(٣) أي: غير متعلِّقين بها، ولا راكنين إليها.

المضِلِّينَ.

فيا أيُّها الذينَ آمَنوا! آمِنوا، ولا تكونُوا ممَّن قالَ اللهُ في حقِّهِم: ﴿ومَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وهُمْ مُشْرِكونَ﴾[1].

* * * * *

الآيةُ السادسةُ والستونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْراً كَثيراً وسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأَصيلاً﴾**[2].

قد نَادى اللهُ تَعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بأَنْ يذكُروا اللهَ ذكراً كثيراً؛ لأنَّهُ المنعِمُ عليهِم بأنواعِ النِّعمِ الظاهرةِ والباطنةِ وصنوفِ المِننِ، ووعَدَ اللهُ لهُم في ذلك جزيلَ الثوابِ وجميلَ المآبِ.

وعن عبدِاللهِ بنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثيراً﴾: «إنَّ اللهَ تعالى لم يفرِضْ على عبادِهِ فريضةً؛ إلاَّ جعلَ لها حدّاً، وعذرَ أَهلَها في حالِ العُذْرِ؛ غيرَ الذكرِ؛ فإنَّ اللهَ لم يجْعَلْ لهُ حدّاً ينتهي إليهِ، ولم يعْذِرْ أحداً في تركِه، فقالَ: ﴿اذْكُرُوا اللهَ قِياماً وقُعوداً وعَلى جُنوبِكُم﴾»؛ بالليلِ والنهارِ، في البرِّ والبحرِ، وفي السفرِ والحضرِ، والغنى والفقرِ، والسَّقمِ والصِّحةِ، والسرِّ والعلانيةِ، وعلى كلِّ حالٍ، ﴿وسَبِّحوهُ بُكْرَةً وأَصيلاً﴾، فإذا فعلتُم ذلك صلَّى عليكُم هُو وملائكتُهُ»[3].

---

(1) يوسف: ١٠٦.

(2) الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢.

(3) رواه ابن جرير (٢٢ / ١٧)، وأورده السيوطي في «الدُّر» (٦ / ٦١٨)، وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم، بسند منقطع.

﴿هُوَ الَّذي يُصلِّي عليكُمْ ومَلائِكَتُهُ﴾: هٰذا تهييجٌ إلى الذكر، ﴿فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِي ولا تَكْفُرونِ﴾[1]، فاللهُ تعالى برحمتِه وفضلِه لكُم يخرِجُكم مِن ظلماتِ الجهلِ والكفرِ والضَّلالِ إلى نورِ الهدى واليقينِ.

﴿وكَانَ بالمؤمنينَ رَحيماً﴾[2]؛ أي: في الدُّنيا والآخرةِ:

أما في الدُّنيا؛ فإنَّهُ هداهُم إلى الحقِّ الذي جهِلَهُ غيرُهم وبصَّرَهُم الطريقَ الذي ضلَّ عنهُ وحادَ عنهُ مَن سواهُم مِن الدُّعاةِ إلى الكفرِ أو البدعةِ، وأتباعِهِم مِن الطغامِ والدَّجالينَ المفسِدينَ والمنافِقينَ الكذَّابينَ.

وأمَّا رحمتُه بهِم في الآخرةِ؛ فأمَّنَهُم مِن الفزعِ الأكبرِ، وأمرَ ملائكتَهُ يتلَقَّوْنَهُمْ بالبشارةِ بالفوزِ بالجنةِ والنجاةِ مِن النارِ، وما ذاكَ إلَّا لمحبَّتِه لهُم ورأفتِه بهِم.

واعْلَمْ أنَّ الذكرَ ذكرانِ:

ذِكرٌ بالقلبِ والجَنان.

وذِكرٌ باللسانِ.

فذكرُ اللسانِ هو التسبيحُ والتحميدُ والتهليلُ والتكبيرُ ونحوُها.

وأمَّا ذكرُ القلبِ؛ فأنْ تذكرَ اللهَ تعالى دائماً بقلبِك؛ أنَّهُ القادرُ العليمُ الخبيرُ بكلِّ شؤونِكَ، فاللازمُ أنْ لا تنساهُ في جميعِ حالاتِكَ مِن حركاتِكَ وسكناتِكَ وظاهرِكَ وباطنِكَ وسرِّكَ وجهرِكَ، ولا تغفلْ عنهُ لحظةً، وهٰذا الذكرُ هو

---

(1) البقرة: ١٥٢.

(2) الأحزاب: ٤٣.

الذي يحجزُكَ عن معاصيهِ ومخالفةِ أمرِه.

فتنبَّهْ أيُّها العبدُ المؤمنُ لهٰذه الأوامرِ الربَّانيَّةِ، فكنْ لهُ تعالى ذاكراً بلسانِكَ وقلبِك، وأمَّا ذكرُ اللسانِ معَ غفلةِ القلبِ؛ فلنْ يحجزَ هٰذا الذكرُ صاحِبَه عن المعاصي؛ لأنَّهُ صورةٌ بلا روحٍ، والذكرُ الحقيقيُّ النافعُ إنَّما هو ذكرُ القلبِ، وهو الذي يسمِّيهِ الصوفيةُ العارفونَ بـ: (المراقبةِ)؛ يعني: يراقِبونَ اللهَ تعالى في كلِّ حالاتِهم، في خَلَواتِهم وجَلَواتِهم، فلا يغفلونَ عنهُ لحظةً ﴿وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُم﴾[1].

ولكنْ؛ لما غلبَ الجهلُ على كثيرٍ ممَّنْ يدَّعي الإسلامَ والتصوفَ؛ حرَّفوا هٰذه المراقبةَ، وبدَّلوها بمراقبةِ الشيخِ، وسمَّوْها رابطةً[2]، فصاروا يراقبونَ صورَ شيوخِهم، وهٰؤلاءِ الشيوخُ يأمرونَهم بذٰلك، فوضَعوا شيوخَهم موضعَ ربِّ العالمينَ، فصاروا بذٰلك مشركينَ بالشركِ الأكبرِ وهُم لا يشعرونَ، وقد دَخلوا في دينِ الوثنيَّةِ باسمِ التصوُّفِ وهُم لا يعلمونَ، ولهٰذا صاروا يتوجَّهونَ إلى القبورِ وإلى أصحابِ القبورِ، ويستمدُّونَ منهُم، ويستغيثونَ بهِم، ويبنُونَ على قُبورِ مَن يزعُمونَه صالحاً قبةً وعمارةً عاليةً، ويزخرِفونَها، ويتوجَّهونَ إليها، ويَنْذُرونَ لها؛ كما هو حالُهم المشاهَدُ في جميعِ أنحاءِ العالمِ الإسلاميِّ، وقد صاروا عبَّادَ الأصنامِ والأوثانِ وهُم لا يفهَمونَ، ولهٰذا أذلَّهُم اللهُ تعالى في هٰذه الحياةِ الدُّنيا تحتَ أرجلِ الكفرةِ مِن الإنكليزِ والطليانِ والفرنسيِّينَ والروسِ والبلاشفةِ والأمريكانِ، ﴿ولَعَذابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقى﴾[3].

(١) الحديد: ٤.

(٢) وقريباً من ذٰلك فعل الشيخ حسن البنا يغفر الله له في «مأثوراته»!!

(٣) طه: ١٢٧.

فيا أيُّهـا المسلمـونَ! تُوبـوا إلى اللهِ، وارجِعـوا إلى دراسـةِ كتابِ اللهِ وأحاديثِ رسولِ اللهِ، واجتَهِدوا في فهمِ أوامرِ اللهِ وخطاباتِه لكُم؛ كي يعفوَ اللهُ عنكُم ويغفرَ ذنوبكم، فيدفعَ عنكُم البلاءَ.

* * * * *

الآيةُ السـابعـةُ والستُّـونَ فيهـا أيضـاً: ﴿يـا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا نَكَحْتُمُ المؤمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فمَتِّعوهُنَّ وسَرِّحوهُنَّ سَراحاً جَميلاً﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ فيما يختصُّ بهِم مِن المعاملةِ بزوجاتِهم مِن النكاحِ والطلاقِ، فأعلَمَ اللهُ تعالى بأنه إذا تزوَّجَ الإنسانُ امرأةً وطلَّقها قبلَ الدخولِ بها؛ فليسَ عليها عِدَّةٌ؛ لأنَّ رحِمها لم يشتغلْ بمائهِ، فلا يحتاجُ إلى الاستبراءِ، وإنما على الأزواجِ أَنْ يعطوهُنَّ ما يتمتَّعْنَ بهِ مِن المتعةِ، أو نصفَ الصَّـداقِ المسمَّى، ﴿على المُـوسِعِ قَدْرُهُ وعلى المُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتاعاً بالمَعْروفِ حَقّاً على المُحْسِنينَ﴾.

فالـرَّبُّ الرحيمُ جلَّ جلالُه بيَّنَ لعبادِه المؤمنينَ كلَّ ما يحتاجُونَ إليهِ مِن مصالِحهم وحاجاتِهم الدينيَّةِ والدنيويَّةِ والأخرويَّةِ، فسبحانَ الربِّ الرؤوفِ الرحيمِ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والستُّونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَدْخُلوا بيوتَ النبيِّ

---

(١) الأحزاب: ٤٩.

إلَّا أنْ يُؤذَنَ لكُم إلى طعامٍ غيرَ ناظِرينَ إناهُ ولكنْ إذا دُعيتُم فادْخُلوا فإذا طَعِمْتُم فانْتَشِروا ولا مُسْتَأْنِسينَ لحَديثٍ إنَّ ذٰلكُمْ كانَ يُؤذِي النبيَّ فَيَسْتَحْيي مِنْكُمْ واللهُ لا يَسْتَحْيي مِنَ الحَقِّ وإذا سَألْتُموهُنَّ مَتاعاً فاسْألوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذٰلِكُمْ أطْهَرُ لِقُلوبِكُمْ وقُلوبِهِنَّ ومَا كَانَ لَكُمْ أنْ تُؤذُوا رَسولَ اللهِ ولا أنْ تَنْكِحُوا أزواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أبَداً إنَّ ذٰلكُمْ كَانَ عندَ اللهِ عَظيماً . إنْ تُبْدوا شَيْئاً أوْ تُخْفوهُ فإنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليماً﴾[1] .

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ ناهياً إيَّاهُم عن أنْ يدخُلوا بيتَ رسولِ اللهِ ﷺ بلا استئذانٍ ولا إذنٍ منهُ، وخصوصاً في وقتِ أكلِ الطعامِ، فلا تدخلوا إلَّا بعدَ الإذنِ، ولا تنظُروا ولا تُراقِبوا وقتَ طبخِ الطعامِ وحضورِه، ولكنْ إذا دُعيتُم؛ فادخُلوا، فإذا طعِمْتُم وأكلْتُم؛ فانْتَشِروا، ولا تُطيلوا الجُلوسَ بعدَه؛ لأنَّ طولَ الجلوسِ يصيرُ سبباً للملالِ، فيتأذَّى صاحِبُ المنزلِ.

وإنْ كانَ سببُ النزولِ خاصّاً بالنبيِّ[2] ﷺ، ولكنَّ الحكمَ عامٌّ، فلا يجوزُ دخولُ دارِ الغيرِ بلا إذنِه، ولا يجوزُ الدخولُ على طعامِ الغيرِ بلا إذنِه، فيحرمُ على الطُّفيليِّ التطفُّلُ.

وقد ثبتَ في «الصحيحِ»[3] عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «إذا دعا أحدُكم

---

(١) الأحزاب: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) قارن بـ «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص ١١٣ ـ ١١٥) للأخ الشيخ مقبل بن هادي.

(٣) رواه: مسلم (١٤٢٩)، وأحمد (٦٣٣٧)، والبيهقي (٧ / ٢٦٢)؛ عن ابن عمر.

ورواه البخاري (٩ / ٢١٠)؛ دون قوله: «عُرساً كان أو نحوه».

أخاهُ؛ فليُجِبْ؛ عُرْساً كانَ أو غيرَه».

وقالَ ﷺ: «لو دُعيتُ إلى ذِراعٍ لأجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إليَّ كُراعٌ لقَبِلْتُ».

فإذا فرغتُم مِن الذي دُعيتُم إليهِ؛ فخفِّفوا عن أهلِ المنزلِ، وانتشروا في الأرضِ، وأَصلُ هٰذا الحديثِ في «الصحيحين»[1].

فيا أيُّها العبدُ المؤمنُ! تعلَّمْ كلامَ ربِّكَ، وتفهَّمْ أوامِرَه؛ فإنَّهُ تعالى قد خاطبَكَ وأمرَكَ ونهاكَ، فإنْ لم تعلمْ ولم تفهَمْ؛ فأنتَ لستَ بمؤمنٍ، بل قد ضيَّعتَ أهليَّتَك، فصرتَ كالأنعامِ بل أضلُّ، فاستَحْيِ أيُّها المسلمُ، ولا ترضَ بالجهلِ؛ فإنَّهُ يرديكَ إلى مهاوي الجحيمِ كما لا يخفى على العاقلِ البصيرِ.

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والستونَ فيها أيضاً: ﴿إنَّ اللهَ وملائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيِّ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا صَلُّوا عليهِ وسلِّموا تَسْليماً﴾[2].

قد أخبرَ اللهُ تعالى أنَّهُ عزَّ وجلَّ يصلِّي على رسوله محمدٍ ﷺ، وكذا ملائكتُه الكرامُ يصلُّونَ على النبيِّ ﷺ، فأنتُم يا أيُّها المؤمنونَ باللهِ ورسوله صلُّوا على هٰذا الرسولِ وسلِّموا عليهِ تسليماً.

صلاةُ اللهِ تعالى عليهِ: ثناؤهُ عليهِ عندَ ملائكتِهِ، وصلاةُ الملائكةِ:

---

(١) بل هو من أفراد البخاري (٩ / ٢١٣) عن أبي هريرة بلفظه؛ كما في «جامع الأصول» (٧ / ٤٨٧).

ولكنْ رواه مسلم (١٤٢٩) (١٠٤) عن ابن عُمر مختصراً؛ بلفظ: «إذا دُعيتُم إلى كُراع فأجيبوا».

(٢) الأحزاب: ٥٦.

الدعاءُ، وقالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ تعالى: «صلاةُ الرَّبِّ الرحمةُ، وصلاةُ الملائكةِ الاستغفارُ»[1].

والمقصودُ مِن هٰذه الآيةِ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى أخبرَ عبادَه المؤمنينَ بمنزلةِ عبدِه ونبيِّهِ ورسولِه محمدٍ ﷺ عندَه في الملإِ الأعلى بأنَّهُ تعالى يُثْني عليهِ عندَ الملائكةِ المقرَّبينَ وأنَّ الملائكةَ تُصلِّي عليهِ، ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى العالَم السفليَّ ـ المؤمنينَ منهُم ـ بالصلاةِ والتسليمِ عليهِ؛ ليجتمعَ الثناءُ عليهِ مِن أهلِ العالَمَيْنِ العلويِّ والسفليِّ جميعاً.

وقد أخبرَ اللهُ تعالى بأنَّهُ عزَّ وجلَّ يُصلي على عبادِهِ المؤمنينَ، فقالَ: ﴿هُوَ الَّذي يُصَلِّي عليكُمْ وملائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾[2]، ﴿وبَشِّرِ الصَّابِرينَ الَّذينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قَالُوا إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعونَ. أُولٰئكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولٰئكَ هُمُ المُهْتَدونَ﴾[3]، وفي الحديثِ: «إنَّ اللهَ وملائكَتَهُ يصلُّونَ على ميامِنِ الصُّفوفِ»[4].

---

(١) انظر: «القول البديع» (ص ١٧) للسخاوي.

(٢) الأحزاب: ٤٣.

(٣) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٤) رواه: أبو داود (٦٧٦)، وابن ماجه (١٠٠٥)، والبيهقي (٣ / ١٠٣)، وابن حبان (٢١٦٠)، والبغوي (٨١٩)؛ من طريق سفيان الثوري عن أسامة بن زيد عن عثمان بن عروة عن أبيه عن عائشة.

وحسنه الحافظ في «الفتح» (٢ / ٢١٣)!

ثم قال البيهقي: «المحفوظ بهٰذا الإسناد عن النبي ﷺ: إن الله وملائكته يصلون على الذين يَصِلونَ الصفوف».

يشير بذٰلك إلى شذوذ هٰذا اللفظ!

وقد جاءتِ الأحاديثُ المتواترةُ عن رسولِ اللهِ ﷺ بالأمرِ بالصلاةِ عليهِ وكيفيَّةِ الصلاةِ عليهِ.

وقد روى البخاريُّ في «صحيحِهِ»[1] عنِ كعبِ بنِ عُجرةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قيلَ: يا رسولَ اللهِ! أمَّا السَّلامُ عليكَ؛ فقد عرفناهُ؛ فكيفَ الصلاةُ؟ قالَ: «قُولوا: اللهُمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صلَّيْتَ على إبراهيمَ وعَلى آلِ إبراهيمَ؛ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ. اللهُمَّ بارِكْ عَلى محمَّدٍ وعَلى آلِ محمَّدٍ كما بارَكْتَ عَلى إبراهيمَ وعَلى آلِ إبراهيم؛ إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ».

وهٰذا الحديثُ مخرَّجٌ في جميعِ الكتبِ الستةِ والمسانيدِ المشهورةِ[2].

والسلامُ الذي كانُوا يعرِفونَه ما في التشهُّد: «السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه».

وقد رواه باللفظ المحفوظ: ابنُ خزيمة (١٥٥٠)، وابن حبان (٢١٦٣)، والحاكم (١ / ٢١٤)، والبيهقي (١ / ١٠١)؛ من طريق ابن وهب عن أسامة عن عثمان بن عروة عن أبيه عن عائشة.

ولِلفظ: «. . . ميامن الصفوف» شاهد:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥ / ٢٠١٠) عن ابن عباس.

لكنه لا يفرَح به، ففيه عِصمةُ الأنصاري، وهو متروك!

(١) برقم (٣٣٧٠ و٤٧٩٧ و٦٣٥٧).

(٢) فأخرجه: مسلم (٤٠٦)، وأبو داود (٩٧٦)، والترمذي (٤٨٣)، والنسائي في «سننه» (٣ / ٤٧) وفي «عمل اليوم» (٥٤ و٣٥٩)، وابن السني (٩٤)، وأحمد (٤ / ٢٤١ و٢٤٣ و٢٤٤)، وابن ماجه (٩٠٤)، والدارمي (١٣٤٨)، والجهضمي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٥٦ و٥٧)، والحاكم (١ / ١٤٨)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٣١٠٥ و٣١٠٦ و٣١٠٧)، وغيرهم كثير.

وزادوا في بعض الـــرواياتِ في «السنن»[1]: «اللهُمَّ صلِّ على محمـدٍ وأزواجِه وذرِّيَّتِه كما صلَّيْتَ على إبراهيمَ، وبارِكْ على محمدٍ وأزواجِهِ وذرِّيَّتِه كما باركتَ على آل إبراهيمَ إنَّك حميدٌ مجيدٌ».

وفي رواية: «وعلى آلِ إبراهيمَ في العالمينَ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ».

وروى أحمـدُ وابنُ ماجـه[2] عن عامـرِ بنِ ربيعةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «مَن صلَّى عليَّ صلاةً؛ لم تَزَلِ الملائكةُ تُصَلِّي عليهِ ما صلَّى عليَّ، فليُقِلَّ مِن ذٰلك عبدٌ أو لِيُكْثِرَ».

وفي «جامعِ الترمذيِّ»[3] عن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: أَنَّ رسولَ

---

(١) بل في «صحيح البخاري» (٣٣٦٩)، و«صحيح مسلم» (٤٠٧).
ورواه: أبو داود (٩٧٩)، والنسائي (٣ / ٤٩)، وابن ماجه (٩٠٥)، وغيرهم.
الجميع عن أبي حُميد الساعدي.

(٢) رواه: أحمد (٣ / ٤٤٥)، وابن ماجه (٩٠٧)، والجهضمي (رقم ٦)؛ من طريق عاصم بن عبيدالله عن أبيه عن النبي ﷺ.
وقال المنذري في «الترغيب» (٢ / ٢٨٠): «وعاصمٌ، وإن كان واهي الحديث، فقد مشَّاه بعضهم، وصحَّح له الترمذي، وهٰذا الحديث حسن في المتابعات، والله أعلم».
وبعاصمٍ أعله الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٦١).
ولعاصمٍ متابع: أخرجه ـ بسند فيه ضعفٌ ـ أبو نُعيم في «الحلية» (١ / ١٨٠).
وله شاهد آخر رواه الجهضمي (رقم ٣) بسند فيه ضعف عن أبي طلحة.
فالحديث ـ إن شاء الله ـ حسنٌ.

(٣) برقم (٤٨٤).
وأخرجه: البخاري في «التاريخ الكبير» (٥ / ١٧٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٦٨٦)، والشجري في «أماليه» (١ / ١٣٠)؛ من طريق عبدالله بن شدَّاد عن ابن مسعود.
ورواه: البخاري في «التاريخ» (٥ / ١٧٧)، والخطيب في «شرف أصحاب

اللهِ ﷺ قالَ: «أَوْلى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهُم عليَّ صلاةً».

وعن ابنِ مرَّةَ[1] رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن صلَّى عليَّ صلاةً؛ صلَّى اللهُ عليهِ بها عشراً».

وروى ابنُ ماجه[2] عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما؛ قال: قالَ رسولُ اللهِ

الحديث» (٦٣)، وابن أبي شيبة (١١ / ٥٠٥)، وابن عدي في «الكامل» (٣ / ٩٠٦ و٦ / ٣٤٢)، وابن حبان (٩١١)، والشجري في «أماليه» (١ / ١٣٠)؛ من طريق عبدالله بن شداد عن أبيه عن ابن مسعود.

وأورده الحافظ في «الفتح» (١١ / ١٦٧)، وقال: «حسنه الترمذي، وصححه ابن حبان»، وأقرهما!

قلت: وفي كلا السندين موسى بن يعقوب الزَّمْعي؛ فيه ضعف، وعبدالله بن كيسان؛ مجهول.

ثم قال الحافظ: «وله شاهدٌ عند البيهقي عن أبي أمامة؛ بلفظ: «صلاة أُمتي تعرض علي في كل يوم جمعة، فمن كان أكثرهم عليَّ صلاة؛ كان أقربهم مني منزلةً»، ولا بأس بسنده».

قلت: هو في «السنن الكبرى» (٣/٢٤٩)، و«حياة الأنبياء» (١١) له، وحسَّن سنده المنذري في «الترغيب» (٣/٣٠٣)، وقال: «إلا أن مكحولاً قيل: لم يسمع من أبي أمامة».

قلت: بل ولا رآه؛ كما في «جامع التحصيل» (ص ٢٨٥).

لكنَّه شاهدٌ لا بأس به للحديث إن شاء الله، فلعلَّه يحسِّنه.

(١) كذا الأصل، وهو خطأ، صوابه: «أبي هريرة»، إذ الحديث في «صحيح مسلم» (٤٠٨) عنه.

(٢) برقم (٩٠٨).

«وفي سنده جُبارة بن المُغلِّس، وهو ضعيف، وقد عُدَّ هذا الحديث من مناكيره»؛ كما قال السخاوي في «القول البديع» (ص ٢١٤).

ولكنَّ للحديث شواهد تُقوِّيه ذكرها: شيخنا في تعليقه على «فضل الصلاة على النبي» (ص ٤٢ ـ ٤٤)، والسخاوي في «القول البديع» (ص ٢١٣ ـ ٢١٥)، فليُنْظَرا.

ﷺ: «مَنْ نَسِيَ الصَّلاةَ عليَّ؛ أَخْطَأَ طَريقَ الجَنَّةِ».

وقد روى مسلمٌ والأربعةُ(١) عن عبدِاللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهما: أَنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذا سمعتُم المؤذِّنَ؛ فقولوا مثلَ ما يقولُ، ثمَّ صلُّوا عليَّ؛ فإنَّهُ مَنْ صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى اللهُ عليهِ بها عشراً، ثمَّ سلوا اللهَ ليَ الوسيلةَ؛ فإنها منزلةٌ في الجنَّةِ لا تَنْبَغي إلَّا لعبدٍ مِن عِبادِ اللهِ، وأَرْجو أَنْ أكونَ أَنا هُو، فمَنْ سأَلَ ليَ الوسيلة؛ حلَّتْ عليهِ الشَّفاعَةُ».

وروى الترمذيُّ(٢) عن عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: «الدُّعاءُ موقوفٌ بينَ السماءِ والأرضِ، لا يصعَدُ منهُ شيءٌ حتَّى تُصَلِّيَ على نبيِّكَ محمَّدٍ ﷺ».

فيا أَيُّهـا المؤمنـونَ! صلُّوا وسلِّمـوا على محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ في كلِّ حالاتِكُم أَيْنما كُنْتُم، ولا تُسيئوا الأدبَ برفعِ أَصواتِكُم فوقَ الحاجةِ، كما تفعلُه الجهلةُ عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ؛ فإِنَّهُم يصيحونَ صياحاً، ويرفعونَ أَصواتَهُم رفعاً منكراً فاحشاً، فيا أَيُّها المسلمونَ! عليكُم بالأدب.

---

(١) رواه: مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٩)، والنسائي (٢ / ٢٥)، وأحمد (٢ / ١٦٨)، ولم يروه ابن ماجه كما صرَّح السخاوي في «القول البديع» (ص ٢٧٠)، وزاد نسبته للبيهقي وابن زنجويه وغيرهم.

(٢) برقم (٤٨٦) وفي سنده جهالة.

وانظر: «الفتوحات الربانية» (٣ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥)، و«القول البديع» (ص ٣٢١)، و«الإرواء» (٤٣٢).

وقد صحَّح شيخُنا في «صحيح الجامع» (٤٣٩٩) قولَه ﷺ مرفوعاً: «كلُّ دعاء محجوب حتى يصلِّى على النبي ﷺ».

وانظر: «القول البديع» (٣٢٠)، و«الوسيلة» (ص ٣٧).

وقد روى أبو داودَ[1] عن عليٍّ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُم: أنَّهُ بلغَهُ أنَّ رجلاً يأتي كلَّ غداةٍ إلى قبرِ النبيِّ ﷺ ويصلِّي عليهِ رافعاً صوتَه، فقالَ لهُ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ: ما يحمِلُك على هٰذا؟! قالَ: أُحبُّ السلامَ على رسولِ اللهِ ﷺ. فقالَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما: أخبرَني أبي عن جدِّي أنَّهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَجْعَلوا قبري عِيداً، ولا تَجْعَلوا بيوتَكُمْ قُبوراً، وصَلُّوا عليَّ وسلِّموا حيْثُما كُنْتُم فَتَبْلُغَني صلاتُكُم وسلامُكُم».

قالَ العمادُ بنُ كثيرٍ[2]: لعلَّه رآهُم يُسيئونَ الأدبَ برفعِ أصواتِهم فوقَ الحاجةِ، فنهاهُم.

وأنَّهُ رضيَ اللهُ عنهُ رأى رجلاً ينتابُ القبرَ، فقالَ: يا هٰذا! ما أنتَ ومَن بالأندلسِ إلَّا سواءٌ منهُ.

أي: الجميعُ يبلغُه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ دائماً إلى يومِ الدينِ.

فيا أيها المؤمنونَ! صلُّوا وسلِّموا على محمدٍ رسولِ اللهِ المبعوثِ رحمةً للعالمينَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، وكرِّروا الصلاةَ والسلامَ عليهِ دائماً؛ ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، وأفضلُ صيغِها ما ثبتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ كما بيَّنها، وهي الصلاةُ التي يصلُّونَ بها في تشهداتِ صلواتِهم؛ فرْضِها ونفلِها.

---

(١) برقم (٢٠٤٢) المرفوع منه.
ورواه: أحمد (٢ / ٣٦٧)، والبيهقي في «حياة الأنبياء» (ص ١٢)؛ بسند حسن.
أما القصة؛ ففي سندها مقال؛ كما بيَّنته في تعليقي على «معارج الألباب» (ص ١٣٧).

(٢) في «تفسيره» (٢ / ٨٢٠).

واحترزْ أيُّها المؤمنُ عنِ الصيغِ المحدَثةِ المبتدَعةِ، والأحزابِ المؤقتةِ التي فيها المنكراتُ بل الأكاذيبُ والكفرياتُ كـ «دلائلِ الخيراتِ»[1] للجَزولي، و«صلواتِ الثناءِ» للنبهاني؛ فإنَّها مِن البدعِ المنكرةِ، لا يحلُّ لمَنْ يؤمنُ باللهِ وبكتابِهِ ورسالةِ رسولِه محمدٍ ﷺ وسنَّتِه أنْ يفعَلَ ذلك، أو يعتقدَ جوازَه؛ فإنَّهُ ممَّا لم يأذنْ بهِ اللهُ ولا رسولُه ولا أحدٌ مِن أئمةِ المسلمينَ، فالحذرَ الحذرَ.

* * * * *

الآيةُ السبعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونوا كالَّذينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالوا وكانَ عندَ اللهِ وجيهاً﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم أنْ لا يكونوا كالَّذينَ آذوا أنبياءَ اللهِ، ومنهُم موسى عليهِ السلامُ؛ فإنَّهُ كانَ رجلاً حَيِيّاً ستِّيراً، لا يُرى مِن جلدِه وبدنِه شيءٌ؛ استحياءً منهُ، فآذاهُ مَن آذاهُ مِن بني إسرائيلَ، فقالوا: ما يستترُ هٰذا التسترَ إلاَّ مِن عيبٍ في جلدِه؛ إمَّا برصٌ، وإما أُدْرَةٌ، وإمَّا آفةٌ، فأرادَ اللهُ تعالى أنْ يبرِّئَهُ مما قالوا مِن الافتراءِ، فخلا موسى يوماً وحدَهُ، فخلعَ ثيابَهُ على حجرٍ، ثمَّ اغتسلَ، فلمَّا فرغَ؛ أقبلَ على ثيابِهِ ليأْخُذَها ويلبَسَها، ولكنَّ الحجرَ عدا بثوبِه، فأخَذَ موسى عصاهُ، وطلبَ الحجرَ، فجعلَ يقولُ: ثوبي حجرُ، ثوبي حجرُ، حتى انتهى الحجرُ إلى ملإٍ مِن بني إسرائيلَ، فرأَوهُ عُرياناً أحسنَ ما خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وبرَّأهُ مما يقولون، وقامَ الحجرُ، فأخذَ موسى ثوبَه، فلبسَهُ، وطَفِقَ بالحجرِ ضرباً بعصاهُ. هٰذا حديثٌ صحيحٌ في

(١) وهو من كُتُب المبتدعة التي يعظِّمونها، وهي ملأى بالشرك والضلال والانحراف!

(٢) الأحزاب: ٦٩.

«الصحيحين»[1].

والمقصودُ أنَّ اللهَ تعالى نهى المؤمنينَ أنْ يؤذوا أنبياءَ اللهِ وأولياءَ اللهِ وعبادَه الصالحينَ المؤمنينَ بأيِّ طريقٍ كانَ؛ كما هو شأْنُ الكفارِ والمنافقينَ؛ يؤذونَ أنبياءَ اللهِ وعبادَه المؤمنينَ، وخصوصاً ورثةَ الأنبياءِ الدَّاعينَ إلى التَّوحيدِ إلى الصراطِ المستقيمِ.

وقد ثبتَ في الحديثِ القدسيِّ[2] أنَّ اللهَ تعالى قالَ: «مَن عادى لي وَلِيّاً؛ فقدْ آذنْتُهُ بالحَرْبِ، ومَنْ آذَنْتُه بالحربِ؛ أدخلْتُه ناري».

ونحنُ قد نشاهدُ الآنَ أنَّ أهلَ البدعةِ يُؤذونَ أهلَ السنَّةِ، وأهلَ الشركِ يؤذونَ أهلَ التوحيدِ، وأهلَ الباطلِ يؤذونَ أهلَ الحقِّ. فيا أيُّها المؤمنونَ! لا تَكونوا أنتُم كهٰؤلاءِ السفهاءِ، بل افهَموا كلامَ ربِّكُم ونصائحَ نبيِّكُم، فعضُّوا عليهما بالنَّواجذِ. وباللهِ التوفيقُ.

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والسبعونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولوا قَوْلاً سَديداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظيماً﴾**[3].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بتقواهُ، وأنْ يعبدوهُ عبادةَ

(1) رواه: البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩).

(2) انظر ألفاظه وطرقه بما لا مزيد عليه إن شاء الله في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ١٦٤٠).

(3) الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١.

مَن يراهُ، وأنْ يقولوا قولاً سديداً ؛ أيْ : مستقيماً ؛ لا اعوجاجَ فيهِ ولا انحرافَ ، ولا كَذِبَ فيهِ ولا اعتسافَ ، ووعَدَهُم أنَّهُ إذا فعَلوا ذٰلك أثابَهُم عليهِ ؛ بأنْ يصلحَ لهُم أعمالَهم، ويوفِّقَهُم للأعمالِ الصالحةِ، ويغفِرَ لهُم الذنوبَ الماضيةَ ، ويلهِمَهُم التوبةَ في المستقبلِ .

﴿ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ فقدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً﴾ ، وذٰلكَ بأنْ يُجارَ مِن نارِ الجحيمِ ، ويصيرَ إلى النعيمِ المقيمِ .

فنسألُكَ اللهُمَّ أنْ تجعَلَنا مِن المتَّقينَ ، ونسألُك اللهُمَّ أنْ تجعلَنا مِن المطيعينَ الصادقينَ ، ونسألُكَ اللهُمَّ أنْ تجعَلَنا مِن الصالحينَ المفلِحينَ ، ونسألُك اللهُمَّ أنْ تجعَلَنا مِن المغفورِ لهُم المرحومينَ ، ونسألُكَ اللهُمَّ أنْ تجعلنا مِن الفائزينَ في الدَّارينِ برضاكَ والجنةِ آمينَ .

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والسبعونَ في سورةِ الزُّمرِ: **﴿قُلْ يَا عِبادي الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا ربَّكُمْ لِلَّذينَ أَحْسَنُوا في هٰذهِ الحياةِ الدُّنيا حَسَنَةٌ وأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ إنَّما يُوَفَّى الصَّابِرونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسابٍ﴾**[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ بواسطةِ رسولِه محمدٍ ﷺ : يا عبادَ اللهِ الذينَ اتَّصفتُم بصفةِ الإيمانِ! اتَّقوا ربَّكُم ، واثبُتوا على تقوى ربِّكُم ، واتَّقوا الشركَ والكفرَ ، واتَّقوا عذابَه وغضبَه ، واتَّقوا كلَّ ما يُرديكُم إلى نارِ جهنمَ .

فيا أيُّها المؤمنونَ! استمرُّوا على طاعةِ ربِّكُم واتَّقوهُ دائماً ؛ لأنَّ ﴿للذينَ

---

(١) الزمر: ١٠

أَحْسَنُوا في هٰذهِ الدُّنيا﴾؛ أيْ: عملوا الأعمالَ الحسنةَ بالإخلاصِ للهِ تعالى ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أيْ: في الدُّنيا عاجِلاً، وفي دارِ الآخرةِ الباقيةِ آجلاً سرمداً الجنةُ والرضى والرضوانُ، فالدنيا مزرعةُ الآخرةِ، وإنَّما جزاءُ الإحسانِ الإحسانُ.

وحدُّ الإحسانِ أنْ تعبدَ اللهَ تعالى كأنَّكَ تَراهُ عياناً، فإنْ لم تكنْ تراهُ؛ فإنَّهُ يراكَ، وهٰذا هو حقيقةُ الإخلاصِ، وهٰذا فيهِ كمالُ الخشوعِ والخضوعِ والتذلُّلِ والانكسارِ.

فيا أيُّها العبدُ المؤمنُ! دُمْ واصبرْ على الإيمانِ وطاعةِ اللهِ، وإنْ مَنَعَكَ مانعٌ وهجمَ عليكَ الأعداءُ مِن المشركينَ وعبَّادِ الأوثانِ والقبورِ وأهلِ البدعةِ؛ فهاجرْ مِن هٰذا البلدِ الظالمِ أهلُها؛ لأنَّ أرضَ اللهِ واسعةٌ، فمَنْ تعسَّرَ عليهِ التَّقوى والإحسانُ في بلدِه؛ فليهاجرْ إلى حيثُ يتمكَّنُ فيهِ مِن ذٰلك؛ كما هو سنةُ الأنبياءِ والصالحينَ؛ فإنَّهُ لا عذرَ لأحدٍ في الإقامةِ في دارِ الشركِ والبدعةِ؛ لأنَّ أرضَ اللهِ واسعةٌ، واللهُ هو الذي يرزقُ عبادَهُ، وييسِّرُ لهُم أسبابَ الرزقِ، وهو الرَّزَّاقُ ذو القوةِ المتينُ.

ففيهِ الحثُّ على الهجرةِ مِن البلدِ الذي يظهَرُ فيهِ الشركُ والمعاصي والكفرُ والضَّلالُ؛ كالتركستانِ، وما وراءَ النهرِ، والصينِ، والهندِ، والتركِ، وما شابهَها.

وقد ورد في الحديث الصحيح[1]: «مَن فرَّ بدينه مِن أرضٍ إلى أرضٍ؛

---

(١) لا؛ لم يصحَّ، فقد أخرجه الثعلبي من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلاً؛ كما في «الكافي الشاف» (ص ٤٨ و١٢٨).
وعَبَّاد: صدوقٌ، مدلِّسٌ، مختلطٌ.

وجَبَتْ لهُ الجنَّةُ».

وإنَّما قالَ: «بدينه»؛ احترازاً عنِ الفرارِ بسببِ الدُّنيا ولأجْلها، كأكثرِ البخاريِّينَ الذينَ هاجروا مِن بلادِهم فراراً مِن البلاشفةِ لأجْلِ الدُّنيا لا لأجْلِ الدينِ، والدليلُ على هذا أنَّهُم، وإنْ جاؤوا إلى الحرمينِ، وأقاموا فيهما؛ فهُم لا يسألونَ عن معنى كتابِ اللهِ، ولا سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا عنِ الحقِّ والحقيقةِ، بل يعادونَ أهلَ الحقِّ، وينفرُونَ عنِ استماعِ تفسيرِ القرآنِ والحديثِ، وينفِّرونَ غيرَهُم أيضاً، وهُم أعداءُ السَّلفِ والسَّلفيِّينَ، وفي العقيدةِ جَهميُّونَ ومعطِّلونَ، ويعبدونَ معَ اللهِ الأولياءَ وأرواحَهُم، فيَدْعونَهم، ويَنْذُرونَ لهُم، ويستغيثونَ بهِم، ويستَمِدُّونَ منهُم، فهُم ليسوا مِن المُهاجرينَ للهِ والرَّسولِ، بل مِن المُهاجرينَ لدنيا يُصيبونها، أو امرأةٍ ينكِحونَها كما لا يخفى؛ إلَّا مَن هداهُم اللهُ تعالى ووفَّقهُم، وهُم قليلونَ.

فيا أيُّها المسلمونَ! آمِنوا باللهِ وبكتابِهِ، وبرسولِه وسنتِه، واعملوا بهِما، واتركوا ما خالَفَهما، واحذروا عذابَ اللهِ وغضبَه، ولا تغترُّوا بالمذاهبِ والمشايخِ الغيرِ معصومينَ؛ فإنَّهُ لا ينفعُكُم في الدينِ، ولا تنفعُكم سُكْنى مكةَ وجوارُ الكعبةِ والمدينةِ الطيبةِ إذا لم تكونُوا مِن المؤمنينَ الصادقينَ؛ فإنَّ أبا جهلٍ

= ووصله ابن مردويه عن أبي الدرداء؛ كما في «الدر المنثور» (٦ / ١٧٦).
وفي سنده وضاعٌ؛ كما في «الفوائد المجموعة» (رقم ١٤٢٥).
وصرَّح به ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢ / ١٨٧)، فقال: «فيه مُجاشع بن عمرو»!!
وهو كذَّاب؛ كما في «الكشف الحثيث عمَّن رُمي بوضع الحديث» (ص ٢١٤) لسِبط ابن العجمي.

وأبا لهبٍ وأمثالَها كانوا مِن أهلِ هٰذا البلدِ الأمينِ، فلم تنفعْهُم مجاورتُهم؛ لأنَّهُ لا يقدِّسُ الإنسانَ إلَّا إيمانُه الصادقُ وأعمالُه الصالحةُ.

* * * * *

الآيةُ الثالثةُ والسبعونَ فيها أيضاً: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[1].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه محمداً ﷺ أنْ يبلِّغَ عبادَ اللهِ تعالى عموماً، والذين أسرَفوا على أنفسِهم بارتكابِ الكفرِ والمعاصي: أنْ يتوبوا إلى اللهِ، ويُنيبوا إليهِ، ولا يقنَطوا مِن رحمةِ اللهِ ومغفرتِه؛ فإنَّهُ تعالى يغفرُ الذنوبَ جميعاً؛ لأنَّهُ هو الغفورُ الرحيمُ.

فيا أيُّها الناسُ! أنيبوا إلى ربِّكُم الذي خلقَكُم، وأسْلِموا لهُ جلَّ جلالُه في هٰذه الحياةِ الدُّنيا؛ مِن قبلِ أنْ يأتيَكُم العذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرونَ.

فيا أيُّها المسلمونَ! تُوبوا إلى اللهِ تعالى الرؤوفِ الغفارِ؛ ﴿إنَّ اللهَ تعالى يغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً﴾ لمنْ تابَ منها ورجعَ عنها، وإنْ كانتْ مهما كانتْ، وإنْ كثُرتْ وكانتْ مثلَ زَبدِ البحرِ.

ولا يصحُّ حملُ هٰذهِ على غيرِ توبةٍ؛ لأنَّ الشركَ لا يُغفرُ لمنْ لمْ يتُبْ منهُ.

فتُوبوا أيها المسلمون من كلِّ ما نهى اللهُ عنهُ مِن الشركِ والكفرِ والنفاقِ والظلمِ والبدعةِ والفسقِ والفجورِ، فإذا تُبتُم؛ تابَ اللهُ عليكُم، وغفرَ لكُم ما

---

(١) الزمر: ٥٣.

تقدَّمَ مِن ذُنوبِكُم، ورحِمَكُم بفضلِه ورحمتِه.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والسبعونَ فيها أيضاً: ﴿والَّذينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدوها وأَنابُوا إلى اللهِ لَهُمُ البُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذينَ يستَمِعُونَ القولَ فيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذينَ هَداهُمُ اللهُ وأُولٰئِكَ هُمْ أُولو الألبابِ﴾[1].

هٰذه الآيةُ أمرٌ مِن اللهِ تعالى لرسولِه محمدٍ ﷺ أن يبشِّرَ عبادَ اللهِ الذينَ اجتنبوا عبادةَ الطاغوتِ؛ أي: الأوثانِ والشيطانِ والقبورِ والأرواحِ، بل أنابوا ورجعوا إلى عبادةِ الرحمٰنِ وحدَه لا شريكَ لهُ، فهٰؤلاءِ الموحِّدونَ هُم الذينَ لهُم البُشرى في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ بالمغفرةِ والجنةِ.

﴿فَبَشِّرْ﴾ يا محمَّدُ ﴿عبادِ﴾ي المؤمنينَ، ﴿الَّذينَ يستَمِعونَ القولَ﴾ القرآنَ، ﴿فيتَّبِعونَ أَحْسَنَه﴾؛ أي: يفهمونَه ويعملونَ بما فيهِ، وإذا استَمَعُوا القرآنَ وغيرَ القرآنِ؛ فيتَّبعونَ القرآنَ، ﴿أُولٰئكَ﴾ هُمُ الموحِّدونَ الذينَ يتَّبعونَ القرآنَ، والمتَّصفونَ بهٰذه الصفةِ هم ﴿الَّذينَ هداهُم اللهُ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ، ﴿وأُولٰئكَ هُمْ أُولو الألبابِ﴾؛ أي: ذوو العقولِ السليمةِ والفطرِ المستقيمةِ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! تفهَّموا كلامَ ربِّكُم، واستمعوهُ؛ لأنَّه أحسنُ الكلمِ، فاعملوا بهِ؛ تفوزوا بالرَّوحِ والرَّيحانِ والجنَّةِ والرِّضوانِ، وأمَّا إذا أعرضتُم عنهُ، واشتغلتُم بالفلسفةِ والسفسطةِ والأشعارِ والمعمَّياتِ والألغازِ والأغلوطاتِ وخرافاتِ الصوفيةِ؛ كأهلِ بخارى والهندِ والعراقِ؛ فستُبْتَلَوْنَ بغضبِ اللهِ الواحدِ القهَّارِ، فيسلِّطُ عليكُم البلاشفةَ الأشرارَ، فيذيقونَكُم العذابَ وبئسَ القرارُ؛ لأنَّ

---

(١) الزمر: ١٧ ـ ١٨.

مِن سنَّةِ اللهِ المطَّردةِ أنه يسلِّطُ بعضَ الظالمينَ على بعضٍ ، وإذا عَصَوُا اللهَ مع دعواهُم الإسلامَ؛ سلَّط اللهُ عليهِم الدَّهريينَ؛ كما ورد في الحديثِ القدسيِّ: «إذا عَصاني مَن يعرِفُني سلَّطتُ عليهِ مَنْ لا يعرِفني»[1].

* * * * *

الآيةُ الخامسةُ والسبعونَ في سورةِ الزخرفِ: ﴿يَا عِبادِ لَا خوفٌ عليكُمْ اليومَ ولا أَنْتُمْ تَحْزَنونَ . الَّذينَ آمَنُوا بآياتِنا وكَانُوا مُسْلِمينَ . ادْخُلوا الجَنَّةَ أَنْتُم وأَزْواجُكُم تُحْبَرونَ﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ نداءَ كرامةٍ وتشريفٍ، فقالَ: ﴿يَا عِبادِ﴾ المؤمنينَ المتَّقينَ الذينَ آمنتْ قلوبُهم وبواطنُهم، وانقادتْ لشرعِ اللهِ جوارحُهم وظواهِرُهم، ﴿لا خَوْفٌ عليكُم اليومَ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ مِن لقاءِ المكارِه، ﴿ولا أَنْتُمْ تحزنونَ﴾ مِن فَوْتِ المقاصدِ كما يخافُ ويحزنُ غيرُ المؤمنينَ المتَّقينَ، وهؤلاءِ: ﴿الَّذينَ آمَنُوا بآياتِنا وكانُوا مسلِمينَ﴾ صادقينَ مخلِصينَ، فيا مَنْ هٰذه صفتُهم! ﴿ادْخُلوا الجنَّةَ أنتُم وأزواجُكُم تُحْبرونَ﴾؛ أي: تتنعَّمونَ وتَسْعَدونَ وتُسرُّونَ سروراً يظهرُ حبارُه؛ أي: أثرُه على وجوهِكُم على أحسنِ الهيئةِ.

فيا أيها المؤمنون! آمِنوا بآياتِ اللهِ كلِّها، وأَسلِموا لكلِّ أوامرِ اللهِ بالصدقِ والإخلاصِ، وذٰلك موقوفٌ على فهمِكم كلامَ ربِّكُم وتدبُّرِ معانيهِ، فتدبَّروا وتفكَّروا في آياتِ اللهِ وآلائهِ؛ لأنَّكُم أنتُم المخاطَبونَ بذلك، وأنتُم المكلَّفونَ بالعملِ به.

---

(1) سبق (ص ٣٧)، وبيَّنَّا أنه لا أصل له.

(2) الزخرف: ٦٨ ـ ٧٠.

الآيةُ السادسةُ والسبعونَ في سورةِ محمدٍ ﷺ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ، وأعلمَهم شارطاً عليهم أَنْ يؤمنوا باللهِ إيماناً صحيحاً، ويعمَلوا بما أَمرَ مِن إحضارِ العُدَّةِ والأسلحةِ بما استطاعوا حسبَ زمانِهم ومكانِهم، فاستعملوها متوكِّلينَ على اللهِ تعالى بإخلاصِ النيَّةِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى، فاللهُ تعالى ينصرُهم على أعدائِهم، ويجعلُهُم غالبينَ بإلقاءِ الرُّعبِ والخوفِ في قلوبِ أعدائِهم المشركينَ وأضدادِهم الكافرينَ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه﴾؛ فإن الجزاءَ مِن جنسِ العملِ، ﴿وأَنْزَلْنا الحَديدَ فيهِ بأْسٌ شَديدٌ ومَنافِعُ للنَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغَيْبِ﴾[2]؛ أي: باستعمالِ أسلحةِ الحديدِ، ﴿ويُثَبِّتْ أقدامَكُم﴾ ويقوِّي قلوبكم.

وقد صدقَ اللهُ العظيمُ؛ فإنَّ المسلمينَ لما كانوا كامِلي الإسلامِ؛ كالخلفاءِ الراشدينَ والصَّحابةِ والتَّابعينَ لَهُم بإحسانٍ رضيَ اللهُ عنهُم نَصَرَهُم اللهُ تعالى على الأعداءِ، وفتحَ على أيديهِم البلدانَ الكثيرةَ، ودخلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفواجاً، فجزاهُم اللهُ تعالى في الدارينِ خيرَ الجزاءِ.

وأمَّا الخَلْفُ؛ الذينَ خالَفوا اللهَ، وخالَفوا أَمرَهُ، وخالَفوا رسولَ اللهِ ﷺ، وخالَفوا سنَّتَه، وخالَفوا السَّلَفَ الصالحينَ، وتركوا العملَ بكتابِ اللهِ الهادي إلى سعادةِ الدارينِ، وجَهِلوا معانيهِ، واتَّخذوا دينَهُم هُزواً ولَعِباً، واعتمدوا على

---

(1) محمد: ٧.

(2) الحديد: ٢٥.

الخُرافاتِ ودَجَلِ الدَّجَّالينَ، واعتقدوا أنَّ أرواحَ الأولياءِ تُعينُهم وتمدُّهم، وأنَّ الأقطابَ والأوتادَ تتصرَّفُ في العالمِ وتحفظُه، فبَنَوْا الأربطةَ والخانقاتِ، واشتغلوا بالخرافاتِ والخزعبلاتِ، بل الشركيَّاتِ والبدعياتِ والضلالاتِ، وساعدَهم السلاطينُ الجهلةُ والعلماءُ الدجاجلةُ؛ فسلبَ اللهُ تعالى عنهُم الدولةَ، وسلَّط عليهم الكفرةَ الخذلةَ، ﴿ذلك بأنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغيِّراً نِعَمَةً أنْعَمَها على قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا ما بأنْفُسِهِم وأنَّ اللهَ سَميعٌ عليمٌ﴾(١).

فيا أيها المسلمونَ! أفيقوا مِن سكرتِكم، واستعملوا عقولَكم، وارجعوا إلى دينِكم، ألا وهو العملُ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ اعتقادياً، وعملياً، وقولياً، والاحترازِ عن كلِّ ما خالفهما مِن التقليدِ الجامدِ للآباءِ، والاعتمادِ على أقوالِ غيرِ المعصومينَ مِن المؤلفينَ، عسى اللهُ تعالى أنْ يعفو عنكُم، اللهُمَّ إنَّا نسألكَ الهدايةَ والتوفيق.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والسبعونَ فيها أيضاً: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا أطِيعوا اللهَ وأطيعُوا الرَّسولَ ولا تُبْطِلُوا أعمالَكُم﴾(٢).

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إياهُم بأن يطيعوا اللهَ تعالى ويطيعوا رسولَه محمداً ﷺ، ونهاهُم عن إبطالِ أعمالِهم؛ بالارتدادِ، وردِّ كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِه، ومخالفةِ أمرِ اللهِ وأمرِ رسولِه؛ يعني: أنَّ الطاعاتِ والعباداتِ والإيمانَ إنَّما تنفعُ صاحبَها إذا استمرَّ صاحبُها وداومَ عليها حتى ماتَ

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) محمد: ٣٣.

عليها، وأما إذا تغيَّر في آخرِ عمرِه ـ والعياذُ باللهِ ـ، وارتدَّ عن دينِه، أو شكَّ في شيءٍ مِن أمـرِ ربِّـه، أو أشركَ باللهِ في عبادتِه أو ربوبيَّتِه أو صفاتِه؛ فقد حَبِطَ عملُه، فصارَ مِن الخاسرينَ؛ كمَنْ يدعو غيرَ اللهِ مِن الملائكةِ أو الأنبياءِ والأولياءِ أو الأرواحِ؛ على اعتقادِ أنَّهُ يسمعُ ويقضي حاجتَه، أو يقدِرُ على كلِّ شيءٍ مِن النفعِ والضُّرِّ، أو كمَنْ يَنْذُرُ لغيرِ اللهِ على اعتقادِ أنَّهُ جائزٌ أو قُربةٌ، أو كمَنْ يدعو عبدَالقادرِ الجيلانيَّ مثلاً ويقولُ: يا غوثَ الأعظمِ! المددُ، أو أغِثْني، فكلُّ هٰذا شركٌ كبيرٌ، بل أكبرُ، لا تنفعُ معهُ طاعةٌ ولا عبادةٌ ولا صلاةٌ ولا طوافٌ ولا قراءةُ قرآنٍ ولا غيرُها؛ إلا إذا تابَ توبةً صحيحةً، فاللهُ توَّابٌ رحيمٌ.

فيا أيُّهـا المسلمـونَ! داومُـوا على طاعـةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه، ولا تُبْطِلوا عباداتِكم وإيمانَكم بالشركِ والكفرِ والارتدادِ، وتفكَّروا وتدبَّروا في فهمِ معاني كلامِ ربِّكم؛ فإنَّــهُ تعــالى يقـولُ: ﴿أفَـلا يَتَـدَبَّـرونَ القُـرآنَ أمْ على قُلوبٍ أقْفالُها﴾(١)، وهٰذا أمرٌ مِن اللهِ تعالى بتدبُّرِ القرآنِ وتفهُّمِه، ناهياً عن الإعراضِ عنه، فعلى قلوبِ الكفارِ أقفالُها، فهي مقفَلَةٌ، لا يخلُص إليها شيءٌ من معانيهِ، فلا يفهمـونَ مواعظَ القرآنِ وأحكامَه، والفتَّاحُ هو اللهُ تعالى، فاسألوا مِن اللهِ تعالى أن يفتَحَ قلوبَكُم لفهْمِ معاني كتابِه، وينوِّرَ بصرَكُم وبصيرتَكُم بهِ بفضلِه ومنِّه وجودِه وكرمِه، آمينَ.

ويا أيُّها المؤمنونَ! أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ في العقائدِ والشَّرائعِ كلِّها، فلا تُشـاقُّوا اللهَ ورسولَه في شيءٍ مِنها، ولا تُبْطِلوا إيمانَكُم وأعمالَكُم بالشركِ والكفرِ والنفاقِ والرياءِ والمنِّ والأذى والعُجْبِ وغيرِها.

---

(١) محمد: ٢٤.

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ عملٍ وطاعةٍ لم يكنْ بأمرِ اللهِ وسنةِ رسولِه؛ فهو باطلٌ، لم تكنْ له ثمرةٌ؛ لأنَّهُ صدرَ عن الهوى والطبيعةِ.

فعليكَ أيها المؤمنُ بالإطاعةِ واستعمالِ الشريعةِ، وإياكَ والمخالفةَ والإهمالَ.

ومن جملةِ الذينَ بطُلَتْ أعمالُهم الذينَ يصدُّونَ الناسَ عن سبيلِ اللهِ وعنِ استماعِ كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِه ﷺ؛ كأكثرِ البخاريينَ الذين هُم مقيمونَ في الحرمينِ؛ يمنعونَ مُجالِسيهِم عن استماعِ تفسيرِ كلامِ ربِّ العالمينَ، وعنِ استماعِ أحاديثِ رسولِ اللهِ المبعوثِ رحمةً للعالَمينَ، وينفِّرونَ الناسَ عنِ استماعِ التوحيدِ الصحيحِ وأهلِه، فهُم إنْ ماتوا على هٰذا الحالِ قبلَ التوبةِ؛ فقد حَبِطَتْ أعمالُهم، فبئسَ الحالُ حالُهم، وهُم، وإنْ ظنُّوا أنَّهُم يقرؤونَ «دلائلَ الخيراتِ»، ولكنَّهُم بعيدونَ ومحرومونَ عن كلِّ الخيراتِ، أعاذَنا اللهُ تعالى مِن العمى والضَّلالِ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والسبعونَ في سورةِ الحُجراتِ: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بينَ يدي اللهِ ورسولِهِ واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ**﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن التقدُّمِ بينَ يدي اللهِ ورسولِه، وهٰذا أدبٌ أدَّبَ اللهُ تعالى بِه عبادَهُ المؤمنينَ، وهو أنْ لا يشرعوا في أمرٍ مِن الأمورِ قبلَ صدورِ أمرِ اللهِ ورسولِه، ولا يُسرِعوا فيهِ بهواهُم أو تقليداً لغيرِ المعصومِ مِن المؤلِّفينَ، بل لا بدَّ أنْ يكونوا تَبَعاً لهُ في جميعِ الأمورِ.

(١) الحجرات: ١

وقد ثبتَ في الحديثِ الصحيحِ[1] عن معاذٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ حينَ بعثَهُ النبيُّ ﷺ إلى اليمنِ؛ قالَ لهُ: «بمَ تحكُمُ؟». قالَ: بكتابِ اللهِ تعالى. قالَ ﷺ: «فإنْ لم تَجدْ؟». قالَ: بسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ. قالَ ﷺ: «فإنْ لم تَجدْ؟». قال: أجتهدُ رأيي. فضربَ رسولُ اللهِ ﷺ في صدرِهِ، وقالَ: «الحمدُ للهِ الَّذي وفَّقَ رسولَ رسولِ اللهِ ﷺ لِما يُرضي رسولَ اللهِ ﷺ».

فالغرضُ منهُ أنه أخَّرَ رأيَه ونظرَه واجتهادَه إلى ما بعدَ الكتابِ والسنةِ، ولو قدَّمه قبلَ البحثِ عنهُما؛ لكانَ مِن بابِ التقديمِ بينَ يدي اللهِ ورسولِه.

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: «﴿لَا تُقَدِّموا بينَ يدَيِ اللهِ ورسولِهِ﴾: لا تقولوا خلافَ الكتابِ والسنةِ[2]، ولا تقضوا أمراً دونَ اللهِ ورسولِه مِن شرائعِ دينِكم».

ولهٰذا قد أجْمَعوا على أنَّ مبنى الدينِ والإيمانِ والعباداتِ على الاتِّباعِ لا على الابتداعِ.

﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ فيما أمرَكم به، ﴿إنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ﴾ لأقوالِكم ونيَّاتِكم وأعمالِكم وحركاتِكم وسكناتِكم.

فيا أيُّها المؤمنونَ! لا تقدِّموا أمراً مِن الأمورِ بينَ اللهِ ورسولِه، ولا تقطعوهُ

---

(١) لم يصحّ، بل له عللٌ عدَّة، وقد طوَّلتُ الكلام عليه تخريجاً وتعليلاً في جُزء سمَّيته «الإيناس في طرق حديث معاذ في الرأي والقياس»، وهو الجزء الأول من سلسلتي «الأجزاء الحديثية»، وهو تحت الطبع منذ نحو أربع سنوات!!

(٢) رواه ابن جرير (٢٦ / ١١٦)، وأورده السيوطي في «الدر» (٧ / ٥٤٦) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم.

إلَّا بعـدَ أنْ يحكمـا بهِ ويأذنا فيهِ، فتكونوا عاملينَ بالوحيِ المنزَّلِ، ومقتدينَ بالنبيِّ المرسَلِ ﷺ، واتَّقوا في كلِّ ما تأتونَ وما تَذَرونَ مِن الأقوالِ والأعمالِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سميعٌ عليمٌ، فمِنْ حقِّه أن يُتَّقى ويُراقَبَ.

ولا شكَّ أنَّ التقدُّمَ خروجٌ عن صفةِ المتابعةِ، واستقلالٌ في الأمرِ، فيكونَ منافياً للإيمانِ.

وعمومُ اللفظِ يشملُ النهيَ عنِ الذبحِ يومَ الأضحى قبلَ الصلاةِ[1]؛ كأنَّهُ قيلَ: لا تذبَحوا قبلَ أنْ يذبحَ النبيُّ ﷺ، ويشمَلُ النهيَ عن صومِ يومِ الشَّكِّ؛ أي: لا تصوموا قبلَ أن يصومَ نبيُّكُم[2].

ولا شكَّ أنَّ ظاهرَ الآيةِ عامٌّ في كلِّ قولٍ وفعلٍ، ولذا حذفَ مفعولَ ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾؛ ليذهَبَ ذهنُ السامعِ كلَّ مذهبٍ ممَّا يمكنُ تقديمُه مِن قولٍ أو عملٍ؛ مثلاً إذا جرتْ مسألةٌ في حضورِه ﷺ، فلا تسبِقوهُ بالجوابِ، وإذا حضرَ الطَّعامُ؛ فلا تبتدئوا بالأكلِ قبلَه، وإذا ذهبتُم إلى موضعٍ معهُ؛ فلا تمشوا أمامَه إلَّا لمصلحةٍ دعتْ إليهِ، ومِن هٰذا قالوا: لا يجوز تقديمُ الأصاغرِ على الأكابرِ إلا لمصلحةٍ، فيدخلُ في النهيِ المشيُ بينَ يدي العلماءِ؛ لأنهم ورثةُ الأنبياءِ[3].

واعلمْ أنَّ مِن شرطِ المؤمنِ أنْ لا يرى رأيَه وعقلَه واختيارَه فوقَ رأيِ النبيِّ

---

(1) انظر: «صحيح البخاري» (١٠ / ٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٦٢).

(2) قارن بـ «جامع الأصول» (٦ / ٣٥٠ ـ ٣٥١).

(3) وهٰذا القياس ليس دقيقاً كما يُلاحظه المتأمل! وما أشبه اليوم بالأمس! فالله الهادي.

ﷺ، ويكونُ مستسلماً لما أتى بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ، فالذينَ يقدِّمونَ قوانينَ البشرِ على أوامرِ اللهِ ورسولِه ليسوا مُؤمنينَ؛ كالأتراكِ الكماليينَ، والعراقيِّينَ الجمهوريِّينَ[1].

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والسبعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[2].

قد نادى اللهُ وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن رفعِ أصواتِهم فوقَ صوتِ النبيِّ ﷺ حينما يخاطِبونَه ويكلِّمونَه في حضورِه ومجلسِه ﷺ، وقد رُوِيَ هنا أحاديثُ في «الصِّحاحِ»[3] فعليكَ بها إنْ أردتَ التفصيلَ.

قالَ ابنُ كثيرٍ[4]: «وقد رُوِّينا[5] عن أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ سمعَ صوتَ رجلينِ في المسجدِ النبويِّ، وقد ارتفعتْ أصواتُهما،

---

(١) ومسألة الحكم بغير ما أنزل الله من شائك المسائل في هذا العصر، فترى كثيراً من الشباب المسلم يُطلق القولَ بالكفر على عواهنه، دون تأمُّل أو تفريق بين الكفر المخرج عن الملة ـ وهو الجحود ـ، أو غير المخرِج ـ وهو عدم الفِعل فقط ـ.

والتفصيل في ذلك يطول، فانظر كتاب «الفتاوى المهمَّات...» (رقم ١) للشيخ محمود شلتوت، بتعليقي، نشر دار ابن الجوزي.

(٢) الحجرات: ٢.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٨ / ٤٥٢ ـ ٤٥٤).

(٤) في «تفسيره» (٤ / ٣١٥).

(٥) كما في «صحيح البخاري» (١ / ٤٦٥).

فجاءَ فقالَ: أتدرِيانِ أينَ أنتُما؟ ثمَّ قالَ: مِن أينَ أنتُما؟ قالا: مِن أهلِ الطائفِ. فقالَ: لو كنتُما مِن أهلِ المدينةِ لأوجَعْتُكما ضرباً».

وعن هٰذا قالَ العلماءُ: يُكرَهُ رفعُ الصوتِ عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ كما كانَ يُكرَهُ في حياتِه ﷺ؛ لأنَّهُ ﷺ محترمٌ حيّاً وميتاً وفي قبره ﷺ دائماً.

وقد نهى اللهُ تعالى عنِ الجهرِ لهُ بالقولِ كما يجهرُ الرجلُ لمخاطَبه ممَّنْ عداهُ، بل يخاطِبُه بسكينةٍ ووقارٍ وتعظيمٍ، فما يفعلُه الناسُ اليومَ مِن الصياحِ والغوغاءِ عندَ قبره ﷺ من المحرَّماتِ المنهيِّ عنها التي لا يرضى بها اللهُ تعالى ولا رسولُه ﷺ، فالحذرَ الحذرَ، بل اللازمُ السلامُ عليهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالأدبِ والخشوعِ لدى الزيارةِ؛ قالَ تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلونَ﴾، فالناسُ اليومَ ينادونَ عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ بالصِّياحِ الفاحشِ: يا رسولَ اللهِ! ونحوَه!! فهم جُهَّالٌ لا عقلَ لهُم، فلا شكَّ أنَّهُم محرومونَ عن فضائلِ اتباعِ رسولِ اللهِ ﷺ، ويدخلُ في هٰذا النهيِ الجهرُ والتكلُّم عندَ تحديثِ أحاديثِ النبيِّ ﷺ، ولو رأى السَّلف مجالسَ هٰذا الزمانِ؛ مِن مجلِسِ الوعظِ، والدرسِ، واجتماعٍ في المولدِ، ونحوِه؛ لخرجوا مِن ساعتِهم.

* * * * *

الآيةُ الثمانونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيْبوا قَوْماً بِجهالَةٍ فَتُصْبِحوا عَلى ما فَعَلْتُم نادِمينَ﴾**[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ مرشداً إيَّاهُم أَنْ يتأنَّوْا في

(١) الحجرات: ٦.

قَبولِ أَخبارِ الفاسقينَ، ويتبيَّنوا ويحقِّقوا تحقيقاً؛ لأنَّ الفاسقَ مِن حيثُ إنَّهُ فاسقٌ من شأنِه الكذبُ، ولأنَّهم إذا قبلوا قولَه بلا تبيُّنٍ ربما حكموا بغيرِ حقٍّ؛ بناءً على خبرِه الكاذبِ، فيصبحونَ على ما فعلوا مِن الحكمِ بالخطإِ نادمينَ، حيثُ لا ينفعُهم الندمُ بعدَ الحكمِ؛ كما وقعَ في قصةِ الحارثِ بنِ ضرارٍ الخزاعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ، حيثُ كذبَ عليهِ الوليدُ بنُ عقبةَ، وقالَ: إنَّ الحارثَ قد منعَني الزَّكاةَ وأرادَ قتلي، فغضبَ رسولُ اللهِ ﷺ على الحارثِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ الآية؛ كما هو مبسوطٌ في كتبِ الأحاديثِ والتفسيرِ[1].

فلهٰذا قد أَمرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالتثبُّتِ في خبرِ الفاسقِ؛ ليُحتاطَ؛ لئلاَّ يُحْكَمَ بقولِه، فيكونَ في نفسِ الأمرِ كاذِباً أو مخطِئاً، فيكونَ الحاكمُ بقولِه قد اقتفى أثرَه وآراءَه، وقد نهى اللهُ تعالى عن اتِّباعِ سبيلِ المفسدينَ والفاسقينَ والكاذبينَ، وعن هٰذا كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ: «التثبُّتُ مِن اللهِ، والعجَلَةُ مِن الشَّيطانِ»[2].

---

(1) رواه: أحمد (4 / 279)، والطبراني في «الكبير» (3395)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص 451)؛ من طريق عيسى بن دينار عن أبيه عن الحارث.

وسنده حسن لولا جهالة دينار والد عيسى!

وأورد الحديث السيوطي في «الدر المنثور» (6 / 87)، وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه وابن منده، وقال: «بسند جيد».

وقال الهيثمي في «المجمع» (7 / 109): «ورجاله ثقات».

وله شواهد عدة، فانظر رسالتي «التحذيرات...» (ص 10).

(2) رواه: أبو يعلى (4256)، والبيهقي (10 / 104)؛ من طريق سعد بن سنان عن أنس. وزاد ابن حجر في «المطالب العالية» (2812) نسبته لابن أبي شيبة وابن منيع

نكَّرَ الفاسقَ؛ ليدلَّ على العمومِ؛ أيْ: أيَّ فاسقٍ كانَ. ونكَّر النبأَ أيضاً؛ أيْ: أيَّ خبرٍ كانَ؛ ليُحْتَرَزَ عن قبولِ خبرِ كلِّ فاسقٍ، وخصوصاً إذا كانَ الخبرُ خبراً يعظُمُ وقعُهُ في القلوبِ، فاللازمُ التعرُّفُ والتفحُّصُ، حتى يتبيَّنَ لكُم ما جاءَ بهِ؛ أَصِدْقٌ هُو أمْ كذِبٌ؟ ولا تعتَمِدوا على قولِه المجرَّدِ؛ لأنَّ مَن لا يتحامى جنسَ الفسوقِ لا يتحامى الكذبَ الذي هو نوعٌ منهُ.

والحارث بن أبي أسامة.

وقال البوصيري في «الإتحاف» (٢ / ١٤٧): «رواته ثقات».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٩): «ورجاله رجال الصحيح»!

قلت: وكلاهما واهمان، إذ سعد بن سنان تُكُلِّم فيه كثيراً ـ ووثقه بعضهم، فبعض أهل العلم يحسِّن له ـ وهو ليس من رجال الصحيح.

وله شواهد:

فقد روى: الترمذي (٢٠١٢)، والبغوي (١٣ / ١٧٦)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٠٢) وفي «مكارم الأخلاق» (٢٧)؛ عن ابن عباس مرفوعاً: «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان».

وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقال السخاوي في «المقاصد» (٣١٢): «وقد تكلّم بعضهم في عبدالمهيمن، وضعّفه من قبل حفظه».

وله شاهدان مرسلان بلفظ: «التبيُّن من الله...».

الأول: عن قتادة. أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٦ / ١٢٤).

الثاني: عن الحسن. أخرجه العسكري من طريق سهل بن أسلم عنه؛ كما في «المقاصد» (٣١٢).

فالحديث بهذه الشواهد حسن إن لم يكن أعلى.

وقد ضعّف شيخنا في «ضعيف الجامع» (٢٥٠٤) رواية الحسن مرسلاً!

والرواية عندهم جميعاً ليس فيها «التثبُّت» ـ كما عند المصنف ـ، وإن كان المعنى واحداً، ثم رأيتها في «تفسير ابن كثير» (٤ / ٣٢٢) هكذا من مرسل قتادة!!

وفي الآيةِ دِلالةٌ على أنَّ الجاهلَ لا بدَّ أن يصيرَ نادماً على مافعلَه جهلاً، والذي يكذبُ عمداً فهو في النارِ.

فيا أيها المسلمونَ! احترزوا مِن الفسقِ، ومِن قبولِ خبرِ الفاسقِ؛ لأنَّهُ يكونُ سبباً لمفاسدَ لا تُحصى، ولكنَّ الأسفَ ألفُ أسفٍ على حالِ المسلمينَ اليومَ أنـهُ غلبَ عليهِم الفسقُ والكـذبُ، ويعدُّونَه تدْبيراً وعقلاً، فلهٰذا فسدُوا وأفسَـدوا، وخصوصاً بعضَ مُجاوري الحرمينِ، والسببُ في هٰذا كلِّه إنَّما هو غفلتُهم أو جهلُهم بمعاني كلامِ ربِّهم، وغفلتُهم ونسيانُهم كونَهم مسؤولينَ عنهُ يومَ القيامةِ ويُجازَوْنَ بذٰلك.

فيا أيهـا المسلمونَ! أما تخافونَ مِن اللهِ الخبيرِ البصيرِ وعذابِه الأليمِ؟ تُخادِعونَ المؤمنينَ وحجَّاجَ بيتِ اللهِ الحرامِ، فإنا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ.

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والثمانونَ فيها أيضاً: ﴿إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ فأَصْلِحوا بينَ أخَوَيكُم واتَّقوا اللهَ لعلَّكُم تُرْحَمونَ﴾[1].

أرشـدَ اللهُ تعـالى عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم أن يُصلِحوا بينَ إخوانِهم المؤمنينَ إذا وقعتْ بينَهم منازعةٌ ومخاصمةٌ؛ لأنَّ البشرَ مِن حيثُ إنَّهُ بشرٌ، قد يخطئُ، فقد تقعُ المقاتلةُ خطأً، ﴿واتَّقوا اللهَ﴾ فلا يظلمُ بعضُكم بعضاً، ولا يتعدَّى بعضُكم على بعضٍ، وأصلِحوا فيما بينَكم، ﴿لعَلَّكُم تُرْحَمونَ﴾، والعبدُ المؤمنُ لا يخرجُ بالمعصيةِ عنِ الإيمانِ إذا لم يستحلَّها وإنْ كَبُرَتْ.

---

(١) الحجرات: ١٠.

والمؤمنونَ جميعُهم - عربُهم وعجمُهم، وأبيضُهم وأسودُهم - إخوةٌ في الدينِ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «المسلمُ أخو المسلمِ؛ لا يظلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ»(1).

و«إذا دَعا المسلمُ لأخيهِ بظهرِ الغيبِ؛ قالَ الملكُ: آمينَ، ولكَ بمثلِه»(2).

و«مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحمِهم وتواصُلِهم كمثلِ الجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منهُ عضوٌ؛ تداعى لهُ سائرُ الجسدِ بالحمَّى والسهرِ»(3).

«المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ؛ يشدُّ بعضُه بعضاً، (وشبَّك بينَ أصابعِه ﷺ)»(4).

وقالَ ﷺ: «المسلمُ أخو المسلمِ؛ لا يظلِمُه، ولا يشتِمُه، مَن كانَ في حاجةِ أخيهِ المؤمنِ؛ كانَ اللهُ في حاجتِه، ومَن فرَّجَ عن مسلمٍ كُربةً؛ فرَّجَ اللهُ تعالى بها عنهُ كُربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن سترَ مسلماً سترَهُ اللهُ يومَ القيامةِ»(5).

اعلمْ أنَّ أُخوَّةَ الإسلامِ أقوى مِن أُخوَّةِ النسبِ، بحيثُ لا تُعتبرُ أُخوَّةُ النسبِ إذا خَلَتْ عن أُخوَّةِ الإسلامِ، ألا تَرى أنَّهُ إذا ماتَ المسلمُ ولهُ أخٌ كافرٌ

---

(1) رواه: البخاري (5 / 70)، ومسلم (2580)؛ عن ابن عمر.

(2) أخرجه مسلم (2732) عن أبي الدرداء.

(3) رواه: البخاري (10 / 366)، ومسلم (2586)؛ عن النعمان بن بشير.

(4) رواه: البخاري (5 / 71)، ومسلم (2585)؛ عن أبي موسى الأشعري.

(5) وانظر ما سبق (ص 225).

يكونُ مالُه للمسلمينَ لا لأخيهِ الكافرِ؟ وكذا إذا ماتَ أخوهُ الكافرُ لا يرثُه المسلمُ؟ وذلك لأنَّ الجامعَ الفاسدَ لا يفيدُ الأخوَّةَ، ولمَّا كانَ الجامعُ المعتَبَرُ هو الدينَ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «آلُ محمَّدٍ كُلُّ تقيٍّ»[1]؛ أي: المؤمنُ التقيُّ، و«سلمانُ منَّا آلَ البيتِ»[2]، كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾[3]، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[4].

وكما أنَّهُ مِن حقِّ الأخوَّةِ في الدينِ الإصلاحُ بينَ الإخوانِ المؤمنينَ، كذلك أنْ تُحِبَّ لأخيكَ المؤمنَ ما تحبُّ لنفسِكَ، فإن استعانكَ أعنْتَه، وإن استنصرَكَ نصرْتَهُ.

ولكنَّ الأسفَ أنَّ المسلمينَ تركوا العملَ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وجَهِلوا معناهُما، فصاروا يبغِضُ بعضُهم بعضاً، حتى صارَ إخوانُ الزمانِ جواسيسَ العيوبِ.

---

(١) هو حديثٌ ضعيفٌ جداً، مرويٌّ عن أنس رضي الله عنه من طرق، وكلُّها شديدة الضعف، فانظر «السلسلة الضعيفة» (١٣٠٤) لمعرفة التفصيل.

(٢) رواه: البيهقي في «الدلائل» (٣ / ٤١٨)، وابن سعد (٤ / ٨٢)، وابن جرير (٢١ / ٨٥)، والحاكم (٣ / ٥٩٨)؛ عن عمرو بن عوف المُزني.

وقال الذهبي في «السير» (١ / ٥٤٠) عَقِبَ إيراده: «كثير متروك».

قلت: هو كثير بن عبدالله المُزَني!

ورُوي الحديث موقوفاً على عليٍّ:

رواه الفَسَوي في: «المعرفة والتاريخ» (٢ / ٥٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٦٠٤١)، والخطيب في «الموضح» (٢ / ٢٦٢)؛ من طرق عنه.

فهو حسن إن شاء الله موقوفاً، موضوعٌ مرفوعاً.

(٣) الأنفال: ٣٤.

(٤) يونس: ٦٢ ـ ٦٣.

فالحذرَ الحذرَ مِن إخوانِ الزمانِ؛ لأنهم محرومونَ مِن الوظائفِ الإسلاميَّةِ الواجبةِ؛ كما صاروا محرومينَ مِن العملِ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنِ ادَّعوا إنَّهُم أهلُ الحديثِ أو سلفيُّونَ[1]، ولكنَّ أعمالَهم تكذِّبُ دعواهُم كما هو المشاهدُ، فيا لغُرْبَةِ الإسلامِ مِن علمائِه وأدعيائِه! ولهٰذا قد حرَمَهم اللهُ تعالى مِن خلافةِ الأرضِ، وجعلَهُم محكومينَ أذلَّاءَ تحتَ أرجلِ الكافرينَ؛ إلَّا آلَ السعودِ وآلَ محمَّدِ بنِ عبدِالوهابِ، وعلى رأسِهم الملكُ عبدُالعزيزِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى وفَّقهُم للخيراتِ والمبرَّاتِ، فالحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والثمانونَ، فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُم ولا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ولا تَلْمِزوا أَنْفُسَكُمْ ولا تَنابَزوا بالألقابِ بِئْسَ الاسمُ الفُسُوقُ بعْدَ الإيمانِ ومَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولٰئكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن السخريةِ بالناسِ واحتقارِهم والاستهزاءِ بهِم؛ كما ثبتَ في «الصحيح»[3] عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنه قالَ: «الكِبْرُ: بَطْرُ الحقِّ، وغمْصُ الناسِ (أو غمطُ الناسِ)»، والمرادُ من ذٰلك احتقارُهم واستصغارُهم، وهٰذا حرامٌ قد نهى اللهُ عنهُ؛ فإنَّهُ قد يكونُ المحتقرُ أعظمَ قدْراً عندَ اللهِ تعالى وأحبَّ إليهِ مِن الساخرِ منهُ المحتقرِ لهُ.

---

(١) ليسوا سواءً!

والـدَّعـاوى ما لم تُقيمـوا عليهـا بَيِّنـاتٍ أصـحـابُـهـا أدعـياءُ

(٢) الحجرات: ١١.

(٣) رواه مسلم (رقم ٩١) عن ابن مسعود.

والسخريةُ أنْ يُحقِّرَ الإنسانُ أخاهُ، ويستخفَّه، ويستهزئ بهِ، وعن التحقيرِ يحدُثُ الكِبْرُ، ومنهُ ينشأُ عدمُ قبولِ الحقِّ، فيصيرُ الساخرُ كأنَّهُ مِن حزبِ الشيطانِ، ومتَّصفٌ بصفاتِه.

وقد ثبتَ[1] عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنه قالَ: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ، ذي طِمْرينِ، لا يؤبَهُ بهِ، لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ».

فلا ينبغي لمسلمٍ أنْ ينظرَ إلى مسلمٍ بنظرِ الحقارةِ عسى أن يكونَ خيراً منهُ؛ إلَّا إذا ظهرَ منهُ ما يوجبُ التحقيرَ والسخريةَ؛ كالشِّرْكِ، والنِّفاقِ، والفسقِ، والفجورِ.

﴿ولا تَلْمِزُوا أنفُسَكُم﴾؛ أي: لا تلمزوا الناسَ؛ فإنَ مَن لَمَزَ غيرَه كأنه لمزَ نفسه، اللمزُ: الطعنُ باللسانِ، والهمزُ: بالفعلِ، والهمَّازُ اللَّمَّازُ مِن الناسِ مذمومٌ ملعونٌ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[2]، ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ

(١) رواه: الطحاوي في «مشكل الآثار» (١ / ٢٩٢)، والحاكم (٤ / ٣٢٨)، وأبو نُعيم (١ / ٧)؛ من طريق كثير بن زيد عن المطلب عن أبي هريرة.

والمطَّلب: صدوق، مدلِّس، وقد عنعنه.

وكثير: صدوق يخطىء.

وقد توبع المطَّلب بنحوه:

فقد أخرجه مسلم (٣٦٢٢) من طريق العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً: «ربَّ أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه».

وله شواهدُ أخرى، ذكرها شيخنا الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (رقم ١٢٥)، جزم فيها بصحة الحديث.

وإنما اكتفيتُ بإيراد هٰذا المتابع من «صحيح مسلم»؛ لأن شيخنا حفظه الله لم يذكره في المصدر المذكور.

(٢) الهُمزة: ١.

بنميمٍ﴾[1]، فلا يطعنُ بعضُكم على بعضٍ، واللمـزُ الإشـارةُ بالعينِ واليدِ ونحوِهما، ولا يعِبْ بعضُكم على بعضٍ؛ فإنَّ المؤمنينَ كنفسٍ واحدةٍ، والأفرادُ المنتشرةُ بمنزلةِ أعضاءِ تلكَ النفسِ، فمَن عابَ مؤمناً؛ فكأنَّما عابَ نفسَه؛ كقوله تعالى: ﴿ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكُم﴾[2].

وقالَ بعضُ المفسِّرينَ: أي: لا تفعلوا ما تُلْمَزونَ بهِ؛ فإن مَن فعَلَ ما يستحقُّ بهِ اللمزَ؛ فقد لمزَ نفسَه؛ أي: تسبَّبَ للَمْزِ نفسِه، أو لا تلمِزوا غيرَكم؛ فإنَّ ذلك يكونُ سبباً لأنْ يبحَثَ الملموزُ عن عيوبِكم، فيلمِزَكُم، فتكونونَ لامِزينَ لأنفسِكم، فيصيرُ مثلَ ما ثبتَ في «الصحيحين»[3] مِن قوله ﷺ: «مِن الكَبائرِ شتْمُ الرجلِ والديهِ». قالوا: يا رسولَ اللهِ! وهل يشتُمُ الرجلُ والديهِ؟! قالَ: «نعمْ؛ يسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فيسبُّ أباه، ويسبُّ أُمه فيسبُّ أُمَّه».

ولا يدخلُ في النهيِ ذكرُ الفاسقِ؛ لقولِه ﷺ: «اذكُروا الفاجرَ بما فيهِ؛ كي يحذرَهُ الناسُ»[4].

---

(1) القلم: ١١.

(2) النساء: ٢٩.

(3) رواه: البخاري (١٠ / ٣٣٨)، ومسلم (٩٠)؛ عن عبدالله بن عمرو.

(4) حديث موضوع، رواه: ابن حبان في «المجروحين» (١ / ٢١٥)، والبيهقي في «سننه» (١٠ / ٢١٥)، والخطيب في «تاريخه» (١ / ٣٨٢ و٣ / ١٨٨ و٧ / ٢٦٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٠٠)؛ عن معاوية بن حيدة.

ومدار طرقه على الجارود النيسابوري، وهو وضَّاع.

وانظر: «المقاصد الحسنة» (٩٢١)، و«الأسرار المرفوعة» (٢٩٧)، و«الضعيفة» (٩٨٣).

وقد صحَّ نحوه مقطوعاً من قول الحسن البصري؛ كما قال السخاوي.

﴿ولا تَنَابَزوا بالألقابِ﴾؛ أي: لا تَدْعوا بالألقابِ التي يُسيءُ الشخصَ سماعُها.

﴿بِئْسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ﴾؛ أي: بئسَ التوصيفُ بالألقابِ السيئةِ؛ كما هو عادةُ أهلِ الجاهليةِ، والمؤمنُ لا يلقَّبُ باللقبِ السيِّء؛ مثلُ: ابنِ اليهوديِّ، أو النصرانيِّ، أو يا كلبُ! يا ابنَ الكلبِ!

قالَ ابنُ عباسٍ[1] رضيَ اللهُ عنهما: «التَّنابزُ بالألقابِ: أن يكونَ الرجلُ عملَ السيئاتِ ثمَّ تابَ عنها، فنُهِيَ أنْ يُعَيَّرَ بما سَلَفَ مِن عملِه؛ لأنَّ الإيمانَ والإسلامَ يجُبُّ ويمحو ما قبلَه»، و«التَّائبُ مِن الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذنْبَ لهُ»[2].

فتوبوا أيُّها المؤمنونَ مِن كلِّ ما جنيتُم وارتكبْتُم مِن الأفعالِ القبيحةِ والأقوالِ الفاحشةِ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ عمَّا نهي عنهُ؛ ﴿فأُولئكَ هُمُ الظالمونَ﴾.

* * * * *

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٧ / ٥٦٣ - ٥٦٤).

(٢) صحَّ مقطوعاً من قول الشعبي، رواه عنه: وكيع في «الزهد» (٢٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧١٩٦)؛ بسند صحيح.

وقد رُوي الحديث مرفوعاً من طُرق؛ أجودها ما رواه: ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠ / ١٨٥)، والقُضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨)؛ من طريق وُهَيب بن خالد عن معمر عن عبدالكريم الجزري عن أبي عُبيدة عن ابن مسعود.

رجاله ثقات، ولكن لم يسمع أبو عبيدة من أبيه؛ كما هو معلوم.

وقد أعلَّ الخطيب في «الموضِّح» (١ / ٢٥٧) الحديث بالوقف، فقال: «تفرَّد بروايته محمد بن عبدالله الرَّقاشي عن وُهيب بهٰذا الإسناد مرفوعاً، ولم يُتابَع عليه».

ونقله عنه وأقرَّه أخونا الفاضل محمد عمرو عبداللطيف في رسالته النافعة «تبييض الصحيفة» (ص ٥٧)!

الآيةُ الثالثةُ والثمانونَ فيها أيضاً: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اجْتَنِبوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثْمٌ ولا تَجَسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضُكُم بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكُم أنْ يأْكُلَ لحْمَ أخيهِ مَيْتاً فكرِهْتموهُ واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ توَّابٌ رحيمٌ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن كثيرٍ مِن الظَّنِّ، وهو التهمةُ والتخوُّنُ للأهلِ والأقاربِ والناسِ في غيرِ محلِّه؛ لأنَّ بعضَ ذلك يكونُ إثماً محْضاً، فاجْتَنِبوا الكثيرَ منهُ احتياطاً.

ولهذا قالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ: «لا تظنَّنَّ بكلمةٍ خرجتْ مِن أخيكَ المؤمنِ إلاَّ خيراً وأنتَ تجِدُ لها في الخيرِ محملاً»[2].

وقد روى البخاريُّ في «صحيحِه»[3] عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ:

= مع أنه توبع: إذ رواه الطبراني وغيره من طريق معلَّى بن أسد عن وُهيب به.
ومعلَّى ثقة ثبت.

وله شاهدٌ: أخرجه أبو نُعيم (١٠ / ٣٩٨) عن أبي سعد الأنصاري ـ لا أبو سعيد كما في بعض المراجع، كما جزم ابنُ حجر في «الإصابة» (٧ / ٨٤) ـ.
وفي سنده جهالة.

وقال السخاوي في «المقاصد» (ص ٢٤٩): «بل حسَّنه شيخنا لشواهده».
قلت: وكذا شيخُنا.

نعم؛ للحديث شواهد أخرى، لكنها واهية، لا تصلح للشهادة؛ كما فصَّله شيخنا في «الضعيفة» (٣١٣).

أما الأخ محمد عمرو؛ فقد انفصل في «تبييض الصحيفة» (ص ٦٢) إلى إعلاله بالوقف!

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد»؛ كما في «الدر المنثور» (٧ / ٥٦٥).

(٣) (٩ / ١٧١)، وأخرجه مسلم (٢٥٦٣)؛ كلاهما عن أبي هريرة.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إيَّاكُم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا، ولا تنافَسوا، ولا تَحاسدوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً»، فلا يتجسَّس بعضُكم على بعضٍ.

والتَّجسسُ: هو البحثُ عن عيوبِ النـاسِ، والتحسُّسُ: هو استمـاعُ كلامِ الناسِ بقصدِ الإفسادِ.

وأفادتِ الآيةُ أنَّ أكثرَ الظنونِ مِن قبيلِ الإثمِ؛ لأنَّ الشيطانَ يُلقي الظنونَ في النفسِ، فتظنُّ النفسُ الظنَّ الفاسدَ، وعلى أن بعضَ الظنِّ ليسَ بإثمٍ، بل هو حقيقةٌ؛ كالفراسةِ الصحيحةِ؛ بأنْ يرى القلبُ بنورِ اليقينِ[1].

وقـد نهى اللهُ تعـالى عن الغِيبـةِ، وقـد فسَّرهـا الشـارعُ كما ثبتَ في «الصحيحِ»[2] عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنـهُ؛ قالَ: قيلَ: يا رسـولَ اللهِ! ما الغِيبةُ؟ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ذِكْرُكَ أخاكَ بِما يكرَهُ». قيلَ: أفرأيتَ إن كانَ في أخي ما أقولُ؟ قال ﷺ: «إنْ كانَ فيهِ ما تقولُ؛ فقد اغتبْتَه، وإنْ لم يكنْ فيهِ ما تقولُ؛ فقد بهَتَّهُ»، رواه الترمذي وأبو داود[3].

والغِيبةُ محرَّمةٌ بالإجماعِ، ولا يُستثنى منها إلا ما رجُحت مصلحتُه؛ كما

---

(١) وليس مثل هذه الفراسة صادقة دائماً، فالواجب التمييز بين الفراسة الصادقة وبين وسوسة الشيطان وتلبيسه، وهذا لا يستطيعه كلُّ أحدٍ؛ كما هو واضح.

(٢) «صحيح مسلم» (رقم ٢٥٨٩).

(٣) رواه: الترمذي (١٩٣٤)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والدارمي (٢ / ٢٩٩)، وأحمد (٢ / ٢٣٠ و٣٨٤ و٣٨٦ و٤٥٨)، والبيهقي (١٠ / ٢٤٧)، والبغوي (١٣ / ١٣٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٠٤).

في الجَـرْح والتعديل[1]، والنصيحةِ؛ كقوله ﷺ لمَّا استأْذنَ عليهِ ذٰلك الرجلُ الفـاجـرُ: «ائْذَنُوا لهُ، وبِئْسَ أخو العشيرةِ»[2]، وكقوله ﷺ لفاطمةَ بنتِ قيسٍ رضيَ اللهُ عنها وقد خطَبها معاويةُ وأبو الجهمِ: «أمَّا معاويةُ؛ فصُعلوكٌ، وأمَّا أبو الجهمِ؛ فلا يضـعُ عصاهُ عن عاتقهِ»[3]... وكذا ما جرى مجرى ذٰلك، ثم بقيَّتُها تبقى على التَّحريمِ الشَّديد، وقد ورد فيها الزجرُ الأكيدُ، ولهٰذا قد شبَّهها اللهُ تعالى بأكلِ لحمِ الإنسانِ الميتِ، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيهِ مَيْتاً فكرِهْتُموهُ﴾؛ أي: كما تكرهونَ هٰذا طبعاً فاكرهوا ذاكَ شرعاً؛ فإنَّ عقوبَتَهُ أشدُّ مِن هٰذا.

وعن أبي برزةَ الأسلميِّ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يا معشرَ مَن آمنَ بلسانِهِ ولمْ يدخُلِ الإيمانُ في قلبِه! لا تغتابوا المسلمينَ، ولا تتَّبعـوا عوراتِهم؛ فإنَّهُ مَن يتَّبِع عوراتِهم يتَّبِع اللهُ عورتَه، ومَن يتَّبِع اللهُ عورتَه يفضَحْهُ في بيتِه» رواه أبو داود[4].

---

(1) انظر: «الكفاية» (ص ٣٧) للخطيب، و«المجروحين» (١ / ١٦ ـ ١٧) لابن حبَّان، و«معرفة علوم الحديث» (ص ١٦٣) للحاكم.

(2) رواه: البخاري (١٠ / ٤٥٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(3) رواه مسلم (١٤٨٠) عن فاطمة بنت قيس.

و(الصُّعلوك): الفقير.

وقوله: «فلا يضعُ العصا...»؛ أي: كثير الضرب للنساء.

(4) برقم (٤٨٨٠).

وفي سنده ضعفٌ.

لكنَّ له طُرقاً أخرى كثيرة، يجزم الواقف عليها بصحَّته، ولي جزء مفردٌ في تخريجه. فانظر تعليقي على «الفارق بين المصنف والسارق» (ص ٣٢ ـ ٣٣) للسيوطي.

ونظرَ عبدُاللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما يوماً إلى الكعبةِ، فقالَ: «ما أعظمكِ وأعظمَ حرمَتِكِ! ولَلْمُؤمِنُ أعظمُ حُرمةً عندَ اللهِ منكِ»[1].

ولكنَّ الأسفَ أنَّ المسلمينَ اليومَ ابتُلوا بارتكابِ هٰذه القبائحِ، وغَرِقوا فيها، وتلوَّثوا بها؛ كالظنِّ السوءِ ـ خصوصاً بالصالحينَ المفلِحينَ مِن أهلِ التوحيدِ والعلماءِ العاملينَ ـ والتجسُّسِ والغيبةِ، **فلا يَخْلو مجلِسٌ مِن المجالسِ سواءٌ مجلسُ العلماءِ أو الجهلاءِ؛ إلَّا والغيبةُ إدامُهم، والنميمةُ حَلواهُم، والبهتانُ فاكهتُهم يتفكَّهونَ بها**[2]، والسببُ في ذٰلك غفلتُهم عن معاني كتابِ ربِّهم، وعدمُ مُبالاتِهم بهِ وبسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهٰذه الغفلةُ مِن أعظمِ جندِ الشيطانِ، فتنَبَّهْ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والثمانونَ في سورةِ الحديدِ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ ويَجْعَلْ لكُمْ نُوراً تَمْشونَ بِهِ ويَغْفِرْ لكُمْ واللهُ غَفورٌ رحيمٌ﴾**[3].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ الذينَ آمَنوا بالأنبياءِ السابقينَ؛ كموسى وعيسى عليهِم الصلاةُ والسلامُ، فقال لهُم: **﴿اتَّقوا اللهَ وآمِنُوا برَسولِهِ﴾** محمدٍ ﷺ **﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رحمتِهِ﴾**، ويزِدْكُم فضلاً ورحمةً؛ لجمعِكم بينَ

---

(١) رواه: ابن حبان (٥٧٣٣)، والترمذي (٢٠٣٢)؛ بسند حسن.
وهو قطعة من الحديث السابق موقوفاً مُلحقاً به في بعض طرقه الأخرى.

(٢) فلا قوّة إلا بالله، وهو سبحانه العاصم.

(٣) الحديد: ٢٨.

الإيمانِ بجميعِ الرسلِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم، ﴿و﴾ ببركةِ هٰذا الإيمانِ الكاملِ ﴿يَجْعَلْ لكُم نوراً تَمشونَ بهِ﴾ في الدُّنيا على الصراطِ المستقيمِ ، وفي الآخرةِ على الصِّراطِ كالبرقِ الخاطفِ[1].

ولا ريبَ أَنَّ مَنِ استقامَ في هٰذه الدُّنيا على الصراطِ المستقيمِ استقامةً تامةً؛ فهو يستقيمُ على صراطِ الآخرةِ بفضلِ اللهِ ورحمتِه، وأَمَّا مَن حادَ عنهُ وتعوَّجَ في هٰذه الدنيا؛ فهو في الآخرةِ أَضلُّ وأَعوجُ.

وهٰذا النورُ هو القرآنُ، ففيهِ الهدى والبيانُ.

وهٰذه كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا إنْ تتَّقوا اللهَ يَجْعَلْ لكُم فُرْقاناً ويُكَفِّرْ عنكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ويَغْفِرْ لَكُم واللهُ ذو الفَضْلِ العظيمِ﴾[2].

فرأْسُ الأمرِ ومدارُه: الإيمانُ باللهِ وتقواهُ، ومِن لازمِه الإيمانُ برسولِه محمدٍ ﷺ، فإذا حصلَ هٰذا وصحَّ؛ نالَ المتَّصفُ بهِ كلَّ سعادةٍ ودولةٍ؛ مِن هُدى، ومغفرةٍ، ورحمةٍ، وجنةٍ، ورضوانٍ.

فيا أَيها المؤمنونَ! كمِّلوا إيمانَكُم بكلِّ ما يؤمَنُ به، ولا تكونوا كالذينَ يؤمنونَ ببعضٍ ويكفرونَ ببعضٍ، أو كالذينَ يؤمنونَ فيعملونَ بما وافقَ مذهبَ إمامِهم، ويكفرونَ فلا يعملونَ بما خالفَ مذهبَهم؛ كما هو شأْنُ كثيرٍ مِن مقلِّدةِ المذاهبِ وأَهلِ الطرقِ، فتنبَّهْ.

* * * * *

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٩٥) عن أبي هُريرة

(٢) الأنفال: ٢٩.

الآيةُ الخامسةُ والثمانونَ في سورةِ المجادلةِ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا تناجَيْتُم فلا تَتَناجَوْا بالإِثْمِ والعُدْوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ وتَناجَوْا بِالبِرِّ والتَّقْوى واتَّقُوا اللهَ الَّذي إليهِ تُحْشَرونَ . إنَّما النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذينَ آمَنُوا ولَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إلَّا بإذْنِ اللهِ وعَلى اللهِ فلْيَتَوكَّلِ المؤمِنُونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ مؤدِّباً إيَّاهُم أنْ لا يكونوا مثلَ الكفرةِ والمنافقينَ الذينَ يتناجَوْنَ بالإِثْمِ فيما بينَهُم، والفسقِ والعدوانِ على غيرِهم، ومنهُ معصيةُ الرسولِ ﷺ ومخالفتُه، ويصرُّونَ عليها، ويتواصَوْنَ بها فيما بينَهم؛ كأكثرِ البخاريِّينَ[2] الذينَ يجاوِرونَ الحرمينِ وهُم مصرُّونَ على عداوةِ أهلِ التوحيدِ العامِلينَ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فيعادونَ الوهَّابيِّينَ، ويعادونَ السلفيِّينَ، ويقولونَ على طريقِ التشنيعِ: إنَّهُ وهَّابيٌّ[3]، ويتواصَوْنَ بذلك بعضُهم بعضاً، ويتواصَوْنَ بعضُهم بعضاً أنْ لا يحضُروا ولا يستَمِعوا دروسَ التفسيرِ والحديثِ والتوحيدِ.

وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا تناجَيْتُم﴾ وتَسارَرْتُم فيما بينَكُم ﴿فَلا تَتَناجَوْا بالإِثْمِ والعُدْوانِ ومَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كما يَتَناجى الجَهَلَةُ مِن كَفَرَةِ أهلِ الكتابِ ومَن على شاكلَتِهم ومالأهُم على ضلالِهم مِن المنافقينَ والمقلِّدينَ الجامِدينَ، بل أنتُم أيها المؤمنونَ ﴿تَنَاجَوْا بالبرِّ والتَّقوى واتَّقوا اللهَ الذي إليهِ تُحْشَرونَ﴾، فيجازيكُم على أعمالِكم وأقوالِكم وقد أحصاها عليكُم.

---

(١) المجادلة: ٩ ـ ١٠.

(٢) وغيرهم أيضاً.

(٣) قارن بما سبق إيرادُه تعليقاً (ص ٢٢٢)

ثمَّ قالَ تعالى : ﴿إنَّما النَّجوى﴾ ؛ أي : المسارَرَةُ حيثُ يتوهَّمُ المؤمنُ بها سوءاً مِن تزيينِ الشيطانِ وتسويلِه ؛ ﴿ليَحْزُنَ الَّذينَ آمَنُوا﴾ ؛ أي : إنَّما يزيِّنُ لهُم ذٰلك ليُحْزنَ المؤمنينَ ويسوأهُم ، ﴿وليسَ ذٰلك بضارِّهِمْ شَيْئاً إلَّا بإذنِ اللهِ﴾ ؛ كما يفعلُ أكثرُ المبتدعينَ في حقِّ السلفيِّينَ الموحِّدينَ[1] ، وما هُم بضارِّينَ شيئاً إلا بإذنِ اللهِ ، فنحنُ نستعيذُ منهُم باللهِ ، ونتوكَّلُ عليهِ تعالى ، فهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ .

فيا أيُّها المؤمنونَ! اتَّقوا ربَّكُم ؛ فإنه عليمٌ خبيرٌ ، وعذابُه أليمٌ وشديدٌ ، ولا تغترُّوا بوساوسِ الشيطانِ مِن الجنِّ والإنسانِ .

* * * * *

الآيةُ السادسةُ والثمانونَ فيها أيضاً : ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا قيلَ لكُمْ تفسَّحُوا في المجالِسِ فافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لكُم وإذا قِيلَ انْشُزُوا فانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُم والَّذينَ أُوتوا العلمَ دَرَجاتٍ واللهُ بِما تعْمَلونَ خَبيرٌ**﴾[2] .

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَهُ المؤمنينَ معلِّماً إيَّاهُم وآمراً لهُم أنْ يحسِنَ بعضُهم إلى بعضٍ في المجالسِ ، ويوسِّعَ بعضُهم لبعضٍ ، فإذا أحسنوا إلى إخوانِهِم المؤمنينَ ؛ أحسنَ اللهُ إليهِم ، ووسَّعَ عليهِم ؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ ، ولا يضنُّ الجالسُ على القادمِ في مجالسِ العلمِ والذكرِ والصلاةِ .

(١) وذلك في كل عصر ومصر!!

(٢) المجادلة : ١١ .

وقالوا في سببِ النزولِ[1]: مجيءُ البدريِّينَ في مجلسِ النبيِّ ﷺ ولم يوسِّعْ لهُم أحدٌ في المجلسِ، فأنزلَ اللهُ تعالى هٰذه الآيةَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ تعالى رجلًا يفسَحُ لأخيهِ»، فجعلوا يقومونَ بعدَ ذٰلك سراعاً، فيفسحُ القومُ لإخوانِهم المؤمنينَ.

ولكنْ لا يجوزُ أنْ يُقيمَ الرجلُ الرجلَ ويجلسَ في مكانِه؛ لما في الصحيحينِ[2] عن ابنِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ؛ قالَ: «لا يُقِمِ الرجلُ الرجلَ من مجلسِه فيجلسَ فيهِ، ولكنْ تفسَّحوا يفسحِ اللهُ لكُم وتوسَّعوا».

وفي روايةٍ[3]: «لا يُقيمَنَّ أحدُكم أخاهُ يومَ الجُمُعَةِ، ولٰكنْ لِيَقُلْ: افسَحوا».

وهل يجوزُ القيامُ للقادمِ؟ فيهِ قولانِ، وفي «السننِ»[4] أنَّهُ لم يكنْ شيءٌ أحبَّ إليهِم مِن رسولِ اللهِ ﷺ، وكانَ إذا جاءَ لا يقومونَ لهُ؛ لما يعلمونَ مِن كراهتِه لذٰلك، وكانَ ﷺ يجلِسُ حيثُ انتهى بِهِ المجلسُ[5]، ولكنْ حيثُ يجلسُ

---

(١) والوراد فيه مراسيلُ لا تصحُّ، فانظر: «الدر المنثور» (٦ / ١٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٤ / ٣٢٤)، و«أسباب النزول» (ص ٤٧٥) للواحدي.

(٢) رواه: البخاري (١١ / ٥٢)، ومسلم (٢١٧٧).

(٣) رواه مسلم (٢١٧٨) عن جابر.

(٤) رواه الترمذي (٢٧٥٥) عن أنس.

ورواه: البخاري في «الأدب المفرد» (٩٤٦)، وأحمد (٣ / ١٣٢)، والطحاوي في «المشكل» (٢ / ٣٩)؛ بسند صحيح.

(٥) عن جابر؛ قال: «كنا إذا أتينا النبي ﷺ؛ جلس أحدنا حيث ينتهي».

رواه: أبو داود (٤٨٢٥)، والترمذي (٢٧٢٧)؛ بسند حسن.

يكونُ صدرُ ذٰلك المجلسِ ، فكانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم يجلسونَ منهُ على مراتبِهم ، فالصدِّيقُ عن يمينِه ، وعمرُ عن يسارِه ، وبينَ يديهِ غالباً عثمانُ وعليٌّ ؛ لأنهما كانا ممَّنْ يكتبانِ الوحيَ وكانَ يأمُرُهم بذٰلك .

﴿وإذا قيلَ انْشُزُوا فانْشُزُوا﴾ ؛ أي : إذا دُعيتُم إلى خيرٍ ؛ فأجيبوا ، أو إذا قيلَ لكُم ارجِعوا ؛ فارجِعوا ، ولا تتثاقَلوا في المجلسِ .

﴿يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا منكُم والَّذينَ أُوتوا العلمَ دَرجاتٍ﴾ ؛ أي : لا تظنُّوا أنَّهُ إذا فسحَ أحدُكم لأخيهِ إذا أَقبلَ أو إذا أُمِرَ بالخروجِ فخَرَجَ أَنَّ ذٰلك نقصٌ في حقِّه ، بل هو رِفعةٌ ورتبةٌ عندَ اللهِ ، واللهُ تعالى لا يُضيِّعُ ذٰلك لهُ ، بل يجزيهِ بها في الدُّنيا والآخرةِ ؛ فإنَّ مَن تواضعَ للهِ ولأمرِ اللهِ رفعَ اللهُ قدرَه ونشرَ ذِكرَهُ ، ﴿واللهُ بِما تعمَلونَ خَبيرٌ﴾ .

قالَ ابنُ مسعودٍ[1] رضيَ اللهُ عنهُ : أيُّها الناسُ ! افهَمُوا هٰذه الآيةَ ؛ فإنَّها لَتُرغِّبَنَّكُم في العلمِ ، ﴿يرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُم والَّذينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ ، فالمؤمنُ العالمُ فوقَ الذي لا يعلمُ درجاتٍ .

وروى مسلمٌ[2] عن عمرَ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ : أَنَّهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «إنَّ اللهَ تعالى يرفَعُ بهٰذا الكتابِ أقواماً ويضعُ بِهِ آخرينَ» .

والعلماءُ العامِلونَ هم ورثةُ الأنبياءِ[3] ، واللهُ خبيرٌ بنيَّاتِكم وأعمالِكم .

وأفادَتِ الآيةُ سرَّ تقدُّمِ العلماءِ على غيرِهم في المجالسِ والمحافِلِ ؛

---

(١) لم أره عنه في «تفسير ابن كثير» (٤ / ٥٠٨) ، ولا في «الدر المنثور» (٨ / ٨٢) .

(٢) برقم (٨١٧) .

(٣) كما صحَّ عنه ﷺ ، وقد سبق تخريجُه (ص ٦٣) .

لأنَّ اللهَ تعـالى رفعَ قدرَهُم وأعلى درجتَهُم، فمَن رفعَهُم وأكرمَهم؛ رفعهُ اللهُ وأكـرمـهُ في الـدارينِ، ومَن وضعهُم وأهـانَهُم؛ وضعـهُ اللهُ تعالى وأهانَه في الدَّارينِ، وإنَّما هٰذا في حقِّ العلماءِ الذينَ يعملونَ بعلمِهم ويخشَوْنَ ربَّهُم، لا العلمـاءِ الـذينَ جعلوا علمَهُم آلـةً للرِّياسـةِ والجـاهِ وتحصيلِ المالِ؛ فإنَّهُم محرومونَ، بل مَرْذولونَ.

فنسألُ اللهَ تعالى علماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والثمانونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا ناجَيْتُمُ الرَّسولَ فقدِّمُوا بينَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذٰلك خيرٌ لكُمْ وأطْهَرُ فإنْ لم تَجِدُوا فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ . أأشْفَقْتُم أنْ تُقَدِّمُوا بينَ يَدَيْ نجواكُمْ صَدَقاتٍ فإذْ لَمْ تَفْعَلوا وتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ وأَطيعُوا اللهَ ورَسولَهُ واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْملونَ﴾[1].

وقـد قالـوا في سببِ النـزولِ[2]: إنَّهُم كانوا يأْتونَ النبيَّ ﷺ، فيكثِرونَ منـاجـاتِـه، ويجلسـونَ طويلاً، حتى كرهَ النبيُّ ﷺ طولَ جلوسِهم، وكثـرةَ مناجاتِهم، فأنزلَ اللهُ تعالى هٰذه الآيةَ، فأمَّا أهلُ العسرةِ؛ فلم يجِدُوا شيئاً، وأمَّا أهلُ الميسرةِ؛ فضَنُّوا وبَخِلُوا، فنَزَلَتِ الرُّخصةُ.

وقالَ مجاهدٌ رحمهُ اللهُ تعالى: «ونُهوا عنِ المناجاةِ حتى يتصدَّقوا، فلم

---

(١) المجادلة: ١٢ ـ ١٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل؛ كما في «الدر المنثور» (٨ / ٨٤).
وهو معضل لا يصح.

يُناجِهِ إلَّا عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ؛ تصدَّقَ بدينارٍ، فناجاهُ، ثمَّ نزلتِ الرخصةُ، فكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ: آيةٌ في كتابِ اللهِ لم يعمَلْ بها أحدٌ قَبْلي ولا يَعملُ بها أحدٌ بعدي، وهي آيةُ المناجاةِ»[1].

وهٰذه الصدقةُ إنَّما يُتصدَّقُ بها على الفقيرِ المستحقِّ، لا على النبيِّ ﷺ؛ كما يدَّعيهِ أو يظنُّه مَن لا خَلاقَ لهُ مِن أهلِ الطُّرقِ والمشايخِ الدَّجَّالينَ؛ لأنَّ الصدقةَ حرامٌ على النبيِّ ﷺ كما لا يخفى.

﴿فقَدِّمُوا بينَ يَدَيْ نجواكُم صدقةً﴾؛ أي: فتصدَّقوا قبلَها على المستحقِّ، وهٰذا كقولِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ: أفضلُ ما أُوتِيَتِ العربُ الشعرُ؛ يقدِّمُه الرجلُ أمامَ حاجتِه، فيستمطِرُ بِهِ الكريمَ، ويستنزلُ بِهِ اللَّئيمَ.

وفي هٰذا الأمرِ: تعظيمٌ لرسولِ اللهِ ﷺ، ونفعٌ للفقراءِ، والنهيُ عن الإفراطِ في السُّؤالِ، والتمييزُ بينَ المخلصِ والمنافقِ ومحبِّ الآخرةِ ومحبِّ الدنيا.

قال المفسِّرونَ: إنَّ رسمَ النِّثاراتِ للملوكِ والأمراءِ مأخوذٌ مِن أَدبِ اللهِ تعالى في شأْنِ رسولِه محمدٍ ﷺ في هٰذه الآيةِ.

﴿أأَشْفَقْتُم أَنْ تُقَدِّموا بينَ يَدَيْ نجواكُمْ صَدَقاتٍ﴾: أَخِفْتُم مِن الفقرِ إذا تصدَّقتُم؟

﴿فإذْ لَمْ تَفْعَلوا﴾ ما أُمِرْتُم بهِ، وشقَّ عليكُم ذٰلك، ﴿وتابَ اللهُ عليكُم﴾؛

---

(١) روي هٰذا الخبر من طرق، انظر تخريجها في «الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير البيضاوي» (رقم ٩٢٤)، وتعليق محقِّقه عليه.

بأنْ رخَّصَ لكُم في أنْ لا تفعلوهُ، وأسقطَ عنكُم تقـديمَ الصدقةِ، وعفا عنكُم بفضلِه؛ فتداركوهُ بامتثالِ ما تؤمَرونَ بهِ بعدَ هٰذا، وهو ﴿فأَقيموا الصَّلاةَ﴾ في أوقـاتِهـا معَ أركـانِهـا وسننِهـا، ﴿وآتوا الزَّكاةَ﴾ إلى مستحقِّها، ﴿وأَطِيعوا اللهَ ورَسولَهُ﴾ في سائرِ الأوامرِ؛ فإنَّ القيامَ بها كالجابرِ لما وقعَ في ذٰلك مِنَ التَّفريطِ، ﴿واللهُ خَبيرٌ بِما تعمَلونَ﴾ مِن أعمالِكم الظاهرةِ والباطنةِ، لا تَخْفى عليهِ خافيةٌ، فيُجازيكُم عليهِ، فاعملوا بما أمرَكُم اللهُ؛ ابتغاءً لمرضاتِه، لا لرياءٍ أو سمعةٍ.

فيا أيُّها المسلمونَ! أطيعوا ربَّكُم، وامتثلوا أمرَه، ولا تتساهَلوا فيهِ، عسى اللهُ تعالى أن يرحَمَكم ويعفوَ عنكُم، ويُصلحَ بالَكم وحالَكم، ويُعِزَّكُم في الدارينِ.

* * * * *

الآيةُ الثامنةُ والثمانونَ في سورةِ الحشرِ: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ولْتَنْـظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لغَدٍ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعْمَلونَ . ولا تَكُونُوا كالَّذينَ نَسُوا اللهَ فأَنْساهُم أَنْفُسَهُم أُولٰئكَ هُمُ الفاسِقونَ﴾**[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بأنْ يتَّقوا عذابَه وغضبَه، ثمَّ أمرَهم بأنْ ينظرَ الإنسانُ وكلُّ عاقلٍ مكلَّفٍ فيما فعلَ مِن الأعمالِ الخيريةِ التي قدَّمها لنفسِه؛ ليرى أجرَها ليومِ القيامةِ.

﴿ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لغَدٍ﴾؛ أيْ: حاسِبوا أنْفُسَكُم قبلَ أنْ تُحاسَبوا، وانـظروا ماذا ادَّخرتُم لأنفسِكم مِنَ الأعمالِ الصالحةِ ليومِ معادِكم وعَرْضِكم على ربِّكُم؟

---

(1) الحشر: ١٨ ـ ١٩.

﴿واتَّقوا اللهَ﴾: تأكيدٌ بعدَ تأكيدٍ، ولا تغترُّوا ببعضِ الأماني والخيالاتِ والتُّرهاتِ؛ ﴿إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تعملونَ﴾ مِن خيرٍ وشرٍّ، وإخلاصٍ ورياءٍ.

﴿ولا تَكُونُوا كالَّذينَ نَسُوا اللهَ﴾، فتركوا أمرهُ، فكلُّ مَن تركَ أمرَ اللهِ كأنَّهُ نسيَ اللهَ، ﴿فـ﴾ مجازاةً لذلك ﴿أنساهُمْ أنْفُسَهُم﴾، فلم يعملوا لأنفسِهم الأعمالَ الصالحةَ التي تنفعُهُم في معادِهم؛ فإنَّ الجزاءَ مِنْ جنسِ العملِ، ﴿أُولئكَ هُمُ الفاسِقونَ﴾ الخارِجونَ عنْ طاعةِ اللهِ، الهالِكونَ يومَ القيامةِ، الخاسِرونَ يومَ معادِهم.

ومَن عمِلَ لغيرِ اللهِ؛ فقد نسيَ اللهَ تعالى، وكلُّ مَن غفلَ عنْ ذكرِ اللهِ؛ فقد نسيَ اللهَ تعالى، لا خيرَ في قولٍ أو عملٍ لا يُرادُ بهِ وجهُ اللهِ تعالى، ولا خيرَ في مالٍ لا يُنْفَقُ في سبيلِ اللهِ، ولا خيرَ فيمَن يغلِبُ جهلُه حِلْمَه، ولا خيرَ فيمَنْ يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ.

ويا أيُّها المؤمنونَ! لا تكونوا كالَّذينَ نَسوا اللهَ؛ أيْ: نَسُوا حقوقَه عزَّ وجلَّ، فما قدَروهُ حقَّ قدرِه، وما وحَّدوا اللهَ في عبادتِه، ولم يراعوا مواجبَ أوامرِه ونواهيهِ حقَّ رعايتِها، فأنساهُم بسببِ ذلك أنفسَهم، فلم يسمعوا ما ينفَعُها، ولم يفعَلوا ما يخلِّصها، فأولئكَ الناسونَ بالإنساءِ هُم الفاسقونَ الغارقونَ في الفسقِ، والخروجِ عن طريقِ الطاعةِ.

فيا أيُّها المسلمونَ! اتَّقوا اللهَ حقَّ التقوى، واعملوا ما أَمَرَ بالإخلاصِ والرِّضا، ولا تنسوا اللهَ ربَّكُم، ولا تنسوا أمرَه ولا نهيهُ لحظةً مِن اللحظاتِ، ولا تغفلوا عنْ ذِكرِه؛ حتى تكونوا مِن الصالحينَ المفلحينَ، وأما إذا نسيتُم اللهَ، ولم تتَّقوهُ، واتَّبعتُم هواكُم ونفسَكُم وشيخَكُم وشيطانَكُم؛ فأنتُم الفاسِقونَ، وأنتُم

الهـالِكـونَ، وأنتُم الأذلاّءُ في الـدارينِ: في الـدُّنيا تحتَ أرجُـلِ الكفـرةِ المستعمرينَ المستعبدينَ، وفي الآخرةِ في نارِ الجحيمِ والعذابِ الأليمِ.

* * * * *

الآيةُ التـاسعـةُ والثمـانونَ في سورةِ الممتحنةِ: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقونَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ وقَدْ كَفَروا بِما جَاءَكُمْ مِنَ الحقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسولَ وإيَّاكُمْ أَنْ تُؤمِنُوا باللهِ رَبِّكُمْ إنْ كُنْتُم خَرَجْتُمْ جِهاداً في سَبيلي وابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ وأَنا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ ومَا أَعْلَنْتُمْ ومَنْ يَفْعَلْهُ منكُمْ فقدْ ضلَّ سَواءَ السَّبيلِ**﴾[1].

قَد نَادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم أَنْ يتَّخِذوا عدوَّ اللهِ وعدوَّ المؤمنينَ مِن المشركينَ والكفارِ والزنادقةِ الأشرارِ أولياءَ وأحبَّاءَ وأصدقاءَ لأنفسِهم؛ يعامِلونَهم بالمودَّةِ والمحبَّةِ وبثِّ الأسرارِ، والحالُ أنَّهُم قد كفروا بما جاءَكُم بِهِ محمـدٌ رسولُ اللهِ ﷺ مِن عندِ اللهِ مِن الحقِّ، وهُم يقصِدونَ دائماً إخراجَ رسولِ اللهِ وإيَّاكُم مِن أوطانِكُم، وإنَّما سببُ هٰذه العداوةِ هو إيمانُكم باللهِ ربِّكُم وحدَهُ لا شريكَ لهُ. . . إلخ.

وذكَروا في سببِ النزولِ قصَّةَ حاطبِ بنِ أبي بلتعةَ؛ كما هو المشهورُ المسطورُ في الصِّحاحِ[2]، ولكنَّ العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ؛ كما لا يخفى على الخبيرِ.

---

(١) الممتحنة: ١.

(٢) رواه: البخاري (٧ / ٤٠٠)، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي.

ولا شكَّ أنَّ اتِّخاذَ الكفارِ أولياءَ سببٌ لضعفِ الإسلامِ وأهلِهِ؛ كما هو المشاهَدُ المجرَّبُ في جميعِ أنحاءِ العالمِ الإسلاميِّ[1].

فيا أيُّها المسلمونَ! إذا كنتُم تُسرُّونَ إلى الكفَّارِ بالمودَّةِ وبثِّ الأسرارِ؛ فقد ضللتُمْ وخرجْتُم عن سواءِ السبيلِ، وقد صرتُم خُدَّاماً لِهدمِ بُنيانِ الإسلامِ؛ لأنَّهم إنْ يَظْفَروا بكُم؛ يَفْعَلوا بكُم كلَّ ما استطاعوا بأيديهِم وألسنتِهم، حتى يرُدُّوكُم إلى الكفرِ، فكيفَ تُوالونَ مثلَ هٰؤلاءِ وقد قالَ اللهُ العليمُ الحكيمُ: ﴿وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ اليهودُ ولا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم﴾[2]؟!

وأمَّا أنتَ؛ إذا ظننتَ أنَّ التقرُّبَ والتودُّدَ إليهِم ينفعُك في دولتِك أو سياستِك؛ فاعلمْ أنَّ اللهَ تعالى إذا أرادَ بكَ سوءاً؛ فلا مردَّ لهُ، فلا تنفعُكم أرحامُكم ولا أولادُكم ولا مودَّتُكم ولا سياستُكم؛ لأنَّ اللهَ تعالى خبيرٌ بأعمالِكم وبنيَّاتِكم، فيُجازيكُم بحسبِ ذٰلك في الدَّارينِ.

فيا أيُّها المسلمونَ! حيثُ إنَّكُم على ملَّةِ إبراهيمَ خليلِ الرحمٰنِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ؛ فاقتدوا بِهِ فيما عملَ؛ فإنَّهُ فيهِ الأسوةُ الحسنةُ؛ فإنَّهُ لما تبيَّنَ لهُ كفرُ أبيهِ وقومِه وجماعتِه؛ أعلنَ التبرُّؤ منهُم[3] وممَّا يعبدُونَ مِن دونِ اللهِ، فكذٰلك يجبُ على كلِّ مسلمٍ إظهارُ العداوةِ والبغضاءِ على المصرِّينَ على الشركِ والكفرِ، فلا توادُّوا ولا تحبُّوا أحداً مِن الكافرينَ والمشركينَ، بل تبرؤوا منهُم تبرُّؤاً كليّاً ما داموا كافرينَ ومشركينَ يعبدونَ معَ اللهِ غيرَ اللهِ مِن الملائكةِ والأنبياءِ

---

(١) فانظرْ تَرَ!!

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) كما في سورة التوبة: ١١٤.

واللاتِ والعُزَّى، أو يغوثَ ويعوقَ ونَسرٍ[1]، أو الأوثانِ والقبورِ وأهلِها، أو الأرواحِ والمشاهدِ.

فلهٰذا قرَّر الشارعُ[2] محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الحبَّ والبغضَ مِن الإيمانِ؛ أي: حبُّ الإيمانِ والمؤمنينَ وأهلِ التوحيدِ مِن الإيمانِ، وبغضُ الكفارِ والمشركينَ مِن الإيمانِ، فمَن ساوى بينَهما؛ فقد بريء مِن الإيمانِ.

فيا أيُّها المسلمونَ! امتثِلوا أمرَ ربِّكُم، وتوكَّلوا عليهِ، وتوبوا إليهِ، واستعيذوا باللهِ مِن الشركِ والكفرِ، ومِن فتنةِ أهلِ الشركِ والكفرِ، ولا تهدِموا باختيارِكُم أركانَ دينِكُم وبنيانَه بتولِّي أهلِ الشركِ والكفرِ والضَّلالِ، وإنْ تولَّيتُمْ الكفرةَ كما تولَّى كثيرٌ ممَّنْ أضلَّهُ اللهُ تعالى وأزاغَ قلبَه مِن أهلِ الهندِ والصينِ والتركستانِ والتركِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ جلَّ جلالُه، وأنتُم لا تضرُّونَ إلا أنفسَكُم.

* * * * *

الآيةُ التسعونَ فيها أيضاً: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا جاءَكُمُ المؤمِناتُ مُهاجِراتٍ فامْتَحنوهُنَّ اللهُ أعلمُ بإيمانِهِنَّ فإنْ علِمْتُموهُنَّ مُؤمِناتٍ فلا تَرْجِعوهُنَّ إلى الكفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُم ولا هُمْ يَحِلُّونَ لهُنَّ وآتوهُمْ ما أنْفَقوا**﴾ الآية[3].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم إذا جاءَهُم النساءُ المؤمناتُ مهاجراتٍ مِن دارِ الكفرِ إلى دارِ الإسلامِ أنْ يمتَحِنُوهُنَّ.

---

(١) كما في سورة نوح: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) وهو من الألفاظ المنهيِّ عنها؛ كما سبقت الإشارة إليه.

(٣) الممتحنة: ١٠.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: «امتحانُها أنْ تُسْتَحْلَفَ إنها ما خرَجَتْ لبغضِ زوجِها، ولا عِشقاً لرجلٍ مِن المسلمينَ، ولا رغبةً عن أرضٍ إلى أرضٍ، ولا لِحَدَثٍ أحدَثَتْهُ، ولا لالتماسِ دُنْيا، وما خرجتْ إلَّا رغبةً في الإسلامِ، وحبّاً للهِ ولرسوله محمدٍ ﷺ»[1].

وفي روايةٍ[2]: «امتحانُها أنْ تشهَدَ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً عبدُ اللهِ ورسولُه، وأنَّ هجرتَهُنَّ إنَّما هي للهِ ورسوله».

فإذا ثبتَ بإقرارِهنَّ إيمانُهنَّ؛ ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ما أحلَّ اللهُ مؤمنةً لكافرٍ، وآتوا أزواجَهنَّ الكفارَ ما أنفقوا عليهنَّ مِن المهرِ، ثمَّ بعدَ عدَّتِهنَّ إذا أردتُم أن تتزوَّجوا بهنَّ فتزوَّجوا بالرِّضى والمَهْرِ.

وأنتُم أيُّها المؤمنونَ لا تُمسكوا بعِصَمِ الكوافرِ، والعِصَمُ: جمعُ عِصمةٍ، وهي ما اعْتُصِمَ بهِ مِن العقدِ والنسبِ، والكوافرُ: جمعُ كافرةٍ.

وقد نهى اللهُ تعالى المؤمنينَ عن المقامِ على نكاحِ المشركاتِ، فعلى هٰذا لا يحلُّ للعبدِ المؤمنِ أنْ يُعاشِرَ زوجتَه المشركةَ، بل يجبُ عليهِ مفارقتُها بعدَ استتابتِها كما لا يخفى؛ ككثيرٍ مِن الجاهلاتِ اللَّاتي تَعْتَقِدْنَ أنَّ أرواحَ الأولياءِ تعلمُ الغيبَ، أو تحضرُ في المجالسِ، أو تتصرَّفُ في الأمورِ، أو تعملُ «بى بى منْ شَنبه»[3] على ما هو المعروفُ بين البخاريَّات؛ فإنهنَّ بهٰذه الاعتقاداتِ

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٨ / ١٣٧): «أخرجه ابن أبي أسامة والبزَّار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند حسن».

(٢) أخرجها ابن مردويه عنه؛ كما في «الدر المنثور» (٨ / ١٣٤).

(٣) لعلَّها من رُقى الضلال التي تنطلي على عقول جَهَلة العجم!

الباطلةِ مشركاتٌ بالشِّرْكِ الأكبرِ، ولا تنفعهنَّ كلمةُ الشهادةِ؛ ما لم يعتقِدْنَ معناها بعدَ العلمِ به، وإجراءُ كلمةِ الشهادةِ على اللسانِ بطريقِ العادةِ مِن غيرِ قصدِ التوبةِ لا ينفعُ، فتدبَّرْ[1].

* * * * *

الآيةُ الحاديةُ والتسعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَما يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ القُبورِ﴾[2].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ ناهياً إيَّاهُم عن موالاةِ الكفرةِ الذينَ قد غضبَ اللهُ عليهم ولعنهم واستحقُّوا مِن اللهِ الطردَ والإبعادَ، فكيف توالونَهم وتتخذونَهم أصدقاءَ وأخلاءَ وهٰؤلاءِ الكفارُ قد يئسوا مِن حكمِ اللهِ تعالى في ثوابِ الآخرةِ ونعيمِها؟!

وقد رُوِيَ[3] أنَّ ناساً مِن فقراءِ المسلمينَ كانُوا يخبِرونَ اليهودَ أخبارَ المسلمينَ؛ يتوصَّلونَ إليهم بذٰلك، فيُصيبونَ مِن ثمارِهم، فنهاهُم اللهُ تعالى عن ذٰلك.

وهٰكذا كثيرٌ مِمَّنْ يدَّعي الإسلامَ؛ يخدِمونَ الكفرةَ سرّاً، ويدلُّونَهم على أسرارِ المسلمينَ وعوراتِهم؛ لِينالوا بذٰلك منهُم مالاً ومنصِباً، فهٰؤلاءِ قد خانوا اللهَ

---

(١) انظر تعليقي على رسالة «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله» (ص ٦٣) للمصنِّف.

(٢) الممتحنة: ١٣.

(٣) لم أره فيما بين يديَّ، وقد صدَّره المصنف بصيغة التمريض.

نعم؛ في «الدر» (٨ / ١٤٤) نحوه مختصراً عن ابن عباس عند ابن إسحاق وابن المنذر، فالله أعلم.

تعالى، وخانوا المسلمينَ، وخانوا ديارَ المسلمينَ، فهٰؤلاء لمَّا تولَّوا الكفارَ الذينَ غضبَ اللهُ عليهم؛ صاروا مِن حِزبِ المغضوبِ عليهم، فأُيْئِسوا وصاروا مِن المحرومينَ مِن الرحمةِ ومِن نعيمِ الآخرةِ، كما يَئِسَ الكفارُ مِن أصحابِ القبورِ، أي: كما يئسَ الكفارُ الأحياءُ مِن قَراباتِهم المدفونينَ في القبورِ أن يَجْتَمِعوا بِهم بعدَ ذٰلك؛ لأنهم لا يعتقِدونَ بعثاً ولا نشوراً، أو يَئِسوا أنْ يرجِعوا إليهِم، أو كما يَئِسَ الكفارُ الذينَ هُم في القبورِ مِن كلِّ خيرٍ لمَّا عايَنُوا العذابَ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! لا تتولَّوا الكافرينَ أبداً، ولا تتَّخِذوهُم لأنفسِكم أولياءَ أو أصدقاءَ، وإلَّا؛ فتستحقُّونَ غضبَ اللهِ، وتُبْتَلونَ بعذابِ اللهِ، فتَنْدَمونَ، ولٰكنْ لا ينفعكُم النَّدمُ.

* * * * *

الآيةُ الثانيةُ والتسعونَ في سورةِ الصفِّ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولونَ مَا لَا تَفْعَلونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولوا مَا لَا تَفْعَلونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ بالاستفهامِ الإنكاريِّ على مَنْ يَعِدُ وعداً أو يقولُ قولاً لا يفي بهِ، وهٰذا يدلُّ على أنَّهُ يجبُ الوفاءُ بالوعدِ مطلقاً كما يجبُ العملُ بما عُلِمَ منَ العلمِ مطلقاً.

ويؤيِّدهُ ما في «الصحيحين»[2]: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ».

---

(١) الصف: ٢ ـ ٣.

(٢) سبق تخريجه (ص ١٩٧)

وزاد مسلمٌ في روايتِه: «وإنْ صلَّى وصامَ وزعَمَ أنَّهُ مسلمٌ».

وأكَّدَ اللهُ ذلك بقولِه: ﴿كَبُرَ مقتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولوا مَا لا تَفْعَلونَ﴾، وهذا إنكارٌ وتوبيخٌ من اللهِ تعالى على أنْ يقولَ الإنسانُ مِن نفسِه ما لا يفعلُه مِن الخيرِ والعملِ، وأنَّ الإنسانَ إذا أخبرَ أنه فعلَ كذا وهو لم يفعلْهُ كان كاذباً، وإن وعدَ أنه يفعلُه في المستقبلِ ولا يفعلُه كان خُلْفاً، وكلاهما مذمومٌ، فيشملُ الكذبَ وإخلافَ الوعدِ بلا عذرٍ. فمَن يمدحُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ ولا يجاهدُ عندَ الإمكانِ؛ فهو داخلٌ في الوعيدِ، ومَن يمدحُ العلمَ ولا يجتهدُ في طلبِه معَ الإمكانِ؛ فهو داخلٌ أيضاً في الوعيدِ، ومَن يمدحُ السخاءَ والجودَ وهو يبخلُ مع قدرتِه وثروتِه؛ فهو داخلٌ في الوعيدِ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَأْمُرونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلونَ الكِتابَ أَفَلا تَعْقِلونَ﴾[1].

لَا تَنْـهَ عَنْ خُلُقٍ وتَـأْتِـيَ مِثْـلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَـلْتَ عَظيمُ

أما العجبُ العجابُ المؤسفُ؛ فإن أكثرَ الناسِ في هذا الزمانِ يقولونَ ويتقوَّلونَ ما لا يفعلونَ، بل يأمرونَ بالمنكرِ وينهوْنَ عن المعروفِ، والعياذُ باللهِ تعالى الجبارِ كما هو شأنُ أكثرِ المقلِّدينَ وأهلِ الطرقِ؛ فإنهم يمنعونَ الناسَ مِن حضورِ دروسِ التوحيدِ والتفسيرِ والحديثِ، ولكنَّهم يرغِّبونَهم في البدعيَّاتِ والخرافاتِ؛ مِن تقليدِ المذاهبِ المحرَّفةِ، والطرقِ الفاسدةِ الباطلةِ، ومع ذلك يدَّعونَ التوحيدَ والتقوى، فهم داخلونَ في الوعيدِ ألبتَّة.

* * * * *

---

(١) البقرة: ٤٤

الآيةُ الثالثةُ والتسعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ . تُؤمِنونَ باللهِ ورَسُولِه وتُجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بأموالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُم تَعْلَمونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ ومَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلكَ الفَوْزُ العَظيمُ . وأُخْرَى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وفَتْحٌ قَريبٌ وبَشِّرِ المؤمِنينَ﴾[1] .

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ منبِّهاً إيَّاهُم، فقالَ: يا أيُّها المؤمنونَ الصادقونَ الطالبونَ سعادتَي الدنيا والآخرةِ والفوزَ بالرِّضا والرضوانِ والجنةِ! ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجارَةٍ﴾ عظيمةٍ مُباركةٍ رابحةٍ، تكونُ سبباً لإنجاءِ اللهِ إيَّاكُم، وتخليصِه لكُم مِن العذابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وتكونُ سبباً للعزَّةِ والسعادةِ، وهي تجارةٌ لن تَبورَ أصلاً، ولن تخسرَ أبداً، هي: ﴿تُؤمنونَ باللهِ﴾ إيماناً صادقاً، وتؤمنونَ برسولِه محمدٍ ﷺ، وكلِّ ما جاءَ مِن عندِ اللهِ، ﴿وتُجاهِدُونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِكُم وأنفُسِكُم﴾؛ قاصِدينَ إعلاءَ كلمةِ اللهِ تعالى، ونشرَ التوحيدِ، وقد ثبتَ[2] عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «جاهِدُوا المشركينَ والكفارَ بأموالِكم وأنفسِكُم وألسنتِكم».

وإذا جمعتُم هٰذه الأوصافَ الجميلةَ؛ فـ﴿ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾؛ لأنَّ هٰذه التجارةَ لا تكونُ إلَّا رابحةً؛ بخلافِ التجارةِ الدنيويَّةِ؛ فإنها قد لا تكونُ رابحةً، بل قد تكونُ خاسرةً، ولو ربِحَتْ؛ فربحُها قليلٌ زائلٌ.

---

(١) الصف: ١٠ ـ ١٣.

(٢) رواه: أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٦ / ٧)، والدارمي (٢ / ٢١٣)، وأحمد (٣ / ١٢٤ و١٥٣ و٢٥١)، وابن حبان (١٦١٨)، والحاكم (٢ / ٨١)؛ عن أنس.

وسنده صحيح.

فيا أيُّها المؤمنونَ! إذا فعلتُم ما أمرتُكم بهِ ودللتُكم عليهِ؛ غفرتُ لكُم الزَّلَّاتِ، وأدخلتُكم الجناتِ والمساكنَ الطيباتِ، والدرجاتِ العالياتِ، وعِلاوةً على هٰذه النعمِ العظيمةِ السَّرْمديَّةِ أزيدُكم أيُّها المؤمنونَ نِعماً أُخرى عاجلةً في الدُّنيا، وأنتم تحبُّونها وترغبونَ فيها، ألا وهيَ ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ ينصرُكم على أعدائِكُم، ويفتحُ عليكُم الفتوحاتِ؛ أي: إذا قاتلتُم في سبيلِ اللهِ، ونصرتُم دينَه، وعمِلْتُم بأمرِه؛ تكفَّلَ اللهُ تعالى بنصرِكُم، فهُو ينصرُكم ألبتَّة؛ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقدامَكُمْ﴾[1]، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2]؛ كما ذكرناها وفسَّرناها سابقاً في الآيةِ السادسةِ والسبعينَ، وهي في سورةِ محمدٍ ﷺ، وكما يأتي في قوله تعالى: ﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا أنْصارَ اللهِ﴾[3] الآية.

وهٰذه النِّعمُ مِن النصرِ والفتحِ عاجلاً هي خيرُ الدنيا موصولاً بنعيمِ الآخرةِ لمَنْ أطاعَ اللهَ ورسولَه، ونصرَ اللهَ ودينَه، ولهٰذا قالَ: ﴿وَبَشِّرِ المؤمنينَ﴾ يا رسولي محمَّدُ بالنصرِ في الدُّنيا والجنةِ في الآخرةِ، ﴿ومَنْ جَاهَدَ فإنَّما يجاهِدُ لنفسِه﴾.

وقد صدقَ اللهُ العظيمُ؛ إنَّ النَّاسَ حينما كانوا مؤمنينَ صادِقينَ يجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم وألسنتِهم؛ كالخلفاءِ الراشدينَ رضيَ اللهُ عنهُم؛ نصرَهم اللهُ تعالى على الأعداءِ، وفتحَ لهُم البلدانَ شرقاً وغرباً، ورفعوا أعلامَ الإسلامِ، فصارتْ تجارتُهم رابحةً، ونجَّتهُم مِن ظلمِ الظالمينَ،

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) الصف: ١٤.

واستعبـادِ المستعبِدينَ، واستعمارِ المستعمرينَ، وقد غفرَ اللهُ تعالى ذُنوبَهم، وأدخَلَهم جناتِ النعيمِ، ومساكنَ طيبةً في جنَّاتِ عَدْنٍ؛ ذٰلك الفوزُ العظيمُ.

وأمـا الخَلْفُ الذينَ قد خالفوا السلفَ الصالحِينَ، ولـم يعملوا بموجَبِ إيمـانِهم، ولـم يجـاهِـدوا في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم، بل إنَّما تظاهَروا ببعضِ مظاهـرِ الإيمـانِ والإسلامِ، وصارَ مقصِدُهـم الجاهَ والرِّياسةَ، والهوى والشهـوةَ، فصـاروا محـرومينَ من النصـرِ والفتحِ، والتجارةِ الرابحةِ، والخيرِ الكثيرِ، فذهبتْ دولتُهم وديارُهم في أيدي الكَفَرةِ، والله أعلمُ، كما أنَّهم صاروا من المحرومينَ مِن دولةِ الدنيا، فسَيُحْرَمونَ مِن المغفرةِ والرحمةِ وجناتِ النعيمِ والمساكنِ الطيبةِ في الآخرةِ؛ لأنهم قد غيَّروا ما بأنفسهم من الوظائفِ الإيمانيةِ واللوازمِ الإسلاميّةِ، فغيرَ اللهُ تعالى عليهم؛ جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا ظَلَمُونا ولٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ﴾[1].

فيا أيهـا المسلمـونَ! آمِنوا باللهِ ورسولِه إيماناً صادقاً كاملاً مثمِراً مقترِناً بالعملِ بموجَبه، ولا تخدعوا أنفسَكم، ولا تنخَدِعوا بتَسْويلاتِ شياطينِكم مِن العلماءِ السوءِ الذينَ جعلوا العلمَ فخّاً ومصيدةً لمآكلِهم وشهواتِهم، وشيوخِكم الذينَ مهروا في الدَّجلِ حتى جعلوا الطَّريقةَ والتصوُّفَ غيرَ الشريعةِ[2]، حتى قالوا بلا تحاشٍ: الطَّريقةُ غيرُ الشَّريعةِ، فخرجوا عن الشَّريعةِ المحمَّديَّةِ إلى الطَّريقةِ الوثنيةِ، وهُم لا يَشْعُرونَ؛ لجهْلِهم بمعاني كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) البقرة: ٥٧.

(٢) قارن بتعليقي على «المنتقى النفيس» (ص ٤٣٣).

فيا أيها الناسُ! إلى متى هٰذا الضَّلالُ؟ وإلى أينَ هٰذا الخَبالُ؟ أما تَفيقونَ مِن السكرةِ؟ أما تصحونَ مِن الغفلةِ؟ أم أنتُم خرجتُم عن مرتبةِ الإنسانيةِ، فهبطتُم في مهاوي الحيوانيَّةِ، وسلكْتُم المسالكَ الشيطانيةَ وقد غرَّتكُم الدُّنيا!! فلا تغرَّنَّكُم الحياةُ الدُّنيا وزينتُها، ولا يغرَّنَّكُم باللهِ الغَرورُ.

* * * * *

الآيةُ الرابعةُ والتسعونَ فيها أيضاً: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ كَما قالَ عِيسى ابنُ مَريمَ للحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إلى اللهِ قَالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَني إِسْرَائيلَ وكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فأَيَّدْنَا الَّذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فأَصْبَحُوا ظَاهِرينَ﴾**[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم أنْ يكونوا أنصارَ اللهِ في جميعِ أحوالِهم؛ بأقوالِهم، وأفعالِهم، وأنفسِهم، وأموالِهم، وأنْ يستجيبوا للهِ ولرسولِه كما استجابَ الحواريونَ لعيسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ حينَ قالَ: ﴿مَنْ أَنْصاري إلى اللهِ﴾؛ أي: مَن مُعينيَّ في الدَّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؟ ﴿قَالَ الحواريُّونَ﴾ - وهم أتباعُ عيسى عليهِ السلامُ - ﴿نحنُ أَنْصارُ اللهِ﴾؛ أي: نحنُ أنصارُك ومساعدوكَ يا رسولَ اللهِ على ما أُرْسِلْتَ بهِ، ومؤازِروكَ على ذٰلك، ولهٰذا بعثَهُم دعاةً إلى الناسِ في البلدانِ.

وهٰكذا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ في أيامِ الموسمِ: «هل مِن رجلٍ يؤويني حتى أُبلِّغَ رسالةَ ربِّي؛ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أُبلِّغَ رسالةَ ربِّي؟»[2]، حتى

---

(١) الصف: ١٤.

(٢) رواه: أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى» - كما في

قيَّضَ اللهُ تعالى لهُ الأوسَ والخزرجَ مِن أَهلِ المدينةِ، فبايعوهُ ووازَروهُ وشارَطوهُ أنْ يَمْنَعوهُ مِن الأسودِ والأحمرِ إنْ هُو هاجرَ إليهِم، فلما هاجرَ إليهِمْ بمَنْ معهُ مِن أَصْحابِه؛ وَفَوْا لهُ بما عاهَدوا اللهَ عليهِ، ولهٰذا سمَّاهُمُ اللهُ تَعالى ورسولُهُ ﷺ الأنصارَ، وصارَ ذٰلك عَلَماً عليهِم، رضيَ اللهُ تعالى عنهُم وأرضاهُم، وجَعَلَنا في زُمْرَتهم ومِن مُحبِّيهِم ومُتَّبِعيهم، وحشَرَنا معهم بفضلِه ومَنِّه.

اعلمْ أَنَّ اللهَ تعالى أعلمَنا أَنَّ بني إسرائيلَ افترقتْ طوائفَ، فآمنتْ طائفةٌ وكفرتْ طائفةٌ، وقد غالتْ فيهِ طائفةٌ حتى قالتْ: إنَّهُ ابنُ اللهِ، وافتَرَقوا فِرَقاً وشِيَعاً، فتَجادَلوا وتَقاتَلوا، فأيَّد اللهُ تعالى المُؤْمنينَ على الكافرينَ، فأصبحَ المُؤْمنونَ ظاهِرينَ على الكافرينَ ظُهوراً بيِّناً، وقد ازدادَ ذٰلك ظُهوراً ببعْثَةِ محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثم اعلمْ أنه كما اختلفتْ وكفرتْ طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ؛ كذٰلك اختلفتْ وكفرتْ طوائفُ مِن هٰذهِ الأمةِ، وغلتْ في نبيِّها وآلِه؛ كالرافضةِ، والشيعةِ، وغُلاةِ الصوفيةِ، والحنفيةِ الهنديةِ البريلويةِ(١)، فادَّعتْ أَنَّ النبيَّ ﷺ يعلمُ الغيبَ الآنَ، وأَنَّ حالَه ﷺ بعدَ موته كحالِه قبلَ موته، وهو حيٌّ في قبرِه كحَياتِهِ الدُّنْيويةِ، ولهٰذا ينادونَه ويستغيثونَ بهِ، حتى إنَّهم حينما يقرؤونَ قصةَ المولدِ يقومونَ قياماً بغايةِ التعظيمِ، ويقولونَ:

مَرْحَبـاً يا مَرْحَبـاً يا مَرْحَبـاً ... مَرْحَبـاً جَدَّ الحُسَيْنِ مَرْحَبـاً

= «تحفة الأشراف» (٢ / ١٧٧) -، وابن ماجه (٢٠١)، وأحمد (٣ / ٣٩٠)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٨٠٦)، وغيرهم؛ عن جابر، بسند صحيح.

(١) وللشيخ إحسان إلٰهي ظهير رحمه الله تعالى كتاب كبير كشف فيه زُيوف البريلويّة وضلالاتهم، طُبع في الباكستان، فلينظر.

وإنَّما يقومونَ لأنَّهُم يعتقدونَ أنَّ روحَه ﷺ قد حضرَ هناك .

وزادَ غلوُّ متـأخِّـريهم حتى صاروا يعتقـدونَ أنَّ الأولياءَ ـ كعبـدِالقـادرِ الجيلانيِّ مثلاً ـ يعلمونَ الغيبَ، ويتصرَّفونَ في الأمورِ، فلهٰذا تراهُم يُنادونَهم ويستغيثونَ بهِم ويَنْذُرونَ لهُم، فهٰؤلاءِ وأمثالُهـم كَفَرَةٌ مشرِكونَ، والعياذُ باللهِ تعالى .

وعن هٰذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «ستفترِق أُمَّتي ثلاثاً وسبعينَ فِرقةً ؛ كلُّها في النارِ إلَّا واحدةً» . قيلَ : مَن هُم يا رسولَ اللهِ؟ قالَ : «هُم على مَا أنا عليهِ وأصحابي»[1] .

وقد أشارَ إلى هٰذه الفرقةِ الواحدةِ النَّاجيةِ بقولِه ﷺ : «لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرينَ عَلى الحقِّ، لا يضرُّهُم مَن خالَفَهُم، حتَّى تقومَ السَّاعَةُ، أو حتَّى يَأْتِيَهُم أمرُ اللهِ، وهُم على ذٰلكَ، وحتَّى يُقاتِلَ آخرُهُم الدَّجَّالَ مَعَ المسيحِ عيسى عليهِ السلامُ»[2] .

فنسألُكَ اللهمَّ أنْ تجعَلنا مِن هٰذه الفرقةِ الظاهرةِ على الحقِّ، وهُم أنصارُ دينِ محمـدٍ ﷺ، وهُم الـدَّاعـونَ إلى الحقِّ وإلى التـوحيدِ؛ توحيدِ الألـوهيَّةِ والعبادةِ، وإلى العملِ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ .

* * * * *

(١) حديث حسن، انظر تخريجه في «أربعي الآجري» (رقم ١٣) بتحقيقي وتخريجي .

(٢) رواه: أبـو داود (٢٤٨٤)، والحاكم (٤ / ٤٥٠)، وأحمد (٤ / ٤٢٩ و٤٣٤ و٤٣٧) عن عمران بن حصين، وسنده صحيح .

وهو حديث متواتر، له طرق كثيرة .

الآيةُ الخامسةُ والتسعونَ في سورةِ الجمعةِ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذٰلكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُم تَعْلَمونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادَه المؤمنينَ؛ منبِّهاً إيَّاهُم أنه إذا نادى المُنادي لصلاةِ الجمعةِ؛ فالواجبُ عليهِم أنْ يسعَوْا إلى أداءِ الصلاةِ وسماعِ الخطبةِ، وأنْ يترُكوا البيعَ وكلَّ عملٍ يشغَلُهم عن أداءِ الصلاةِ، فأداءُ صلاةِ الجمعةِ وسماعُ الخطبةِ والذكرِ والوعظِ هو الخيرُ النافعُ للمؤمنينَ إنْ كانوا يعلَمونَ مصالحَ أنفسِهِم وما ينفعُهم في دينِهم ودُنياهُم وآخرتِهم.

ومعنى السَّعيِ: الذهابُ والحضورُ، لا العَدْوُ، والمرادُ من هٰذا النداءِ هو النِّداءُ الذي يكونُ بينَ يدي الخطيبِ إذا جلسَ على المنبرِ، وأما النداءُ الذي على المناراتِ؛ فإنما زادَه عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ في إمارتِه[2] لما كَثُرَ الناسُ، فليسَ بمرادٍ، فمِن حينِ النداءِ يجبُ المشيُ والحضورُ، ويحرُم البيعُ والاشتغالُ.

واعلمْ أنَّ صلاةَ الجُمُعةِ مِن فروضِ الأعيانِ، فتجبُ على كلِّ مسلمٍ عاقلٍ بالغٍ حرٍّ ذكرٍ إذا كانَ مُقيماً في مِصْرٍ أو قريةٍ، فمَن تركَها بدونِ عُذرٍ؛ استحقَّ الوعيدَ الشديدَ، وقد ثبتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «تجبُ الجمعةُ على كلِّ مسلمٍ إلاَّ امرأةً أو صَبيّاً أو مملوكاً» رواهُ التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ[3].

---

(١) الجمعة: ٩.

(٢) كما رواه البخاري (٢ / ٣١٤) وغيره.

وانظر له لزاماً «الأجوبة النافعة» (١٧ ـ ٢٦) لشيخنا الألباني.

(٣) لم أر هٰذا الحديث عندهما!

ولكنْ؛ رواه بنحوه أبو داود (١٠٦٧) عن طارق بن شهاب.

والعذرُ المسقطُ للجمعةِ المرضُ، أو تعهُّدُ مريضٍ ، أو خوفٌ، أو مَطَرٌ، أو وَحلٌ كثيرٌ.

ومَن لا يَجِبُ عليه حُضورُ الجمعةِ، إذا حضرَ وصلّى معَ الإمامِ الجمعةَ؛ سقطَ عنهُ فرضُ الظُّهرِ؛ لأنَّها فرضُ الوقتِ.

وقد صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنَّهُ قالَ: «مَن تركَ الجُمعةَ ثلاثَ مرَّاتٍ تهاوُناً بها؛ طبَعَ اللهُ على قلبِه»[1].

ولا شكَّ أنَّ صلاةَ الجمعةِ مِن أوكدِ فرائِضِ الإسلامِ، ومعَ هٰذا؛ فإنا قدْ شاهدْنا كَثيراً مِن المسلمينَ يترُكونَ الجمعةَ؛ تهاوُناً بها، حتَّى إنِّي قدْ رأيتُ رِجالاً مِن أغنياءِ مكَّةَ، وأنا نازلٌ عندَهُ ضَيْفاً في أيامِ الصيفِ في الطّائفِ، وهٰذا الغنيُّ لا يحضُرُ لصلاةِ الجمعةِ، وعندَه السيَّاراتُ والمراكِبُ الفاخِرةُ، وإذا قيلَ لهُ في ذٰلك؛ يتعلَّلُ بوجَعِ الرِّجْلِ أو صُداعِ الرَّأسِ، ولكنْ أراهُ يسعى كلَّ يومٍ بعدَ صلاةِ الفجرِ ماشياً على رجليهِ؛ لزيارةِ قبرِ عبدِاللهِ بنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، فلما رأيتُه مِراراً؛ قلتُ له: يا فلانُ! لمَ لا تحضُرُ صلاةَ الجمعةِ وهي فرضُ عينٍ؟

= وقال عقِبَه: «طارق بن شهاب رأى النبيَّ ﷺ ولم يسمع منه شيئاً».

فقال النووي في «الخُلاصة»: «وهٰذا غير قادح في صحّته؛ فإنه يكون مرسل صحابي، وهو حجة، والحديث على شرط الشيخين».

نقله الزيلعي في «نصب الراية» (٢ / ١٩٩).

وقال شيخنا في «الإرواء» (٣ / ٥٥): «فكأنه لذٰلك صحّحه غير واحد».

ثم ساق له شيخنا شواهد عدة.

(١) رواه: أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي (٣ / ٨٨)؛ عن أبي الجعد الضَّمْري.

وسنده حسن.

فأجابَ بأنَّهُ متأثِّرٌ أو رأسُهُ دائخٌ أو مريضٌ، فأعدتُ القولَ، فقلتُ: لمَ تذهبُ كلَّ يومٍ ماشياً إلى زيارةِ قبرِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما ولا تتأثرُ ولا تسأمُ؟ فأجابَ بأن شيخَهُ فلانٌ أوصاهُ بأن لا يتركَ زيارةَ قبرِ الحَبْرِ؛ فإنه مَنْبَعُ البَرَكاتِ! وهٰذه الدولةُ التي نِلْتُها كُلُّها ببركةِ هٰذا الحَبْرِ. فقلتُ: يا هٰذا! اتَّقِ اللهَ؛ إنَّ البركةَ إنما هي بيدِ اللهِ، وعندَه جلَّ جلالُه، لا عندَ أحدٍ مِن المخلوقاتِ، ورؤيةُ البركةِ مِن غيرِ اللهِ ـ وخُصوصاً مِن القبورِ وأصحابِ القبورِ ـ مِن شعارِ عُبَّادِ الأصنامِ والأوثانِ والمُشركينَ. ولكنْ لم يقبلْ نَصيحَتي، ولم يَلْتَفِتْ إلى ما قلتُ، وقالَ: الوهَّابيونَ يقولونَ هٰكذا! فقاطعتُه قائلاً: هٰذا فِراقُ بيني وبينِكَ[1].

فانظر يا أخي المؤمنَ إلى حالِ المسلمينَ وجهلِهم، وحالِ مَن يسكنُ في الحَرَمِ، قد سخِرَ منهُم الشيطانُ، ولعِبَ بهِم، وأغفَلَهُم عن أمرِ اللهِ، وأبعَدَهُم عن فهمِ معاني كتابِ اللهِ والعملِ بهِ وبسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ثمَّ اعلمْ أنَّ اللهَ تعالى لم يأمرْ عبادَه المسلمينَ أنْ يتركوا الأشغالَ المعاشِيَّةَ ويجلسوا في المساجدِ معتكفينَ كما يفعلُه الجهلةُ وأهلُ البطالةِ مِن أهلِ الطرقِ والتَّكايا، بل أمرَهم بعدَ أداءِ فَرائضِ الصَّلَواتِ أنْ ينتشِروا في الأرضِ، ويطلُبوا مِن فَضْلِ اللهِ الرزقَ والمعاشَ.

ومِن هٰذا قالَ بعضُ السلفِ: مَن باعَ واشترى في يومِ الجمعةِ بعدَ الصلاةِ؛ باركَ اللهُ تعالى لهُ سبعينَ مرةً.

وكانَ عِراكُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا صلَّى الجمعةَ؛ انصرفَ، ثمَّ وقفَ

---

(١) هذا هجرٌ مشروعٌ، ليس للنفس فيه نصيب، إنما هو ـ إن شاء الله ـ لله سبحانه وحده، وانظر: «هجر المبتدع» للأخ الشيخ بكر أبو زيد.

على بابِ المسجدِ، فقالَ: «اللهُمَّ إنِّي أجبْتُ دعوتكَ، وصليتُ فريضتَك، وانتشرتُ كما أمرْتَني، فارزُقْني مِن فضلِكَ، وأنتَ خيرُ الرازِقينَ». رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

﴿واذْكُرُوا اللهَ كَثيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾؛ أي: في حالِ بيعِكُم وشرائِكُم، وأَخْذِكم وإعطائِكُم، وفي كلِّ حالاتِكم؛ اذكُروا اللهَ ذِكراً كثيراً، ولا تشغَلْكُمُ الدُّنيا عن الذي ينفعُكم في الدارِ الآخرةِ، ولا يكونُ العبدُ مِن الذَّاكرينَ اللهَ كثيراً حتى يذكرَ اللهَ قِياماً وقُعوداً واضطِجاعاً.

ومِن فضلِ اللهِ طلبُ العلمِ؛ كما أنَّ مِن فضلِ اللهِ المالَ الحلالَ والرزقَ الحلالَ.

وأصلُ الذكرِ أنْ يذكُرَ العبدُ أمرَ اللهِ في كلِّ شؤونِه، فيأْتيها موافِقاً لأمرِه برعايةِ حدودِه.

قالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «الذِّكرُ طاعةٌ للهِ، فمَن أطاعَ اللهَ؛ فقد ذكرَه، ومَن لم يُطِعْه؛ فليسَ بذاكرٍ، وإنْ كانَ كثيرَ التسبيحِ باللِّسانِ؛ كما هو شأْنُ كثيرٍ مِن الدَّجّالينَ المكّارينَ، وذِكرُ اللهِ حقّاً سببُ الفوزِ والفلاحِ في الدّارينِ، وموجِبٌ لجمعيَّةِ الظاهرِ والباطنِ، ﴿ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾[1].

*****

الآيةُ السادسةُ والتسعونَ في سورةِ المنافقونَ: **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلكَ فأُولٰئكَ هُمُ**

(١) الرعد: ٢٨.

الخَاسِرُونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بكثرةِ ذكرِه، وناهياً إياهُم عن أَنْ تشغَلَهُم الأموالُ والأولادُ عنْ ذكرِ اللهِ، وأَخبَرَ تعالى أَنَّ مَن انتهى وتلهَّى بمتاعِ الحياةِ الدُّنيا وزينَتِها عمَّا خُلِقَ لهُ مِن طاعةِ ربِّه وذِكرِه؛ فإنَّهُ مِن الخاسرينَ، الذينَ يخسَرونَ أَنفُسَهم وأَهليهِم يومَ القيامةِ، ثمَّ حثَّهم ورغَّبَهُم على الإنفاقِ في طاعةِ اللهِ ومرضاتِه.

وقد روى الترمذيُّ في «سننِه»[2] بسندِه عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: أنه قالَ: «مَن كانَ لهُ مالٌ يُبْلِغُه حجَّ بيتِ ربِّهِ أو تجبُ عليهِ فيهِ زكاةٌ، فلم يفعَلْ؛ سأَلَ الرجعةَ عندَ الموتِ». فقالَ رجلٌ: يا ابنَ عباسٍ! اتَّقِ اللهَ؛ فإنما يسأَلُ الرَّجعةَ الكفَّارُ. فقالَ: «سأَتْلو عليكُم بذلك قُرآناً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُم ولا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكرِ اللهِ ومَنْ يَفْعَلْ ذلكَ فأُولئكَ هُمُ الخَاسِرونَ . وأَنْفِقوا مِنْ قبلِ أَنْ يأتِيَ أَحدَكُمُ الموتُ فيَقولَ رَبِّ لَولا أَخَّرْتَني إلى أَجَلٍ قريبٍ فأَصَّدَّقَ وأَكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ . ولنْ يؤخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جَاءَ أَجَلُها واللهُ خَبيرٌ بِما تَعْمَلونَ﴾[3]». قالَ: فما يوجِبُ الزكاةَ؟ قالَ: «إذا بلغَ المالُ مِئتينِ فصاعداً». قالَ: فما يوجِبُ الحجَّ؟ قالَ: «الزادُ والراحلةُ».

---

(1) المنافقون: ٩.

(2) برقم (٣٣١٣).

وأورده السيوطي في «الدر» (٨ / ١٧٩)، وزاد نسبته لعبد بن حُميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

وفيه ضعف وانقطاع.

(3) المنافقون: ٩ ـ ١١.

فيا أيُّها المسلمونَ! لا يَشْغَلْكُمُ الاهتمامُ بتدبيرِ أموالِكم وأولادِكم، والاعتناءُ بمصالِحها، والتمتعُ بها، عن الاشتغالِ بذكرِ اللهِ تعالى؛ مِن الصلاةِ والزكاةِ والحجِّ وسائرِ العباداتِ المذكِّرةِ للمعبودِ.

وذِكْرُ اللهِ إمَّا بالقلبِ وإمَّا باللسانِ وإمَّا بالجوارحِ، والمرادُ هنا كلُّ ذلك، وباللهِ التوفيقُ.

* * * * *

الآيةُ السابعةُ والتسعونَ في سورةِ التغابنِ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أزواجِكُمْ وأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لكُمْ فاحْذَروهُمْ وإنْ تَعْفوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِرُوا فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ . إنَّما أَمْوالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ واللهُ عندَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ . فاتَّقُوا اللهَ ما استَطَعْتُمْ واسْمَعُوا وأَطيعُوا وأَنْفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُم ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾[1].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ منبِّهاً إيَّاهُم، ومخبراً أنَّ بعضَ الأزواجِ والأولادِ عدوُّ الزوجِ والولدِ؛ فإنَّهُ بسببه يتلهَّى ويشتغلُ عنِ العملِ الصالحِ، أو يرتكبُ بسببِه بعضَ المحظوراتِ؛ مِن السَّرقةِ، والغِشِّ، والخِياناتِ، فلهذا قد أمرَ اللهُ تعالى المُؤمنينَ أنْ يحذَروا مِن الوقوعِ بسببِهم في المحظوراتِ، وكم مِن زوجةٍ تحمِلُ الزوجَ على قطعِ الرحمِ، أو معصيةِ ربِّه، فلا يستطيعُ الرجلُ معَ حبِّه لها إلاَّ أنْ يُطيعَها.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: «أنَّ رجالاً أسلَموا مِن أهلِ مكَّةَ، فأرادوا أنْ يُهاجِروا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأبى أزواجُهم وأولادُهم أنْ يَدَعوهُم،

(1) التغابن: ١٤ ـ ١٦.

وقالوا: لا نصبرُ على فراقِكُم، فأطاعوهُم، وتركوا الهجرةَ، ثمَّ لمَّا هاجروا بعدَ مدَّةٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ورأوا الناسَ الذينَ سبقوهُم أنهم قد فَقُهوا في الدينِ؛ هَمُّوا أنْ يعاقِبوا أزواجَهم وأولادَهُم الذينَ منعوهُم، فأنزلَ اللهُ: ﴿وإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾، فأمرَهُم اللهُ تعالى بالعفوِ عنهُم والصَّفحِ»[1].

فيا أيُّها المؤمنونَ! إنَّما الأموالُ والأولادُ فتنةٌ، أي: اختبارٌ وابتلاءٌ مِن اللهِ تعالى لخلقِهِ؛ ليعلَمَ مِن يطيعُه ممَّن يعصيهِ، ويقعُ بسببِها الإنسانُ في العظائمِ ومنعِ الحقوقِ وتناولِ الحرامِ، ﴿واللهُ عندَهُ أجرٌ عَظيمٌ﴾.

وقد روى البزَّارُ[2] بسندِه عنْ أبي سعيدٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الولدُ ثمرةُ القلوبِ، وإنَّهم مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ محزَنَةٌ».

وحيثُ إنَّ الإنسانَ مُبتَلى بهذه الفتنةِ؛ فقد لطفَ اللهُ تعالى بعبدِه المؤمنِ، فقالَ: ﴿فاتَّقُوا اللهَ ما استَطَعْتُمْ﴾؛ أي: جهدَكُم وطاقتَكُم، ﴿واسْمَعوا وأطيعوا﴾؛ أي: كونوا منقادينَ لما يأمُرُكُم اللهُ تعالى بهِ ورسولُه، ولا تَحيدوا عنهُ يمنةً ولا يَسرةً، ولا تُقَدِّموا بينَ يدي اللهِ ورسولِه، ولا تتخلَّفوا عمَّا أُمِرْتُم بهِ، ولا تركَبوا ما عنهُ نُهيتُم وزُجِرْتُم، واسمَعوا أوامرَه ومواعظَه وأطيعوهُ، وأنفِقوا ممَّا رزقكُم

(١) رواه: الترمذي (٣٣١٤)، وابن جرير (٢٨ / ١٢٤)، والطبراني (١١٧٢٠)؛ عن سماك عنه.

ورواية سماك عن عكرمة مضطربة.

(٢) برقم (١٨٩٢) عن أبي سعيد.

وفي سنده عطيَّة العَوْفي، وهو ضعيف.

وقد صحَّ الحديث؛ دون قوله: «... ثمرة القلوب...»؛ كما تقدَّم (ص ٢٠١) تخريجه مفصلاً.

اللهُ تعالى على الأقاربِ والمساكينِ وذوي الحاجاتِ، وأَحْسِنوا إلى خلقِ اللهِ كما أحسنَ اللهُ إليكُم؛ يكُنْ خيراً لكُم في الدنيا والآخرةِ.

فيا أيُّهـا المؤمنـونَ! كونـوا على حذرٍ واحتياطٍ مِن أزواجِكم وأولادِكم وأموالِكم، واعدِلوا في معاملاتِهم، ولا تُلقوا أنفسكُم بسببِهم إلى المهلكةِ، وكم مِن مالٍ أوقعَ مالِكَه في أنواعِ البلاءِ، حتى في الدُّنيا!

فاتَّقـوا كلَّ ما يكـونُ سبباً لمؤاخذةِ اللهِ إيَّاكُم في تدبيرِ أمورِهم، وتركِ تعليمِهم أمورَ دينِهم، ولا ترتَكِبوا ما يُخالِفُ أمرَ اللهِ تعالى مِن فعلٍ أو تركٍ، وأنفِقوا أموالَكُم فيما أمرَكُم اللهُ تعالى بالإنفاقِ فيهِ خالصاً للهِ تعالى، وفي تربيةِ أولادِكُم، واتَّقـوا الشُّـحَّ والبُخلَ، ﴿ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾؛ أي: مَن يقهِ اللهُ ويعصمْـه مِن بخـلِ نفسـهِ الـذي هو الـرذيلةُ المعجـونـةُ في طينـةِ النفسِ؛ ﴿فـأُولئـكَ﴾ المحفـوظـونَ من الشُّـحِّ، والسـامعونَ لمواعظِ اللهِ، والمطيعونَ لأوامـرِه، والمنفقـونَ فيمـا أمـرَ اللهُ تعالى بالإنفاقِ فيهِ ﴿هُمُ المُفْلِحونَ﴾ في الدارينِ، والفائزونَ بالسعادتينِ، اللهُمَّ وفِّقنا لما فيه رضاكَ.

* * * * *

الآيةُ الثـامنةُ والتسعونَ في سورةِ الطلاقِ: **﴿فاتَّقُوا اللهَ يا أُولي الألبابِ الَّذينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً . رَسُولاً يَتْلُو علَيْكُم آياتِ اللهِ مُبيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ومَنْ يُؤمِنْ باللهِ ويَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها أبداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾**[1].

(١) الطلاق: ١٠ ـ ١١.

قد أمَرَ اللهُ تعالى العقلاءَ مِن عبادِه المؤمنينَ وأصحابَ اللُّبِّ وهُم ﴿الذينَ آمَنُوا﴾ باللهِ ورسوله إيماناً صحيحاً بتقوى اللهِ تعالى ، والحذرِ مِن غضبه وعقابه ، فخاطبهُم منادياً إياهُم بيَا ذَوي الألبابِ والعقولِ السليمةِ! الذينَ عرفوا ربَّهم فآمنوا بهِ إيماناً صادقاً؛ أي : يا أيُّها المؤمنونَ ذوو الأفهامِ السليمةِ والعقولِ المستقيمةِ! اتَّقوا اللهَ ، ولا تكونوا مثلَ الذينَ خالَفوا أمرَه ، وكذبوا رسلَه ، وغيَّروا ما شرعَهُ ، وابْتَدعوا في دينِه وعبادتِه ، فأصابَهم ما أصابَهم مِن بلاءِ اللهِ وغضبهِ وعذابِه ولعنَتِه .

فيا ذَوي الألبابِ الذينَ اتَّصفوا بصفةِ الإيمانِ الصادقِ! ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ﴾ تعالى ﴿إليكُم ذِكراً﴾؛ يعني القرآنَ و﴿رَسولاً﴾؛ يعني : محمداً ﷺ ، ﴿يَتْلو عليكُمْ آياتِ اللهِ مُبيِّناتٍ ليخرِجَ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾؛ أي : مِن ظلماتِ الشركِ والكفرِ والجهلِ والضلالِ إلى نورِ الإيمانِ والتوحيدِ والعلمِ ، وإنَّما وحَّدَ اللهُ تعالى لفظَ النورِ وجمعَ الظُّلماتِ؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ ، وسبيلُه واحدٌ ، وهو ما جاءَ بِه محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ اعتقاديّاً وعمليّاً ، وأما الظلماتُ والكفرياتُ والشركياتُ؛ فأنواعُها كثيرةٌ ، وطرقُها متعدِّدةٌ؛ كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿وأنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتقيماً فاتَّبِعوهُ ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتَفَرَّقَ بكُمْ عَنْ سبيلِهِ﴾[1] .

وأفادتِ الآيةُ أن ذوي الألبابِ إنما هُم المؤمنونَ باللهِ إيماناً صادقاً ، وأمَّا غيرُهم مِن الكافرينَ والمشركينَ والزنادقةُ؛ فليسوا مِن ذوي الألبابِ ، وإنِ اخترعوا الصنائعَ العجيبةَ مِن السَّيَّاراتِ والطَّيَّاراتِ والقنابلِ الذرِّيَّةِ والماكينات

---

(١) الأنعام : ١٥٣

الجهنَّميةِ، وحصَّلوا مِن الدُّنيا بالمليارات؛ فإنهم مِن فَرْطِ جهلِهم أعداءُ أنفُسهِم كما لا يخفى، فهُم كالشياطينِ الذينَ كانوا يعملونَ في دولةِ سليمانَ عليهِ السلامُ مِن محاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ وقُدورٍ راسياتٍ[1]، وكالذينَ كانُوا يَنْحِتونَ مِن الجِبالِ بيوتاً ومصانعَ لعلَّهم يخلُدونَ[2]، فانتَبِهوا يا ذوي الألبابِ.

فاللهُ تبارَكَ وتعالى إنَّما يُخرِجُ بكتابهِ المؤمنينَ العقلاءَ المتفكِّرينَ مِن الضَّلالةِ إلى الهُدى، ومِن الباطلِ إلى الحقِّ، ومِن الجهلِ إلى العلمِ، ومِن الكُفرِ إلى الإيمانِ، ومِن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ومِن الشُّبهاتِ إلى الدَّلالاتِ والبراهينِ الواضحاتِ، ومِن الغفلةِ إلى اليَقَظةِ، ومِن الأنسِ بغيرِ اللهِ إلى الأنْسِ باللهِ؛ على حسَبِ طبقاتِهم ودرَجاتِهم، وبقدْرِ استعدادِهم وأهليَّتِهم في السَّعيِ والاجتهادِ بعنايةِ اللهِ تعالى وتوفيقِه، اللهُمَّ اهدِنا فيمَنْ هديْتَ، يا ربَّ العالمينَ!

* * * * *

الآيةُ التاسعةُ والتسعونَ في سورةِ التحريمِ: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْليكُمْ نَاراً وَقُودُهـا النَّاسُ والحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلونَ مَا يُؤمَرُونَ**﴾[3].

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم أنْ يحفظوا أنفسَهم وأهليهِم وأولادَهم وأزواجَهم ممَّا يصيرُ سبباً للدُّخولِ في نارِ جهنمَ،

---

(1) كما في سورة سبأ: ١٣.

(2) كما في سورة الشعراء: ١٢٩ و١٤٩

(3) التحريم: ٦.

ووقـودُ وحطبُ تلكَ النارِ إنَّما يكونُ مِن الآدميِّ والحجارةِ المعبودةِ مِن الأوثانِ والأصنامِ والهياكلِ والقُببِ المبنيَّةِ على قُبورِ الأنبياءِ والأولياءِ وغيرِها.

ولا شكَّ أنَّ الـوقـايةَ منها إنما تكونُ: بالإيمانِ باللهِ ورسولِه، والعملِ بمقتضـاهُ، وبتـأديبِ الأولادِ وتعليمِهم الإيمـانَ الصحيحَ والإسـلامَ الصـريحَ والإحسانَ والأخلاقَ الإنسانيةَ والعملَ بطاعةِ اللهِ والاحترازَ عن معاصي اللهِ.

فيا أيُّها المؤمنونَ! اتَّقوا اللهَ، وأوصوا أهليكُم بتقوى اللهِ، فتأمروهُم بطاعةِ اللهِ، وتنهَـوْهُم عن معصيةِ اللهِ، وأَنْ تساعِدوهُم على ذٰلك، فإذا رأيتُم منهُم معصيةَ اللهِ؛ قذعتُموهُم مِنها، وزجرتُموهُم عنها، فالحقُّ الواجبُ على المسلمِ أَنْ يُعَلِّمَ أهلَه وأولادَه وقرابتَه وعبيدَه ما فرضَ اللهُ تعالى عليهِم، وما أمرَهم بفعلِه، وما نهاهُم عنهُ.

وممَّا يفسرُ هٰذا ما رواهُ أبو داودَ والترمذيُّ وأحمدُ[1] عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنـه قالَ: «مُـروا الصَّبيَّ بالصَّـلاةِ إذا بلغَ سبـعَ سنينَ، فإذا بلغَ عشرَ سنينَ؛ فاضرِبوهُ عليها»، وكذا الصومُ؛ ليكونَ ذٰلك تمريناً لهُ على العبادةِ، واللهُ سبحانَه هو الموفِّق.

وقد أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ وقودَ تلكَ النارِ وحطبَها: ما يُلقى فيها مِن جُثثِ بني آدمَ، والحجارةُ؛ الأصنامُ والأوثانُ التي تُعبدُ وتُعَظَّمُ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ

---

(١) رواه: أبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، والدارمي (١ / ٣٣٣)، والحاكم (١ / ٢٠١)، وأحمد (٣ / ٢٠١)، والبيهقي (٢ / ١٤ و٣ / ٨٣ - ٨٤)؛ من طريق عبدالملك ابن الربيع بن سَبْرة عن أبيه عن جده.

وسنده حسن.

وللحديث طرق أخرى.

وما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1]، فالمشرِكونَ والكفارُ مِن وَقودِ جهنَّمَ، وكـذا الأصنـامُ المعبودةُ، والأوثانُ المسجودةُ، والقببُ على القُبورِ المركوعةِ، ويدخلُ فيه الذينَ يأمرونَ الناسَ بالسجودِ والرُكوعِ لهُم، أو النَّذرِ لهُم ولأرواحِهم بعـدَ وفـاتِهم، أو يأمـرونَ مريديهِم بأنْ يطلبوا حاجاتِهم منهُم؛ متوجِّهينَ إلى قبورِهم وقُببِهِم، فهٰؤلاءِ هُم الطواغيتُ، والطواغيتُ في النارِ، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبِئْسَ القَرارُ﴾[2].

فيا أيُّهـا المؤمنونَ! اتَّقوا اللهَ، وارحموا أنفسَكم وأهليكُم مِن الشِّركياتِ والكُفْرِيَّاتِ والضَّلالاتِ والجهالاتِ وكلِّ ما نهى اللهُ تعالى عنهُ، وهٰذا يقتضي ويوجِبُ على المؤمنينَ معرفةَ كلِّ ما أمرَ اللهُ تعالى بهِ وما نهى عنهُ، ولا شكَّ أنَّ هٰذا موقوفٌ على معرفةِ معاني القرآنِ وأحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ.

فعليكُم أيها المسلمونَ بالسعيِ والاجتهادِ في تعلُّمِ القرآنِ وفهمِ معناهُ؛ كيْ تَقُوا أنفسَكُم مِن نارِ الجحيمِ والعذابِ الأليمِ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ الموفقُ.

* * * * *

الآيةُ المتمِّمةُ للمئةِ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُـوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ويُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْديهِمْ وبِأَيْمانِهِمْ يَقُولونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نورَنا واغْفِرْ لنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾[3].

(١) الأنبياء: ٩٨.

(٢) إبراهيم: ٢٩.

(٣) التحريم: ٨.

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادَه المؤمنينَ؛ آمراً إيَّاهُم بالتوبةِ والأَوْبِ والرُّجوعِ إلى اللهِ توبةً ناصحةً خالصةً صادقةً، تمحو ما قبلَها مِن السيئاتِ، وتلمُّ شعَثَ التائبِ وتجمَعُه، وتكفُّه عمَّا كان يتعاطاهُ مِن الدَّناءاتِ.

وقد روى أحمدُ[1] في «مسندِه» عن عبداللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «التوبةُ مِن الذَّنْبِ: أَنْ يتوبَ منهُ ثمَّ لا يعودَ فيهِ».

فالتوبةُ النصوحُ[2]: هي أَنْ يقلِعَ عن الذنبِ في الحاضرِ، ويندمَ على ما سلفَ منهُ في الماضي، ويعزمَ على أَنْ لا يفعَلَ في المستقبلِ، ثمَّ إنْ كانَ الحقُّ لآدميٍّ ردَّهُ إليهِ بطريقِه، والتوبةُ الصحيحةُ تجبُّ ما قبلَها، كما أَنَّ الإسلامَ الصحيحَ يجبُّ ما قبلَه[3].

فيا أَيها المؤمنونَ! توبوا إلى اللهِ قبلَ الفوتِ؛ فإنَّك لا تدري متى تموتُ، ولا بدَّ منهُ، فالبِدارَ البِدارَ، والاستغفارَ دائماً آناءَ الليلِ وأَطرافَ النهارِ.

فتوبوا أيها المؤمنونَ مِن هٰذه المذاهبِ المبتَدَعةِ المفرِّقَةِ، والطُّرقِ الوثنيةِ المضلِّلةِ، والتوجُّهِ إلى القبورِ والأرواحِ، والاستمدادِ مِن الأمواتِ والرُّوحانياتِ،

---

(١) برقم (٤٢٦٤).
ورواه البيهقي في «الشعب» (٧٠٣٦).
و«إسناده ضعيف لضعف الهَجَري»؛ كما قال الشيخ أحمد شاكر.
وضعَّفه الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٩٩ - ٢٠٠).

(٢) ولأخينا سليم الهلالي رسالةٌ مفردةٌ في «التوبة النصوح»، وهي مطبوعة.

(٣) كما في الحديث الذي رواه مسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص.
أما «التوبة تجبُّ ما قبلَها»؛ فمما لا أصل له في المرفوع، وإنِ اشتهر على ألسنة العامة!

فاتركوا كلَّ هٰذه الخرافاتِ، وارجعوا إلى العلمِ والعملِ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، واجتَهِدوا في استحصالِ العدَّةِ والآلاتِ الدفاعيةِ بالاتفاقِ والاتحادِ، ولٰكنَّكُم لا تتَّحِـدونَ ما لم تتَّحِدوا في التوحيدِ والاعتقادِ، فجاهِدوا أعداءَ اللهِ تعالى وأعداءَكُم لتخليصِ البلادِ، عسى اللهُ تعالى أنْ يغفرَ ذنوبكُم الماضيةَ، ويكفِّرَ عنكُم سيئاتِكم، ويدخِلَكُم جنَّاتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ، فتخلُصونَ في هٰذه الـدُّنيا مِن براثينِ أهـلِ الاستعمـارِ واستعبـادِهم، فتَعْمُـرونَ بلادَكم وأوطانَكم بشعائرِ دينِ الإسلامِ ؛ مِن إقامةِ حدودِ اللهِ، ورفعِ منارِ الدينِ، وأما في الآخـرةِ؛ فيدخِلُكُم اللهُ تعالى بهٰذه الأعمالِ الصالحةِ جنَّاتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عملاً.

وأما التوبةُ والاستغفارُ باللسانِ بلا رجوعٍ عمَّا كنتُم عليهِ مِن الضلالِ ؛ فلا تنفعُ ؛ كما هو شأْنُ كثيرٍ مِن المغرورينَ المغفَّلينَ مِن أهلِ الغفلةِ، وإنِ ادَّعى أنه مِن أهلِ المعرفةِ، فهٰؤلاءِ قدِ اتَّخذوا دينَهم لهواً ولعباً، وصلواتِهم وأذكارَهم مُكاءً وتَصْدِيةً، فتوبتُهم صورةٌ بلا روحٍ، وعَرَضٌ بلا ذاتٍ؛ كمدفعٍ بلا قنبلةٍ، وسيارةٍ بلا بنزينٍ، فماذا تنفعُ؟ هيهاتَ هيهاتَ.

اللهمَّ إرِنا الحقَّ حقّاً ووفِّقنا لاتِّباعِه، وأرِنا الباطلَ باطلاً وسهِّلْ لنا اجتنابَه.

والعبدُ الضعيفُ راقمُ هٰذه الحروفِ، حينما كنتُ في بلدةِ غولجةَ مِن بلادِ الصينِ كنتُ أَلَّفتُ كتاباً في التوبةِ والاستغفارِ، وسمَّيتُه «تحفةَ الأبرارِ في فضائلِ سيِّدِ الاستغفارِ»، وكانَ قد طُبِعَ هناك عام ١٣٥٠هـ، ونُشِر في الآفاقِ، فأسأَلُ اللهَ تعالى التوفيقَ والثباتَ على الحقِّ المبينِ والصراطِ المستقيمِ.

●●●●●

فهٰذه مئةُ آيةٍ؛ قد ذكرتُها وفسَّرتُها على ما يسَّر اللهُ تعالى؛ مقتبِساً من تفاسيرِ السلفِ الصَّالحينَ والعُلَماءِ المحقِّقينَ رضيَ اللهُ عنهُم وأرضاهُم، وما شاكَلَها مِن الآياتِ كثيرةٌ على هٰذا المعنى، قد خاطبَ اللهُ تعالى بها عبادَه المؤمنينَ كلَّهم، وناداهُم، وأمرَهم، ونهاهُم، وبشَّرهم، وأنذرَهم، وزجَرهم، وخوَّفهم، فقالَ: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا﴾ ولم يقلْ: يا أيها العلماءُ، أو: يا أيها العربُ، أو: يا أيها الساداتُ والأشرافُ، ولكنْ قد خاطبَ كلَّ المؤمنينَ بـ (أنتم) و (كُم) و (كنتُم)، فإذاً؛ كلُّ المؤمنينَ سواءٌ في التكليفِ، وكلُّهم مخاطَبونَ بهٰذه الخطاباتِ الإلٰهيةِ؛ كما أنَّ كلَّ البشرِ مُخاطَبونَ بخِطاباتِ ﴿يا أيُّها الناسُ﴾، و ﴿يا بني آدمَ﴾، فبهٰذا قد توجَّه الخطابُ إليهم، وكلُّ واحدٍ منهُم أهلٌ لِفَهْمِ ذٰلك ما دامَ عاقلاً بالِغاً، ولأنهم لو لم يكونوا أهلاً؛ لما خاطبَهم اللهُ تعالى، ولما كلَّفهم، فلا يُعذرُ أحدٌ بالجهلِ [1]، سواءٌ كانوا عرباً أو عجماً، فارسيّاً أو هنديّاً، جاويّاً أو صينيّاً، روميّاً أو حبشيّاً، جابانيّاً أو أمريكانيّاً. . . أو أي جنسٍ كانَ.

فما يقولُه أو يتقوَّله كثيرٌ مِن المؤلِّفينَ ـ وقلَّدهم عامَّةُ غوغاءِ المسلمينَ ـ؛ بأنهم ليسوا أهلاً لفهْمِ معنى القرآنِ والعملِ بمقتضاهُ، وإنَّما يُقْرَأُ القرآنَ للتَّبرُّكِ وتحصيلِ الثوابِ فقطْ، ولو بلا فهمٍ؛ لأنَّ فهمَ معاني القرآنِ مختصٌّ بالأئمةِ المجتهدينَ، وهُم قد انقرضوا منذُ تاريخِ أربع مئةٍ، فبعدَ ذٰلك العصرِ انسدَّ على الناسِ بابُ الفهمِ والاجتهادِ؛ أي: بابُ رحمةِ اللهِ وفضلِه، فالناسُ قد صاروا محرومينَ عن فهمِ كلامِ ربِّهم، كأنهم قد مُسِخوا عن الإنسانيّةِ إلى الحيوانيّةِ، وعن الآدميّةِ إلى البَهيميّةِ، وانسلخوا عن صفةِ العلمِ والإيمانِ إلى سفاسِفِ

---

(١) انظر (ص ٨٩) فيما سبق.

الفلسفةِ وترّهاتِ الصوفيةِ، فبذلك صاروا محرومينَ مِن السعادتين، وقد صاروا مَحكومينَ ومَرذولينَ ومَخذولينَ تحتَ حكمِ الكفارِ، فيخدِمونَهم آناءَ اللهِ وأطرافَ النهارِ؛ كما لا يخفى على مَن له أدنى عقلٍ سليمٍ أو فهمٍ مستقيمٍ.

فهٰؤلاءِ المحرومونَ وإنِ ادَّعوا العلمَ والفضلَ والكمالَ، وتلقَّبوا بالعلامةِ المحقِّق والفهَّامةِ المدقِّق، أو الألمعيِّ اللوذَعيِّ، أو الشاعرِ الفريدِ الفرزدقيِّ؛ لكنَّهم لا يعلمونَ الإلٰه ولا معناهُ، فحيثُ لا يعرفونَ معنى الإلٰه فقد اتَّخذوا إلٰههم هواهُم، وعبدوا غيرَ اللهِ وهُم لا يشعرونَ، وأشركوا باللهِ ربِّ العالمينَ شِركاً صريحاً كبيراً، بل أكبرَ، وهُم وإنْ قالوا: اللهُ ربُّ العالمينَ، ولكنَّهم يعتقدونَ أنَّ الرُّوحانيَّاتِ لها حقُّ التربيةِ، فتُربِّي مَن يدعوها، وتُعينُ من يستعينُ بها، وكذا أرواحُ الأنبياءِ والأولياءِ يعلمونَ الغيبَ ويتصرَّفونَ في الكونِ.

فهٰؤلاءِ المحرومونَ؛ لو استعملوا عقولَهم وفكْرَهم التي صَرفوها في فَهْمِ فلسفةِ أفلاطونَ ودراسةِ حكمةِ أرسطو ومذاكرةِ ديوانِ ابنِ الفارضِ والفارابيِّ والمتنبي وما ألفهُ الغيرُ المعصومينَ مِن المؤلَّفاتِ الغامضةِ والأغلوطاتِ والألغازِ والمعمَّياتِ الغاويةِ إلى فهمِ كتابِ ربِّ العالمينَ وتدبُّرِ معانيهِ كما أمرَ اللهُ جلَّ جلالُه؛ لوصلوا إلى الحقِّ الصريحِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يديهِ ولا مِن خلفِه، ونالوا رضى اللهِ تعالى ورضوانَه، فكانوا مِن أهلِ السعادتينِ في الدارينِ.

وما علِمَ هٰؤلاءِ المحرومونَ أنَّهم إنْ كانوا مؤمنينَ؛ فهم داخِلونَ ألبتَّةَ في خطابِ ونداءِ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا، ومكلَّفونَ بامتثالِ هٰذه الأوامرِ.

والامتثالُ لا يتحقَّقُ إلا بالفهمِ، ولكنَّهم كأنهم لما نَسوا أمرَ ربِّهم وفهْمَ

كلامِ خالِقِهم؛ فأنساهُم أنفُسَهم، وأهملَ أمْرَهُم وشأْنَهم؛ جزاءً وِفاقاً.

وهٰذه الآياتُ صريحةٌ في إيجابِ اللهِ تعالىٰ على المؤمنينَ خصوصاً وعلى عامَّةِ البشرِ عموماً تعلُّمَ لغةِ القرآنِ، ومعرفةَ كلامِ العربِ، ولا يُعذرُ أحدٌ بالجهلِ بها؛ لأنَّ الإنسانَ قابلٌ للتعلُّمِ ومعرفةِ اللُّغاتِ والصَّنائعِ والأشياءِ كُلِّها، فمتى تساهلَ وقصَّرَ في التعلُّمِ؛ فهو المقصِّرُ المسؤولُ في الدُّنيا والآخرةِ، وكيفَ لا تجبُ على العبدِ معرفةُ كلامِ مولاهُ وخالقِه وربِّه؟! فاعتبِروا يا أُولي الألبابِ والأبصارِ.



فصلٌ

اعلمْ أنَّ اليهــودَ عنـدَهم التَّـوراةُ، والنصـارى عنـدَهم الإنجيلُ، وهم يقرؤونهما تعبُّداً في معابِدهم، ولكنْ لا يعملونَ بأمرِهما ونهيِهما، فهل نفعَهُم الإنجيلُ والتـوراةُ؟! كلا، بل صاروا ملعونينَ وضالِّينَ ومغضوباً عليهِم بعد أنْ قامتْ حجَّةُ اللهِ عليهِم؛ كما أخبَرَ اللهُ تعالى عن ذلك في سورةِ المائدةِ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1].

فمَن يتأمَّلْ هٰذه الآيةَ؛ يعلمْ يقيناً أنَّ حفظَ الكتابِ ودراستَه بدونِ فهمٍ وعملٍ اعتقاديّاً وعمليّاً ليسَ بشيءٍ، بل هو وبالٌ عليهِ، وتضييعٌ للعمرِ والوقتِ بلا ثمرةٍ.

ومَن وَزَنَ حالَ المسلمينَ اليومَ وقبلَ اليومِ؛ فإنهم، وإنْ حملوا القرآنَ، وحفِظوهُ غيباً، وحسَّنوا خطَّه ونقْشَه، وزخرفوهُ بأنواعِ الزَّخارفِ والنُّقوشِ، ولكنَّهم عنْ معانيهِ غافِلونَ، وعن تدبُّرِ ما فيهِ فارِغونَ، وعنِ الاعتقادِ والعملِ بما فيهِ بعيدونَ.

(١) المائدة: ٦٨.

والعبرةُ للمسلمِ في هٰذه الآيةِ أنْ يعلمَ أنَّ المسلمينَ لا يكونونَ على شيءٍ يُعتدُّ بهِ مِن أمرِ الدينِ حتى يُقيموا القرآنَ وما أُنْزِلَ إليهم مِن ربِّهم فيهِ، ويهتدوا بهدايتِه، فحُجَّةُ اللهِ تعالى على جميعِ عبادهِ واحدةٌ، فإذا كانَ اللهُ تعالى لا يقبلُ مِن أهلِ الكتابِ قَبْلَنا تلكَ التقاليدَ التي صدَّتْهُم عمَّا عندَهم مِن وحيِ اللهِ تعالى على ما كانَ طرأَ عليهِ مِن التَّحْريفِ بالزِّيادةِ والنُّقصانِ؛ فأَنْ لا يقبلَ منَّا مثلَ ذٰلك معَ حفظِه لكتابِنا أولى، والناسُ عن هٰذا غافلونَ، وبالانتسابِ إلى المذاهِبِ راضونَ، وبهدي أئمَّةِ الدينِ لا يقتَدونَ، وإلى حكمةِ الدينِ ومقاصدِه لا ينظرُونَ، ﴿ويَحْسَبُونَ أنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ ألا إنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبونَ﴾[1].

وأفادَ اللهُ تعالى أنَّ الانتسابَ إلى الدينِ لا يفيدُ في الآخرةِ إلَّا بإقامةِ كتابِ الدينِ.

●●●●●

(١) المجادلة: ١٨

فصلٌ

اعلمْ أن الأمةَ إذا تركتِ العملَ بكتابِها المنزَّلِ مِن ربِّها اعتقاداً وعملاً؛ قستْ قلوبُهـا، فصـارتْ ملعونةً؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَبِما نقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ ونَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلى خَائِنَةٍ منهُمْ إلاَّ قَليلاً منهُمْ﴾ الآية[1]، ﴿ومِن الَّذينَ قَالوا إنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيامَةِ﴾ الآية[2]، ونقضُ الميثاقِ يدنِّسُ النفوس، ويُفْسِدُ الفطرةَ، ويُقسِّي القلوبَ، فلا تؤثِّـرُ فيهـا الحجةُ والموعظةُ، فبسببِ تركِ العملِ بالكتابِ يقعُ التفرُّقُ في الدينِ، وتحْدُثُ العداواتُ والبغضاءُ.

والمسلمـونَ منـذُ تركـوا التدبُّرَ في كلامِ ربِّهم، وأَهملوا العملَ بِهِ حقَّ العملِ، وكذا تركوا العملَ بسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ إلاَّ ما وافقتْ هواهُم وشهوتَهُم؛ تفـرَّقتِ الآراءُ، وتعـدَّدتِ المـذاهبُ والـطرقُ، وحدثتِ الشركيَّاتُ والكفريَّاتُ والبدعُ والضَّلالاتُ، فعادى بعضُهم بعضاً، فتباغَضوا وتدابَروا وتقاتَلوا إلى أنْ

(١) المائدة: ١٣.

(٢) المائدة: ١٤.

صاروا طعمةً لثعابينِ الإفرنجِ والروسِ والطليانِ والبلاشفةِ والأمريكانِ وهُم لا يشعرُونَ، ومِن سكرتهم لا يُفيقونَ، وعن غيِّهم لا يرجِعونَ؛ فإنا للهِ وإنا إليهِ راجِعونَ.

فيا أيها المسلمونَ! لا تغترُّوا بمجرَّدِ تلاوةِ القرآنِ بلا فهمِ معناهُ والعملِ بمقتضاهُ، وأنتُم إنَّما تُقيمونَ الحجةَ على أنفسكُم؛ كما أخبرَ النبيُّ ﷺ: «القرآنُ حجَّةٌ لكَ أو عليكَ» رواهُ مسلمٌ[1]، وكما قالَ النبيُّ ﷺ: «رُبَّ تَالٍ للقُرآنِ والقُرآنُ يلعَنُهُ»[2].

فحيثُ تركَ المسلمونَ العملَ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ تركَهُم اللهُ تعالى، بحيثُ تسلَّطتْ عليهِم الكُفَّار، واستولتْ على أوطانِهم الفُجَّار، فحكمتْ عليهِم بما شاءتْ مِن قانونٍ جَبَّار، وأذلَّتْهُم تذليلَ الحَمَّارِ للحِمار، وهٰذا هو جَزاؤهُم في هٰذه الدار، وأما جزاءُ إعراضِهم عن العملِ بالقرآنِ واتِّخاذِهم الأربابَ مِن دونِ اللهِ مِن الأحبارِ والرُّهْبان، واتِّخاذِهم القُبورَ وأصحابَها معبوداً كالأوْثان، واستغاثتِهم بالأرواحِ، ونَذْرِهم للجنِّ والشيطانِ، وتباغُضِهم وتدابُرِهم لأهلِ التوحيدِ والإيمانِ، وتركِهم الجهادَ في سبيلِ اللهِ، ومُوالاتِهم لأهلِ الخذلانِ؛ فهو تعالى العليمُ الخبيرُ، يجازيهم يومَ الدينِ بالعدلِ، وهو جلَّ جلالُه قد أخبرَ أنَّ جزاءَ المشركينَ والكفارِ النيرانُ، فنعوذُ باللهِ منهُما ومن شرورِ أنفُسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، ومِن شرِّ شياطينِ الإنسِ والجانِّ.

---

(١) برقم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري، وهو قطعة منه.

(٢) لا أصل له في المرفوع.

فانظُر تعليقي على «الفتاوى المهمات».

فصلٌ

في ذكرِ الأحاديثِ النبويّةِ الواردةِ الثابتةِ في الصِّحاحِ والسُّننِ والمسانيدِ المعتَبَرَةِ في لزومِ فهمِ معنى الكتابِ والسنةِ والعملِ بموجَبِهما

وذٰلك أنَّ تعالى أمرَ رسولَه محمدا ﷺ ببيانِ ما أنزلَه اللهُ تعالى إلى النـاسِ، فقالَ جلَّ جلالُه: ﴿وأنْزَلْنا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهِمْ﴾ الآية[1]، وهو صلَّى الله عليه وسلَّم بيَّنَ بياناً واضحاً، فالأحاديثُ النبويَّةُ كلُّها ـ قوليةً كانتْ أو فعليَّةً بيانٌ لما في القرآنِ، وتفسيرٌ لهُ كما لا يخْفى.

*****

الحديثُ الأولُ: ما رواهُ الإمامُ ابنُ ماجه في «سننِه»، والإمامُ البيهقيُّ في «شُعبِ الإيمانِ»؛ عن أنسٍ رضي الله عنه؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، وواضعُ العلمِ عندَ غيرِ أهلِه كمقلِّدِ الخنازيرِ الجوهرَ واللؤلؤ والذهبَ»[2].

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) الحديث بهٰذا التمام موضوع؛ كما تراه مبيَّناً في تعليقي على «جزء حديث طلب

ولا شكَّ أنَّ العلمَ المفروضَ طَلَبُه إنَّما هو علمُ التوحيدِ، والحلالِ والحرامِ، وهو المُبيَّنُ في الكتابِ والسنةِ لا غير.

فإذاً؛ يجبُ على كلِّ إنسانٍ مسلمٍ معرفةُ معاني القرآنِ والحديثِ، وخصوصاً ما يتعلَّقُ بالتوحيدِ، ثمَّ الحلالِ والحرامِ، ولا يُعذَرُ أحدٌ بتركِه والجهلِ بهِ، وهو فرضُ عينٍ بلا خلافٍ، وكذا علمُ ما يَحتاجُ إليهِ الإنسانُ في حياتِه ومعاشِه، فمِن ذلك الصَّنائعُ الضَّروريَّةُ، ومعرفةُ لغةِ العربِ، وإعدادُ آلاتِ الجِهادِ والدِّفاعِ، وحفظُ دارِ الإسلامِ.

وفي روايةِ ابنِ عبدِالبرِّ: «طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ».

وفي «مسندِ الفردوس»[1]: «طلبُ العلمِ أفضلُ عندَ اللهِ مِن الصَّلاةِ والصِّيامِ والحَجِّ والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ».

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما: «طلبُ العلمِ ساعةً خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ»[2] الحديث.

العلم» (رقم ١)، وأما زيادة: «... ومسلمة...» فيه؛ فلا أصل لها؛ كما نبَّه عليه غير واحد من أهل العلم فيما نقلتُه عنهم في مقدمة الجزء المذكور (ص ٧ ـ ٨).

وقد سبق (ص ٢٠) بيان حُسْن «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

(١) أورده السيوطي في «جمع الجوامع» (٢٨٦٥٥ ـ ترتيبه)، وعزاه للطبراني وابن عبدالبرِّ!

ولم أجده عندهما، ولم أر أحداً عزاه إليهما؛ إلا أن يكون وهماً أو غلطاً طباعيّاً!

ثم رأيتُه عزاه في «الجامع الصغير» (٣٦٢٣ ـ ضعيفه) إلى «مسند الفردوس» حسبُ!

وقد وقفتُ على سنده في «أمالي الشجري» (١ / ٦٠)، وفيه تصحيفات، وفي سنده وضّاع!

(٢) أورده السيوطي في «جمع الجوامع» (٢٨٦٥٦)، وعزاه لـ «الفردوس»!

ولا شكَّ أنَّ هٰذا المفروضَ إنما هو علمُ الدينِ ؛ مِن التوحيدِ ، ومعرفةِ ربِّ العـالَمين بصفاتِه جلَّ جلالُه ، والحلالِ والحرامِ ، والجهادِ ، وما تتوقَّفُ عليهِ الحياةُ الإنسانيةُ دنيويةً وأُخرويَّةً .

والمتكفِّـلُ بهٰـذه العلومِ كلِّهـا إنَّمـا هو القرآنُ والحديثُ النبويُّ ، وأَما الاشتغالُ بالفلسفةِ والأشعارِ؛ فخزعبلاتٌ وترَّهاتٌ ، وكذا ما يدَّعيهِ أكثرُ متصوِّفةِ الزمانِ كما لا يخفى .

* * * * *

الحديثُ الثاني : ما رواهُ الترمذيُّ عنْ أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «تعَلَّمُوا الفرائِضَ والقُرآنَ وعلِّموها الناسَ؛ فإنِّي مقبوضٌ»(1) .

والفرائضُ : جمعُ فريضةٍ ، وهي كلُّ ما أوجَبَهُ اللهُ تعالى على عبادِه؛ مِن علمِ التـوحيدِ وكلِّ ما يتعلَّقُ بالدينِ ، وتعلَّموا القرآنَ ، وافهموا معناهُ ، وعلِّموهُ الناسَ ، ولا شكَّ أنَّ العلمَ مقدَّمٌ على العملِ ؛ لأنَّهُ تعالى يقولُ : ﴿فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ﴾(2) .

قالَ التُّوربِشتي : «الظاهرُ أنَّ المرادَ ما افترضَه اللهُ تعالى على عبادِه ؛ كأنه

= وأورده ابن عِراق في «تنزيه الشريعة» (1 / 278) ، وزاد نسبته لأبي الشيخ ، وقال : «وفيه نهشل بن سعيد» .

قلتُ : وهو متروك متَّهم!

(1) أخرجه : الحاكم (4 / 333) ، والترمذي (2092) ، والبيهقي (6 / 208) ، والدارقطني (4 / 67) .

وفيه ضعف واضطراب ؛ كما شرحه شيخُنا في «الإرواء» (1664) .

(2) محمد : 19 .

قالَ: تعلَّموا الكتاب والسنَّةَ. . .» إلخ.

وذكَرَ الجلالُ السيوطيُّ في «الجامعِ الصغيرِ»[1] ما يؤيِّدُ هذا، وهو: «تعلَّموا مناسِكَكُم؛ فإنَّها مِن دينِكم»[2]، و «خُذوا عنِّي مناسكَكُم»[3]، و «صلُّوا كما رأيْتُموني أُصَلِّي»[4].

فتعلُّمُ كيفيةِ الحجِّ والصلاةِ وصفاتِها مِن الفروضِ العينيَّةِ على كلِّ مَن وجبَ عليهِ الحجُّ وعلى كلِّ مَن وجبتْ عليهِ الصلاةُ.

* * * * *

الحديثُ الثالثُ: ما رواهُ الترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه[5] عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تعلَّمُوا القُرْآنَ واقرؤوهُ. . .» الحديث.

---

(١) برقم (٣٣٢).

(٢) رواه ابن عساكر (٨ / ق ٨٧٢ ـ مصوَّرتي) من طريق عُبادة بن نُسَيّ عن أبي سعيد.

وعُبادة عن أبي سعيد منقطع؛ كما في «جامع التحصيل» (٢٨٦).

وسكتَ عنه المُناوي في «الفيض» (٣ / ٢٥٣)!

(٣) أخرجه مسلم (١٢٩٧) عن جابر.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه: الترمذي (٢٨٧٩)، وابن ماجه (٢١٧)، والنسائي في «الكبرى» ـ كما في «التحفة» (١٠ / ٢٨٠) ـ، وابن خزيمة (١٥٠٩)، وابن حبان (٨٧٩ ـ موارد)؛ من طريق عطاء مولى أبي أحمد عن أبي هُريرة.

وعطاء هذا مجهول.

وقد أعِلَّ أيضاً بالإرسال.

وروى أحمدُ في «مسندِه»[1] عن عقبةَ بنِ عامرٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تعلَّموا كتابَ اللهِ، وتعاهَدُوهُ، وتغنَّوْا بهِ».

أي: احفظوا القرآنَ وتفهَّموهُ واقتنوهُ والزموهُ؛ لأنَّ المقصودَ مِن القرآنِ فهمُه والعملُ بموجَبِهِ؛ لأنَّه قد كبُرَ مقتاً عندَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تفعلونَ، وأنْ تقولوا بلا دليلٍ: هٰذا حلالٌ وهٰذا حرامٌ؛ لتفتروا على اللهِ الكذبَ.

والعملُ بلا علمٍ فاسدٌ، كما أنَّ العلمَ بلا عملٍ باطلٌ، بل حجَّةٌ على صاحبِه، وخِزْيٌ وندامةٌ يومَ القيامةِ، ولأنَّ العلمَ كالشجرةِ، والعملَ بهِ كالثمرةِ، فإذا كانتِ الشجرةُ لا ثمرةَ لها؛ فلا فائدةَ فيها، وإنْ كانتْ حسنةَ المنظرِ.

* * * * *

الحديثُ الرابعُ: ما رواهُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجه والدارمي[2] عن زيادِ ابنِ لبيدٍ وأبي أمامةَ رضيَ اللهُ عنهُما؛ قالا: قد ذكرَ النبيُّ ﷺ شيئاً هائلاً، فقالَ:

---

(1) (٤ / ١٤٦).

ورواه: الدارمي (٢ / ٤٣٩)، وابن أبي شيبة (١٠ / ٤٧٧)، والنسائي في «فضائل القرآن» (٥٩)، والطبراني في «الكبير» (١٧ / رقم ٨٠١)؛ من طرق عن عُلَيّ بن رباح عن عُقبة بن عامر.

وسنده صحيح.

(2) رواه: أحمد (٤ / ٢١٨)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، والحاكم (١ / ٩٩)، وأبو خيثمة في «العلم» (٢٣)؛ عن زياد بن لبيد.

وفي سنده انقطاع.

ورواه الترمذي (٢٦٥٥) عن أبي الدرداء.

ورواه الدارمي (١ / ٧٧) عن أبي أمامة.

فالحديث بهٰذه الشواهد صحيح، وانظر التعليق على «المشكاة» (رقم ٢٤٥).

«ذلك عندَ أوانِ ذَهابِ العلمِ». قلتُ: يا رسولَ اللهِ! كيفَ يذهبُ العلمُ ونحنُ نقرأُ القرآنَ، ونُقرِئُهُ أبناءَنا، ويُقرِئُهُ أبناؤنا أبناءَهُم إلى يومِ القيامةِ؟! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ثكِلَتْكَ أُمُّكَ زيادُ! إنْ كنتُ لأراكَ مِن أفقهِ رجلٍ في المدينةِ، أوليسَ هٰذه اليهودُ والنَّصارى يقرؤونَ التَّوراةَ والإنجيلَ ولا يعملونَ بشيءٍ ممَّا فيهما؟!».

قالَ عليٌّ القاريُّ في «مرقاةِ المفاتيحِ»[1]: «أي: فكما لم تُفِدْهُم قراءتُهما معَ عدمِ العلمِ والعملِ؛ فكذٰلك أنتُم، والجملةُ حالٌ مِن «يقرؤونَ»؛ أي: يقرؤونَ غيرَ عالمينَ بمعناهُما، ولا عامِلينَ بموجَبِهما، ففيهِ تنزيلُ العالمِ الذي لا يعملُ بعلمِه منزلةَ الجاهلِ، بل منزلةَ الحمارِ الذي يحملُ أسفاراً، بل أُولٰئك كالأنعامِ، بل هم أضلُّ».

* * * * *

الحديثُ الخامسُ: ما رواهُ البيهقيُّ في «شُعبِ الإيمانِ»[2] والخطيبُ في «المشكاةِ»[3] عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يوشِكُ أنْ يأتيَ على الناسِ زمانٌ لا يَبْقى مِن الإسلامِ إلَّا اسمُه، ولا يَبْقى مِن القرآنِ إلَّا رسمُهُ، مساجِدُهم عامرةٌ وهي خَرابٌ مِن الهُدى، علماؤهُم شرُّ مَن تحتَ أديمِ

---

(١) (١ / ٢٤٦).

(٢) برقم (١٧٦٣)، وفي سنده ضعفٌ وانقطاع.

وله طريق أخرى عنده (١٧٦٤)، وعند ابن عدي في «الكامل» (٤ / ١٥٤٣).

وفي سنده بشر بن الوليد؛ ضعيف، وانظر ما سبق (ص ٩١).

(٣) برقم (٢٧٦).

وعزو المصنف له غير علمي، إذ الخطيب ـ وهو التبريزي ـ لا يُسند الأحاديث في «مشكاته»، فلا يُقال لما أورده فيه: «رواه»! فتنبه.

السماءِ، مِن عندِهم تخرجُ الفتنةُ وفيهِم تعودُ».

أي: لا يبقى مِن علومِ القرآنِ وآدابه إلَّا أثرُه الظاهريُّ؛ مِن قراءةِ لفظِه، وكتابةِ خطِّه بطريقِ الرسمِ والعادةِ، لا على جهةِ تحصيلِ العلمِ والعملِ والعبادةِ، فالقرَّاءُ إنما يراعونَ التجويدَ وحِفْظَ مخارجِ الحروفِ وتحسينَ الألحانِ فيهِ؛ دونَ التفكُّرِ في معانيهِ، والامتثالِ بأوامره، والانتهاءِ عن نواهيهِ، وأكثرُ الناسِ ساهونَ عنِ الصلاةِ، هم يراؤونَ ويمنعونَ الماعونَ.

قالَ الإمامُ البخاريُّ في «جامعِه الصحيحِ»[1]: (العلمُ قبلَ القولِ والعملِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾[2]، ﴿ومَا يَعْقِلُها إلَّا العَالِمونَ﴾[3]، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا في أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾[4]، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خيراً؛ يفقِّهْهُ في الدِّينِ»[5]؛ أي: يفهِّمْهُ، والمراد به علمُ الدينِ وما جاءَ به محمدٌ ﷺ مِن العقائدِ والأعمالِ والأقوالِ والأخلاقِ، و«إنَّما العلمُ بالتعلُّمِ»).

وروى الطبرانيُّ[6] عن معاويةَ رضيَ اللهُ عنه مرفوعاً: «يا أيها الناسُ!

---

(١) (١ / ١٥٩) كتاب العلم.

(٢) محمد: ١٩.

(٣) العنكبوت: ٤٣.

(٤) المُلك: ١٠.

(٥) رواه: البخاري (٦ / ١٥٢)، ومسلم (١٠٣٧)؛ عن معاوية.

(٦) في «المعجم الكبير» (١٩ / ٣٩٥).

قال في «المجمع» (١ / ١٢٨): «وفيه رجل لم يسمَّ، وعتبة بن أبي حكيم وثّقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان، وضعّفه جماعة».

تعلَّموا؛ إنَّما العلمُ بالتعلُّمِ ، والفقهُ بالتفقُّهِ، ومَن يردِ اللهُ بهِ خيراً يفقِّهْهُ في الدِّينِ» .

أي : لا يحصلُ العلمُ المعتدُّ بهِ النافعُ إلا المأخوذُ عنِ الأنبياءِ عليهم الصلواتُ والتسليماتُ على سبيلِ التعلُّمِ والتعليمِ ؛ لا بالكشْفِ والإلهامِ ، أو الخيالِ والمنامِ ، ولا بالفلسفةِ والسفسطةِ، ولا بالمنطقِ والشمسيةِ وحكمةِ العينِ والشفاءِ والإشاراتِ؛ كما يدَّعيهِ كثيرٌ ممَّن غرِقَ في ردغةِ الفلسفةِ أو سفاسفِ الصوفيَّةِ .

قالَ العلامةُ العينيُّ في «عمدةِ القاري»[1]: «لا شكَّ أنَّ مَنْ أرادَ شيئاً؛ تعلَّمَ علمَ ذٰلك الشيءِ، ثمَّ يعملُ بهِ، فالعلمُ مقدَّمٌ على العملِ بالذاتِ، كما أنَّهُ لا عملَ إلا بالنيةِ، ولا توجَدُ النيةُ إلا بالعلمِ ؛ لأنَّ النيَّةَ إنَّما هي قصدُ فعلِ الشيءِ بعدَ العلمِ بهِ كما لا يخفى . وأفادتِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ التوحيدَ ممَّا يجبُ العلمُ بهِ، ولا يجوزُ فيهِ التقليدُ، فإذاً لا بدَّ لكلِّ طالبِ نجاةٍ وسعادةٍ مِن طلبِ علمِ الكتابِ والسنةِ، وهٰذا لا يحصُلُ إلا بتعلُّمِ لغةِ الكتابِ والسُّنَّةِ، فيجبُ على كلِّ البشرِ عموماً والمسلمينَ خصوصاً تعلُّمُ معنى الكتابِ والسنةِ، ومعرفتُهما معرفةً صحيحةً كما لا يخفى» .

* * * * *

وللحديث طرق أخرى وشواهد، فانظر: «تغليق التعليق» (٢ / ٧٨)، و«مجمع الزوائد» (١ / ١٢٨)، و«العلل المتناهية» (١ / ٧٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٤٢)، و«المدخل» (٣٨٥) للبيهقي .

(١) (٢ / ٣٩).

الحديثُ السادسُ: ما روى البخاريُّ ومسلمٌ وأَصحابُ السننِ[1] عن جابرِ ابنِ عبدِاللهِ رضيَ اللهُ عنهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «أُعطيتُ خمساً لمْ يُعطَهُنَّ أحدٌ قَبْلي... (فذكرَ منها:) وكانَ النبيُّ يُبعَثُ إلى قومه خاصَّةً وبُعثتُ إلى الناسِ عامَّةً».

أي: العربِ والعجمِ، والأسودِ والأحمرِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ومَا أَرْسَلْناكَ إلَّا كَافَّةً للنَّاسِ﴾[2]، و﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إنِّي رَسولُ اللهِ إليكُمْ جَميعاً﴾[3].

فالواجِبُ على المرسَلِ إليهِم معرفةُ كلامِ رسولِ اللهِ إليهِم، وإلَّا؛ فلا يحصلُ مِن الإرسالِ شيءٌ.

فيا أخي المسلمَ! إنَّ كلَّ عاقلٍ يعرِفُ أنَّ رعايا الحكوماتِ يتشبَّثونَ بتعلُّمِ لغاتِ حكوماتِهم، ويعلِّمونَ أولادَهم إياها؛ لما يعلَمونَ أنَّهم ينتَفِعونَ بها في معاشِهم ومعاملاتِهم وحياتِهم الدنيويةِ، وكذا يحصِّلونَ بها بعضَ المناصبِ العاليةِ والدرجاتِ الساميةِ في هٰذه الحياةِ القصيرةِ الفانيةِ، فإذا كانَ الأمرُ هٰكذا؛ أليسَ الألزمُ الأوجبُ الأنفعُ عاجلاً وآجلاً تعلُّمَ كلامِ ربِّ العالمينَ تعلُّماً تامّاً حتى يعرِفوا مقاصدَ ربِّهم الحكيمِ ومرضاةِ مولاهم الرؤوفِ الرحيمِ، فيعْمَلوا بهِ؛ لينالوا العزَّ والشَّرفَ في الدُّنيا والآخرةِ، ويفوزوا بدولةِ الرِّضى والرضوانِ

---

(١) رواه: البخاري (١ / ٣٦٩)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١ / ٢١٠)، والدارمي (١ / ٣٢٢ - ٣٢٣)، والبيهقي (١ / ٢١٢)؛ عن جابر.

وروى نحوه: البخاري (٦ / ٩٠)، ومسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣)، والنسائي (٦ / ٣)؛ عن أبي هريرة.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأعراف: ٥٨.

والرحمةِ في دارِ النعيمِ، والخلودِ الدائمِ أبدَ الآبدينَ؟

فانتَبِهوا يا أيُّها المفتونونَ والمغرورونَ؛ إما بزخارفِ الدُّنيا الفانيةِ، وإمَّا بدجلِ الدَّجَّالينَ ووساوسِ الشياطينِ.

اللهُمَّ نوِّرْ بصرَنا وبصيرتَنا، واهدِنا صراطَكَ المستقيمَ، آمينَ يا مجيبَ السائلينَ.

* * * * *

الحـديثُ السـابـعُ: حديثُ جبـريلَ الـذي رواهُ الشيخـانِ وأصحـابُ «السننِ»[1] عن عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ ﷺ، ففيهِ آخراً: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فإنَّهُ جبريلُ، أتاكُم يعلِّمُكم دينَكم».

فاعلم أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «يعلِّمُكم دينَكُم»، ولم يقلْ: يروي لكُم دينَكم؛ ليفيدَ بذلك أنَّ المقصودَ العلمُ والفهمُ؛ كما أنَّ الإيمانَ التصديقُ، وهو لا يحصلُ إلا بالعلمِ بالمُؤْمَنِ بهِ، فإذاً؛ يجبُ العلمُ على كلِّ مؤمنٍ ومسلمٍ، فلا يصحُّ إيمانُه ولا إسلامُه إلا بالعلمِ؛ علمِ ما جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ، فتنبَّهْ.

* * * * *

الحديثُ الثامنُ: ما رواهُ ابنُ الأنباريِّ في كتابِ «الوقْفِ»[2] والسيوطيُّ في

---

(1) أخرجه: البخاري (٥٠ و٤٧٧٧)، ومسلم (٩)، وابن ماجه (٦٤)، والنسائي (٨ / ١٠١)، وأحمد (٢ / ٤٢٦)؛ عن أبي هريرة.

وأما ما ذكره المصنف عن عُمر؛ فأخرجه: مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وابن ماجه (٦٣)، والنسائي (٨ / ٩٧ و١٠١)، وأحمد (١ / ٢٨ و٥١ و٥٢)، ولم يخرجه البخاري.

(2) (١ / ٢٥ ـ طبع الشام). =

«الجامعِ الصغيرِ»[1] عن أبي جعفرٍ الأنصاريِّ[2] رضيَ اللهُ عنهُ: أنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أعْرِبوا الكلامَ كيْ تُعْرِبوا القُرآنَ».

وروى الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «فضائلِ القرآنِ»[3]؛ قالَ الحافظُ أبو يعلى[4] بسندِه عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أعْرِبوا القرآنَ، والتَمِسُوا غَرائبَه».

وحيثُ إنـه يجبُ معـرفـةُ معاني القرآنِ، وذٰلك موقوفٌ على معرفةِ لغةِ العربِ معرفةً كاملةً؛ لأنَّ ما يتوقَّفُ عليهِ الواجبُ واجبٌ كما لا يخفى.

والعبـدُ الضعيفُ قد بيَّنتُ هٰذا الأمرَ في (رقم ٩٥٥) مِن كتابي «حبلِ الشرعِ المتينِ»، فعليكَ بهِ.

* * * * *

= وأخرجه أبو عُبيد في «غريب الحديث» (٩٩ / ١) معضلاً عن أبي جعفر.
وفيه ضعيفان ومدلِّس ومجهول.
وقد حكم عليه شيخُنا في «الضعيفة» (١٣٤٧) بأنه منكر.

(١) برقم (٩٣٧ ـ ضعيفه)، ويقال أيضاً: «ذكره»، لا «رواه»!

(٢) ليس هو الأنصاري؛ كما رجَّه شيخنا في «الضعيفة» (٣ / ٥٢٤).

(٣) (ص ٢٤).

(٤) برقم (٦٥٦٠).
ورواه: ابن أبي شيبة (١٠ / ٢٥٦)، والحاكم (٢ / ٢٣٩)، والخطيب في «التاريخ» (٨ / ٧٧)؛ عن عبدالله بن سعيد المقبري عن جده ـ وبعضهم قال: عن أبيه ـ عن أبي هريرة.
وعبدالله متروك.
وبه أعلَّه: الذهبي في «تلخيص المستدرك»، والهيثمي في «المجمع» (٧ / ١٦٣)، والبوصيري ـ كما في حاشية «المطالب العالية» (٣ / ٢٩٨) ـ، وغيرهم.

الحديثُ التاسعُ: ما رواهُ في «شرحِ السنةِ»[1] والنوويُّ في «أربعينِه»[2] عن عبدِاللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكُم حتَّى يكونَ هَواهُ تَبَعاً لما جئتُ بهِ».

فإذاً؛ لا بدَّ لكلِّ مَن يريدُ أنْ يكونَ مؤمناً باللهِ ورسولِه وينالَ ما وعَدَ اللهُ ورسولُه المؤمنينَ أنْ يعلَمَ كلَّ ما جاءَ بهِ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ مِن الدِّينِ والشرعِ، وأما مَن لم يعلَمْ ذٰلك؛ فكيفَ يتَّبعهُ؟ وإنَّما يتَّبِعُ هٰذا الرجلُ مَن يظُنُّهُ إماماً أو يعتقدُه عالِماً؛ مِن غيرِ معرفةِ دليلِ ذٰلك الغيرِ، ومَن كانَ حالُه هٰكذا؛ فهو قد اتَّخَذَ ذلكَ الغيرَ أرباباً مِن دُونِ اللهِ؛ كما هو شأْنُ كثيرٍ مِن مقلِّدَةِ المذاهبِ وأصحابِ الطُّرقِ، فتنبَّهْ.

* * * * *

الحديثُ العاشرُ: ما رواهُ رَزينٌ والخطيبُ في «المشكاةِ»[3] عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما؛ قالَ: «مَن تعلَّمَ كتابَ اللهِ، ثمَّ اتَّبعَ ما فيهِ؛ هداهُ اللهُ

---

(1) رقم (١٠٤).

(2) برقم (٤١)، والنووي ذكره ولم يروه!

وهو حديث معلول، انظر تخريجه ونقده في تعليقي على رسالة «ذم الهوى واتباعه» (ص ٨ ـ ٩) لابن القيِّم، طبع المكتبة الإسلامية، عمان.

(3) أورده ابن الأثير في «جامع الأصول» (١ / ٢٩٢) دون عزوٍ لأحد!

وكذا سكت عليه محققه!

وهو ـ بيقين ـ من زيادات رزين! كما صرَّح به التبريزي في «المشكاة» (رقم ١٩٠).

وقد قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٤٩) عن كتابه: «. . . ولقد أدخل في كتابه الذي جمع فيه بين دواوين الإسلام بلايا وموضوعات لا تُعرف، ولا يُدرى من أين جاء بها، وذٰلك خيانة للمسلمين».

مِن الضَّلالةِ في الدُّنيا، ووقاهُ يومَ القيامةِ سوءَ الحسابِ».

وفي روايةٍ[1]؛ قال: «مَن اقْتَدى بكتابِ اللهِ؛ لا يضلُّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخرةِ»، ثم تلا هٰذه الآيةَ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ ولاَ يَشْقَى﴾[2].

ويؤيِّده ما رواهُ مالكٌ في «موطَّئِهِ»[3] مرسلاً عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تركتُ فيكُم أمرينِ لنْ تَضِلُّوا ما تمسَّكتُم بهِما: كتابَ اللهِ وسنَّةَ رسولِه».

فأفادَ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّ تعلُّمَ كتابِ اللهِ وفهْمَ معناهُ مقدَّمٌ على الاتِّباعِ؛ لأنَّ الاتِّباعَ موقوفٌ على معرفةِ ما يتَّبِعُهُ، فهٰذا يوجِبُ على كلِّ مسلمٍ تعلُّمَ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ومعرفةَ معناهما.

ولكنَّ الأسفَ أن عامةَ المسلمينَ تركوا تعلُّمَ كتابِ اللهِ وأحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ، والذينَ تعلَّموا القرآنَ أو حفظوهُ؛ فإنما تعلَّموا قراءتَه فقط، وحفِظوا حروفَه وألفاظَه؛ مِن غيرِ معرفةِ معناهُ، فحيثُ إنهم جاهلونَ بالمعنى تراهُم قد خالَفوهُ اعتقاداً وعملاً، فصارَ القرآنُ حجَّةً عليهم؛ كما لا يخفى على كلِّ مَن له عقلٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ، ويقولونَ: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ﴾، ثم

---

(1) تابع لما قبلَه.

(2) طه: ١٢٣.

(3) (٢ / ٨٩٩).

وهو عن مالك بلاغاً، وليس فيه ذكر أنس!!

وانظر له «تجريد التمهيد» (ص ٢٥١) لابن عبدالبر.

ولكن له طرقاً أخرى تحسِّنه، فانظرها في «أربعي الدعوة والدعاة» (رقم ٧) بقلمي.

يقولونَ: إنَّ الأرواحَ تُربِّي، ويقرؤونَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نستَعينُ﴾[1] ثم يركعونَ ويسجدونَ لأكابرِهم عندَ الملاقاةِ، وينْذُرونَ للرُّوحانيَّاتِ وأهلِ القبورِ، بل الجنِّ والشيطانِ، ويستعينونَ بأهلِ القبورِ، ويستمدُّونَ مِن الأرواحِ ـ أرواحِ مشايخِهم ـ وعبدِالقادرِ الجيلانيِّ، أليسَ هؤلاءِ قد خالفوا ما قرؤوا؛ لأنهم جاهلونَ بمعنى ما تَلَوا، ومحرومونَ مِن الانتفاعِ بكلامِ ربِّ العالَمينَ، وبعيدونَ عن سنَّةِ سيِّد المرسلينَ؟! فلهذا تراهُم قد ضلُّوا وأضلُّوا، وإنِ ادَّعوا أنَّهم مسلمونَ، ولكنَّ إسلامَهم لفظيٌّ فقط، أو إسلامٌ جغرافيٌّ، فتدبَّرْ.

* * * * *

الحديثُ الحادي عشر: ما رواهُ الشيخانِ[2] عن معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن يُرِدِ اللهُ بهِ خيراً؛ يفقِّهْهُ في الدِّينِ، وإنَّما أنا قاسمٌ، واللهُ يُعطي».

وروى مسلمٌ[3] عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «النَّاسُ معادِنُ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ، خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقُهوا».

وروى مسلمٌ[4] عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً؛ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا ماتَ الإنسانُ؛ انقطعَ عملُه عنهُ؛ إلا مِن ثلاثةٍ: صَدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ بهِ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو لهُ».

---

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٣١).

(٣) برقم (٢٦٣٨)، ورواه البخاري (٦ / ٧٦) ضمنَ حديث.

(٤) برقم (١٦٣١).

فهذه الأحاديثُ الثلاثةُ صريحةٌ في أنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ، والسعادةَ كلَّ السعادةِ، والشرفَ كلَّ الشرفِ؛ في التفقُّه في الدينِ.

وفقهُ الدينِ وعلمُه إنَّما يؤخَذُ مِن الكتابِ والسنةِ، ولا اعتبارَ هنا للرأيِ والهوى والتفلسفِ؛ لأنَّ الدينَ ما يُدانُ بهِ في يوم الدينِ، وذلك لا يكونُ إلا عندَ اللهِ، فلا يُعْرَفُ إلا بإِخْبارِ اللهِ تعالى؛ إما في كتابه القُرآنِ، أو بيانِ رسولِه محمدٍ ﷺ، ولا مدخَلَ للعقلِ والقياسِ هناكَ، وأهلُ الضَّلالِ ما ضلُّوا إلا بقياسِهم ربَّ العالمينَ بالمخلوقين[1]، فقاسوا اللهَ بالملوكِ، وقاسوا عالَمَ البرزخِ بهذا العالَمِ، وقاسُوا الغائبَ بالشاهدِ، فضلُّوا وأضلُّوا، فاستحقُّوا غضبَ اللهِ تعالى، وصاروا مِن المحرومينَ، فتدبَّرْ.

* * * * *

الحديثُ الثاني عشر: ما رواهُ البخاريُّ[2] عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: «كان النبيُّ ﷺ إذا تكلَّمَ بكلمةٍ أعادَها ثلاثاً حتى تُفْهَمَ عنهُ، وإذا أتى على قومٍ سلَّمَ عليهِم ثلاثاً».

فقد ظهرَ مِن هذا الحديثِ أنَّ المقصودَ مِن الكلامِ إنَّما هو الفهمُ والإفهامُ، فالواجبُ على كلِّ مكلَّفٍ الفهمُ والإفهامُ، ولأجلِ تعليمِ العبادِ أنزلَ اللهُ القرآنَ، فمَن لم يفهمْ؛ فليسَ مِن بني الإنسانِ، بل هو حيوانٌ في صورةِ إنسانٍ.

* * * * *

---

(١) قارن بكتاب «التوسل» (ص ١٣٢ ـ ١٣٦) لشيخنا الألباني

(٢) (رقم ٩٥).

الحـديثُ الثـالثَ عشرَ: ما رواهُ الترمذيُّ[1] عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشَّيطانِ مِن ألفِ عابدٍ».

لأنَّ الفقيهَ لا يقبلُ إغواءَه، ويأمُرُ الناسَ بالخيرِ والتوحيدِ والاعتمادِ على اللهِ وحدَه والعملِ بكتابِه واتِّباعِ سنةِ نبيِّه، ويصونُهم عن إغوائِه؛ ببيانِ الصِّراطِ المستقيمِ، وإيضاحِ صراطِ أهلِ الجحيمِ؛ مِن دعاءِ غيرِ اللهِ أيّاً كانَ، وعبادةِ غيرِ اللهِ أيّاً كانَ، والاعتمادِ على غيرِ اللهِ أيّاً كانَ، وتقليدِ غيرِ المَعْصومينَ في الدِّينِ، والتَّقوُّلِ على اللهِ وعلى الرسولِ بالظَّنِّ والتَّخمينِ.

ولا يخفاكَ أنَّ إمامَ الفقهاءِ على الإطلاقِ إنما هو سيدُ المرسلينَ سيدُنا محمدٌ ﷺ، ثم بعدَه أبو بكرٍ الصدِّيقُ، ثم بعدَه عمرُ الفاروقُ؛ رضيَ اللهُ عنهما، الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ: «يا ابنَ الخطابِ! والذي نفسي بيدِه؛ ما لقيَكَ الشَّيطانُ سالِكاً فجّاً قطُّ؛ إلَّا سلَكَ فجّاً غيرَ فجِّكَ»[2]، وهو الذي قالَ حينما حجَّ وأرادَ طوافَ البيتِ حينما وصلَ إلى الحجرِ الأسودِ: «إنِّي أعلمُ أنكَ حجرٌ لا تضرُّ

---

(١) رواه: الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والطبراني (١١ / ٧٨)، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٩٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١ / ٢٩٨)، وابن عبدالبر في «العلم» (١ / ٢٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٢٤).

وفي سنده روح بن جناح؛ متهم.

وله طريقٌ أخرى عند: الخطيب في «تاريخه» (٢ / ٤٠٢)، وابن الجوزي (١٩٤)، وابن عبدالبر (١ / ٢٦).

وفيه يزيد بن عياض، وهو كذاب.

(٢) رواه: البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦)؛ عن سعد بن أبي وقَّاص.

ولا تنفعُ، ولولا أنّي رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قبّلكَ؛ ما قبّلتُك»[1]، فقبّلَ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، واتّباعاً لهُ، وهو الذي أمرَ بقَطْعِ شجرةِ الرِّضوانِ[2] التي كانت في الحديبيةِ، وذكرَها اللهُ تعالى في كتابِه، وقد جلسَ النبيُّ ﷺ تحتَها، وأخذَ البيعةَ مِن أصحابِه هُناك، وإنّما قَطَعَها حينما رأى الناسَ يَبْحثونَ عنها لِيتبرَّكوا بها، وهٰذا هو الفقيهُ الذي هو أشدُّ على الشيطانِ مِن ألفِ عابدٍ.

ثمَّ مِن الفقهاءِ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ، وعثمانُ، وعليٌّ، وحذيفةُ، وسائرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم وأرضاهُم، ثم تابِعوهُم بإحسانٍ، ومِن هٰذه الأمةِ الإمامُ شيخُ الإسلامِ أحمدُ بنُ تيميَّةَ، وابنُ قيمِ الجوزيَّةِ، ومحمدُ بنُ عبدِالوهابِ النجديُّ، وأمثالُهم ممَّنْ أنعمَ اللهُ تعالى عليهِم بالعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، جعلَنا اللهُ تعالى منهُم، وحشَرَنا في زمرتِهم، فهٰؤلاءِ هم فقهاءُ ملَّةِ الإسلامِ، وهداةُ الأنامِ، وهُم وإنْ كانوا قليلينَ عدداً، ولكنَّهم كثيرونَ درجةً ورفعةً عندَ اللهِ تعالى.

وأمـا غيرُهم مِن أدعياءِ العلمِ والدينِ والزهدِ والتَّقوى؛ فهُم وإنْ سوَّدوا الدفاترَ وألَّفوا الأساطيرَ وصنَّفوا الكتبَ، ولكنَّهم مُخَلِّطونَ، ولعقيدةِ الأنامِ مُخرِّبون، قد ملؤوا الدُّنيا بالخُرافاتِ، وأفسدوا العقولَ بالتُّرَّهاتِ والخيالاتِ، ولقَّبوها بالتصوُّفِ، وزيَّنوها بالتفلسفِ، فصارَ التقيُّ عندَهم مَن يدعو غيرَ اللهِ، ويعبدُ مَن دونَ اللهِ، وينذرُ لغيرِ اللهِ، ويرجو غيرَ اللهِ، ويخافُ غيرَ اللهِ؛ مسمِّياً

---

(1) رواه: البخاري (١٦١٠)، ومسلم (١٢٧٠)؛ عنه.

(2) انظر تعليقي على «الحوادث والبدع» (ص ٣٨) للإمام الطرطوشي، طبع دار ابن الجوزي، الدمام.

إيَّاهُ بالأقطابِ والأبدالِ والنُّجباءِ والأوتادِ ورجالِ الغيبِ، فبذلك أشركوا باللهِ شِرْكاً أكبر وهم لا يشْعُرونَ، وقد لعبتْ بهم الشَّياطينُ وهم لا يفهَمونَ، وقد حصَّلَ إبليسُ مقصِدَه منهُم بقولِه: ﴿لأغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعينَ . إلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصينَ﴾[1]، ولكنْ قليلٌ مِن عبادِ اللهِ الشَّكورُ المُخْلَص، اللهُمَّ اجعلْنا مِن عبادِكَ المخلَصينَ والموحِّدينَ الشَّاكرينَ.

كلُّ جَمْعٍ تَجَمَّعوا ... وبِنَقْصِي تحدَّثوا
لا أُبالي بجَمْعِهِمْ ... كُلُّ جَمْعٍ مُؤنَّثُ

*

أُولئكَ آياتِي فجِئْني بمِثْلِها ... إذا جَمَعَتْنا يا عَنُودُ المَبَاحِثُ

*

وزَهَّدَني في النَّاسِ مَعْرِفتي بهِم ... وطولُ اخْتِباري صاحباً بعدَ صاحِبِ
فلمْ تُرِني الأيامُ خِلًّا يَسُرُّني ... مَبادِيهِ إلَّا سَاءَني في العواقِبِ

*

لقاءُ النَّاسِ ليسَ يُفيدُ شَيْئاً ... سِوَى الهَذَيانِ مِنْ قِيلٍ وقَالِ
فَقَلِّلْ مِنْ لِقاءِ النَّاسِ إلَّا ... لأخْذِ العِلْمِ أَوْ إصلاحِ حَالِ
وخِلَّانُ الزَّمانِ بكُلِّ حَالٍ ... جَواسِيسُ الغُيوبِ بكُلِّ حَالِ

●●●●●

---

(١) ص: ٨٢

فصلٌ

في أقوالِ الصحابةِ الكرامِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ رضي اللهُ عنهم في لزومِ فهمِ معاني القرآنِ على كلِّ مسلمٍ مِن أيِّ جنسٍ كانَ عرباً أو عجماً شرقيّاً أو غربيّاً ولا يُستثنى منهُ إلَّا الصبيُّ الغيرُ البالغِ والمجنونُ الذي لا يعقِلُ أصلاً؛ لأنه لا يتوجَّهُ عليهِما الخطابُ، ولا فرقَ بينَ الذَّكرِ والأنثى

وقد ذكرَ الحافظُ محمد صالح الفُلَّانيُّ المتوفَّى عام ١٢١٨هـ في كتابه «إيقاظِ هممِ أولي الأبصارِ»[١] (ص ٨٠) ما نصُّه:

«قالَ حافظُ المغربِ أبو عمرَ بنُ عبدِالبرِّ[٢]: طلبُ العلمِ درجاتٌ، فأَولُ العلمِ: حفظُ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتفهُّمُه، وكلُّ ما يعينُ على فهمِه مِن لسانِ العـربِ، ثم النظرُ في السُّننِ المأثورةِ الثابتةِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، فبها يَصِلُ الطَّالبُ إلى فهمِ مرادِ اللهِ تعالى في كتابِه، وكانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ

---

(١) وهو من الكتب النافعة جدّاً، رحم الله مؤلِّفه رحمةً واسعةً.

(٢) في «جامع بيان العلم» (٢ / ٣٤).

عنهُ يَكْتُبُ إلى الآفاقِ أنْ يُبَلِّغوا السُّنةَ والفَرائضَ واللحنَ[1]؛ يعني النحوَ؛ كما يُتعلَّمُ القرآنُ.

وعن أبي عُثمـانَ؛ قالَ: كانَ في كتـابِ عمـرَ رضيَ اللهُ عنـهُ: تعلَّموا العربيةَ، فتَفْهَموا في السُّنَّةِ.

وقالَ الإمامُ الشَّافعيُّ رحمهُ اللهُ تعالى: مَن حفظَ القرآنَ؛ عظُمَتْ قيمَتُه، ومَن طلبَ الفِقْهَ؛ نَبُلَ قدرُه، ومَن كتبَ الحديثَ؛ قَوِيَتْ حجَّتُه، ومَن نَظَرَ في النَّحـوِ؛ رقَّ طبعُه، ومَن لم يَصُنْ نفسَه؛ لم يصُنْهُ العلمُ، ومَن عارضَ السُّننَ برأيِه؛ فهو ضالٌّ ومضلٌّ»[2].

واعلمْ أنَّ القـرآنَ والسُّنَنَ همـا الأصـلُ والمعيارُ والميزانُ، وليس الرأيُ والقياسُ مِعياراً على الكتابِ والسنةِ، ومَن جهِلَ الأصلَ لم يصبِ الفرعَ أصلاً.

ورُوي في «جواهرِ الآدابِ» أنه رُويَ عن عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنه كانَ يقولُ: «اللهُمَّ ارزُقْني التفكُّرَ والتدبُّرَ لما يتلوهُ لساني مِن كتابِك، والفهمَ لهُ، والمعرفةَ بمعانيهِ، والنظرَ في عجائبِه، والعملَ بذلك ما بقيت؛ إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ».

قال الحافظُ ابنُ الجوزي في كتابِه «تلبيس إبليس»[3]: «إنَّ مِن تَلْبيسِ إبْليسَ أنَّه أنه قد شغلَ القرَّاءَ بتحسينِ القراءةِ والاشتغالِ بالشاذِّ طولَ عُمُرِهم، معَ

---

(١) «المدخل» (٣٧٦) للبيهقي.

(٢) أخرجه: الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٣٦)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٩ / ١٢٣).

(٣) انظر: «المنتقى النفيس...» (ص ١١٥) بقلمي.

الغفلةِ عن المعاني وفهمِه والعملِ بهِ. قالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ تعالى: أُنـزِلَ القـرآنُ ليُعْمَلَ بهِ، فاتَّخذَ الناسُ تلاوتَه عملًا؛ يعني أنَّهُم اقْتَصروا على التِّلاوةِ وتَركوا العملَ بهِ».

قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «تفسيرِه»[1]: «﴿وَقالَ الرَّسولُ يا رَبِّ إنَّ قَوْمي اتَّخذوا هٰذا القُرآنَ مَهْجوراً﴾[2]، فمِن هجرانِه تركُ الإيمانِ بهِ، ومِن هُجْرانِه تركُ تدبُّـرِه وتفهُّمِـه، ومِن هُجْـرانِـه تركُ العملِ بهِ وتركُ امتثالِ أمرِه وتركُ اجتنابِ زواجِرِه، ومِن هُجرانِه العُدولُ عنهُ إلى غيرِه مِن شِعرٍ أو قولٍ أو غِناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقـةٍ أو مذهبٍ مأْخوذٍ مِن غيرِه، والصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم كانوا يقرَؤونَ ويفهمونَ فيَعْمَلونَ أنَّ العملَ بلا فهمٍ وعلمٍ متعذِّرٌ».

وقالَ الإمامُ حُجَّةُ الإسلامِ أبو حامدٍ محمدٌ الغزاليُّ الطوسيُّ في الفصلِ الثالثِ مِن قواعدِ العقائدِ مِن «إحياءِ علومِ الدينِ»[3]: «إنَّ عصابَةَ السُّنةِ وأَهلَ الحقِّ، الذينَ حفظَهُم اللهُ تعالى عن زَيْغِ الزَّائغينَ وضلالِ الملحدينَ، ووفَّقهُم للاقتـداءِ بسيدِ المـرسلينَ ﷺ، ويسَّر لهُم اقْتِفاءَ آثارِ السَّلفِ الصالحينَ؛ هم تحقَّقوا واتَّفقوا على أنَّ النُّطْقَ بما تعُبِّدَ بهِ مِن قولِ: لا إلٰه إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ ليسَ لهُ طائلٌ ولا محصولٌ إنْ لم تتحقَّقِ الإحاطةُ بما تدورُ عليهِ هٰذه الشهادةُ مِن الأقـطابِ والأصـولِ، وقد عرَفوا أنَّ كَلِمَتَيْ الشَّهادةِ على إيجازِها تتضمَّنُ

---

(1) (٣ / ٥٠٧).

(2) الفرقان: ٣٠.

(3) (١ / ١٠٤).

وانظر لزاماً كتابي «إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرِّخين»، طبع دار ابن الجوزي.

إثباتَ ذاتِ الإلهِ، وإثباتَ صفاتِه، وإثباتَ أفعالِه، وإثباتَ لا معبودَ بحقٍّ إلا هو وحدَه لا شريكَ لهُ، وإثباتَ صدقِ الرسولِ ﷺ، وأنَّ مخالَفَتَهُ توجبُ تكذيبَه، فتنبهْ».

قالَ الإمامُ محيي السنةِ البغويُّ في «تفسيره»[1]: «إنَّ الناسَ كما أنهم متعبَّدونَ باتِّباعِ أحكامِ القرآنِ وحفظِ حدودِه ومعرفةِ معانيهِ؛ فهُم متعبَّدونَ بتلاوتِه وحفظِ حروفِه أيضاً».

فقد تبيَّنَ أنَّ فهمَ معاني القرآنِ والحديثِ والتَّفَهُّمَ لها واجبٌ؛ لأنه لا يصحُّ العملُ إلا بعدَ العلمِ، والعلمُ لا يحصلُ إلا بالفهمِ والتفهُّمِ، والقرآنُ وإنْ كانتْ تلاوتُه عبادةً مطلوبةً يُتَعَبَّدُ بها، ولكنَّ المقصِدَ الأصليَّ منهُ الفهمُ والعملُ، فمَن يتلوهُ ولا يفهمُ معناهُ ولا يعملُ بهِ؛ فهو كمَثَلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً، أو كمَثَلِ اللونِ بلا طعمٍ ولا رائحةٍ طيِّبةٍ، أو كمَثَلِ بُندقيَّةٍ أو مِدفعٍ بلا قنابلَ ولا رَصاصٍ، أو كمَثَلِ سيارةٍ بلا بنزينٍ فتنبَّه.

قالَ الجلالُ السيوطيُّ في النوعِ الحادي والخمسينَ مِن كتابِه «الإتقانِ»[2]: «روى البيهقيُّ وأبو عُبيدٍ عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قالَ: إذا سمعتَ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا﴾؛ فأَوْعِهِ سمعَكَ؛ فإنه خيرٌ يأمُرُ بهِ، أو شرٌّ ينهى عنهُ».

وأخرجَ الترمذيُّ وابنُ ماجه وأحمدُ[3] عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ: «من قرأ

---

(١) قارن بـ «معالم التنزيل» (٤ / ٢٣٦) له.

(٢) (٣ / ١٠٠).

(٣) رواه: عبدالله بن أحمد (١ / ١٤٨)، والترمذي (٢٩٠٥)، وابن عدي في

القرآنَ، فاستظهرَهُ، فأحلَّ حلالَه وحرَّمَ حرامَه؛ أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ».

وعن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: «الماهِرُ بالقرآنِ معَ السَّفرةِ الكِرامِ البررَةِ، والَّذي يقرأُ القُرآنَ ويُتَعْتِعُ فيهِ وهو عليهِ شاقٌّ لهُ أجرانِ»[1].

ثمَّ ذكرَ الجلالُ في النوعِ السابعِ والسبعينَ منهُ[2]: «اعلمْ أنَّ مِن المعلومِ أنَّ اللهَ تعالى إنَّما خاطبَ خلقَه بما يفهمونَه، ولذلك أرسلَ كلَّ رسولٍ بلسانِ قومِه وأنزلَ كتابَه على لغتِهم».

وقالَ الإمامُ ابنُ تيميةَ: «يَجِبُ أنْ يُعْلَمَ أنَّ النبيَّ ﷺ بيَّنَ لأصحابِه معانيَ القرآنِ كما بيَّنَ لهُم ألفاظَه، فقولُه تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهِمْ﴾[3] يتناولُ هٰذا وهٰذا».

وقالَ أبو عبدِ الرحمٰنِ السلميُّ: «حدَّثنا الذينَ كانوا يُقْرِئونَ القرآنَ؛ كعثمانَ بنِ عفانَ وعبدِاللهِ بنِ مسعودٍ وغيرهما رضيَ اللهُ عنهُما: أنهم كانوا إذا تعلَّموا مِن النبيِّ ﷺ عشرَ آياتٍ؛ لم يتجاوزوها حتى يعلَموا ما فيها مِن العلمِ والعملِ؛ قالوا: فتعلَّمْنا القرآنَ والعِلْمَ والعَمَلَ جميعاً»[4].

= «الكامل» (٢ / ٧٨٨)، وابن ماجه (٢٤٣٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٦) مرفوعاً.

وفي سنده حفص بن سُليمان؛ متروك.

(١) رواه: البخاري (٨ / ٥٣٢)، ومسلم (٨٩٨).

(٢) (٤ / ١٧٠) ناقلاً له عن (بعضهم).

(٣) النحل: ٤٤.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (رقم ٨٢) من طريق جرير عن عطاء بن السائب عنه.

ورواية جرير عن عطاء بعد الاختلاط.

وأَقامَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما على حفظِ البقرةِ ثمان سنينَ. أخرجَهُ في «الموطإ»[1].

لأنَّـه تعـالى قالَ: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ﴾[2]، وقالَ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ﴾[3]، وتدبُّرُ الكلامِ بدونَ فهمِ معانيهِ لا يمكنُ، وكيفَ لا يجبُ فهمُ كلامِ اللهِ الذي هو عصمتُهم، وبهِ نجاتُهم وسعادتُهم وقيامُ دينِهم ودُنياهُم... إلخ؟!

●●●●●

ولكنْ؛ ذكر الذهبي في «طبقات القراء» (١ / ٥٤) أن حماد بن زيد رواه عن عطاء أيضاً، وروايته عنه قبل الاختلاط.

فصح السند بحمد الله.

وله شاهد عن ابن مسعود، أخرجه الطبري (٨١) أيضاً.

(١) (١ / ٢٠٥) بلاغاً.

(٢) صٓ: ٢٩.

(٣) النساء: ٨٢.

فصلٌ

في أقوالِ عُلماءِ أُصولِ الفِقْهِ مِن أهلِ المَذاهِبِ الأربعةِ المشهورةِ ـ كالحنفيَّـةِ والمالِكيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابِلَةِ ـ والظَّاهريَّةِ وأَهلِ الحَديثِ مِن عُلماءِ أُصولِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، شَكَرَ اللهُ تعالى سعْيَهُم، ورَحِمَهُم اللهُ تعـالى رحْمَةً واسعةً، وأَدخَلَهُمْ في فِرْدَوْسِ الجَنَّاتِ، في لُزومِ فَهْمِ مَعنى القُـرآنِ الكَـريمِ والحَـديثِ النَّبـويِّ على كُلِّ مُكَلَّفٍ مِن المسلمينَ، وأنَّهُ لا يُعْذَرُ أحدٌ في تَرْكِ ذٰلكَ ما دَامَ عاقِلاً بالِغاً، والعِبادُ كُلُّهُم مُكَلَّفـونَ بمَعْـرِفَـةِ اللهِ وتَـوْحيدِهِ والإيمانِ بهِ وبِرسولِهِ؛ كما أنَّ المُسلمينَ كلُّهُم مُكلَّفونَ بفَهْمِ مَعاني الكِتابِ والسُّنةِ والعمَلِ بمُقْتَضى ذٰلك، فأَسْأَلُ اللهَ تَعالى الكَريمَ الوهَّابَ أَنْ يُوفِّقَنا لذٰلكَ بفَضْلِهِ ومَنِّهِ؛

فإنَّهُ لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العَليِّ العَظيمِ

قال الشيخُ موفَّقُ الدينِ أبو محمدٍ عبدُاللهِ بنُ أحمدَ بنِ قُدامةَ الحنبليُّ المَقْـدِسيُّ في كتـابهِ «روضةِ الناظرِ وجُنَّةِ المُناظر» (٢ / ١٤٧): «ما ورد مِن خِطابٍ مُضافاً إلى الناس والمؤمنينَ؛ دخل فيه العبد؛ لأنه مِن جُملةِ مَن يَتناولُهُ

اللفظُ، ويدخلُ النِّساءُ في الجَمْعِ المُضافِ؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ﴾، ﴿وَتُـوبـوا إِلى اللهِ جَميعـاً أَيُّهـا المؤمِنـونَ﴾(١)، و ﴿كُنْتُم خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْـرِجَتْ للنَّاس﴾(٢)، ونحوُ ذلك يتناولُ العبدَ والمرأةَ؛ لأنهما مِن الناسِ والمُؤمنينَ والأمَّةِ والمُكلَّفينَ، ولفظُ (النـاسِ) و(البشـرِ) و(الإنسـانِ) وُضِعَ للعُمومِ، فيتناولُ الذُّكورَ والإناثَ والعبدَ والأمَةَ والصَّغيرَ، وخروجُ العبدِ والأمَةِ والصغيرِ والنِّساءِ عنْ بعضِ التكاليفِ لا يوجبُ رفعَ العمومِ فيهِ؛ كالمريضِ والمسافرِ والحائضِ، وأكثرُ خطابِ اللهِ تعالى في القُرآنِ بلفظِ التذكيرِ؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُـوا﴾، و ﴿يَا عِبَادي الَّذينَ أَسْرَفوا﴾(٣)، و ﴿هُدىً للمُتَّقينَ﴾(٤)، و ﴿بُشْرى للمُؤمنينَ﴾(٥)، والنساءُ يدخُلْنَ في جملتِه، وذكرُه تعالى لهنَّ بلفظٍ مفردٍ تَبْييناً وإيضاحاً لا يمنعُ دُخولهنَّ في اللفظِ العامِّ الصَّالحِ لهُنَّ، وما مِن عُمومٍ إلا وقد تطرَّقَ إليهِ التخصيصُ إلا اليسيرَ، فالعامُّ إذا دَخَلَه التَّخصيصُ يبقى حجةً فيما لم يُخَصَّ عندَ الجمهورِ؛ لأنَّ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُم كانوا يتمسَّكونَ بالعموماتِ، فتدبَّرْ...» إلخ.

وفيه أيضاً (٢ / ١٥٧): «اللفظُ العامُّ يجبُ اعتقادُ عمومِه في الحالِ، ولفظُ العمومِ يفيدُ الاستغراقَ، ولا يجبُ البحثُ عن المُخصِّصِ، وإذا ظَهَرَ المخصِّصُ؛ فلا يُسْقِطُ قيامَ الحجةِ بالعامِّ، ثمَّ يجبُ اعتقادُ عُمومِه في الحالِ

---

(١) المؤمنون: ٣١.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) الزمر: ٥٣.

(٤) البقرة: ٣.

(٥) البقرة: ٩٧.

والزمانِ ما لم يردْ نسخٌ، وكذلك في الأعْيانِ، ولاْ نعلمُ خِلافاً في جوازِ تَخْصيصِ العُمومِ، ويستحيلُ خطابُ وتكليفُ مَن لا يفهمُ؛ كالصبيِّ والمجنونِ».

وفيه أيضاً: (١ / ٣٣٢): «والأمَّةُ كلُّها مُتَعبَّدةٌ بالنُّصوصِ والأدلَّةِ القَواطعِ، معرَّضونَ للعِقابِ بمُخالفتِها... إلخ».

وفيه أيضاً: (٢ / ٩٧): «الأمرُ لجماعةٍ يقتَضي وُجوبَه على كلِّ واحدٍ منهُم، ولا يَسْقُطُ الواجبُ عنهُم بفعلِ واحدٍ منهُم؛ إلا أن يدلَّ دليلٌ عليهِ، فيكونَ فرضَ كفايةٍ... إلخ».

وقال محمدُ بنُ إسماعيلَ الأميرُ الصنعانيُّ الشوكانيُّ[1] في كتابه «إرشادِ النقادِ إلى تيسيرِ الاجتهادِ» (١ / ٣٨): «ومعلومٌ يقيناً أنَّ كلامَ اللهِ وكلامَ رسوله أقربُ إلى الأفهامِ وأدنى إلى إصابةِ بلوغِ المرامِ؛ فإنه أبلغُ الكلامِ بالإجْماعِ، وأعذبُه في الأفواهِ والأسْماعِ، وأقربُه إلى الفَهمِ والانْتِفاعِ، ولا يُنْكِرُ هذا إلا جُلْمودُ الطِّباعِ، ولا حظَّ لهُ مِن النَّفْعِ والانْتِفاعِ، والأفهامُ التي فهمَ بها الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم الكلامَ الإلٰهيَّ والخطابَ النبويَّ هي كأفهامِنا، وأحلامُهم كأحلامِنا، إذ لو كانتِ الأفهامُ متفاوتةً تفاوتاً يسقُطُ معهُ فهمُ العباراتِ الإلٰهيةِ والأحاديثِ النبويةِ؛ لما كنَّا مكلَّفينَ ولا مأمورينَ ولا مَنْهيِّينَ؛ لا اجتهاداً ولا تقليداً... إلخ».

وفيه أيضاً (١ / ٤٦): «لا بدَّ للمكلَّفِ مِن تفهُّمِ معاني ما كُلِّفَ بهِ مِن كلامِ ربِّه أو كلامِ رسولِه ﷺ أو مِن كلامِ شيخِه وأستاذِه؛ ضرورةَ أنه لا يَتِمُّ لهُ

(١) لا، ليس شوكانيّاً، وإنما الشوكاني آخر، واسمه محمد بن علي، توفي سنة (١٢٥٠ هـ)، ترجمته في «البدر الطالع» (٢ / ٢١٤) له.

التكليفُ إلا بالفهمِ، وإلا كانَ معــدوراً غيرَ مكلَّفٍ ولا مخـاطبٍ بشيءٍ مِن الشَّرعياتِ، فالفهمُ الذي يصرِفُه في حَلِّ عباراتِ شيوخِه وبيانِ معانيها لو صرفَه في تفهُّمِ كلامِ ربِّـهِ وحـديثِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ لوَصَلَ إلى المقصودِ بأسهلِ طريقٍ، ولا شكَّ أنَّ أكثرَ العُلومِ التي يَشْتَغِلُ أكثرُ النَّاسِ بها فضولٌ... إلخ».

وفي «روضـةِ الناظرِ» أيضاً (٢ / ١٥٤): «ذهبَ بعضُ القَدَريَّةِ إلى أنَّ العامَّةَ يلزمُهم النظرُ في الدَّليلِ في الفروعِ أيضاً كما يلزمُ في الأصولِ، وهو باطلٌ بإجماعِ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم؛ فإنهم كانوا يُفْتونَ العامَّةَ ولا يأمرونَهم بنيلِ درجةِ الاجتهادِ، وذٰلك مَعلومٌ بالضَّرورةِ والتَّواتُرِ مِن علمائِهم وعوامِّهم، وضدُّهم ما ذهبَ إليهِ الحشويةُ والتَّعليميةُ مِن أنَّ طريقَ الحقِّ ومعرفتِه التَّقليدُ، وهٰـذا هو الـواجبُ، وأنَّ النـظرَ والبحثَ حرامٌ، وهٰؤلاءِ نزَّلـوا أنفسَهم منـزلـةَ الحيوانـاتِ العُجْمِ، وهٰؤلاءِ هُم أكثـرُ مَن يدَّعي الإسـلامَ اليومَ وقبلَ اليومِ، والحقُّ سؤالُ الجاهلِ العالمَ؛ لقولِه تعالى: ﴿فاسْألُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمونَ﴾[1]».

وفيه أيضاً (٢ / ٣٢١): «قد أجمعَ المسلمونَ على وجوبِ تعلُّمِ علمِ الـدينِ على كلِّ مسلمٍ، وأجمعـوا أيضـاً على جوازِ شرحِ الشـرعِ للعَجَمِ بلسانِهم؛ لضرورةِ التعليمِ والتفهيمِ، وكذٰلك كانَ سفراءُ النبيِّ ﷺ يبلِّغونَهم أوامرَه بلغَتِهم؛ لأنَّ المقصودَ فهمُ المعنى وإيصالُه إلى الخلقِ... إلخ، وأنَّ التَّعبُّدَ في الحديثِ بالمعنى؛ لأنه المقصودُ؛ لا باللفظِ، ولهٰذا قد جوَّزوا روايةَ الحديثِ بالمعنى؛ بخلافِ القرآنِ؛ فإنَّ التعبُّدَ بمعناهُ للإبلاغِ، وبلفظِه للتلاوةِ

---

(١) النحل: ٤٣

والإعجازِ؛ بدليلِ الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السورِ؛ فإنه ليسَ لها معنىً يُفهَمُ فيُمْتَثَلُ، ونحنُ متعبَّدونَ بلفظِها، والأجرُ يترتَّب عليها على كلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ؛ كسائرِ حروفِ القرآن... إلخ».

وفيه أيضاً (٢ / ٣٤٨): «إنَّ العوامَّ لا يُعتبرُ قولُهم عندَ الأكثرينَ، والمقلدُ حُكْمُه حكمُ العاميِّ؛ يعني أنَّ لفظَ العاميِّ يشملُ كلَّ مَن ليس مجتهداً وعالماً، والحقُّ أنَّ المقلِّدَ والعاميَّ مِن وادٍ واحدٍ، فلا عبرةَ بقولهم ولا بفعْلِهم؛ سواءً وافقَ أو خالفَ، والمحقِّقونَ لا يُقيمونَ لقولهم وزناً؛ لأنهم كالدَّابةِ والأنعامِ، والعاميُّ إذا قالَ قولاً فإنما يقولُه عن جهلٍ وتَقْليدٍ وليس يدْري ما يقولُ، ولهٰذا قد انعقدَ الإجماعُ على أنه يَعْصي بمُخالفةِ العلماءِ، ويحرُم عليهِ مخالفتُهم، ولذٰلك ذمَّ النبيُّ ﷺ الرؤساءَ الجهالَ الذينَ أفْتَوا بغيرِ علمٍ فضلُّوا وأضلُّوا[1]... إلخ».

وفي «إتحافِ السادةِ المتقينَ شرحِ إحياءِ علومِ الدينِ» للمُرْتضى الزَّبيديِّ (١ / ٤٣٢): «اعلمْ أنه يجبُ على كلِّ مسلمٍ معرفةُ ما ثبتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ قولاً وفعلاً؛ لأنَّ اتِّباعَه إنَّما يحصُلُ لمَن عَلِمَ ذٰلك، والإمامُ المُقَلَّدُ إنَّما هو محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ حقّاً، وهو الإمامُ الأعظمُ ﷺ حقّاً، وإنَّما يقلَّدُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم من حيثُ إنَّ فعلَهم يدلُّ على سماعِهم مِن رسولِ اللهِ ﷺ، وهٰذا هو الذي أُمِرْنا باتِّباعِه لا غيرُه، ولذٰلك قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما: «ما مِن أحدٍ إلَّا يؤخَذُ مِن عِلمِه ويُتْرَكُ إلا رسولَ اللهِ ﷺ؛ فإنَّ كلَّ ما ثبتَ عنهُ ﷺ مقبولٌ». قال العراقيُّ: رواه الطبرانيُّ في «الكبيرِ»، وإسنادُه حسنٌ، وكذا في «قوتِ القلوبِ»... إلخ».

---

(١) كما في حديث قبض العلم، رواه: البخاري (١ / ١٧٤)، ومسلم (٢٦٧٣).

قال الإمـامُ عليُّ بنُ أحمـدَ بنِ حزمٍ الأندلسيُّ في كتابه «النُّبَذِ» (١ / ٥٤): «التقليدُ في الدينِ لغيرِ المعصومِ حرامٌ، ولا يحلُّ لأحدٍ أنْ يأخذَ بقولِ أحدٍ بلا بُرهانٍ لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكُم مِن ربِّكُم ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾(١)، والعـالِمُ والعاميُّ في هٰذا سواءٌ؛ كلٌّ على قدرِ حظِّهِ ونصيبِه، ولم يَخُصَّ اللهُ تعالى عالِماً مِن عامِّيٍّ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾(٢)، وإنَّما نحنُ نسأَلُ العلماءَ لِيُخبِرونا بما عندَهم مِن أوامِرِ اللهِ تعالى الواردةِ على لسانِ محمدٍ ﷺ لا عنْ شرعٍ يشرَعونَه لنا مِن قِبَلِ أنفسِهم».

قالَ: «ثمَّ العجبُ أَنْ يكـونَ اللهُ تعالى فرضَ للعاميِّ الذي بالأندلسِ تقليدَ مالكٍ، ومَن باليمنِ ومصرَ تقليدَ الشافعيِّ، ومَن بخُراسانَ وما وراءَ النهرِ تقليدَ أبي حنيفةَ، لا غيرَ، وإذا أسلمَ رجلٌ مِن أهلِ دارِ الحربِ وشهِدَ بـ (لا إلٰه إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ)؛ فهٰذا لا شكَّ دخلَ في دينِ الإسلامِ، فهل الفرضُ عليهِ السؤالُ عمَّا فرضَ اللهُ تعالى عليهِ وأمَرَه بهِ وأَمرَ رسولُه محمدٌ ﷺ، أو يلزمُه أنْ يسأَل عمَّا قالَ أبو حنيفةَ أو مالكٌ أو الشافعيُّ أو أحمدُ رحمهم اللهُ تعالى؟ فما يقولُ فيهِ هٰذا المقلِّدُ... إلخ، وبماذا يجيبُ؟».

قالَ العبدُ الضعيفُ جامعُ هٰذه الكلماتِ: إنِّي قد ألفتُ في هٰذه المسألةِ رسالةً حينما وردَ عليَّ سؤالٌ مِن مسلمي الشرقِ الأقصى بلادِ الجابانِ، وسمَّيْتُها «هدية السلطان إلى مسلمي بلادِ جابان»(٣)، فجاءت رسالةً بديعةً؛ فعليكَ بها إنْ أردتَ التحقيقَ، وباللهِ التوفيقُ.

---

(١) الأعراف: ٣. (٢) مريم: ٦٤.

(٣) وقد اشتهرت وطُبعت باسم «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معيَّن؟».
وانظر التعليق المتقدِّم (ص ٣٣).

وفي «الوحيِ المحمَّدي» للسَّيِّد محمد رشيد رضا (١ / ١٢٢): «يجبُ على كلِّ المسلمينَ تعلُّمُ اللغـةِ العـربيةِ؛ لغةِ القرآنِ، وهٰذا مجمَعٌ عليهِ بينَ المسلمينَ؛ كمـا قرَّرهُ الإمـامُ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ تعالى في «رسالتِه»[1]، وقد جرى عليهِ العملُ في عهدِ الرسولِ ﷺ وخُلَفائِه الراشدينَ رضيَ اللهُ عنهُم، ثم الخُلَفاءِ الأمويِّينَ والعباسيِّينَ، إلى أنْ كَثُرَ الأعاجمُ، وقلَّ العلمُ، وغلبَ الجهلُ، فصاروا يكتفونَ مِن لغةِ الدينِ بما فرضَهُ في العباداتِ مِن القُرْآنِ والأذكارِ، وقد جعـلَ اللهُ تعـالى لغـةَ الـدينِ والتشـريعِ لغـةً لجميعِ المؤمنينَ، والمؤمنـونَ باعتقاداتِهم الإيمانيةِ يكونونَ مَسوقينَ إلى معرفةِ لغةِ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ﷺ؛ لفهمِهمـا، والتعبُّـدِ بهمـا، والاتِّحـادِ بأُخـوَّتهم فيهمـا، وهما مَناطُ سعادتِهـم وسيادتِهم في الـدُّنيا والآخـرةِ، ولذا قد كرَّرَ في القرآنِ بيانَ كونه كتاباً عربيّاً، وحُكْماً عربيّاً، وكرَّرَ الأمرَ بتدبُّرِهِ والتفقُّهِ فيهِ والاتِّعاظِ والتأدُّبِ بهِ.

اعلمْ أنَّهُ ما أفسدَ المسلمينَ وما أذلَّهُم إلا جهلُهم بكتابِ ربِّهم، وسنةِ نبيِّهم، وعدمُ فهمِهم معانيهما ومواعظَهما، وما أوقَعَهُم في البدعِ والخرافاتِ إلا هٰذا الجهـلُ، ومِن الجهـلِ ينشـأُ التقليدُ، والبـدعُ تروجُ في سوقِ التقليدِ والجهلِ، لا في سوقِ الدينِ والعلمِ الصحيحِ المأخوذِ مِن الدَّلائلِ، ومِن بابِ الجهـلِ والتقليدِ دخـلَ أكثـرُ الخـرافـاتِ على المسلمينَ؛ لانتسـابِ جميعِ الـدَّجَّالينَ إلى أهلِ الطَّرائقِ وغيرِهم مِن أئمةِ المذاهبِ المُعْتَبَرينَ، وهُم في دعوى اتِّباعِهم مِن الكاذبينَ، وذُكِرَ في كثيرٍ مِن كتبِ التفسيرِ والفقهِ والتصوفِ وشروحِ الأحاديثِ للعلماءِ المنسوبينَ إلى الأئمةِ كثيرٌ مِن البدعِ والخرافاتِ التي

---

(١) (رقم ١٦٧ و١٦٨)

يتبرَّأُ منها أئمةُ الهدى، وترى علماءَ الرُّسومِ الجامِدينَ يحتجُّونَ بذِكْرِها في هٰذه الكتبِ على شرعيَّتِها، وعلى ردِّ نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ بها، فإنا للهِ وإنا إليهِ راجِعونَ».

وكذا في المجلد (١١) من «تفسيرِ المنار» (ص ٢٥٨).

قلتُ: كما ذكرَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «تفسيره»[1] روايةَ العُتبيِّ قصةَ الأعرابيِّ المجهولِ[2] في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُم إِذْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ جَاؤوكَ فاسْتَغْفَروا اللهَ واسْتَغْفَرَ لهُمُ الرَّسولُ لَوَجَدوا اللهَ تَوَّاباً رَحيماً﴾[3]، ولم يتعقَّبْه، وكانَ اللازمُ عليهِ تعقيبَه، وبيانَ حالِ الخبرِ، أو عدمَ ذكرِه أصلاً؛ كما لا يخفى، ولكنَّ الجوادَ قد يكبو، والصارمَ قد ينْبو، فتنبَّهْ.

قالَ ابنُ القيِّمِ في «إعلامِ الموقِّعينَ» (٢ / ١٨٦): «وما قيلَ بأنَّ الناسَ لو كُلِّفوا كلُّهم فهمَ الخطابِ؛ يلزمُهم الاجتهادُ، وأنْ يكونوا علماءَ؛ لضاعت مصالحُ العبادِ، وتعطَّلتِ المصانعُ والمتاجرُ، وهٰذا مما لا سبيلَ إليهِ شرعاً وقدراً؛ فالجوابُ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ مِن رحمةِ اللهِ تعالى ورأفتِه أنَّهُ لم يكلِّفْنا بالتَّقليدِ، فلو كلَّفَنا بهِ؛ لضاعتْ أمورُنا، وفسدتْ مصالِحُنا؛ لأنَّا لم نكنْ ندري مَن نقلِّدُه مِن العلماءِ والمُفتينَ، وهُم عددٌ لا يُحْصَوْنَ وقد انتشرَ الإسلامُ بحمدِ اللهِ وفضلِه، فلو كُلِّفْنا

---

(١) (١ / ٧٨٧).

(٢) انظر نقدها وردَّها في «القول الجلي في حكم التوسُّل بالنبي والولي» (ص ٣٥) للشقيري ـ بتحقيقي.

(٣) النساء: ٦٤.

بالتقليدِ؛ لوقَعْنا في أعظمِ العَنَتِ والفسادِ، ولَكُلِّفْنا بتحليلِ الشيءِ وتحريمِه وإيجابِ الشيءِ وإسقاطِه معاً إنْ كُلِّفنا بتقليدِ كلِّ عالمٍ، وإنْ كلِّفنا بتقليدِ الأعلمِ فالأعلمِ؛ فمعرفةُ ما دلَّ عليهِ القرآنُ والسُّننُ مِن الأحكامِ أسهلُ بكثيرٍ مِن معرفةِ الأعلمِ، وإنْ كُلِّفنا بتقليدِ البعضِ، كأن جُعِلَ ذٰلك إلى تشهِّينا واختيارِنا؛ صارَ دينُ اللهِ تِبْعاً لإرادتِنا وشَهْوتنا، وصارَ الدينُ أُلعوبةً».

قلتُ: كما هو الواقعُ الآنَ، بل منذُ عصورٍ وأزمانٍ.

«فلا بدَّ أنْ يكونَ ذٰلك راجعاً إلى مَنْ أمرَ اللهُ باتِّباعِ قولِه، وتَلَقِّي الدينِ مِن بينِ شَفَتَيْهِ، ألا وهو محمدُ بنُ عبداللهِ بنِ عبدِالمطَّلبِ بنِ هاشمٍ، رسولُ اللهِ، وأمينُه على وحيِه، وحجَّتُه على خلقِه، ولم يجعلِ اللهُ تعالى هٰذا المنصِبَ لسواهُ بعدَه أبداً، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ.

الثَّاني: بالنظرِ والاستدلالِ صلاحُ الأمورِ لا ضياعُها، وبإهمالِه وتقليدِ مَن يخطىءُ ويصيبُ إضاعتُها وفسادُها، كما أنَّ الواقعَ شاهدٌ بهٰذا.

الثالثُ: أنَّ كلَّ واحدٍ منا مأمورٌ بأنْ يصدِّقَ الرسولَ محمداً ﷺ فيما أخبرَ بهِ، ويطيعَه فيما أمرَ، وذٰلك لا يكونُ إلا بعدَ معرفةِ أمرِه وخبرِه، ولم يوجبِ اللهُ تعالى مِن ذٰلك على الأمَّةِ إلا ما فيهِ حفظُ دينِها ودُنياها، وصلاحُها في معاشِها ومعادِها، وبإهمالِ ذٰلك تضيعُ مصالحُها وتفسُدُ أُمورُها، فما خرابُ العالمِ إلا بالجهلِ، ولا عِمارتُه إلا بالعلمِ، وإذا ظهرَ العلمُ في بلدٍ أو محلَّةٍ؛ قلَّ الشرُّ في أهلِها، وإذا خفيَ العلمُ هناكَ؛ ظهرَ الشرُّ والفسادُ، ومَن لم يعرِفْ هٰذا؛ فهو ممَّنْ لم يجعَلِ اللهُ لهُ نوراً.

قالَ الأمامُ أحمدُ: لولا العلمُ كانَ الناسُ كالبهائمِ.

والعلمُ النـافـعُ هو الذي جاءَ بهِ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ؛ دونَ مقدوراتِ الأذهانِ ومسائلِ الخرصِ والألغازِ، وذٰلك بحمدِ اللهِ تعالى أيسرُ على النفوسِ تحصيلُه وحفظُه وفهمُه؛ فإنه كتابُ اللهِ الذي يسَّره للذِّكْرِ، وكذا سنَّةُ رسولِه ﷺ، وهي بحمدِ اللهِ تعالى مضبوطةٌ محفوظةٌ، وأسهلُ مِن كلِّ سهلٍ، وإنَّما الذي هو في غايةِ الصعـوبـةِ والمشقَّـةِ مقـدَّراتُ الأذهانِ، وتُرَّهاتُ اليونانِ، وأُغلوطاتُ المسائلِ والفروعِ والأصولِ التي ما أنزلَ اللهُ بها مِن سلطانٍ، وإنما هي مِن دسائسِ الشيطانِ» انتهى.

وفيه أيضاً (٢ / ١٣٨): «إنَّ أقبحَ التقليدِ وأشنعَهُ الإعراضُ عمَّا أنزلَه اللهُ تعالى، وعدمُ الالتفاتِ إليهِ؛ اكتفاءً بتقليدِ الآباءِ والمشايخِ».

تنبيهٌ: على أيِّ شيءٍ كانَ الناسُ قبلَ أنْ يولدَ فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ الذينَ قلَّدتُموهُم وجعلتُم أقوالَهم بمنزلةِ نصوصِ الشارعِ، أفكانَ الناسُ قبلَ وجودِ هؤلاءِ على هدى أو ضلالةٍ؟ فلا بدَّ أنْ تُقِرُّوا بأنهم كانوا على هُدىً، فيقالُ لهُم: فما الذي كانُوا عليهِ غيرَ اتباعِ القرآنِ والسننِ والآثارِ، وتقديمِ قولِ اللهِ وقولِ رسولِه وآثارِ الصحابةِ على ما يخالِفُها، والتحاكُمِ إليها دونَ قولِ فلانٍ وفلانٍ؟ فإذا كانَ هٰذا هو الهدى؛ ﴿فَماذا بعْدَ الحَقِّ إلَّا الضَّلالُ فأنَّى تُصْرَفُونَ﴾[1].

اعلمْ أنَّ اللهَ تعالى قد ذمَّ مَن إذا دُعِيَ إلى اللهِ ورسولِه؛ أعرَضَ ورضيَ بالتَّحاكُمِ إلى غيرِه، وهٰذا شأْنُ أهلِ التقليدِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسولُ رَأَيْتَ المُنافِقينَ يَصُدُّونَ عنكَ صُدُوداً﴾[2]،

---

(١) يونس: ٣٢.

(٢) النساء: ٦١.

فكلُّ مَنْ أعرضَ عنِ الدَّاعي لهُ إلى ما أنزلَ اللهُ على رسولِه إلى غيرِه فله نصيبٌ مِن هٰذا الذَّمِّ، فمستكثرٌ ومستقلٌّ.

فالواجبُ على كلِّ مسلمٍ: طلبُ الحقِّ، وبذلُ الاجتهادِ في الوصولِ إليهِ بحسبِ الإمكانِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانَه أوجبَ على الخلقِ تقواهُ بحسبِ الاستطاعةِ، وتقواهُ إنَّما هو فعلُ ما أمرَ بهِ وتركُ ما نهى عنهُ، فلا بدَّ أنْ يعرفَ العبدُ ما أُمِرَ بهِ ليفعلَه، وما نُهِيَ عنه ليجْتَنِبَه، وما أُبيحَ لهُ ليأْتِيَهُ، ومعرفةُ ذٰلك لا تكونُ إلا بنوعِ اجتهادٍ وطلبٍ وتحرٍّ للحقِّ.

وقد ذمَّ اللهُ تعالى مَنْ حاكَمَ إلى غيرِ الرسولِ ﷺ في حياتِه، فكذا هٰذا ثابتٌ بعدَ مماتِه ﷺ؛ لأنَّ سنَّتَه وما جاءَ بهِ مِن الهدى ودينِ الحقِّ لم يَمُتْ، وإنْ فُقِدَ مِن بينِ الأمةِ شخصُه الكريمُ؛ فلم يُفْقَدْ مِن بينِنا سنَّتُه ودعوتُه وهديُه بحمدِ اللهِ، وقد ضَمِنَ اللهُ تعالى حفظَ الذِّكرِ الذي أنزلَه على رسولِه محمدٍ ﷺ، فلا يزالُ محفوظاً بحفظِ اللهِ؛ لتقومَ حجَّةُ اللهِ على عبادِه إلى أبدِ الآبدينَ.

وفيهِ أيضاً (٤ / ٢٠٦): «ولا يسعُ الحاكمَ والمُفْتي إلا الحكمُ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه ﷺ ألبتَّةَ عندَ وجودِ المسألةِ فيهما؛ فإنَّ اللهَ تعالى سائلٌ كلَّ أحدٍ عن رسولِه وما جاءَ بهِ، لا عَنِ الإمامِ المعيَّنِ وما قالَه، وإنَّما يُسْأَلُ الناسُ في قُبورِهم ويومَ معادِهم عنِ الرسولِ ﷺ، فيقالُ لهُ في قبرِه: ما كنتَ تقولُ في هٰذا الرجلِ الذي بُعِثَ فيكُم؟ ويومَ القيامةِ يُناديهم فيقولُ: ﴿مَاذا أَجَبْتُمُ المُرْسَلينَ﴾[1]، ولا يُسأَلُ أحدٌ قطُّ عن إمامٍ ولا شيخٍ ولا متبوعٍ غيرِ رسولِ اللهِ ﷺ، بل يُسأَلُ عمَّن اتَّبعه وائتمَّ بهِ غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فلينظُرْ بماذا يُجيبُ؟

---

(١) القصص: ٦٥

ففي ذٰلك اليومَ يتبرَّأُ التابعُ مِن المتبوعِ ، والمتبوعُ مِن التابعِ » .

والعبدُ الضعيفُ قد ألفتُ في هٰذهِ المسألةِ رسالتي «البرهانِ السَّاطع في تَبـرُّؤ المَتْبوعِ مِن التَّابعِ»، فعليكَ بها؛ فإنها مطبوعةٌ في مصر، ومنشورةٌ في العالمِ الإسلاميِّ كلِّه.



خاتمة

قال العبدُ الضعيفُ محمد سلطان المعصوميُّ رَزَقَهُ اللهُ تعالى الحُسْنى وزيادةً: وقد فتحَ اللهُ تعالى ليَ اليومَ فتحاً، وهو أنَّ اللهَ تعالى حينما أرادَ تعميرَ الدُّنيا؛ قالَ: ﴿وإذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً﴾[1]، ﴿وعَلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلى المَلائِكَةِ﴾ الآية[2]، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بأسمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ والأرْضِ وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وما كُنْتُمْ تَكْتُمونَ﴾[3].

فهٰذه الآياتُ تفيدُ أوَّلاً ـ وبالذاتِ ـ أنَّ اللهَ تعالى جعلَ آدمَ عليهِ وعلى نبيِّنا محمدٍ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ خليفَتَهُ[4] في الأرضِ، ثم أولادَه إلى يومِ القيامةِ، فهم يتصرَّفونَ فيها، ويعمِّرونها، ويعيشونَ فيها بما منَحَهُم اللهُ تعالى مِن العقلِ والفَهْمِ والذَّكاءِ وأوْدَعَ اللهُ تعالى فيهِم مِن قوَّة التَّعلُّمِ؛ يتعلَّمونَ

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) البقرة: ٣٣.

(٤) لا يُقال: «خليفة الله»؛ كما سبق (ص ٢٣)

باستعمالِ تلكَ القوةِ جميعَ العلومِ والصنائعِ ، فبذٰلك يعرفونَ ربَّهم وخالِقَهم ، وأنَّهُ واحدٌ لا شريكَ لهُ ؛ لا في ذاتِه ، ولا في صفاتِه ، ولا في أفعالِه ، فلا يستحقُّ العبادةَ إلا هو وحدَه جلَّ جلالُه .

فبنو آدمَ كلُّهم ـ أوَّلُهم وآخرُهم ـ لهُم أهليةُ العلمِ والتعلُّمِ ، فإذا استعملوا قواهُم فيما خُلِقوا لهُ ؛ نالوا السَّعادةَ في الدَّارينِ ، وإذا أهمَلوا وقصَّروا في ذٰلك ؛ خابُوا وخَسِروا ، فكانُوا مِن الهالكينَ .

فحيثُ إنَّ بني آدمَ لهُم أهليةُ العلمِ والفهمِ ، وجَّـهَ اللهُ تعالى إليهِم الخـطابَ وخاطبَهم أوَّلاً بـ (يا أيُّها الناسُ) ، ثمَّ بـ (يا أيُّها المؤمنونَ) ، فأمرَهم ونهاهُم ، وبشَّرهم وأنذرَهم ، فعَلِمْنا منها قطعاً أنه يجبُ فهمُ خطابِ اللهِ تعالى على كلِّ إنسانٍ ، ولا يخرجُ منهُ إلَّا الصبيُّ والمجنونُ ، فبهٰذا يجبُ الإيمانُ باللهِ وبالرسلِ على كلِّ بني آدمَ ، ثمَّ خصَّصَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بخطابٍ خاصةً ، وأوامرَ مخصوصةٍ بـ (يا أيُّها الذينَ آمنوا) . . . الآيات ، فهل بعدَ هٰذه الآياتِ يُعذرُ أحدٌ بتركِ تعلُّمِ الخطابِ الإلٰهيِّ ؟ كلا ؛ لا يُعذرُ أبداً ، فجزاؤهُ في الدُّنيا المذلَّةُ والحقارةُ والإساءةُ ، وأما في الآخرةِ ؛ فالعذابُ أشدُّ وأبقى .

فانتبهوا يا أيها الذينَ ضيَّعوا أعمارَهم في الشَّهواتِ والخرافاتِ والفلسفةِ اليونـانيةِ والأشعـارِ الجاهليةِ وديوانِ ابنِ الفارضِ والمتنبِّي أو ميرزا عبدِالقادرِ «البيدل» الفارسي ؛ كما هو شأنُ أهلِ ما وراءَ النهرِ ؛ فإنهم بذٰلك افتُتِنُوا وأوقعوا الناسَ في الفِتَنِ العمياءِ كما لا يخفى .

قالَ العبـدُ الضعيفُ جامـعُ هٰذه الكلماتِ : هٰذا آخرُ ما قصدتُ جمعَهُ وبيانـه مما يتعلَّق بالمبحثِ ، فأسأله تعالى أن يجعَلَه خالصاً لوجهِهِ الكريمِ ،

وينفعَ بِهِ العبادَ في عامَّةِ البلادِ بفضلِه ومنِّهِ وإحسانِه، وكانَ ذٰلك في داري الكائنةِ في مكـةَ المكرمةِ، قريبةً مِن المسجدِ الحرامِ، في زقاقِ البخاريَّةِ، مِن حارةِ المسفلة، في ١٥/ ٤/ ١٣٦٦هـ.

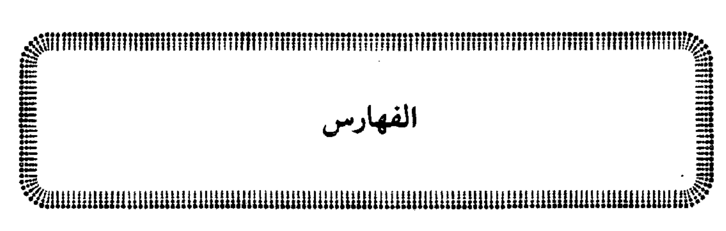
وآخرُ دعوانا ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وسَلامٌ عَلى المُرْسَلينَ والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾[1].



(١) الصافات: ١٨٠ - ١٨٢.

قال أبو الحارث الحلبي الأثري عفا الله عنه: هٰذا آخر ما أردت تعليقه على هٰذا الكتاب المبارك من رأس القلم؛ سائلاً المولى عز شأنه أن ينفع به وبأصله.

ولقد استراح القلم من الجَرَيان قُبيل غروب يوم الثلاثاء لتسعة أيام بقين من شهر صفر سنة إحدى عشرة وأربع مئة وألف، والبال مهموم، والقلب مغموم، ولا مفرِّج إلا الله جلَّ شأنه، ولا حول ولا قوة إلا به.



الفهارس

فهرس الأحاديث والآثار المخرَّجة

على الترتيب الهجائي

ائذنوا له، وبئس أخو العشيرة ٢٨٠

آل محمد كلّ تقيٍّ ٢٧٣

آية المنافق ثلاث ١٩٧، ٢٩٦

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ٢٠٨

أتيت النبيَّ ﷺ في دَين كان على أبي ٢٣٠

إذا حدَّث الرجل بحديث ثم التفت ١٩٧

إذا دعا أحدكم أخاه ٢٤٥

إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ٢٧٢

إذا دُعيتم إلى كُراع؛ فأجيبوا ٢٤١

إذا سمعتم المؤذن؛ فقولوا مثل ما يقول ٢٥١

إذا مات الإنسان؛ انقطع عمله إلا ٣٣٨

اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس ٢٧٦

ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل؟ ٢٣١

أسلم رجال من أهل مكة، فأرادوا ٣١٠

أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه ٣٣٥

أعربوا الكلام كي تُعربوا القرآن	٣٣٥
أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي	٣٣٣
أفعميتُما أنتما؟	٢٣٤
أفي كل عام الحجُّ يا رسول الله؟	١٨٢
أما إنهم مبخلةٌ مجبنةٌ	٢٠١
امتحانها أن تُسْتَحْلَف أنها ما خرجت	٢٩٤
أما معاوية ؛ فصُعلوك	٢٨٠
إن كان فيه ما تقول ؛ فقد اغتبته	٢٧٩
أنا بريء من كل مسلم يُقيم	١٦٧
أنا الضحوك القتَّال	٢٢١
إن هٰذا الدين يسر	١٨٤
إن الله فرض فرائض ؛ فلا تضيِّعوها	١٨٢
إن الله وملائكته يصلُّون على ميامن الصفوف	٢٤٧
إن الله وملائكته يصلُّون على الذين يصِلون الصفوف	٢٤٧
إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً	٣٥٣
إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأعمالكم	٨٣
إن الله يرفعُ بهٰذا الكتاب أقواماً	٢٨٦
إن المراد بالعقود عهود الله	١٥٢
إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيِّروه	١٨٥
إنما جُعل الاستئذان من أجل النظر	٢٣٠
إنِّي أعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع	٣٤٠
أولى الناس بي يوم القيامة	٢٥٠
إياكم والظنَّ ؛ فإن الظنَّ أكذب الحديث	٢٧٩
الإسلام يجبُّ ما قبله	٣١٦
الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان	٢٧٠
اللهم صلِّ على محمدٍ وأزواجه	٢٤٩
بُعثت بالحنيفيَّة السمحة	١٨٣

بل ائتمروا بالمعروف، وتناهَوْا عن المنكر ١٨٧
تجب الجمعة على كل مسلم إلا ٣٠٤
ترتفع الأمانة، ويُقال للرجل: ما أحذقه! ٩١
تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكتم ٣٣٧
تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ١٦١
تعلَّموا الفرائض والقرآن، وعلِّموها الناس ٣٢٧
تعلَّموا القرآن واقرؤوه ٣٢٨
تعلَّموا كتاب الله وتعاهدوه ٣٢٩
تعلَّموا مناسككم؛ فإنها من دينكم ٣٢٨
التائب من الذنب كمن لا ذنب له ٢٧٧
التثبُّت من الله، والعجلة من الشيطان ٢٦٩
التوبة تجبُّ ما قبلها ٣١٦
التوبة من الذنب: أن يتوب منه، ثم ٣١٦
ثكلتك أمك يا زياد ٣٣٠
ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ١٧٠
ثلاث هنَّ رواجع على أهلها ٥٤
جاهدوا المشركين والكفار بأموالكم ٢٩٨
حبّ الدنيا رأس كل خطيئة ٢١٦
الحمد لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله ٢٦٥
حدثنا الذين كانوا يُقرِئون القرآن ٣٤٧
حديث أذان عثمان ٣٠٤
حديث الاستئذان للداخل ٢٣٠
حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار ٨١ و١٨٠
حديث جبريل في الإيمان ٣٣٤
حديث سبب نزول: ﴿إذا ناجيتُمُ الرَّسولَ...﴾ ٢٨٧
حديث سبب نزول: ﴿إن جاءكم فاسق...﴾ ٢٦٩
حديث السبع الموبقات ٨١

حديث قتال مانعي الزكاة	١٦٩
حديث قصة حاطب بن أبي بلتعة	٢٩١
حديث ماعز والغامديَّة	١٤٦
حديث موسى وبني إسرائيل	٢٥٣
حديث الملائكة الكروبيِّين	٢٩
حديث نفاق (!) ثعلبة بن حاطب	٢٠٠
خذوا عني مناسككم	٣٢٨
خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم	٢٢١
الدُّعاء مخ العبادة	١٦٥
الدُّعاء موقوف بين السماء والأرض	٢٥١
الدُّعاء هو العبادة	١٦٥
الدُّنيا مزرعة الآخرة	٣٨
ذروني ما تركتكم	١٨٢
ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين	٢٧٥
ربَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب	٢٧٥
ربَّ تال للقرآن والقرآن يلعنُه	٣٢٤
رحم الله تعالى رجلاً يفسحُ لأخيه	٢٨٥
الراحمون يرحمهم الرحمٰن	٥٩
الرحم شجنة من الرحمٰن	٥٧
سألت النبيَّ ﷺ عن نظر الفجأة	٢٣٢
ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة	٣٠٣
سلمان منا آل البيت	٢٧٣
سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون	٩١
صلُّوا كما رأيتموني أصلي	١٣٥
صلُّوا كما رأيتموني أصلي	٣٢٨
صلاة أمتي تُعرض عليَّ في كل يوم جمعة	٢٥٠
الصلح جائز بين المسلمين	١٥٢

طلبُ العلم أفضل عند الله من الصلاة ٣٢٦
طلب العلم ساعة خيرٌ من قيام ليلة ٣٢٦
طلب العلم فريضة على كل مسلم ٢٠ و٣٢٥
عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ٢١٩
العلماء ورثة الأنبياء ٦٣
فقيه واحد أشدّ على الشيطان ٣٤٠
قال الله: إذا عصاني من يعرفني ١٦٠ و٢٦٠
قال الله: مَن عادى لي وليّاً ٢٥٤
قولوا: اللهم صلِّ على محمد ٢٤٨
القرآن حجة لك أو عليك ٣٢٤
كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم ٢٣٠
كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة؛ أعادها ثلاثاً ٣٣٩
كتاب الله هو حبل الله الممدود ١١٩
كلُّ دعاء محجوب حتى يصلَّى على النبيِّ ﷺ ٢٥١
كنا إذا أتينا النبيَّ ﷺ؛ جلس أحدنا ٢٨٥
الكِبر بطر الحق وغمط الناس ٢٧٤
لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب ٢٠٨
لتتْبِعُنَّ سَنن الذين من قبلكم ٢١٢
لم يكن شيء أحبَّ إلينا من رسول الله ٢٨٥
لو أن امرءاً اطَّلع عليك من غير إذن ٢٣٠
لو دُعيت إلى ذراع؛ لأجبتُ ٢٤٦
لو كنتما من أهل المدينة؛ لأوجعتكما ضرباً ٢٦٨
ما أعظَمَكِ وأعظَمَ حرمتَك! ٢٨١
ما بال أقوامٍ يقول أحدهم كذا وكذا ١٧٤
ما توادَّ رجلان في الله؛ ففرَّق بينهما ٢٢٥
ما من ذنب يعجِّل الله تعالى لصاحبه العقوبة ٥٤
مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم ٢٧٢

مدمن الخمر كعابد وثن	١٧٨
مُروا الصبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين	٣١٤
من اقتدى بكتاب الله لا يضلُّ	٣٣٧
مَن أنا ومَن آبائي؟	١٨١
مَن ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً	٣٠٥
من تعلَّم كتاب الله ثم اتَّبع ما فيه	٣٣٦
مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه	٢٢٥
مَن سلك طريقاً يلتمس منه علماً	٦٣
مَن صام رمضان إيماناً واحتساباً	١٠٢
مَن صلَّى عليَّ صلاة؛ صلى الله عليه بها عشراً	٢٥٠
مَن صلى عليَّ صلاة؛ لم تزل الملائكة	٢٤٩
من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض	٢٥٦
من قتل نفسه بحديدة	١٣٢
مَن قرأ القرآن فاستظهره	٣٤٧
مَن كان له مال يُبلغه حجَّ بيت ربِّه	٣٠٨
مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر	٢٢٥
مِن الكبائر شتم الرجل والديه	٢٧٦
مَن نسي الصلاة عليَّ؛ أخطأ طريق الجنة	٢٥١
مَن يُرد الله به خيراً؛ يفقِّهْه في الدين	٣٣١ و٣٣٨
الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة	٣٤٧
المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس	١٩٦
المسلم أخو المسلم	٢٢٥ و٢٧٢
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده	١٠٣
المسلمون على شروطهم	١٥٣
نهى عن الأغلوطات	٦٥
الناس معادن كمعادن الذهب والفضة	٣٣٨
هل من رجل يؤويني حتَّى أبلِّغ رسالة ربِّي؟	٣٠١

الولد ثمرة القلوب، وإنهم مَجْبَنة مَحْزَنة ٣١٠
الولد من رَيْحان الجنة ٢٠١
لا إيمان لمن لا أمانة له ١٩٧
لا تجعلوا قبري عيداً ٢٥٢
لا تحاسدوا، ولا تدابروا ٢٨
لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين ٣٠٣
لا تظنَّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن ٢٧٨
لا تقولوا خلافَ الكتاب والسنة ٢٦٥
لا تُنْزَعُ الرحمة إلا من شقيّ ٥٨
لا فضل لعربيٍّ عن أعجميٍّ ٨٢
لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً ٣٣٦
لا يجتمع دينان في جزيرة العرب ٢٠٩
لا يُشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح ٢٢٤
لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ٢٨٥
لا يُقيمنَّ أحدُكم أخاه يوم الجمعة ٢٨٥
يأتي زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه ٩١
يأتي على الناس زمان يجتمعون ويصلون ٩١
يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده ما لقيك ٣٤٠
يا أيها الناس! إياكم والكذب ١٨٥
يا أيها الناس! تعلَّموا؛ إنما العلم بالتعلُّم ٣٣١
يا عليُّ! لا تُتْبع النظرة النظرة ٢٣٢
يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم ٨٤
يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبَه ٢٨٠
يسِّروا ولا تعسِّروا ١٨٤
يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى ٣٣٠

●●●●●

فهرس فوائد التعليقات

الاستدراك على رسالة «الذين ترجموا لأنفسهم من العلماء»	١٢
(الإشراقيون) و (المشائيون)؛ من هم؟	٢١
نُبذة عن ابن سينا الفيلسوف!	٢١
(خليفة الله) من الألفاظ المخالفة للشرع	٢٣
التنبيه على خطإ قولهم: «لا معبود إلا الله»	٢٥
من انتسب إلى بلاد العجم من العلماء	٢٧
الملائكة الكروبيُّون!!	٢٩
نقد «دلائل الخيرات»	٣٢
لم يصحَّ في السنة تسمية ملك الموت (عزرائيل)	٣٣
حديث قدسي مشهور لا أصل له!	٣٧
لفظ (العارفين) من ألفاظ الصوفية المبتدعة	٤٣
كتاب «تسهيل المنافع» للأزرقي!!	٤٨
التنبيه على خلط في مطبوعة «لسان الميزان»	٥٢
سكوت الحافظ ابن حجر في «الفتح»	٥٨
تساهل ابن حبان في توثيق المجاهيل	٥٩
«نهى عن الأغلوطات»!	٦٥
كلمة حول (عبدالقادر الجيلاني) وما يُنسب إليه	٧٣
رواية إسماعيل بن عُليَّة عن الجُرَيْري قبل الاختلاط	٨٢
الدفاع عن حديث في «صحيح المسلم» أُعِلَّ بالوقف	٨٣
الإلماع إلى مسألة العذر بالجهل	٨٩
حديث ضعيف، وذكر ما يغني عنه	٩١
نُبذة في ذكر أحوال الحزبيين	١٠٥
﴿واتقوا الله ويعلِّمكم الله﴾؛ معناها الصحيح	١١٦
كمال أتاتورك... الذئب الأغبر!	١٢٠
ما أشبه اليوم بالأمس	١٢٣

حمار توما!!	١٢٨
نظرية دارون البائدة!	١٣٤
وسقطت الشيوعية!	١٣٤
﴿... وأولي الأمر منكم...﴾؛ من هم؟	١٣٧
قلب الوقائع بتسميات مخالفة	١٥٠
التنبيه على وهم في عزو بعض الفضلاء حديثاً لـ «صحيح مسلم»	١٦٥
قاعدة (البِدَع التَّركية) أهميتها وبيانُها	١٧٣
تعقُّب الحافظ ابن حجر في تجويد إسناد حديث	١٧٨
خفاء علل حديثية على بعض فضلاء العصر	١٨٢
تطويل في تخريج حديث نبويٍّ والجمع بينه وبين ما تعارض معه	١٨٦
القوميَّة!	١٩١
قصة توبة الفضيل بن عياض	١٩٤
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب	١٩٦
التنبيه على بطلان قصة نفاق ثعلبة	٢٠٠
تحسين حديث ضعَّفه شيخنا الألباني	٢٠١
تعقُّب الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط	٢٠٩
«حب الدنيا رأس كل خطيئة»!	٢١٦
«أنا الضحوك القتال» لا أصل له!!	٢٢١
لفظ (الوهَّابيين) من اختراع أعداء التوحيد	٢٢٢
طائفة (البُهْرَة)!	٢٢٧
راوٍ ضعَّفه ابن حجر وحسَّن حديثه!!	٢٣٤
من أغلاط الشيخ حسن البنا رحمه الله في «مأثوراته»	٢٤٣
شذوذ رواية «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»	٢٤٧
ذكر شاهد لها لا يُفرح به	٢٤٨
تسلسلٌ لطيف في تخريج حديث غريب!	٢٥٦
التنبيه على ضعف حديث معاذ في الرأي!	٢٦٥
الحكم بغير ما أنزل الله؛ حكمه!	٢٦٧

تحسين حديث بشواهده	٢٧٠
بيان ضعف حديث مرفوعاً وصحّته موقوفاً	٢٧٣
شاهد في «صحيح مسلم» فات شيخَنا ذكره	٢٧٥
مناقشة الأخ محمد عمرو عبداللطيف في تضعيف بعض الأحاديث	٢٧٧
(الفراسة)؛ هل لها ضابط؟	٢٧٩
(الشارع)؛ من الألفاظ المنهي عنها	٢٩٣
التنبيه على رُقى الضلال	٢٩٤
تعقُّب المصنف في عزو بعض الأحاديث	٣٠٤
الهجر المشروع للمبتدعة	٣٠٦
«التوبة تجبُّ ما قبلها»؛ لا أصل له	٣١٦
الفرق بين (رواه) و (ذكره)	٣٣٠
سكوت محقِّق «جامع الأصول» عن زيادة باطلة	٣٣٦
فائدة حول «جامع رَزِين» وزياداته	٣٣٩
قيمة كتاب «إيقاظ همم أولي الأبصار»	٣٤١
الفرق بين الصَّنعاني والشَّوكاني	٣٥١
خاتمة التعليق	٣٦٣

●●●●●

الفهرس التفصيلي

٥ مقدمة التحقيق.

٩ موجز ترجمة المصنف.

١٧ **كتاب «تمييز المحظوظين عن المحرومين».**

١٩ سبب التأليف.

٢٠ وجوب فهم معاني القرآن على كل البشر عموماً وعلى المسلمين خصوصاً.

٢١ تقسيم الناس إلى المحظوظين والمحرومين.

٢٥ **فصلٌ: الآيات والخطابات القرآنية الموجهة إلى عامة البشر.**

٢٥ تفسير: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم...﴾ الآية.

٢٥ معنى الرب والتربية.

٢٧ الإنسان أهل للتعلم والتعليم والخلافة في الأرض، فإذا ضيع؛ صار من المحرومين.

٢٨ معنى الحرية والعدالة والمساواة.

٢٩ اتخاذ الأنداد، والاعتماد على غير الله، وحقيقة الحرية والتوحيد.

٣١ تفسير: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً...﴾ الآية.

٣٢ دسائس الشيطان وخطورته وما يجب على ملوك المسلمين.

٣٤ تفسير: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة...﴾ الآية.

٣٦ تفسير: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين...﴾ الآية.

٣٨ تفسير: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم...﴾ الآية.

٣٩ فهم رجل من النصارى معنى القرآن، ودخوله في الإسلام، وحكايته في ذلك.

٤٠ تفسير: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾.

٤١ معنى: الإله، والعبادة، واتخاذ بعض الناس أرباباً من دون الله.

٤٣ تفسير: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوآتكم وريشاً...﴾ الآية.

٤٥ تفسير: ﴿يَا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة...﴾ الآية.

٤٦ تفسير: ﴿يَا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا...﴾

الآية.

٤٨ حكاية الأطباء.

٤٩ تفسير: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي . . .﴾ الآية.

٥٠ تفسير: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً . الذي له ملك السماوات والأرض. . .﴾ الآية.

٥١ إن أبا مسلم الخراساني منع الناس عن تعلم العربية.

٥٣ تفسير: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا. . .﴾ الآية.

٥٦ تفسير: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور. . .﴾ الآية.

٥٩ تفسير: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله. . .﴾ الآية.

٦١ تفسير: ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه. . .﴾ الآية.

٦١ تفسير: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا. . .﴾ الآية.

٦٢ تفسير: ﴿هٰذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد. . .﴾ الآية.

٦٣ تفسير: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾.

٦٥ تفسير: ﴿ولقد صرفنا للناس في هٰذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾.

٦٦ تفسير: ﴿ولقد صرفنا في هٰذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾.

٦٨ تفسير: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾.

٦٩ تفسير: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب. . .﴾ الآية.

٦٩ تفسير: ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾.

٧٠ تفسير: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. . .﴾ الآية.

٧١ تفسير: ﴿ولقد ضربنا للناس في هٰذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا. . . ﴾ الآية.
٧٢ تفسير: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده. . . ﴾ الآية.
٧٣ إن الدجالين يعتقدون أن الرسول ﷺ يعلم الغيب.
٧٤ تفسير: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.
٧٤ تفسير: ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض. . . ﴾ الآية.
٧٥ تفسير: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرَّنكم الحياة الدنيا ولا يغرَّنكم بالله الغرور﴾.
٧٦ تفسير: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾.
٧٧ تفسير: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.
٧٨ تفسير: ﴿ولقد ضربنا للناس في هٰذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾.
٧٩ تفسير: ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه. . . ﴾ الآية.
٨٠ تفسير: ﴿هٰذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾.
٨١ تفسير: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً. . . ﴾ الآية.
٨٢ تفسير: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. . . ﴾ الآية.
٨٥ تفسير: ﴿لو أنزلنا هٰذا القرآن على جبل. . . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾.
٨٦ تفسير: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسوَّاك. . . ﴾ الآية.
٨٧ تفسير: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾.
٨٨ تفسير: ﴿فلينظر الإنسان مِمَّ خلق . خلق من ماء دافق. . . ﴾ الآيات.
٨٩ الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان، وكم من متعاقل ليس له إيمان.
٩٣ **فصل: في بيان الآيات الموجهة إلى المؤمنين.**
٩٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا. . . ﴾ الآية.
٩٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾.

٩٦	معنى الصبر، وتحقيق ما يتعلق به، وسرّ قرنه بالصلاة.
٩٨	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله. . .﴾ الآية.
٩٩	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر. . .﴾ الآية.
١٠١	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم. . .﴾ الآية.
١٠٣	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان. . .﴾ الآية.
١٠٦	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم. . .﴾ الآية.
١٠٨	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى. . .﴾ الآية.
١٠٨	الإنفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس، وبيان المن والأذى.
١١٠	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم. . .﴾ الآية.
١١١	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾.
١١٣	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه. . .﴾ الآية.
١١٣	قد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى نظام المدنية العليا لحفظ الحقوق، ولكن الأسف أن المسلمين محرومون عن هذه المرتبة الإنسانية والكمالات المدنية.
١١٧	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم. . .﴾ الآية.
١١٨	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا. . .﴾ الآية.
١١٩	الاجتماع على الاعتصام بكتاب الله يوجب الوحدة والقوة، ومن حاد عنه؛ هلك.
١٢١	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً. . .﴾ الآية.
١٢٢	سبب عز الدولة وقوتها: الاعتصام بكتاب الله، وسبب ضعفها وسقوطها: الاعتماد على الأجانب.
١٢٣	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله. . .﴾ الآية.

١٢٥	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم. . .﴾ الآية.
١٢٥	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض. . .﴾ الآية.
١٢٧	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.
١٢٩	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن. . .﴾ الآية.
١٣٠	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة حاضرة عن تراض منكم. . .﴾ الآية.
١٣١	ومن الأكل بالباطل الغصب والغش والسرقة والخداع والرشوة ونحوها.
١٣٣	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون. . .﴾ الآية.
١٣٤	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. . .﴾ الآية.
١٣٥	من المراد بـ ﴿أولي الأمر﴾ المأمور باتباعهم.
١٣٧	المسائل الدينية لا ينبغي أن يكون فيها تفرق واختلاف.
١٣٨	الأسف على حال المسلمين الذين جمدوا على التقليد على كتب المتأخرين.
١٤٠	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾.
١٤١	بيان فنون الحرب في كل زمان ومكان والقنبلة الذرية المهلكة.
١٤٢	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا. . .﴾ الآية.
١٤٤	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم. . .﴾ الآية.
١٤٧	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله. . .﴾ الآية.
١٤٩	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. . .﴾ الآية.
١٥٠	من والى من ملوك المسلمين ملوك الكفار ندم آخراً وذل لا محالة.

١٥١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام . . .﴾ الآية .

١٥٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام . . .﴾ الآية .

١٥٤ من لم يسر على سنن الله في الكون هلك لا محالة .

١٥٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم . . .﴾ الآية .

١٥٧ الصلاة الحقيقية تطهر الروح كما يطهر الماء الصافي الظاهر.

١٥٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط . . .﴾ الآية .

١٥٩ العدل سبب نمو الدولة والسعادة والظلم سبب الخراب والمذلة .

١٦٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم . . .﴾ الآية .

١٦٢ قصة هٰذا الفقير في بلاد فرغانة وحفظ الله إياه من القتل .

١٦٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة . . .﴾ الآية .

١٦٤ بيان الوسيلة الشرعية وأنها أحدثها الدجالون في القرون المتأخرة .

١٦٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . .﴾ الآية .

١٦٨ أسراء المستعمرين الأجانب بلاء عظيم على أمتهم .

١٦٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله . . .﴾ الآية .

١٧١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً . . .﴾ الآية .

١٧٢ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلَّ الله لكم . . .﴾ الآية .

١٧٣ من البدع التُّرْكية التعبد بترك الطيبات وتعذيب النفس .

١٧٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . . .﴾ الآية .

١٧٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم . . .﴾ الآية .

١٨٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم . . .﴾ الآية .

١٨١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . .﴾ الآية .

١٨٣ لا يجوز التنطُّع في الدين، ولا الزيادة على نصوص الشارع .

١٨٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم . . .﴾ الآية .

١٨٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت . . .﴾ الآية .

١٨٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . . .﴾

الآية.
١٩٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾.
١٩١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. . .﴾ الآية.
١٩٢ ﴿إن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، وهٰذا أخوف ما يخافه العبد المتقي.
١٩٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم. . .﴾ الآية.
١٩٧ علامات المنافق، وفتنة الأموال والأولاد.
١٩٩ خيانة الوزراء تسقط الدولة.
١٩٩ قصة أبي لبابة وحاطب بن أبي بلتعة.
٢٠٢ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم. . .﴾ الآية.
٢٠٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً. . .﴾ الآية.
٢٠٥ منذ تفرق المسلمون وأحدثوا المذاهب والطرق؛ تلاشوا وتشتتوا.
٢٠٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر. . .﴾ الآية.
٢٠٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد. . .﴾ الآية.
٢٠٨ عدم جواز سكنى الكافر في الحرمين وجزيرة العرب.
٢١٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان. . .﴾ الآية.
٢١١ ما يأخذه القضاة من الرشوة وتأخذه سدنة القبور والمشاهد.
٢١٣ طريق صدّ الأحبار والرهبان عن الإسلام الصحيح والدين القويم.
٢١٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله. . .﴾ الآية.
٢١٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.
٢٢٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا. . .﴾ الآية.
٢٢١ انعكاس حال المسلمين في تواضعهم للكفار وغلظتهم للمؤمنين.
٢٢٣ تفسير: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة. . .﴾ الآية.
٢٢٤ تفسير: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم. . .﴾ الآية.
٢٢٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم. . .﴾ الآية.

٢٢٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان . . .﴾ الآية .
٢٢٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . . .﴾ الآية .
٢٣١ تفسير: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . . .﴾ الآية .
٢٣٣ تفسير: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن . . .﴾ الآية .
٢٣٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات . . .﴾ الآية .
٢٣٧ تفسير: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ .
٢٣٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم . . .﴾ الآية .
٢٤١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ .
٢٤٢ الذكر نوعان: بالقلب واللسان، وأذكار صوفية الزمان وأربطتهم . . . إلخ .
٢٤٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن . . .﴾ الآية .
٢٤٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام . . .﴾ الآية .
٢٤٦ تفسير: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلموا تسليماً﴾ .
٢٥٣ بيان الصلوات والأحزاب المبتدعة كـ «دلائل الخيرات» وصلوات الثناء . . . إلخ .
٢٥٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا . . .﴾ الآية .
٢٥٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً . يصلح لكم . . .﴾ الآية .
٢٥٥ تفسير: ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . . .﴾ الآية .
٢٥٦ الترغيب إلى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإيمان لحفظ الدين والإيمان، وحال بعض المهاجرين في مكة .
٢٥٨ تفسير: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . .﴾

الآية.
٢٥٩ تفسير: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه...﴾ الآية.
٢٦٠ تفسير: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون...﴾ الآية.
٢٦١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.
٢٦١ مخالفة المتأخرين لأمر الله، وحرمانهم من نصر الله، وبيان دجل الدجالين.
٢٦٢ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾.
٢٦٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾.
٢٦٥ مبنى العبادات على الاتباع، وصوم يوم الشك، وما يتفرع عليه.
٢٦٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول...﴾ الآية.
٢٦٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً...﴾ الآية.
٢٧١ تفسير: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾.
٢٧٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم...﴾ الآية.
٢٧٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا...﴾ الآية.
٢٨١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته...﴾ الآية.
٢٨٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول...﴾ الآية.
٢٨٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم...﴾ الآية.
٢٨٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة...﴾ الآية.
٢٨٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله...﴾ الآية.

٢٩١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق. . .﴾ الآية.
٢٩٢ موالاة الكفار والمشركين والقبوريين غير جائزة.
٢٩٣ الحب في الله والبغض في الله.
٢٩٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن. . .﴾ الآية.
٢٩٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة. . .﴾ الآية.
٢٩٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا. . .﴾ الآية.
٢٩٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله. . .﴾ الآيات.
٣٠٠ الخلف قد خالفوا السلف، ولم يعملوا بموجب الإيمان، فجوزوا بالخذلان.
٣٠١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين. . .﴾ الآية.
٣٠٢ قد اختلفت هٰذه الأمة كما اختلفت بنو إسرائيل إلى مذاهب وطرائق شتى.
٣٠٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله. . .﴾ الآية.
٣٠٥ قصة من لا يحضر لصلاة الجمعة، ولكن يمشي إلى زيارة قبر ابن عباس، ويستمد منه الإعانة.
٣٠٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله. . .﴾ الآية.
٣٠٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوٌّ لكم فاحذروهم. . . الآية﴾.
٣١١ تفسير: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً. . .﴾ الآية.
٣١٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة. . .﴾

الآية.

٣١٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم . . .﴾ الآية.

٣١٦ التوبة من حقوق الآدمي تكون برد هٰذه الحقوق إلى أربابها، وبيان التوبة الصحيحة المنتجة النافعة.

٣١٨ سرّ الخطاب والنداء بـ : ﴿يا أيها الناس﴾ و﴿يا أيها الذين آمنوا﴾؛ دون: (يا أيها العلماء)، (يا أيها السادات).

٣١٨ الذين لا يفهمون القرآن كأنهم قد مسخوا عن الإنسانية فصاروا من المحرومين.

٣٢١ **فصل: القرآن لا ينفع المسلمين، بل هو حجة عليهم، وذٰلك إذا لم يعملوا به، فحالهم في ذٰلك حال اليهود والنصارى.**

٣٢٣ **فصل: إن الأمة إذا تركت العمل بكتاب الله المنزل قست قلوبها فصارت ملعونة.**

٣٢٤ سبب ذهاب الدولة عن المسلمين: اغترارهم بمجرد تلاوة القرآن من غير فهمه وتفهمه والعمل بمقتضاه.

٣٢٥ **فصل: بيان الأحاديث الواردة في لزوم فهم معنى القرآن والعمل به.**

٣٢٥ الحديث الأول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم . . .» الحديث.

٣٢٧ الحديث الثاني: «تعلموا الفرائض والقرآن، وعلّموها . . .» الحديث.

٣٢٨ الحديث الثالث: «تعلموا القرآن، واقرؤوه . . .» الحديث.

٣٢٩ الحديث الرابع: «تعلموا؛ إنما العلم بالتعلم . . .» الحديث.

٣٣٠ الحديث الخامس: «يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه . . .» الحديث.

٣٣٣ الحديث السادس: «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي . . .» الحديث.

٣٣٤ الحديث السابع: « . . . فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

٣٣٤ الحديث الثامن: «أعربوا الكلام؛ كي تعربوا القرآن».

٣٣٦ الحديث التاسع: «لا يؤمن أحدكم؛ حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

٣٣٦ الحديث العاشر: «من تعلم كتاب الله، ثم اتبع ما فيه . . .» الحديث.

٣٣٨ الحديث الحادي عشر: «من يرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين . . .» الحديث.

٣٣٩ الحديث الثاني عشر: «كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة؛ أعادها ثلاثاً . . .»

	الحديث.
٣٤٠	الحديث الثالث عشر: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».
٣٤٣	**فصل: أقوال الصحابة والتابعين في لزوم فهم معاني القرآن والحديث.**
٣٤٩	**فصل: أقوال علماء الفقه وأصوله في لزوم فهم معاني القرآن والحديث**
٣٦١	**الخاتمة.**
٣٦٥	فهرس الأحاديث على الترتيب الهجائي.
٣٧٢	فهرس فوائد التعليقات.
٣٧٥	الفهرس التفصيلي.

